

قِصَّةُ الْأَدَبِ فِي الْعَالَمِ

كتاب في ثلاثة أجزاء يمرض الأدب في عصوره المختلفة
قديمه ووسيطه وحديثه — في الشرق والغرب
مع نماذج من كل أدب

مُكَتَبُ

أحمد أمين و زكي عبيد محمد

الجزء الأول

في الأدب القديم وأدب العصور الوسطى

الطبعة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

بجدة الثانية والعشرون والنيهر

قصة الأدب في العالم

كتاب في ثلاثة أجزاء يرض الأدب في مسوره الخلقه
تدعيه ووسيله وحديثه - في التعرفه الذب
مع نأزح من كل أدب

تصنيف

احمد امين و زكي عيب عود

الجزء الأول

في الأدب القديم وأدب العصور الوسطى



الطبعة

طبعة الثانية ألف واربعمائة وتسعة

١٩١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه « قصة الأدب في العالم » حسب « قصة الفلسفة اليونانية » و « قصة الفلسفة الحديثة » ، عرضنا فيها للآداب العالمية قديمها وحديثها ، شرفتها وغربتها ، في أسلوب أقرب ما يكون إلى القاصص ، وعزفنا بأشهر رجالاتها ، ولخصنا أشهر نتائجهم ، وقدمنا بعض نماذج من آدابهم .

ودعنا إلى هذا العمل ما رأينا من حاجة الأدب العربي إلى أن يصح عينه على الآداب الأخرى ، يستفيد من موضوعاتها واتجاهاتها ، ويستلهم بعض نماذجها كما نفعل كل أمة حية الآن ، ولم نترك أدباً من الآداب الشرقية والغربية إلا أعلنت قوتها به ووقفهم عليه ، وذكرت لم خصائصه ، وعيوبه ومميزاته ، وتلك شعره شعراً وشراً ثراءً ، وعمرتهم بأشهر رجالاته ، وترجمت أقوم آثاره ؛ فلو شاء إنجليزي أو فرنسي أو ألماني أن يعرف أية أدب صيني أو ياباني أو هندي أو فارسي أو عربي ، أو أية أدب آخر غربي ، لوجد من كل ذلك الأدب الكثير يافته ، ووجد الطولات والمختصرات ، والمجموعات والمنفردات . واستقل أدباء كل أمة هذه الآداب المروضة حير استغلال ، واستغلوا ألف ليلة وليلة ، ورباعيات الحيام ، والشعر الجاهلي ، والقصص الهندي ؛ وكل يوم يبدون من ثروتهم وتناهم ، أخرجوا المجموعات الواسعة في فصول العالم ، ونماذجها من المكتب الذهبية في العالم ، والمكتب الكبيرة في أهم آداب العالم ، وهكذا حتى لم يعد الأدب ملك الأمة التي أنتجته ، بل أصبح ملكاً مشاعاً لكل أمة يقظة تستثمره وتستغله . وأصبح شأن الآداب شأن البريد ، وغلات

العالم ، والمسدكتشيدت الطمية والطمية لبست ملكاً لأحد حتى ولا يحترعها ، من
هي ملك لكل أحد شاءها واستطاع الاستعانة بها .

ومما يؤسف له أن النهضة العربية في عصر الدولة العباسية أسست برصها
على الترجمة ، وكان هذا طبعاً ، ولكنها أصريت من ترجمة الأدب ، وترجمت
التأليف والطب والرياضة والفلك وكل شيء ، واستغنت كل معارف اليونان
والرومان وغيرهم ، حتى إذا وصلت إلى الأدب انغمست فيها عنه ، وصدت
الكتاب في وجهه لأسباب عرضنا لها في ثنايا هذا الكتاب ؛ ولكن مهما كانت
الأسباب فقد كان ذلك خسارة كبيرة ، نشأ عنها أن صار الأدب العربي
— وخاصة الشعر — لا يجري إلا في المجرى الذي شفه الأدب الجاهلي في
أورائه ونوابه ، وموضوعاته ، فكان الملح هائل بمصر من أدب شبتاً فهو أنه وشع
المجري القديم ، ولكنه لم ينشئ مجرى جديداً ، ولا حفر روافد جديدة تغذي
المجري الأصيل ، ولم يملوا لكان لنا تنوع في البحور وتنوع في الموضوعات ،
والكان لنا شعر ملاحم وشعر غليل ، وروايات وفدهم استلهم منها الأدب اليوناني
والروماني وغيرهما .

وكان من نتيجة هذا الإصرار عن استغلال الآداب الأخرى أن نوحه
كل النشاط الأدبي إلى الأنواع للأثورة لا الأبواب المنوحة ، فأصبح الأدب
العربي شيئاً كل القى في صحن أبواه ، فقيراً كل الفقر في صحن أبواه . مما
لا يحال هنا لبیان ذلك ، طبع القارىء بصل إلى هذه النتيجة منه إذا هو
قرأ هذا الكتاب .

أملت ألا تقع بهفصنا الحديثة في الخطأ الذي نعت به نهضتنا القديمة ،
ونعميت أن نُسب إلينا الآداب الأخرى كاملاً ، فيكون لنا كتب بل كتب في

الأدب اليوناني ، ومنها في الأدب الروماني ، ومنها في الأدب الهندي ،
وكتاب في الأدب الإنجليزي الحديث ، ومنها في الأدب الفرنسي ، ومثل في
الألماني ، ويقوم بوضع كل كتاب المتخصصون في موضوعه ، وأشرف على هذا
العمل وأوجّه إليه : ولكنني رأيت هذا العمل مع كاله وفيه يتطاب السنين
الطوال ، والجهد المجهود بالمقاييس والصعاب — ومع هذا فقد لا يكون
هذا العمل أوجب شيء الآن ، ولا بد أن يبدأ بالنسبة إلى قلة القراء البحتة ؛
ورأيت أن ربما كان من الخير أن نبدأ بمرص الأدب للشهرة عرضاً
قريباً ، حتى إذا استغافه القراء ، وتفتح نفوسهم لمادة أوسع وغذاء أوفى ،
كان ذلك الخطوة الثانية بعد الخطوة الأولى ، وقام بها من يأتي بعدنا ،
ويكون أوسع في الأدب والعلم خطاً منا ، صفة التطور الطبيعي .

ولكن هذا — إذا نحن استندنا على المكتبة الأفرنجية التي كتبت في
هذه الموضوعات — أن نفع في أخطاء قد تكون هذه الكتب وصت بها ، أو
أن يكون قد اجترحت مما ينبغي أن يختار ، أو نحو ذلك من وجوه الزلل ، ولدينا
ندعى التخصص في كل أدب ، ولا العلم العميق في كل من ، فأبنا توميفاً بين
الرغبة في إنجاز هذا العمل الهام ، وبين الأمانة العلمية أن عرض كل فصل على
المختصين فيه ؛ مرصاً على الأدب المصري على الدكتور فؤاد حسين ، وقد
أعانت كثيراً على تحضيره ، كما عرضناه على الأستاذ عطية الأبراشي نأفوه ؛ وعرضنا
الأدب اليوناني على الدكتور محمد مندور ، وفراً بدابة ، وأعادنا عليه موائد
كثيرة ، ولم يوافقنا على وجهة نظرنا في فصل التاريخ ، مكتبه من جديد كما
نشر في هذا الكتاب ؛ وعرضنا فصل « دانتى » على الدكتور حسن عثمان ؛
وعرضنا الأدب العباسي القديم على الدكتور عبد الوهاب عزام ، مراد به ،

وكتب فصل الأدب الفارسي في الصور الوسطى . فلهم جميعاً ما وافر الشكر .
ومع هذا فحال أن ينقل مثل هذا الشروع الصخر من حطاً بل أخطاء ، وقد
نكون أجلتنا حيث يجب التوصل ، أو مثلنا حيث يجب الإجمال ، أو اخترنا
ما غيره خيراً منه ، أو اعتدنا في الترجمة على نص إنجليزي ، والنص اليوناني
الأصل بمخالفه بعض المطالعة ، أو نحو ذلك . ولكن هذا مدى جهلنا ، وهو ما
استطعنا ، ولنا الشرف أن نسمع نقد الناقد والمرشد إلى الخطأ والوجه إلى الصواب
ونأني غصة أخرى شائكة جداً ، وهي ترجمتنا المفازج اليونانية أو الرومانية
أو الهندية أو غير ذلك إلى اللغة العربية ، فقد بذلنا في ترجمتها جهداً شافاً ، وحاولنا
أن نضعها جهد طائفتنا ، ثم بعد ذلك قد لا يفسخها الفارسي ، وقد لا يحس
من جملها ما يحس فارسي الأصل بلفظه ، وهذا طبيعي ، وخاصة — الشعر —
فقد أدرك كل من حاول ترجمته أن من الخيال نقل جملة من لغة إلى لغة { مكل
كلمة شعرية لها معنى معجمي (تفسره المصاحف) ، ولها حالة حولها تكونت من
وسائطها وبنيانها ودلالاتها الانعزاعية وغير ذلك . (ولبيت في لغته نغمة موسيقية
وحلاوة صوتية ، وإشارات اجتماعية ، وأساليب تقليدية ، وإيماءات تبعث
إلهامات) فإن استطاع المترجم أن ينقل المعاني المعجزة ، فلا يستطيع أن ينقل
المحالات والنفحات والإيماءات ؛ ومع هذا فشيء خير من لا شيء . وعصافور في
الهد خير من كركي في الجور .

ومعذرة لرجال الآثار المصرية ، فقد رأينا ما ترجموه ، قد راعوا به الترجمة
العلمية ، فحولنا ما اخترنا من تراجمهم إلى لغة أدبية لتتناسب موضوع الكتاب ،
كما رأينا ترجمة الكتّاب المقدس إلى اللغة العربية لا يتفق والتذوق الأدبي لانه

العربية ، لا من حيث لغته ، ولا من حيث أسلوبه ، فأنشأنا ما احقرناه لإنشاء
عريباً جديداً مع المحافظة على المعنى ما وسعنا .

وحزّنا أن يقع الكتاب في ثلاثة أجزاء : الجزء الأول في أدب العصر
القديم وأدب العصور الوسطى ، والجزء الثاني في الأدب من بدء النهضة إلى أول
القرن التاسع عشر ، والجزء الثالث في أدب القرن التاسع عشر إلى اليوم ،
وسنذكر في آخر الكتاب المصادر التي اعتمدنا عليها إن شاء الله .

والله المستول أن ينفع به ، ويسين على إتمامه .

أحمد أمين

• جمادى الثانية سنة ١٣٦٢

٨ يونيو سنة ١٩٤٣

فهرس الكتاب

المشروع

المقدمة ج

فصل الكتابة ١ — نشأة الأدب ٩ د

الأدب القديم :

الأدب في الشرق القديم ٢٠

الأدب المصري ٢١ — كتاب الموتى ٢١ — الأساطير المصرية ٢٣ —

أدب الحكم والوعظ ٢٨ — شكوى الفلاح ٣٠ — الأناشيد

الدينية والأغاني الشعبية والنزل ٣٣ هـ

أدب الصين ٣٦

الأدب الهندي ٣٩ — الملاحم الهندية — ماهاภารاتا ٤١ — رامايانا ٤٨

سبع شعراء المقدوس ٥٢ — الأدب الديني : الشيفا وبراهما

والهيويتاشاد والغيدانتا ٥٤ — بوذا والبوذية ٥٦ — الترقاما ٥٩ —

بيورانا ٦٢ — القصص والأمثال الهندية ٦٣ و

الأدب الفارسي القديم ٦٦ — زرادشت وتعاليمه والأفست ٦٦ —

النفوس الفارسية القديمة ٧٦ — لغة الفرس وكتهم ٧٧ ز

الأدب العبري ٧٩ — التوراة والتلمود ٨٠ — العهد القديم وأسفاره ٨٢

العهد الجديد أو الإنجيل ٩٨ — نماذج من الأدب العبري ١٠٠

الأدب اليوناني ١١٣ — أساطير اليونان ١١٣ — شعر الملاحم عند اليونان ١٣١

صفحة

هوميروس ١٣١ — الإلياذة ١٣٢ — الأوديسية ١٤٥ — نادرة
عامة في الإلياذة والأوديسية ١٥٧ — الشعر الثنائي عند اليونان ١٥٩
الرواية المسرحية عند اليونان : التراجيديات أو الفأساة ١٧٨ —
الكوميديا (اللهاة) ٢٠٣ — التاريخ والمؤرخون عند اليونان ٢١٨
الفلسفة والخطابة عند اليونان ٢٤٣

الأدب الروماني ٢٥٦ — تاريخ الرومان ومؤرخوهم ٢٥٦ — شعر
للاحم ٢٦٦ — الإلياذة ٢٦٩ — الشعر المسرحي والفلسفي والثنائي
عند الرومان ٢٨٨ — الشعر اللاتيني ٣٠٦

الأدب في العصور الوسطى ١١

الأدب الإنجليزي في العصور الوسطى ٣١٣ — الأدب الفرنسي
والألماني في العصور الوسطى ٣١٩ — الأدب الألماني في العصور
الوسطى ٣٢٨ — الأدب الإيطالي ٣٣٥

الأدب العربي في العصور الوسطى ٣٥٤ — الشعر من العصر الجاهلي
إلى آخر العصر العباسي ٣٥٤ — الشعر كذلك ٤٠٥ — الفلسفة
الإسلامية والخطابة ٤٢٩

الأدب الفارسي الإسلامي في العصور الوسطى ٤٣٨ — الشعر :
أوزانه ٤٤٢ — تاريخه ٤٤٧ — موضوعاته وخصائصه ٤٥٩ —
القصص في الشعر الفارسي ٤٦٢ — الشاهنامة ٤٦٣ — النصوص
وشعراء المدرسة الصوفيون ٤٧٣ — الشعر الفارسي ٥٠٢

الفصل الأول

قصة الكتابة

أرأيت إلى سقجة مطبوعة تشرها أمامك ؟ إنها لتتقى فتلأرائنا من قصة ممثلة ترجع فصولها الأولى إلى الأسنى السحيق ، وفي قصة بلغت من السعة والعمق مبلغا يستحيل على إنسان واحد أن يلم بأمرائها ؛ ومن ذا الذي يدري متى وأين بدأت هذه القصة في الظهور ، وماذا تبدي في مستقبل الأنام ؟ وما ظنك بقصة كتبها الإنسانية كلها منذ دب على ظهر الأرض إنسان ؟

بلى . إننا اليوم أجزاء حية من هذه القصة ، فلنبدا حيث تقف اليوم ، ثم لند مع السنين التقرى حتى نبلغ من الرواية بدايتها ؛ حينئذ قد ألفنا أن ننظرنا إلى صفحات مطبوعة ، حتى لم يعد يستوف هذا الضرب من الكتابة منك النظر ؛ وعلا . تمجب وأنت ترى الصحيفة اليومية للطباعة في انتظار كل صباح على مائدة الإفطار ؟ درام معدودة كغيلة أن تأتيك بآية الآيات من ربيع الأدب ، مطبوعة في كتاب أنيق جميل ، فأصبحت وكأما إخراج المطابع للكتب أمر مألوف لادعته فيه ولا عجب ، مع أنه في حقيقة أمره يمتدثر كل عجب وإعجاب . انظر إلى هذه الوسائل التي تتوسط بين قلم الكاتب وعقل القارئ ؛ فلعل أعجبا هي الطبعة التي قد يكون لها من الأثر في الندية الحديثة ما ليس لعامل آخر على الإطلاق ؛ وقبل أن تدور من المطبعة مجلها لا بد أن

نكون آلات أخرى قد أخرجت الأحرف مسبوكة جميلة الرسم بديعة التشويق ؛
ولأخيراً هذه الأحرف إن لم تكن مصانع الورق قد أخذت تخرج من لباب
الشجر وإلى الحرق مثل هذا الذي نَسَحُ فيه بصرى من ورق صفيلى جميل ؛
بإذا ما أُعِدَّ ذلك كله ، أخذت المطبعة تبيع بأوراقها المطبوعة لنُسَلِّها إلى
آلات تطويعها غفلتها بين جلدتين ، بإذا هي كتاب منشور بين بدى غارى فى
باحية من نواحي الدنيا النسيحة الأرجاء .

مِرْ حطوة نصيرة إلى الوراء لتبلغ عصرا كان يجهل قوة البخار والكهرباء ،
نكاثت المطابع — كسائر آلات الصناعة — تدار بالأيدى ، فإذا نرى ؟ نرى
القوم يخرجون الكتب منفعة الصنع جميلة الشكل ، إذ كانت تُطبع على ورق
من ألياف القيل ، نَتَوَضَّعُ آهَاتنا من غلة النسخ المطبوعة من الكتاب الواحد
مدانة الصناعة التى تؤدى إلى طول البقاء ؛ وهكذا حسرات الرق كثيرا ما ننبهما
السببات ، ونواحي الإصلاح كثيرا ما تلاحقنا نواحي من الفساد . فلئن كان
آهَاتنا قد طمعوهم كتبهم مطابع الأيدى ، على ورق من صنع الأيدى ، فلقد
أخرجوا كتباً أنوى بناء من معظم ما نخرجه مطابع اليوم ، وأبقى على وجه الدهر ؛
إذ الورق الذى نستخدمه اليوم مصنوع من لب الخشب ، ممزوج بأحماض
قوية ، مبرغان ما يَصْفَرُّ وجهه وتضعف قواه ، ولولا تلاحق الطباعات للكتاب
الواحد لأُسرع إليه الزوال . على أن آهَاتنا إلى جانب ما كان لهم من كسب
متبنة ، كانت لهم طباعة ودينة ، معكم صُفِّرَتِ الأحرف ودُمَّتْ حتى أُجْهِدَتِ
أبصار القارئین ، اقتصاداً للورق ، فضلا عن غلة الكتب ولارتفاع ثمنها ، فلم
يكن فى مستطاع كثير من الناس أن يفتنوها .

إلى هذا قد خَطَّوْنَا إلى الوراء خطوتين : هما عهد المطبعة تدار بالكهرباء ،

وعهد المطبعة نادر بالأيدى ؛ ثم قف لحظة دقة إكبار وإعجاب أعظم دكان
صغير لرجل ألماني عاش في منتصف القرن الخامس عشر ، وهو يوحنا جوتنبرج ^(١) ،
الذى يحد — بحق — أنا الطباعة عبر مدافع ؛ فهو الذى ابتكر وسيلة لصنع
الحروف بحيث يمكن نقلها وتعمير بكها ، فيسهل نقلها في سطور وصحفات ، ولتتبع
ندرى أى كتاب أخرج هذا الطابع الخلاق ، فليس في القاموس كلها كتاب
بحسب اسم جوتنبرج ؛ غير أن الأصل اللاتينية التى لها يزال بعضها لها ،
يرجع الفصل في طبعا إليه مع مر من الأعوان والأبناء ؛ ولقد كثر ما عبره عن
عمر الزمان أن هذا الخراع العظيم — كمكثير غيره من رجال الاختراع ممن
بدن لهم المصالح بالفضل الجزيل — قد دمنه الحاجة أن يزجرح تحت عهده من
الدين ، لم يكن له بوائه قبل ، فجاءه المأثم وانزع منه ما يملك من أدوات
وأحرف ، وخلقه إلفاته قوت ؛ وليس من شك في أن ذلك الدائن قد انضع بما
أخذ من جوتنبرج ، فلم يبق على الدنيا نصف قرن من الزمان حتى انتشرت
الطبعة على وجه أوروبا من الشمال إلى الجنوب .

ثم ماذا قبل للطبعة والطباعة ؟ تابع الرحلة إلى الماشين الجديد حتى نبلغ
عهدا لم نعرف فيه أوروبا كيف يكون الورق ، أو عرفت منه القليل الضئيل ؛
إذ الورق سبعة أهل الصين ، ثم أهل مصر ، وحسب أنشد العرب الذين علموا
صناعته إلى جرائهم من أهل الغرب ؛ فالأوروبيون مديون بهذه المادة — التى
لها من القيمة في تقدم العلوم ما لها — لثلاثة أجناس من أحتاس البشر ، وهم
الصينيون والعربون والغرب .

وقبل أن يذبح استخدام الورق ، كانت تكتب الكتب والوثائق والرسائل

على ترح حاس من الجذر ؛ والجذر جذمه طوبيل الغاء ، بجلى ، البلى ، فما تراق
نرى في الناحية صحف من الجذر حُطَّتْ كتابتها منذ ثلاثة آلاف عام على
أقل تقدير ؛ فالنهم والأخبار التي تنادي أجسادنا بلحومها ، قد أُنمت على الإنسان
نصتها عروسته خلوعها ، لا لينصلها ولا ليهنسها غيب ، بل لينضد منها عاطفاً أمبنا
يسون له نثر الآداب مدى آلاف السنين .

وكان الدرس يكتمون في جلود الجواميس والبرق والنعم ، وكانت العرب
تكذب في أكتاف الإبل وفي الثُصْب — وهو حريد النخل يكتمون الخوص
عنه ويكتمون في الطرف المر بعض منه — ؛ كما كانوا يكتمون في الخفاف ،
وهي الحجارة الجبس الدبقية ؛ وأحياناً يكتمون في الجذر ، وفي هذا كله كعب
القرآن الكريم أول ما نزل في عهد النبي ، فكلاوا يكتمون الآيات في العشب
والخفاف وعظام الأكتاف والأضلاع والأدم (الجذر) .

ولقد حفظت لنا الكتب المكتوبة على الجذر الجزء الأعظم من تراث
الأدبين اللاتين واليونان ، كما حفظت أكثر ما عطفه الإنسان في الفروق
السببية الوسطى التي امتدت أربعة عشر قرناً ؛ فقد أخذ النساخ يكتمون على
صحف من الجذر القين ما وجدوه مكتوباً على أوراق التزدي الهائلة من آيات
الأهص القديم ، وكان هؤلاء النساخ — من الرهان والنساوسة — يتخذون من
الأدبرة ملاذاً لعميل والتأوى ، تلك الأدبرة التي طلت فروها عدة آتس ما يلوذ به
رجال العلم من مكان ؛ وليس من شك في أن هؤلاء النساخ قد وضعوا همهم
الأكثر فيما ينسخون إلى الكتب المقدسة ، فسحوا الإنجيل وسائر المخطوطات
التي منعوها القديس ؛ على أن بعض هؤلاء النساخ من الرهبان قد اتجهوا
إلى إحياء الآداب القديمة ؛ حكم من راحب أنقى جهده في إخراج كتاب

أدى ، أو في تحقيق معنى محمول ، وها هي ذي متاحف الفن ودور الكتب
نحوي تبادج نعمة من هذا العمل الجليل الجليل ، ولا يزال تشاهد على هذه
الكتب التي نشرها ورخصوها بأحرف مذهبة والزوايا ناصعة كأنما غشت
بالأمس القريب .

ولئن كان استخدام المطبع للكتابة يرجع عمده إلى ماضي سحيق ، إلا أنه
لم يكن شاملاً ؛ فلو كنت ممن عاشوا في روما أو أثينا قبل القرن الرابع للميلاد
وأردت أن تنتج نسخة من كتاب لفرجيل^(١) أو هوراس^(٢) ، لمبا ظفرت به
مكتوباً على صفحات الجلد ، بل لوجدته يباع مكتوباً على مادة من الورق صنعت
من ألياف نبات جاف هو البتردي ؛ والبردي نبات مائي قوي ينمو في مصر ؛
تؤخذ سوقه وتُشَقُّ وتُصَفِّطُ وتجمَعُ ، ثم تصنع منها الأوراق ؛ وكانت مصر
تهب بهذه الأوراق البردية إلى اليونان وإلى روما وغيرها من البلدان المجاورة ؛
وحمل هذه الأوراق كانت تكتب روائع الأدب اليوناني والأدب اللاتيني ، حتى
شاع استخدام صحائف الجلد .

إن العالم إذ يذكر فدمااء المصريين بالإعجاب ، يرى أول ما يستثير إعجابه
أهمامهم الشوامخ ، وما حلقوا من أسس الفخاخر في مقار ملوكهم ، ولكن تلك
الآثار على جلالها وجلودها لم تُصَفِّ إلى المدنية ما أضافته هذه الفصائف الصلبة
المرقطة من أوراق البردي ، التي أتاحت للمصريين وسائر أمم البحر الأبيض أن
يسجلوا أفكارهم بمخبروها ؛ ولم يغب عقل المصريين على المدنية فيما ينهل بالكتابة
أن صنعوا الورق في صورته الأولى ، بل ملهم كذلك أول شعب الهند كتابته
فمثل الحروف المنطوقة ، فآثروا بذلك في هذه المدنية تأثيراً قوياً مباشراً .

وكان الفناج الذي بفتح مناليق كتابتهم مفقوداً مدى فزون طوال ؛ ثم أراد الله لأصحاب العلم أن يحكموا تلك الرموز في عهد حديث ، لا يذهب في الماضي إلى أكثر من قرن واحد ، وذلك حين وجد « بوسار »^(١) — وهو مهندس في حلة ناهليون على مصر — حجر رشيد اللغوي ، وهو حجر نُقش عليه بيانٌ طويل أصدره الفسافة المصريون شكر بما لآحد ملوكهم ؛ والبيان مفوض على الحجر في ثلاث لغات : نقش بالأحرف الهيروغليفية ، وباللغة الديموطيقية — وهي لغة كان يتكلمها أهل مصر حين نُقش الحجر — كما كُتب باللغة اليونانية ؛ ولما كانت اليونانية لغة معروفة مألفة ، أمكن بعد جهد طويل أن تفارن بها الكتابة المصرية ونحل رموزها ؛ ورجع الفصل في هذه الفارة وتلك الرموز إلى العالم الفرنسي شاهليون^(٢) . وأصبح اليوم يسيرا على عالم الآثار المصرية أن يقرأ المكتوب على السلالات والتوايف ، بل استطاع علماء اليوم أن يُنقلقوا أها الممول بعض سره المكتوم .

فإذا حاولت مصر إلى ما يجاورها من بلاد الشرق ، ألعبت صيفيا على الساحل الشرقي للبحر الأبيض ، وصادفت في أهلها شعباً يصل وبناجر ، ولا يخصص من مجهود الثقافة إلا قليلاً ؛ ومع ذلك فدأريه هؤلاء العينيغيين أمث يكتولوا بحق أصحاب الفصل علينا في كل كتاب طالع ، لأنهم هم الذين أنشأوا حروف الهجاء مكن الكتابة المصورة التي اصطنعها المصريون من قبل ؛ ولا بد أن تكون هذه الأحرف الهجائية قد نشأت عندهم قبل الميلاد بما يقرب من ألف عام ، حيث كان استخدام البردي شائعاً معروفاً ؛ وأناح وجهه الصفي للكتاب أن يجرى عليه كتابة سرية سهلة كهذه الكتابة التي ابتكرها القينيغيون ؛

ومن يدري ؟ فليل القينيين أن يكونوا قد اتخذوا من هذه الكتابة سلعة نفاع
فصود على أصحابها ربح واخرى قد كانوا يشترون من حصرها بشرون أوراق
البردى ، ثم يبيعونها إلى اليونان وغيرهم حضاناً إليها ما ابتكروه من أسرف المعباء .
فلذا خلطت في أغوار الماضي خطوة أخرى قبل عهد البردى ، بلغت
زماناً كانت مادة الكتابة فيه من الجلود الثابت التي لا نكاد نتصل من
مكانها ، وذلك هو بمثابة الصر المحجى للعلوم والآداب ، إذ كان للمصريين
الأوائل وغيرهم من الشعوب القديمة يطحنون ما يكتبون على عُمْدٍ وجدران ؟
ولكن لولا أن أسخت الكتب هاتيك الأحجار التي ما سَطَّ عليها في عهد
قريب أو بعيد ، لأن الزمان القوي يأكل كل شيء . يُبيدُ جلاميد الصخر فما بيده ؟
زد على هذا أن الكتب قد بَسُرَتْ قلم المنقوش على الحجر أن يدور بين فراء
العالم في سهولة ويسر ، وإلا فكيف كانت تكون مكنة جدرانها من الصخر
ومكسراتها من الصخر ؟ وكيف تكون مثل هذه المكتبة ذات نفع لقارئ
يطالع في داره مستديراً بئراً مدافنه ، أو مسطوحاً هدوء مكتبته ؟

ولئن كان المصريون الأوائل ينقشون آثارهم على جلاميد الصخر ، ضد
كانت بابل تكتب آثارها على ألواح من الطقل ، وهي أيسر من تلك حلا
وأخف خلاً ، وإن كانت أسهل كسراً ، ولكن على الرغم من خطئها ثابن هي
من الكتاب المطبوع ؟ وإن أدت أن تقدر نسبة هذا الصر — حصر
الطبعة — مسائل نفسك كيف يكون الأمر إذا أُنْتُ طُلِبَتْ إلى بائع الكتب
في عصر الكتابة على ألواح الطقل أن يبيت إليك بنسخة من كتاب جديد ؟
عندئذ تميمك مبرات مُثَنِّلات بأعمال من القينات ؟ قد تسأل : وهل كلُّ من يحدث
ذلك أيام البابليين ؟ والجواب أنه لم يحدث . ، لأن للقراءة الشعبية لم يكن لها
وجود ، ولم يكن يعرف القراءة والكتابة إلا غر قليل من النساوسة والفاسخ ،

وكلنت المكتبة مفضولة على موضوعات الدين وأعمال الخلق .
 لكن الآداب والعلوم مدينتي تقدمها — أيتها — لاستخدام مادة المكتبة
 بها خفة وسومة ومرونة ، لتبون الكتابة عليها ، فيسهل تسجيل الأفكار بها
 وتبادلها ؛ ونعت مادة نورمت لما للكتابة والجمعة وسيرة الاستعمال ، ونلتش الحطب ؛
 فهو إذن جدير من هذه القيمة بكتابنا ظاهر ؛ ضلي ألواح شقت من أشجار الزان كان
 « الليكسبون » القدماء يكتبون ؛ ما ذكر بعد اليوم إن فرأت كتابا تحت شجرة
 أن من هذه الشجرة التي نعدك بالطل ، جاء هذا الكتاب الذي يمدك بالنور .
 فمن للصخر الذي نبت عليه الأندمون ، نبتت الشجرة التي كسب على
 أحشائها وفشورها للحدثون ؛ وعلى أغانها اتخذت الطيور أعشائها ، فاستند
 السكاتب منها « ريشها » ، وفورظل هذه الشجرة — شجرة النور والعرفان —
 يجلس الإنسان ليقرأ للكتب وينشئ الأمصار .

فد نطالبنا الآن أن نعيش لك هذه العصر للتعاقبة مصفا إلى عصر ،
 ونحن من ذلك نجيب ؛ تمسكوا نلأ من السكاتب برقع ما ارتعت إحدى نواطع
 للسحاب ، ثم اجعل هذا القتل يمثل ما لبث الإنسان على وجه الأرض من
 فروس ؛ والكتاب الذي في القروة يمثل عصر الكتاب الطلوع ، والكتاب
 الثلاثة أو الأربعة التي فيه تمثل عصور الكتابة البدوية على صحائف الجلد
 والبردي ؛ والكتاب الستة التي نحى به ذلك تمثل عصور النفس على الصخر
 والآجر والخشب ؛ فلن هبطت بعد ذلك في نل الليكيب بمئة أقدام ، صاغت
 ترنيده ونسورا ونجاش ، حلقه الإنسان الأول ولم ندخله في عصور المكتبة لأن
 نصيره عن على أقدام الطاء ؛ ثم ما فاق في حقيقة القتل وقد بنى جزوه الأكره ؟ كلها
 كتب صباغها بيض ، إما لأنها تمثل عصورا طويلا لم يكتب فيها الإنسان ،
 وإما لأن الزمان قد أتى على ما حلت في صانعه فيله من صفحة الوجود .

الفصل الثاني

نشأة الأدب

اسمعي بنسا العدل الأول إلى أن الجزء الأعظم من تاريخ الإنسان حليز من
كذابة وكذاب ، وأنه لو كان لأسلافنا الأولين أدبٌ فقد ذهب أهراب الرياح ؛
وليكننا نرجح أن ذلك العصر الطويل الذي خلا من الكتابة لم يُخلُ من
أدب ؛ وليس من شك في أن القوم عندئذ كانوا بهائمون وبهمثون الرسل
بالكلام المخلوق ، وإن هَزَّ عليهم أن يُقنعوه في مكتوب ، فنجح على حفي
إن زعمنا أن الإنسان فكلم قبل أن يكتب .

لا بد أن نكون الأمكار — وهي أحد عناصر الأدب — قد أُنشئت قبل
أن نُدوّن بزمان طويل ؛ فقد كان آباؤنا الأولون الذين سكنوا السكوف بمجاسون
حول النار يستدفئون ، ثم يأخذون في قصص الأفايميس حول ما صادفهم
من الحيوان في صيد النهار ، وما وقع لهم مع جهنم من ضروب القتال
والنزال ؛ ولا بد أن يكون أولئك الآباء قد أنشأوا القصص حول آلهة الأنهار
والأشجار . ومن ذا شك في أن القوم كانوا يمد عناء النهار بمجاسون فينشدون
الأناشيد ، وأنهم كانوا يلقنون الأبناء حكمة الآباء ؟ صنعوا ذلك موضعوا
أساس الأدب ، بل وصنعوا كذلك أساس القانون والأخلاق والدين .

إن هذا الذي نزعجه يلزم على أساسيتين من الشجاعة والرهان ؛ فأولا —
ليس بعد أقدم القصص المكتوبة التي وصلت إلينا صهيانية فارغة ؛ بل هي مملوءة
بالحكمة وتجارب الأيام ؛ ولا يمكن اللباس أن يخلق مثل هذه القصص بين

عسبة وصحاحا ، بل لا بد لها من قرون طوال تنشأ فيها ونمو ؛ وثانيا — لا يزال
يبش في أنحاء الأرض هنا وهناك أقوام من البشر في طور الجاهلية الأولى ،
هم ذلك بشهون أولئك الأسلاف الأولين ؛ ول هؤلاء الأقوام قصص وقوانين
يرثونها جبلا عن جبل ، من غير تسجيل ؛ فالأرجح أن يكون أسلافنا كهؤلاء ؛
فكروا وعبروا قبل الكتابة والتدوين .

إذن فقد لبث الأدب زمنا طويلا يستند على الرواية قبل أن يستند على
الكتابة ، ولا يزال الجيليون الأجيال في أمر يكاد يرددون القصائد الطوال التي
هبطت إليهم من أجدادهم التازحين من أمثالنا في ماض بعيد . ولقد قام بعض
العلماء بمقارنة ما يشده هؤلاء الجيليون من القصائد بأصنافها ، أمروا كم أصنافها
من التلف حين اجتازت هذا الشوط البعيد في ذكريات الحاضرين ، فوجدوها
محافظة روحها الأولى ، وإن يكن قد أصاب التماثل تبدل بسير ؛ وكلنا يعلم كم
ظل الأدب العربي بروبه اللسان ولا يكتبه القلم ؛ وحسبنا ذلك دليلا على أن
الأدب قد بزدهر بين قوم لا يكتبون .

وإن لم نخل حياة الإنسان من أدب في مرحلة من مراحلها ؛ غير أن
الإنسان قد أنشأ الشعر وأنشده قبل أن يكتب نثرا عنها ؛ فالشعر لغة الوجدان
والنثر لغة العقل ، وإن الإنسان ليشر بوجدانه قبل أن يفكر عقله .

فالعجمي القدي عاش قبل التاريخ عاربا في الغابات ، ينطق أشجارها
ويقترع بين أغصانها صائحا : « را ، را ، را ، جو ، جو ، بر » هو الواضع الأول
لأساس الشعر المنظوم ؛ فقد أخذت هذه الصيحات الأولى تصاعق في أعقاب قبل
أن يشكر الإنسان ألقاظ الله للصيغ عن أفكاره ؛ حتى إذا ما جاء طور اللفظ ،
كانت قد أعدت قوالب الشعر وأوزانه ، فأنصب فيها اللفظ الجديد ، فكان منه

شعر سلطون معوم ، بعد أن كان الشعر صيحات يرحلون بها في الرقص ، ويهيمون بها في الضرب ، ليهب الناس للقتال ، ويهاجمون بها وقع المحاريف في الأمان ، أو وقع أقدام الإبل في الصحراء .

كان الشعر — إذن — أول مراحل الأدب ، فلما سارت الإنسانية في طريق المدنية شوطاً ، وبلغت حد القرب والفرح ، هدأت الماطفة الحادة بعض الشيء ، وزاد التفكير المنظم ، فلما عبر الإنسان عن تلك الأفكار جاء تعبيره شراً ؛ ولما بالطبع نعى بهذا أن الإنسان مذاً يشكلم شعراً بل هو بدأ بتشكلم شراً غير مسمى ، ولكنه لما أراد أن يعبر عن صواقفه بطريقة فنية عبر عنه شعراً ثم شراً فنياً ، كما أننا لا نعى أن الشعر ظهر ثم زال لبضع الجبال للثر العنى ؛ بل إن الإنسان — في كل عصر حتى في عصر المدنية — كلما جئت صدره بالمواطن الحادة لجأ إلى الشعر ، وقد بزخره بمحسّنات صناعية تجعل للألفاظ والأشعار وفقاً في آذان السامعين ، وقد ظل الشعر ألوفاً من السنين يفرض لبثته في صوت مسموع ، لا يهزأ في صمت على ورق مطبوع ؛ فكان الشاعر بمثابة الممثل ، يعنى في إخراج اللفظ ليهب الغاية في إمتاع القلوب .

وبكاد الشعر يتطور في مراحل معينة في كل عصر وفي كل أمة ، وهو يبدأ صورة ساذجة للتعبير عن المواطن ، ثم يستخدم المحسنات الفنية ، ثم يعمق في ذلك حتى تخفى الماطفة نفسها وراء زخرف الألفاظ ، ثم يشور الناس والشعراء على المفاصلة في الصناعة عبرت الشعر مرة أخرى إلى التعبير البسيط عن المواطن .

كان الشعر أول الصور الأدبية ظهوراً ، وكان السكمان من أول الأدباء المنشئين ، هم الذين صاغوا أناشيد الحرب وقصص الأبطال وعقائد الدين في

فاليه الشبح ليجهل على الناس حطها . ثم أخذ الأدب يبدئ بتطور في صورة
كما تطور الجميع في أوضاعه ؛ طبس الأدب سوى ظاهرة اجتماعية تنشأ
العوامل الطبيعية التي تنتج كل الظواهر الاجتماعية الأخرى ؛ والاجتماع قائم
على أساس ثلاثة ، أي على أساس الغذاء ، يتطور المجتمع ويترقى كلما تطور
مورد الغذاء ونكاثره .

بكلما توافر الغذاء وسهلت أسبابه ، أصبح المجتمع قوة منظمة ، وأخذ يسمى
— وقد استنبط له النظام والعلمانية — نحو الرق الأدبي . غيابة الإنسان الأول
كان نظاما الخليل غير المستقر نتيجة حتمية لحياته في الأودية والأصقاع ، بنشد
العبد الذي يغتاض به ؛ فكان الأدب بين تلك الفجائل الأولى ، وتواضعا ، لا يزل
على أنغام تتم على نغمها حركات الرقص ، فإن سعدي ذلك فاني غناء يتكون
من اقطة أو لفظتين ، وإلى قصص حرائق حول آلهة الأشجار والأشجار وما إليها
من ظواهر البنية ؛ فإذا جاءت مرحلة الرعي استتب لقائل الرعاة نوع من
الاستقرار ، ولم يعد الإنسان متمددا في قوته على مجرد المساواة العارضة ،
بل أصبح مورد غذائه مكتفولا نوعا ما ، وتوفر لديه بعض الأغذية الزائدة عن
حاجته ، فأحس شيئا من الاطمئنان نحو المستقبل ، ووجد بعض الفراغ في الوقت
ولذلك يهرع في التفكير والأدب ، واضمحج الحال بعض الشيء أمام الشخصية
الفردية لتظهر ، بعد أن كانت مودومة بكل معنى الكلمة في الإنسان الأول
التي يجهزها المصيد ؛ أما وقد توفر القوت ، فكان من الطبيعي أن يستولي
الرجال الأقوياء على القوت للآخر ، وسحبوا عادة لإخوانهم ، وإن كانوا قادة
تقديم تقاليد القبيلة إلى حد كبير .

هذه النظام الاقتصادية وما يتولد عنه من نظام سياسي ، بينهما تأثيرهما

على الأدب الشفوي لثقيلة ، لأن الأدب هو التعبير الجليل من الحياة والإرادة
والخاني ، معنى الأدب الذي يزدهر في مثل تلك المرحلة شعراً حماسياً بشيد
بالخلال التي يتحلى بها رئيس القبيلة المحبط على المجتمع ، أو بزوايا القبيلة نفسها ،
أو بهجاء من عاودها من أفراد وقبائل أو نحو ذلك .



نم يظهر نظام الأوتقراطية (نظام الحكم المطلق) في أم وجاعات نشأت في
أراضٍ قريبة من الصحار والأنهار الكبيرة ، أو اضطررت تحت غلات غفائية
واحدة ، يصبح المدخر الغذائي أكثر مما كان ، وتسرّب ثروة البلاد إلى أيدي
الذين استولوا على معظم السلطة ، يصبح المالك في استطاعتهم أن يمتثلوا ذروة
الرضا والجد ، وأن يمتلكوا أقصى الثراء والنفى ، ولا يعود المجتمع كما كان قبل
مجموعة من الرعاة الفيليين برأسهم من لا يكاد يريد عليهم في الثروة ؛ بل يصبح
التك ومعه قليل من الرؤساء في طبقة ، ونصبح عامة الناس في طبقة أخرى ،
ميلجاً الرجال الذين وهوا ملكات متنازعة إلى النفي بالقرائم والشعر التمسعي ،
يشيدون به بتجد المالك والقادة ، وبعد الآلهة والأبطال الذين بسوا صرح
الأوتقراطية ؛ ومعنى هذا أن أدب الأوتقراطية — المشتق في الترائيم واللام —
ليس إلا مجرد ظاهرة اجتماعية أنتجتها الظروف المادية .

في هذا الطور الأوتقراطي لا يعتمد المجتمع على ما بين أفراد من وحدة
الهم ، وروابط التمسب ، بل يكفي لارتباط الجماعات ميطرة الملك على البؤرة
الأسلية والبلاد المجاورة ، وسائط الحرب أو بالوسائل السياسية — وفي مقابل
الولاء الذي يقدمه رؤساء هذه البلاد يصعد هذا الملك أو الرئيس الأكبر

»

مخاضهم من العدوان الأجنبي .

هذه الجماعات المتفاوتة في النزعات ، المتنوعة في الأغذية ، تجمع كلها لقانون واحد ، وتصبح محاملها المتبادلة حافزا على الاحتراق والامتسار ، ويوسع ذلك من أعضائها الفكرى الذى لا يخطو المجتمع بدونه نحو المدبة والخضارة ، ويشجع — من طرفين مباشر أو غير مباشر — التجارة الأجنبية ، لتجد الأوغرانية سوطا تصرف فيه صناعاتها وغللتها .

وإن تنوع حاجات الناس وتمدد مطالبهم تتعدد كذلك أشكال الأدب ، إذ الإنسان في هذا الطور يكون قد تقدم فكره واتسعت نواحيه ، فأدبه يرفى بتعلمه من هذه التجارب ، وتعلمه إتقان التعبير عنها .

ثم إن تدهر الوسيلة التى يقيد بها الأدب — من المشاهدة والرواية إلى التقييد بالكتابة — بدع الأدب في سيرة إلى الأمام ، فالتكتابة هي التى سدنشل الأدب الأوتقراطى ، والأدب الديمقراطية من بعده ، من أصوله البدائية إلى مكان أسهى ومرة أرفع .

في هذا العصر الأوتقراطى يجد الأمم المتعدنة القديمة قد عرفت التمثيل ، وأدارته حول موضوعات دينية وأساطير خرافية طاشت بها الروح الأدبية أكثر مما كانت في العصور القبلية — نجد ذلك في « بابل » : مكان الملك والكهنة يشاركون في الحفلات الدينية ، التى كانت موعا دينية من المسمية ، وكان المصد بفوم مقام المسرح ؛ وكان المسرح القديم كذلك رفص وموسيقى ، وكأش لها مسرحيات دينية نسطع سبعة العقائد المفسدة ، ولم يكن الكهنة وحدهم م الذين يقومون بالتمثيل في هذه الزواليات ، بل كان العامة يشاركون فيها أيضا — وكان لليونان القديمة التى وصفها هوميروس الشاعر ، أعياها المفسدة نقام فيها

حملات الجيش والفرقة والقضاء .

كل ذلك على عطف أرق مما كان عليه البدو أيام بدوهم .

كما يرى الشعر ينطوي في هذا العصر الأوتقراطي ، سواء في ذلك الشعر الغنائي الذي يميز عن المواطن أو الشعر القصصي كسحر لللاح ، ما غافه الحرب والزواج ترتقي في أسلوبها وعاطفتها وتصبح أكثر نجاسة وانسجاماً ؛ ويرى شعر المثبتين المحترفين آخذاً مكان شعر العامة ، أعني أن الشعر الذي يقدم الشاعر إلى إنشائه ، ويحتل لإثباته ، آخذاً في الخلود محل الشعر الذي تولده المصادفة ؛ وأصبحت صولة الحال وانصافه بالمضارة يعمل في الشعر بالنمو والتزايد والعتل ؛ ورأينا الشاعر يأخذ في التعبير عن الحياة الإنسانية الباطنة — حياة العاطفة — وعن الحياة الإنسانية الظاهرة — حياة الخلق والسلوك ، وأخذت البحور والأوزان تتنوع وتضد بسبب نمو الخيال المبتكر ودقة الأذن الموسيقية .

وكذلك الشعر القصصي ، هو يبلغ ذروته في هذا العصور الأوتقراطي ، ويرجع ذلك إلى السلطان المطلق ، والملك التام ، والثروة الباهرة ؛ فلا شيع القبيلة في العصور التي ، ولا الرئيس في العصور الديمقراطية ، بما كان مثل هذه السيطرة المظلمة . فكثير من الأمم في هذا العصور كان يعتقد أن الملك يستمد سلطانه من الله لا من الأمة ، تصبح هذه الحكمة شعاراً حديداً للأساطير الدينية والتخرافات والتهويل ، ويصبح هذا الحاكم المتصل بالآفة والأبطال الماضين رمزاً تنسج حوته أفاضل التقديس والتبجيل ، وعلى الأخص حين يكمن هذا الملك بطلاً في دنون الحرب ، بصيراً بأساليب القتال ؛ ومن هنا ينشأ شعر النهم أو شعر اللام .

أما الفن الثاني في هذا العصور الأوتقراطي فينشأ حول النصوص الدينية

وحكايات السحر والخطابة والرسائل وقصص الجن ، ويقع معناه وموضوعه أكثر مما كان في العصر القبطي ، و يرتقي في الشكل والقالب ، وفي المعركة والموضوع والخيال . نشاهد ذلك في أنطحيص بابل وأساطيرون ، وفي أساطير الهند ، وفي قصص المصريين كقصص خوسر والقاهرة ، وفي أساطير اليونان .

وكان النثر الأوتقراطي أصعب في الإنشاء من الشعر ، وبدلاً من ذلك جلبنا من لغة التراث النثرى إذا قيس بالتراث الشعرى ، لأن قواعد موسيقية النثر التي لم تكن مسبوطة ، بل هي حتى في أزماننا ليست مضبوطة مفصلة — وبدون بابل قد قامت الهند ومصر واليونان الأولى في فن إنشاء الرسائل ، كما كان النثر المعرى في باب تحليل الشخصيات .



وأخيراً نأتي الديمقراطية وبتنوع فيها النشاط الاقتصادي ، وتعدد صورته أكثر مما كانت ، وينشأ رجال يستكشفون ميادين جديدة للحصول على الرزق يكدسون المظالم المأكل من الثروة ، فيعكس كل ذلك على أوضاع الأدب ، كما ينشأ رجال مليئون بروح الفانسة ، يزورون الأقطار البعيدة ، ويحصلون بثقافتها الفكرية ، هؤلاء الرجال الفاسدون العكرون لا يرضهم أن يظلوا في تكبرهم غاضبون لسلطان حاكم مطلق يبدع على الجميع خوره ، يهابون على ذلك صرح الديمقراطية ، ويحبذون أتباعا يفلتونهم على عدم هذا النظام ووضع أسس النظام الديمقراطي الجديد ، وهذا النظام الناشئ قائم على تدمير ذاته الفرد واستقلاله ، فيكون لهذا الانحطاط أثره السريع في الأفكار الجديدة ، والاختراعات الجديدة ، والصناعات الجديدة ، والأوضاع الأدبية الجديدة .

من كان الأدب القليل محدوداً محدوداً ، لأنه أدب قوم يقتدون أنهم يجمعهم أصل دموى واحد ، وكان الأدب الأوتوقراطي لا يصنع هذه الصبغة الإلزامية ، ولكنه يحدد الطبقة الحاكمة ، فالأدب الديمقراطي يُعنى بشخصية الفرد المتميزة وذاتية الفرد ، ويصدر شخصية كل فرد ، عفاً كان أو وضياً — فهذا تدرج في الأدب نحو تقدير الفرد وذاتية ، تمنع تدرج المجتمع نحو هذا الفرض نفسه .

والأدب الديمقراطي الحق هو تسير عن التسامح والعطف ، والسماح لحرية الرأي بالظهور . وهذا الأدب الديمقراطي ينبت — أولاً — في جماعات يسود بها النظام الأوتوقراطي حيثكون فيها جماعة من الأدياء والمفكرين يفقدون بشائهم ورفضهم الاجتماعية ، وينادون بنظام حبر من هذا النظام الذي تحكم فيه طائفة خاصة ، ويكونون هم طلائع الأدب الديمقراطي .

وتنوع الأدب في العهد الديمقراطي بأكثر مما تنوع في العهد القليل والأوتوقراطي ، فتعمل الديمقراطية على ترقية الأدب القومي الذي يصور حياة الفرد ، وتوجه أكبر عنايتها إلى تحليل حياة العامة والجمهور ، لا حياة الأملاك من الأبطال والملوك ، ويساعدها على ذلك تجمع الناس في مدن محصورة تسمح بالملاحظات اليومية ، والتجارب الاجتماعية وتحليل الصنوف المختلفة من الشخصيات الإنسانية ، فالأدب القومي الديمقراطي إن لم يكن بحياة البلاط والحياة الدينية الشعبية ، عناية المسرحية الأوتوقراطية ، فإنه يفوقها في الاهتمام بالطبائع البشرية والجملة الإنسانية .

وقد كانت أثينا الجمهورية أول من أعطت المسرح لتسلياة الجمهور وتنقيته ،

فارتقى الأدب التمثيلي على يدها ، وحذت حذوها الأمم الأوروبية عندما اعتنفت الديمقراطية .

كذلك تطور الشعر تطوراً جديداً ؛ فأكثر الشعر القليلي نضج فيه روح القبيلة لا روح الفرد ، ولهذا نظهر فيه شخصية الشاعر نفسه من حيث شعوره وعواطفه الذاتية ، وكان الشعر في العهد الأوتوقراطي ينحصر نحو نفديس الأمثال ونعجيد المعاني ، ومدح اللوك والأسماء ، وشغل الشاعر بذلك عن نفسه ، أما في العهد الديمقراطي فقد أحس الشاعر شخصيته ، وبانت له عواطف ذاتية منغلقة ، من حفا أن تظهر ونصور في شعره .

ويظهر أن الشعر القصصي لم يبلغ في العصر الديمقراطي مبلغه في العصر الأوتوقراطي ، ولم يعد الناس بقدره تقدير الأولين ، لأن الأوضاع الاجتماعية تغيرت ، فإذا أراد الشاعر الحديث الخل أن يغذي عاطفته القومية بسير الأولين ، فإنه يصل أن يبلجأ إلى النثر الناري لا إلى الشعر القصصي ، وقد حاول بعض الشعراء الحديثين أن ينظم ملاحم كما فعل مائت في « المردوس المقتود » ، ولكنهم مع مصلها لم تبلغ روعة الملاحم القديمة .

إذا نحن وصلنا إلى النثر رأينا أنه لم يشهد عظيماً في عصر من العصور كما شهدا في عصر الديمقراطية ، وإنا — وقد ألفنا منذ الطفولة لسبحال النثر الهني السكاني — كبصر علينا أن تصور هذه الحظيفة العجيبة ، وهي أن العالم اضطرب أن ينظر آلاف السنين قبل أن يحى هيرودوت وأمثاله يترقوا بالنثر إلى سربته النثر الهني ، كما سر على الأدب العربي مثلث من السنين قبل أن يرتقى الجاحظ وأمثاله بشره الهني .

وبينا تعمر الأوتوقراطية على أن المهد وجد للدولة والحكماء ، إذا بالديمقراطية

تنادى بأن الدولة والحكام هم الذين وجدوا للفرد ، فكانت هذه العقيدة هي المشجع الأعظم للاحتراع والابتكار في كل نواحي الحياة ومنها الأدب ؛ فترى الفتر يرقى في كل أنواعه ، سواء في ذلك التاريخ السياسي والرسائل والمقالات الأدبية والنثر المكافئ والنثر الفلسفي ؛ ثم نرى ولادة الجريدة والمجلة .

ونرى الاتجاهات الجديدة في النثر ممثلة في النثر المسرحي ، وكتب الرحلات ، والنقد الأدبي الفكري ، والرواية الواقعية ، والقصة الغرامية والتاريخية ؛ ونرى — باختصار — النثر يحتل أعظم مكان في عالم الأدب في القرن الحاضر .

ولا يدرى إلا الله عم يتمخض العالم من نظم اجتماعية وسياسية واقتصادية تؤثر في الأدب فتطبعه بطابعه الجديد ، وتوجهه الوجهة الملائمة للبيئة الاجتماعية .

الفصل الثالث

الأدب في الشرق القديم

عمرت من حديثنا إليك في نشأة الأدب ، أن تاريخه يبدأ قبل الكتابة بزمان طويل ؛ وكان الرقص أول ما ظهر من الفنون ، وإذا ما أرحى الابل سدوله على إنسان العصر الأول ، رقص الراقصون حول نار يشعلونها ليجرحوا ويفرحوا بعد ما أصابوه من ظفر وبصر على أعدائهم في ساعات التهاور ؛ وإيهم في رفهم ذلك أصبحون وبصرخون من فتوة الطرب ، فلا تلبث تلك الصيحات والعصرجات أن تتماكب أجزاءها ، وتفسج نغماتها ، بحيث تناسب توقيع الزهر ؛ وهكذا كانت أول أغنية بدأت في تاريخ الأدب أغنية عربية ينقى بها الظالمون .

وفي الوقت نفسه كانت فكرة الله عند الناس تستوى وتستقيم في أذهانهم ؛ فما إن صارت كذلك حتى أنشأوا الملوآت والدعوات يضرعون بها إلى الله ، وكلما تقدم الزمن أخذت تلك الأناشيد الحربية ، وهذه الملوآت الدينية ، تزداد رسوخا بتكرارها جيلا بعد جيل ، كل جيل يضيف إلى تراث السالعين .

فلما تقدمت بالإنسان حضارته اضطرت الحاجة إلى الكتابة ، فقد كان لا بد له من طريقة يسجل بها أشياء يخشى عليها النسيان ، وكان لا بد له من وسيلة يخاطب بها من يحمله عنه نكد المكان ، لهذا اضطار الإنسان الأول مدفوعا بضرورة الحياة أن يستطع طريقة للكتابة ، أما وقد كتب فليدوّن إذن ما كان قد أنشأه من أناشيد النصر ودعوات الدين ؛ ولا شك أن من كل استطيع الكتابة والفرازة بين أولئك الأقدمين نمر قليس . وأول صورة

ظهرت في الكتابة ثم نزلت على نفوس مدبرة . بصورها كاتب ، وبحثها على
الصخر ناحت : ثم أصبحت الكتابة نقشا شاملا على أفراس من الصخر الخفيف ،
وفد وجدت في (كندا)^(١) نماذج من هذه القوالب الصخرية ، ووجدت في إحداها
نقشة الطوفان ، ولها أثر تكون أقدم أثر مكتوب ، وهذا شبه كبير بين
قصة الطوفان الواردة في سفر التكوين والرواية الكلدانية التي سميت النورلة
بالآلاف السنين .

كان الكاتب في كلدانيا مأجورا لذلك يدفعه إلى حومات الرضى وساحات
الحروب ، ليشتت ملكه ما يغزو من المدن ، وما يملك به من الأعداء ، وما يفتقر
به من الثغائم والأسلاب ، ثم يشتد قبل كل شيء ، بإقدام سبده وإسائه في
القتال . وكانت الدولة تستخذ إلى جانب هؤلاء الكُتَّاب طائفة من السكان
تنفخ على قوالب الصلصال والدعوات ، وطائفة ثانية تكتب نواهد
الزراعة وحوامث السباحة وما يبي التنجيم .

الأدب المصري

وبشارك الأدب الكلداني في التقدم أدب المصريين القدماء الذي سجل
على الآثار وأوراق البردي ، وأقدم كتاب مصري انتهى إلينا بقلمه هو « كتاب
الموتى » الذي دُرس في « عصر بناء الهرم الأكبر » ، ولا تزال نسخة منه محفوظة

(١) كندا . نقش على الرادي فيه دجلة والفرات . وقد تكون الرادي منها .
كما تكونت مصر من النيل وهو الذي يسمى العرب أرض الحضرة ، وقد أطلق « دولة
كلدانيا » على المدن والمناظر المنتمية من دجلة . وينتم أهلها إلى شعب عيلبي ما اسم
« شومر » . وينتم « أكاد » كما تنتم مصر إلى النوبة القبل والوجه المصري .
وقد تركوا لنا آثارا ترسم إلى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد تدل على درجة « شبهة من
الندبة والمناصرة وروبتة عنده ففصل حوله هذه الحقيقة والطوفان .

في النصف البريغاني ؛ وفيه دعوات الآلهة وأغانيه وصلوات ، ثم وصف لما تلافيه أرواح اللقي في العالم الآخر من حساب ، يتبعه عقاب أو ثواب ؛ وكانت توضع نسخة من هذا الكتاب مع جنان الميت في قبره ، ليكون دليلا لروح يهديها في رحلتها إلى العالم الثاني . ومن هذا ترى أن الفكرة الأدبية في مصر القديمة ازدهرت بين جدران المعابد ، وأن الجزء الأكبر من الأدب المصري كان قائما على أساس الدين ، وهناك مثالا ما ورد في « كتاب اللقي » من الدعوات ، وهو ما يدافع به الميت عن نفسه أمام فساته في العالم الثاني :

« السلام عليك أيها الإله الأعظم إله الحق ، لقد جئتك يا إلهي حاصما لأشهد جلالت . . . جئتك يا إلهي متخليا بالحق متخليا عن الباطل ، ولم أظلم أحدا ولم أسلك سبيل الضالين ، لم أحت في بئس ، ولم تضلني الشهوة فتدعيني لزوجة أحد من رعي ، ولم تغد بدي لجال غيري ، لم أقل كذبا ، ولم أكن لله عاصبا ، ولم أسع في الإزفاع سبيل عند سيده . إني — يا إلهي — لم أجمع أحدا ولم أهلك أحدا يوما قتلت وما غدرت ، بل وما كنت عرضا على قتل ؛ إني لم أسرق من المعابد عيزها ، ولم أغصب مالا حراما ، ولم أنتهك حرمة الأموات ، ولم أرتكب الفحشاء ، ولم أفسد شيئا مقدسا ؛ إني لم أبيع قضا بشئ فاحش ولم أظف السكيل . . . أنا طاهر ، أنا طاهر ، أنا طاهر ، أنا طاهر ، . . . وما دمت بريئا من الإثم . . . فاجعني اللهم من الفاترين » .

ولكن إلى جانب هذا الأدب الديني ، لم يعدم المصريون التقدم . أن يكون لهم أدب في تعجيد اللوك ، وأن يكون لهم كذلك أدب شعبي يروي ما يدور بين الناس من قصص وأساطير وحكمة وقانون ؛ ولم في ذلك كتاب « الرصا » « لفتح حوت »^(١)

فمن أشهر أساطير المصريين القدماء قصة «أوزيريس»^(١) و«إيزيس»^(٢) وخلاصتها : أن أوزيريس كان رسول الله في الأرض يحكمها بالعدل ، حكم الناس كيف يملحون الأرض ، وكيف يستخرجون المادن من بطونها ؛ وكان يأمه هذه الرسالة «نخوت»^(٣) إله العلوم والمعارف ؛ فلما أراد «أوزيريس» أن يثمر الحضارة في أنحاء الأرض ، خَلَّفَ زوجته «إيزيس» على عرش مصر. وخرج في جيش عظيم أخذ يجهل به في البلاد ، يُعَلِّمُ الناس هنا وهناك كيف يستثرون الأرض ليأكلوا من طيبات الله رزقا حلالا ؛ ثم قتل راجعا إلى مصر بعد أن أدى رسالته ، فكان جزاؤه عند أخيه «سيت»^(٤) أن أرداه فجيلا . فقد تأمر «سيت» مع نفر من حزبه على القدر بأخيه ؛ فأعد في داره وليمة فاخرة نسكرا بما لأوزيريس ، وجهز في قاعة الوليمة صندوقا مخبئا زين بالمجاراة السكرية ؛ وكان — لزيفته — موضع إعجاب الحاضرين ؛ فقال لهم «سيت» مازحا : «لقد وهبتُ هذا الصندوق لمن يملأ جسمه فراغه في دقة وإحكام» فأخذ السامعون — وهم المتآمرون — يملحون الصندوق واحدا فواحدا ، هذا يقعرُ عنه وذلك بطول ، وهذا يضحك عنه وذلك يذق ؛ حتى جاء دور أوزيريس ، فساوى الصندوق وقفا ، ولم يكده بعمل حتى أسرع المتآمرون إلى النطاء فأغلقوه وأحكموا إغلاقه ، ثم ألغوا به في النيل .

ذاع النبا بين الناس وشاع ؛ فخرت إيزيس على زوجها حزنا شديدا ، وشرعت تهت عن جثة القتيل في طول البلاد وعرضها ، حتى وجدت عادات بها ، فوارثتها فترا يلبق بجثمانه الطاهر . لكن «سيت» لم يرُضه أن ينال أحده هذا الإكرام ، فاستخرج الجثة من قبرها وقطعها إربا إربا ، وثرأجزاءها ثورا

فطافت إيزيس مرة ثانية تجمع أثلاء زوجها ، وكانت كلما صادفت حراً أهملت له فبراً حيث كان . . .

ومن وثاء إيزيس لزوجها :

« انظر إلى يا أوزيريس ، أنا زوجتك الحبيبة الرمية ؛ هذا فاني قد علمت الحزن عليك ؛ وهانن عيناى شاخصين إليك ، لبنى أراك الآن حتى — أيها الإله الصالح — في أدنياك . نعال إلى حبيبك ، أدن من زوجتك ، ولا تعزب عنها ! إن الآلهة تروى إليك ، والناس فيكي عليك ، ويزيد بكأؤهم أن برونى بأكية جائية أبث إلى السماء شكواى ! لم لا فتجيب لبتائى وأنا زوجتك وحبيبك ؟ ! » .

وفد لجأت « إيزيس » هي وابنها « حوريس » إلى محكمة الآلهة قضت لها ، وحكمت على « سبت » وأجلت « حوريس » على عرش أبيه « أوزيريس » .

هذا ماخص القصة ، وتدخلها أساطير كثيرة ، مثل أن أوزيريس لما حانت ولادته ارتفع صوت من معبد آمون يشير العالم بأن « قد ولد الملك العظيم للنعم على الكون » .

وأن إيزيس توسلت إلى الآلهة بأعادته إلى الحياة ، ولكنه عاد إلى نوع من الحياة الخالصة لا الحياة للأثونة . الخ .

وانتقلت قصة أوزيريس وإيزيس وعبادتهما من المصريين إلى اليونان ، فأنشئ في ثور « بيريه » اليونانى معبد لإيزيس في القرن الرابع قبل الميلاد .

كما انتقلت عبادتهما وفصلتها إلى الرومان عبي لها معبد في اللينا . الإيطالى بوروبول^(١) ، وبني لإيزيس معبد في « رومي » . كما انتقلت إلى أجراء الإمبراطورية

الرومانية في أسبانيا وفرنسا وألمانيا وإنجلترا، وتلونت القصة بلون اليبشات والمظلمات الخفيفة، وزيد بها وحذف.

وقد أشار « بلونارك » الكاتب اليوناني المشهور، الذي نعتق عبادة إيزيس، والذي ألف كتابا عن « إيزيس وأوزيريس »، إلى أن هذه القصة قصة رمزية، وأن الشعب المصري، « كان يقيم عادته على مواعد أدبية... وعلى الاثنان في تسجيل ذكريات تلرمية قديمة، وعلى إيضاح نواويس طبيعية ».

وقال بعض الباحثين: إن أوزيريس رمز إلى النيل ولعب الخصب، وإلى الرطوبة التي هي أصل الإنتاج، وإلى القمر ينتج الندى في الليل فينثر الرطوبة — وعلى الجبل إلى قوة الخير والإنتاج والخسوبة في العالم، و« سبت » رمز إلى البحر الأبيض يصب فيه النيل ماء، فيسده وبغته، ولكنه يجر في العالم التالي. والمؤامرات التي دبرها « سبت » رمز إلى انخفاض مياه النيل بعد الفيضان؛ و« سبت » أبصار إلى الجفاف أو النار التي تحارب الخصب. وعلى الجبل هو رمز لقوة الشرق العالم؛ وانتصار حورس هو البصان الذي يعود، وإلى انتصار قوة الخير والحق آخر الأسر. وإيزيس رمز العطف والحنان والوفاء، ورمز الأرض الخصبة، ورمز الصهر الفاني للشيخ، ورمز البحث عن الحقيقة، والحياة التي حبها أوزيريس بعد هي الحياة الأخرى التي يتم فيها الإنسان بما يأتي من أعمال صالحات الخ.

وكانت الطقوس الدينية وكهنة المعابد تبع هذه المعاني عند الخاصة والعامّة والمتفنيين، وإن لم يعمها العامة؛ ولذلك أفضل على هذه البداية المطبقة الزائفة المقتبسة من اليونانيين والرومانيين، فكانوا بشعرون بالطمأنينة المعيدة الحياة

الأحرى والعمل الصالح ، وكانت تقدم عقيدة الخير والشر والثواب والعقاب
بنذائهم الروحي .

وأخيراً أحيى الشاعر الألماني « حوته » في القرن التاسع عشر المبادى
فصة « أوزبريس وإبريس » بالغة الألمانية ، فكان اسمها « الناي المسحور »
بشعرها وموسيقاها أثر في النفوس بليغ .

ومن فصوص العربيين الشهيرة قصة « رمسينت والامس » وخلاصتها —
كما رواها « هيرودوت » : أن رمسينت كان يملك من المال كنوزاً تنوء بالعصبة
أولى القوة ، غار في طريقة حفظها ، ثم أداه التفكير أن يبني لها حجرة في قصره ،
بمد لها من الحجارة الكبيرة ما لا يستطيع حملها ، وجعل إحدى حوائط الحجرة
جزءاً من السور الضروب على القصر .

ولسكن المهندس الذي نوى بناء الحجرة ركب في حائط السور حجراً
يستطيع رحلان بل وجل نمر بكة وزحزحته بطريقة مهندمة^(١) .
وجمع الملك فيها كنوزه . وأمن أن تنالها يد ، ولسكن المهندس لما شعر بدنو
أجله دعا إليه عليه وأحبرها بخبيثة الأمر .

ومات المهندس ولم يلبث ابتداء أن ذهب ليلاً وبخنا عن الحجر صرفاء ، وحركاه
في سهولة ويسر ، فدخل إلى الحجرة فأصابها من ملها ما شاماه .

وقف الملك حجرته مرأى نقصاً في كنوزها ، وحيره أن رأى الباب سلجاً
وأختامه لم تحس ؛ وتكرر ذلك مرات والملك حائر في أمره ، ولم يجد حيلة إلا أن

(١) يشبه هذا ما يروى في كتب العرب عن (سلو) أنه بي قصره لثمان ، فلما فرغ
منه قال له الملك : لقد أحكمته ، قال سلو : إني لأعرف حجراً فيه لو نزع لانهدم كله فرماه
الملك غرماً .

بنصب خفا في حوالب الخزان ؛ وعاد الاثنان ، فما إن قرب أحدهما حتى وقع في الفخ وأطلق عليه .

فأشار من وقع في الفخ على أخيه أن يقطع رأسه ويرجع به إلى بيته حتى تخفى الجريمة ، وألح عليه في ذلك ففعل ، وردّ الحجر إلى مكانه ورجع برأس أخيه ولما دخل الملك رأى الأمر ازداد تعقيداً ، والجريمة لم تسلكشف ؛ فأمر بصلب الجنة وإقامة الرفاء حولها ، ثل أحداً بيكي لرؤيتها فيكشف الأمر .

واسكن الأم بكث في بيتها ، وعز عليها صلب ابنها ، مهددت أخاه إن هو لم بأنها بالجنة أن يضح السر الملك ؛ فأعمل الخيلة وأعد خيراً حمل عليها زقاق الطير ، فلما قرب من الحراس فك بعض الزقاق ونظاهم بأنها سالت على الرغم منه ، وأخذ يبيكي ويندب . وجاء الحراس فوجدوا خيراً أسيل فشرخوا ، فأخذ يصنع تأنيبهم ، ثم مائ إلى الطريق مائة ، وهذا من سورته ، وأخذ يحدث الحراس وبمفهم حتى أسكرهم ، فناموا ، وفام ليل إلى حنة أخيه خلفها وعاد بها إلى أمه .

وحن حنون الملك لما علم بسرقة الجنة .

فكر في وسيلة أخرى يكتشف بها هذه الجريمة ط الجرائم ، فأمر انته فاحل لها أن تستقبل الناس ، وتكن نفسها ممن يحدثها عن أعجب حرائه ودهائه ، فإذا جاءها من حدثها بسرقة الجنة حيزنه وغلفت عليه الأبواب .

ومر الامس الحمر ، فأراد أن يظهر الملك مجزء ، فاستحصر ذراع رجل مات حديثاً وجباه في ثيابه ، وقابل بنت الملك وفص عليها قصته ، وكان الظلام قد ساد الحجرة ، فهت بالقبص عليه فصبحت على شيء غلته يده ، ولكنه كان القراع الخنوء ، أما هو فقد كان قتر وهرب

صعج الملك من كل هذا ، وأعلن في جميع أنحاء المملكة أنه قد عفا عنه ، وأنه

ميجزل له الخبر إذا أظهر نفسه ؛ فقدم القصر إلى الملك موفى بوعده وأسم عابه وزوجه بنته ، لأنه أمير للصربين الذين هم أمير الأمم .

ولكن إلاتم ترمز هذه القصة ؟ لعلاها — بما نرى — ترمز إلى السلطان والفنار ، فالملك مرمره وسلطانه ، وحيلته وحيلته ، لم يستطع أن يبال الفنار ، وكلما أبرم أمراً قصه الفنار ؛ وهو محتال الخيلة بهذا الخيلة ، والقدر يمسدها عليه ، وأخيراً نحى له الحق ما أن بالسلطان الأعلى وصانع الفنار .
أهل هذا أو نحوها من هذا هو ما ترمز إليه القصة .
ولم فصص أخرى كثيرة من هذا القبيل ، كقصه خوفه والسحرة ، والبحار العرب والأمرير الممالك ، الخ . نكتفي منها بهذا الفنار .

ثم كان لم نوع آخر من الأدب وهو أدب الحكم والوعظ ، منها ما هو أدب النفس ، ومنها ما هو أدب المجتمع ، ومنها ما هو أدب سياسي ، ومنها ما هو أدب ديني . فن نضاع « نضاع حبيب » لابنه (١) :

إذا أردت حسن الثناء فتجنب الطمع ، فإنه داء لا يشفى ، ومحال أن تكون معه صداقة ، وهو متركب من جملة ضرور ، ووعاء لكل مرذول .

إذا أصبحت عزيزاً بعد هوان ، وغنيا بعد فقر ، فلا تنس أهلك هوانك وتفكر إن استطعت ، فوجه عنايتك للعلم وبلاغة القول ؛ وفكر فسل أن تأمر ، فما أفضح للتصرف من غير تفكير ؛ ثم إذا أمرت فلا تتماثل في أمرك ،

(١) كان حاج حبيب وزيراً ، فلما أدركته الشيخوخة استأذن الملك أن يتبع ابنه فأذن له ، وتبعه صاحبه في بضع وأربعين نفقة ، نكتفي منها بما أوردنا ، ومواصله هذه نرجع إلى عمر سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد . أمي قبل موسى نحو ألف عام وقبل هيرموس بسو ألفين وخمسة من السنين .

ولا تحتد في قولك ، وتحزن أن تسكون معاناً في أمرك ، مسدوداً في إجابتك ،
 هالطاً بدال الصعاب ، والنصب ينقص العيش .
 تحزن بفذلك من صادفك في شدةك ، فإنهم أحق بفذلك ممن لا يعرفونك
 إلا في رخائك .

الرجل الغرير يضح فلا يسمع ، ويرى للملم في الجهل ، والريح في التماسرة ،
 وبأنى ما بأنى على غير هدى ، ويجد في كلام السوء غذاء لنفسه .
 تامل مع زوجك ، واتصد أن تجعلها أمه امرأة في لها ، وأسلين
 فياها يستقم سيرها ، وبشرها ولا تنفرها ، وتحب إليها بموافاتها بما نطلب .
 لا بفرتك منك ولا تنق به ، وشارر الجاهل والعاقل ، فاعلم لا حذله ،
 والوصول إلى نهايته لا يستطجه أحد ، وليس هناك عالم غن يستطيع أن يقول
 به الحكمة الأخيرة ، والكلام الفتيح أحق من الحبر الكريم الأفسر ، ومع
 هذا فقد تجده في يد أمة تدبر الرجا .

أطع نفسك ، فإن لم أبلغ ما بلغت إلا بالطاعة ، وإن الطاعة تستجلب المحبة
 وتدر الخير ، والله يحب من أطاع ويكره من عصى .
 إذا دعيت إلى مأدبة من هواك أكبر منك فما تأخذ مما يقدم لك ، ولا تأخذ
 صديقك إلى ما وضع أمامه ، ولا توجه نظرك إلى الله .



« من اللواظ السياسية موعظة » خيري الثالث « لابنه » حبي الرابع « .
 وكانت نصائحه إبان ثورة شعبية على نظام الحكم ، هن قوله :
 كن بليغاً نسكن قويا ! فالسان لللك أصدق صيف في التنازل .
 واللك مدرسة لمن حوله من الضياء — وهو إذا انسح اطلاع أمين من أن

يُجَدِّعُ بالكذب ، لأن الحقيقة نأنيه خالية من الشوائب .
اجعل أساس اختيارك الرجال الكفابة ، سواء في ذلك ابن العظيم
وابن الخفير .

من الخير لك أن تكون رحيماً ، واجعل وكذلك أن يفهم لك الناس مثال
الحب في قلوبهم ، فإن صلت فسيدكرون لك جيئتك ، ويدعون لك بالصحة
وطول العمر .

نمك بالعدل ماحييت ، وإيالك والإساءة إلى الأباقي ، والنقض لمال أحد
مما يرثه من أبيه ، والعنوة في غير جربة .

إيس لأحد أن يظلم ، وسوف يحاسب كل إنسان على عمله . ولا تنفر بطول
العمر ، فاحياة الإنسان في هذه الدنيا إلا ليلحة ، وسيدت الإنسان حين وصوله
إلى الشاطئ الثاني (في الحياة الأخرى) ، وكل نفس بما كسبت رهينة ، وهناك
الأبدية لا شك فيها ، وويل لمن يحترقها ، وطوبى لمن أفى إليها وليس له ذنب ،
إنه يجبا كما يجبي الآفة .

إن الناس عبيد الله ، وهو يهديهم سواء السبيل ، خلفهم منه ، وعلى صورته ؛
وخلق لهم ما في الأرض ججاً ، وهو يسمع بكاءهم وشكواهم ، وقد جعل لهم رؤساء .
أوصياء عليهم يأخذون بيد الضعفاء منهم .



وقد عثر — فيها عثر عليه — على نوع من الأدب ملربف ، وهو كتاب سماه
علماء الآثار « شكواي الملاح »^(١) ، وقد استقرى هذا الكتاب الأنظار ابلاغته .

(١) هذه النصية مكتوبة على ورق البردي ، ومجموعة في منصف رابن ؛ وهو من آثار
الأميرة التاسعة من ٣٢٠٠ — ١٤٠٠ قبل البلاد .

وحلاسته أن ملاحا من إقليم وادي النطرون غدت غلاله ، حقل حمره . بعض
فناج قربته ، وذهب إلى أهناس ليبادل بها غلالا ، فمر في طريقه على حاكم بلدة
فراقت الحمر بما عليها في عينه ، ففصل الحاكم بأن الحمر أكلت في طريقها بعض
زراعة الفصح ، فضرره سرا مبرحا ، واغضب حمره . وما حملت ؟ قال جنبا للعلاح
إلى رئيس الحاكم فلم يصغه ، واستعظم هو وأخوانه أن يستنفوا للعلاح من
حاكم ، ولكمهم محبوبا من فصاحته وفرد حجبته .

وقد نص الرئيس فسته على اللك مبيئا له ما منح الفلاح من قوة في الأدب
وبلاغة في القول ، فشاركه اللك في إعجابه ، وأسره أن يبطل في حل فضيته
حتى يستخرج كل ما عنده من قول بليغ ، ولكن يُجرى عليه ما بقي أروءه سرا .
صاغ الفلاح في شكواه تسع حطب تنذف معاني جابله في مدح العدل
وذم الحال بروح عصره ، وأسلوب قومه ؛ فنها يخاطب الرئيس :

يا سيدي يا عظيم المظاء ، يا أغنى الأغنياء ، ومن ليس فوفه إلا عظيم
أعظم ، وغنى أغنى ...

أليس محببا أن يتحرف اليزان ، وبعوج المستقيم ، وبغفل الوزن ؟
نأمل . إن العدل ينزل من تحتك ، والفضة بظلمون ، ومن يشعر بالراحة
بترك الناس في عناء ، ومقسم الأرزاق مشتب ، والأكاف بالعدل يأمر بالمعروف ،
ومن عمله أن يتقضى على الفقر بجي الفقر !

تم يؤايب الرئيس وينبئ له الشر ، ويقول :
لست بينك بخبر ، وكرمتك يذبل ، وطورك وما شئتك نفي ، فقد عوى
البصير وصم السميع ، وأضل الرشيد .
لقد تخلفك الرحمة ، وأصبح مَنَّاك كرسول المناسخ أو « رنة الوفاء » .

إن الملك في قصره وسكان السفينة في بؤس ، وقد كثر الشغب بحوارك ،
والشكابة تطول والعمل فيها يبطئ ، والناس يتساءلون ماذا نعمل — أمن
الظالم حتى تتيقن الناس فيمتلك ، والآنم الخوف في الفول فالره قد يكون مصرعه
في لسانه .

يا من يملك مرافق الماء ! قد أصبحت أمك محروا الماء ولا أمك سفينة ،
وذا من يُهيج العارق ! نتج من غرقت سفينة .

كن كإله النيل يحمل الأرض الجداء أرضا خضراء ، ولا تكن كالسهيل
يهدم ما بأنى عليه ، واحذر الآخرة .

إن لسانك لسان اللباز ، وقابك وشعبك ذراعاه ، فإذا لم تعدل من الذي
يكوي الشر ؟

إن مثلك كمثل بلدة لا حاكم لها ، وطائفة لا رئيس لها ، وسفينة لا ربان
لها ، وعصابة اصوص لا كايح لها .

إنك حاكم يسرق ، ورئيس يرتش ، وموكل بالقضاء على المجرمين يصيح
نموذج المجرمين .

يا أيها الدبر العظيم : لا نخرمن فقيراً مثل من ملكه ، ثل الفقير نفسه ،
ومن اغتصبه كتم نفسه — ماذا تصنع ؟

ياك لتسمع الشكوى وتنحاز إلى القس ، ويضع المتقاضى أمامه فتمتدي ،
وبأمل التنهر أن يجد منك سدا يقية الفرق فيجذك تبارا يجره .

أفم العدل لرب العدل الذي يصدر عنه العدل — إن العدل لا يبنى ،
سيذهب مع صاحبه إلى القبر ويدفن معه ، ولكن لا يحى اسمه الخ .

تم كانت لم الأناشيد الدينية والأغاني الشعبية والنزل الرفيق ، وبعك تجودها
قطعة غزلية :

قد أنبال وما في من علة ، ولكن ليمودي جبراني ، وتودفني أخني^(١) ،
وسهرأ إذ ترى أطلباني ، لأنها نمل كامن داني .
دار أخني !

ليني كمت بوابا لدارها ، وإن أغصها ذكك نميت ببيع صوتها في غصنها ،
ووقت أماتها موقف الطفل من يها به إجلالا .

بل ليني كمت أنها السوداء ، التي تلازم خدمتها ، إذن ملأت عيني رؤيتها
وسعدت بالنظر إلى محاسنها .

بل ليني كمت خاتما في إصبعها ، أو عقد الزهر يطرقي عنقها ، ويداعب
صدرها .

ولكن هل في هذه الأمانى شأ ؟
تأوه في أن أركب النبل ، وأندم في نياره ، وأحج إلى بيت الله في
حفيس ، وأصرع إليه أن يرضي لرؤية أخني .

إذا اندست حق على ، وطوتها بذراعي ، فحرت بالسعادة في أعماق ، هي .
وإذا دنت مني ، وندحت ذراعها لي ، فحرت كأن أركب روائع الطور
تغمرني .

بإذا أدنت شعنا من شفق ، ولثمني ، مهلك السكر ولا خر ! .

ومن غزل الفتاة :

(١) كانوا يطلقون على الحبيبة أختا .

إني لأذكركَ فيضطرب على ويشد خفقاته .
 إن حبك ليخرج بي عن اللؤف من حياة أمثالي .
 فلا أعرف كيف ألبس ثيابي ، ولا كيف أنظم متاعى ، أو أكل عبي ،
 أو أخطر جسمي .

اسكن يا قلب وخف من خفائك ، وإلا رماني الناس بالجنون .
 أهذا يا قلب وتعامك ولا تعطرب إذا فكرتُ فبين أحب

ود جاء في صرم نبيه سواد شرها بالظلام ، وبريق ثنابها بالشر من
 حبر الصوان كما تزلوا بقدها المشوق ، وصدرها الزيان ، وسدها الناهد ،

ومن أناشيدهم :
 ما التكتل في الأرض ، والنهاية القبر ؟
 تشبه بالحق الأبدى العادل ، الذي لا يظلم أحداً ، السلام الذي لا يجب
 تعكير الصفاء أبداً .
 باليه يرجع الناس كلهم منذ خلق الإنسان الأول إلى أن صار الناس
 ولا تحصر لهم .

إذا خلق الإنسان دعى إلى سبل الرشاد ، ووعظ بأن يكون سلبا
 معافى ، بسل الخير ، ويذكر الموت ، حتى إذا جاء أجله استقل القبر
 جذلا مغنطها .

أبها الكاهن !

إن الموت الذي تتحدثون عنه ليس إلا الانحدار بأرجل الأبدية^(١).



وكان لم شعر، يدل عليه كتابة الفقرات منفصلة كل فقرة في سطر، وقد يرتبط السطر الثاني بالأول، وهذه الفقرات متقاربة الطول، ولولا الشعر ما كان هناك داع لنقطع الكتابة، ولكن لم يهتد الباحثون بعد لأورانهم الشعرية. وكان هذا الشعر مرتبطاً بالنشأ الذي بلغ عندهم مبلغاً عظيماً.

وقد لاحظ الباحثون أن مقطوعات الشعر المصري بكثرت فيها جملة تتكرر وتندور عليها القصيدة، مثل: «مَنْ أَكَلَمَ الْيَوْمَ» ونحوها، وقد يندى الشاعر باسم زهرة، ثم يردده في كثير من أبياته، كأنه يريد أن يستوحها العالي التي بصوغها.

وهناك حفيظان في الأدب المصري يجب أن نلقب إليهما.

(الأولى) أن مزجى النصوص الأدبية من الآثار وأوراق البردي يختلفون بها بينهم في ترجيحها، وسبب ذلك أن نظام الكتابة كان ناقصاً عندهم، فالكتابة لم توضع مرفها حركات تبين بالصحة موقع الكلمة من الجملة، وشبهة ذلك أنه يمكن نطق الكلمة بأشكال مختلفة، والكلمة الواحدة تصح أن تصدى على الكلمة ومشتقاتها من اسم فاعل، ومفعول، وصدر، وصل مضارع وهكذا، فمن هنا أتى الخلاف، فضلاً عن خطأ النسخ عند الكتابة.

(١) اعتدوا بها الفقهاء من تعادج الأدب المصري على كتاب «على حاشي الخراج المصري القديم» للفرحوم عبد القادر باشا حرة، وكتاب «عصر القديمة» بحريه، للأستاذ سليم حسن بك، وكتاب «المضارة القديمة» للفرحوم أحمد كمال باشا، وقد احصوا بعض النصوص ومشتقاتها سبعة بعدة أقرب إلى الأسلوب الأدبي مع الاحتفاظ بمعنى الأصل ما أمكن.

(والثانية) أن كل لغة — وخاصة في الآثار الأدبية — تؤثر في القارئ والسامع بمحاسنها ونفحات موسيقاها، وما يحيط بالكلمات من هالة، وبالبيئات واللاذات التي تحيط بها، فإذا أمكن نقل اللغتي في أمانة جسيبة أو تذرع غل ما عداها من جوها ودلائلها غلا صادقا صحيحا، وهذا ما سيواجهنا في كل أدب غير الأدب العربي المعاصر.



وعلى الجملة فقد طلت الآداب المصرية تنمو وتصح وترتق وتعمل عملها في النفوس بحوار معين فرقا، وكانت علاقة المصريين بميزم علاقة قوية، إما بالحروب والفتوح للأمم المجاورة، وإما بواسطة التجارة الواردة والصادرة، وإما بالبعوث ترد إلى مصر لدراسة حضارتها وعلومها وفنونها ودينها، ومن بقوا كانوا ينفلون خلفت كله إلى بلادهم

كل هذا جعل آدابهم تؤثر — كعلومهم وفنونهم — في الأمم حولهم إما من طريق مباشر كقائمه المبرانيين واليونانيين بالمصريين، أو غير مباشر كقائمه الآداب الأخرى بالعبرية المتأثرة بالمصرية، أو تأثير الرومانيين باليونانيين المتأثرين بالمصريين.

أدب الصين

ولندع الآن مصر وغيرها من أقطار الشرق القريب، ولنسير إلى «الشرق الأقصى» البعيد، إلى حيث الصين، إلى حيث كُتبت الكتب قبل أن تنبت دجبة الأدب في أوروبا عشت من البتة. وآثار الصين القديمة مكتوبة على أنواع من ألياف الخيزران، يُحط عليها بالسهر آتًا، ويكتب عليها بالمداد

آثا آخر ؛ وكذلك كتب الصينيون على نسج الحرير ، وصنعوا الورق في القرن الأول قبل الميلاد ، وعرضوا الطباعة بالحروف المتحركة قبل أن نعرض أوروبا بثلاثة قرون .

كان الأدب الصيني القديم يدور حول مبادئ الأخلاق ، جمعوا الحكمة السالف فيها يجب أن يكون عليه سلوك الخلف ، ودونوها لتكون أمام الناس مثلاً يحذون ، نهى لهم سعادة الدنيا والآخرة ؛ وكان الكتاب الصيني يحتل في نفوس الناس وفي خطر الدولة مكانة ممتازة ، حتى كانت تُجرى عليه الرقابة المملكية . وبلغ الأدب الصيني القديم من التنوع والجودة حداً بعيداً حتى لا يتكاد يقتضيه إلبه أدبهم الحديث شيئاً حديثاً ، فالأدب الحديث لا يعدون أن يكون امتداداً على الأدب القديم ؛ وإن لهذا التراث الأدبي القديم من الأثر في نفوس أهل الصين ما جعلهم يحبطونه شيئاً من التقديس ، ولا يجربون لأحد أن يخرج على قواعده ؛ ولهذا كان الصينيون من أكثر سكان الأرض جوداً وثباتاً بالقديم ، هم بعدونهم زنديقة أن ينافس كاتب حديث كاتباً قديماً ؛ ولذلك فهذه اللغة الصينية كما هي ، لا يسلها شيء من التغير والتجديد .

رأى الصين ، ووضع الأسس لأدبها وأحلامها ، هو كونفوشيوس^(١) . والذي نسميه بالديانة الكونفوشية إنما هو في حقيقة الأمر ديانة فنية ضيقة هذا العظيم في فكره حديد ، وأسلوبه جديد ، ونظامه خالي جديد ، لينفذ ، وروحه طيبة دليلاً يبتدون به في سلوكهم ، وينهجون على سبيلهم في سياساتهم . فلم يكن كونفوشيوس حالاً ولا شاعراً ، ولا هو أراد أن يحمل من ديانته عقيدة لاهوتية وكونفوشية ؛ إنما وُجِّهَ همه الأكبر نحو مشكلات الحياة — حياة الفرد وحياة

الدولة على البواء ؛ وما أشبه في ذلك سقراط الذى شهدته اليونان بعد أن ظهر كوثوشيوس فى الدين بفرن كامل ؛ ولكن سقراط كان ينظر إلى مشكلات الأخلاق من الجانب النظرى ، أما كوثوشيوس فلم تكن نمنه إلا سعادة الأفراد فى حياتهم العملية . فأهل الصين من حيث هم أتباع كوثوشيوس ، قوم لا دين لهم ، إن همنا كلمة الدين بمعناها الضيق المحدود ؛ لأن الدين هذا المسمى يعترف بوجود قوةٍ يسيطر عليها البشر وتبشر على شعبهم ، ولكن مفسوف الصين لم يعترف فى تعاليمه بوجود مثل هذه القوة ، وإنما حصر نفسه حصراً فى الإنسان نفسه ، ورسم له حطة السلوك ؛ وعلة ذلك أنه ظهر بين قومه فى القرن السادس قبل الميلاد ، حين أخذ النظام الإنطاعى فى الصين يتداعى بناؤه ويتحلل روائعه ، وأخذت تشب على إثره حروب أهلية متتالية قاضية : إزاء هذا الرجل رسولاً للنظام ، يؤمن بضرورة أن تجتمع السُلَماة فى بلد واحدة قادرة ماهرة ، ما أسمها بما أطلق عليه « كرايبل »^(١) اسم « البغال » ، وما دعا « نيث »^(٢) « بالإنسان الكامل »^(٣) .

هذه الحكومة التى يحسك زمامها فردٌ واحد ممتاز كانت مُقَدِّدَ الأمل عند كوثوشيوس ، وقد كان وزيراً لأحد أمراء الصين ، فأحب أن يُبَنِّه الحكومة الخلقية الصلبة ليصمدل ملوكه ، ولستمع له الأمير حيناً ، ثم ضاف به وفاء ، لأنه آثر على وعظه صحة التوائى الراتصات ؛ ما تفق كوثوشيوس خيره من مرنحلا من دولة إلى دولة ، يُبَلِّغُ الأخلاق حبيهاً خُلً ، ثم عاد إلى وطنه فى سن الشيوخة ليجمع فى الكتب أشنات حكته .

ويجمع هذه الحكمة الكوثوشية خمسة كتب : كتاب التاريخ ؛ وكتاب

الفطرات ؛ وكتب الشعر ؛ وكتب الشعر ؛ وأحب الريح والظرب ؛
ولبت هذه الكتب بالجدية في مادتها ، إنما هي إنتاج قديم في ثوب جديد ؛
والكتاب الوحيد الذى بعد من إنشاء كوثوشيوس هو « أحب الريح
والظرب » ؛ وهالك مثالا لأدبه ؛

« قال الشيخ ؛ إن الرجل الكامل هو الذى ينجم أخلاقه على التسعور
بواجب ، ثم يصيف إلى شعوره ذلك التزاماً وناسقاً في سلوكه ؛ وهو يدل على
ذلك بما يديه من روح للتضحية ، وعليه أن يكل أخلاقه ، مبذبة إلى ذلك
كله المصدق والإخلاص ؛ بلن صل ، جوسقاً ذو خلق مبدل .

الإنسان الكامل يبحث عن حاجته في نفسه ، والإنسان الأدنى يلتصق
بحاجته عند الآخرين .

الإنسان الكامل حازم في غير صنف ، يحب الإنسانية في غير نمص لفومه
الحكيم لا يرجع من قول لقائه ، ولا يزل من قدر قول لقائه .
وفي الصبي اليوم مثبات الألف من يحفظون كسب كوثوشيوس من ظهر
قلب ، بل إن أنواله لتجرى على ألسنة السامة مجرى الأمثال .

الأدب الهندي

كانت السهول القصيدة القريبة من بحر قروبن في للناسى السحبى موطننا
لعائلة من قبائل الرعاة ترعها وشائج القرى واتحاد الامة ، وكان يسمى بعضهم
بسا « آرياس » أى الأصداق ؛ ولكن سرعان ما دب بينهم التناس وتشتب
القتال ، وانتهى الأمر ببعضهم إلى الحجرة جماعات جماعات ، وأخذوا بفرجون
في مسالك الأرض شرقاً حتى آتوا عصا التسيار في غلب كثيف ، فأنخذوا

الدؤوس من الصخر القاسى القليظ ، يحطون بها الشجر ، ثم يحركون بأغصانها
 القربة ويطحنونها ، وهذا تحول هؤلاء الرعاة الرحل إلى ملاحاة الأرض ؛ لكن
 فلاحاة الأرض لبثت زمانا طويلا مزدحاة لا تليق بنهر العميد ؛ ولذا أخذ سادة
 هؤلاء الرعاة يملكون الأرض ويستخدمون الطبقات البعيدة في حرثها وملاحتها .
 ولكن هل نفع تلك التنازل الراحلة الطامحة ببقاع ضيقة محصورة فوق
 الجبال ، وعلى مقربة منهم — في الشمال الغربي من بلاد الهند — سهول خصبة
 غنية تمتد ما امتد النهر ؟ إلى تلك السهول القسيحة الخضراء شذوا الرجال ،
 فلقبهم أهلوها « الداسيون »^(١) بنصف المستحيل في الدود عن حياتها ، لكن
 ماذا تجدى الحاسة أمام قوة التنزاة ؟ فلهؤلاء الآر بين كشيبة النصر ، « امتقروا
 وطاب لهم المقام ، وأصبح يطلق عليهم فيما بعد اسم الهندوس . وأما « الداسيون »
 فقد حصص منهم فريق استخدمه السادة الظافرون في فلاحاة الأرض ، وهم من
 أطلق عليهم فيما بعد اسم « شودراس »^(٢) وهم أدنى طبقات الهندود ؛ وأبى فريق
 آخر أن يستسلم فلاذ بالفرار إلى الدكن^(٣) ، وأوى إلى مستنقعاته وعاباته
 حيث لا يزال إلى اليوم رابسا .

وكانت هذه الحرب بين الآويين التنزاة وأهل البلاد الأصليين مصدرا
 لعاطفة كبيرة من الأساطير والأغاني والفرانيم والدعوات ، أخذت تتجمع على
 مر الزمن ، ونسكتسب غداة في أعين الهندوس ، وسها يتألف « انشيدا »^(٤)
 التي هو الكتاب المقدس عند الهندوس ؛ وعقيدتهم فيه أنه وحى من الله أوحى
 به إلى قادة العهد النابر وأنبياؤه ، وعن هؤلاء تلقاه « البراهمة »^(٥) ، وهم طبقة

(١) Shudras ومن صميم تكون طبقة الهندوس .

(٢) Dasyas

Brahmins (٥)

The Vedas (٤)

Dehans (٣)

الكهان الذين أخذوا على أنفسهم صيانة القبدا من الدنس . والغرائم التي قد القبدا دعوات موحية إلى قوى الطبيعة ، وهذا الفجر الذي يبدد ظلمة الليل وينشر صوته على جبين الصباح ، وهذا الغروب الذي ينمش النفس للكروية بعد عتاء النهار وشبهه الخربة ، وهذا الثقب الذي بُنيت لهم القبة ، كل هذه يتم نسوج الحد ؟ ثم ماذا يجذب القوم غصة الصواعق وتورق العواصف غير الزايم الدينية والقرابين ؟ في القبدا صفوات ودعوات لبكثرة الله الحب والاشبه وبطيل الأعمار وببازك الأبناء ؟ وفيه دعوات قد أن يكون الآر بين مولى ونميرا ، وأن يكون على الأعداء قسمة وبلاء ؟ وفيه نرائم من الحبسة الآخرة لخالود الروح .

وبعد أنت استقر الأمر للهندوس في سهول البنجاب استأنموا الزحف شرقا ، وأمسوا بمالك على حفاف الكننج ، وغلت منهم نبلتان على غيرهما من القبائل هما : « بانجولا »^(١) و « مهارانا »^(٢) ؟ ثم نشبت بين الغنيلتين حروب في الوقت الذي كانت فيه « بوش الإغريق » محاصرة مدينة طروادة ؛ وهذه الحروب هي موضوع ملحمة شريفة طويلة يترجح فيها التاريخ الأساطير ، وتسمى قصة « ماها مهارانا »^(٣) وحلاصتها أن « يادو »^(٤) كان حاكما على « مهارانا » ، ومات عن خمسة أبناء ، تولى العرش بعده أخ له سر بر هو « ذر باراشفرا »^(٥) وكمل أثناء أخيه الحقة ، وقاد على ترينهم في قصره مع أمثاله ؛ وكان يطلق على أبناء يادو « أمراء يادانا »^(٦) ، وعلى أولاد ذر باراشفرا « أمراء كورانا »^(٧) أما « بانجولا » فكان يحكمها عندئذ « درويدا »^(٨) ، وحدث أن استخف

Maha Bharata (٢)

Bharata (٢)

Panchalas (١)

Pandava (١)

Dhritrashtra (٥)

Pandu (١)

Drupada (٨)

Kaurava (٢)

بأحد أسراه وهو « درونا » ^(١) فانتقم لنفسه بانتقامه إلى الدولة للاماسة ، دولة « بهاراتا » حيث قام بتدريب أسراه الملك على أعمال الفروسية ، وأبلى في ذلك بلاء حسنا ؛ وكافأه الملك الصرير بأن أعد له جيشا يقاتل به عدوه « دروبادا » ، وبهذا الجيش استطاع « درونا » أن يستولى على شطر عظيم من أرض « بانجالا » .

وأراد الملك الصرير « ذربتاشقرا » — نزولا على رغبة أخيه — أن يعين أكبر « أسراه بندانا » وارثا للعرش ، لكن « أسراه كورافا » — وم أبنائه — فامروهم وحلفوه على أن يجعل ولاية الديد بهم ، فلم يسمع ذلك الشيخ الضعيف إلا أن يقيم ابنه « دريودان » ^(٢) وليا للمهد ؛ وكان هذا الأمير حقودا مظل بدر لأبناء عمه للكلاند حتى صدر الأمر بنفيهم ، ولم يكمه ذلك ، فأعد العدة سرا أن يشعل النار في دارهم وم نيام ؛ لكن أسراه بندانا علموا بالأمر ومروا هارمين إلى الناهات يحثون في مكائنها .

وكان من تقاليد الهندوس أنه إذا أرادت إحدى نياتهم الزواج ، دعت حاضيتها إلى مبالاة حربية ، يكون الظاهر فيها حق رواجها ؛ مبينا كان أسراه بندانا في غضبهم من النابة ، جاءهم نيا أن ابنة الملك « دروبادا » قد اعتزمت أن تنفي المبالاة لزواجها ، وأن الأميرة قد صممت أن تتخذ أمير الرعاة لها زوجا ؛ لما علم بذلك « أرجون » ^(٣) — أحد الإخوة الحسة — وكان في الرماية ماهرا لا يبارى ، قصد إلى عاصمة « بانجالا » وتوجه إلى قصر « دروبادا » حيث تقام المبارزة في فئاته ؛ وجاء يوم المبالاة ولزادت حركات المدينة ومنازعا بأكاليل الزهور ؛ ووصل الأمير « أرجون » متفكرا في ثياب كاهن برهمي ، وضرب في

المختد للترام أمام القصر ؛ وما إن فتح في الأبواب إذنا وصول الخاطبين إلى حلبة النزال ، حتى شخصت الأبصار إلى الفرسان وعتب لم الشب هتافا عاليا ، واشتد الغتاف حين قدمت الأميرة المخطوبة « درو يادی »^(١) في ثياب عرسها ، وحول ذراعها طوق من الزهر ؛ وجاء إلى الحلبة عدد من أشداء الجند يحملون نوسا ضخمة ثقيلة أعدت للقتالين ، وعبر الفرسان واحدا بعد واحد عن حلها والزمي بها ؛ وعندئذ برز من الجمع المختد شلب في ثياب الراحه وحل الفوس ورمي بسهمه يادا به يصيب المهدف في الصم ؛ فترعت الأميرة طوق الزهر عن ذراعها ، وطوفت به عنق الظاهر إعلانا لزواجها منه . وكان سائر الخاطبين من طبقة المهاربين^(٢) مسررت بينهم موجة من الحزن الكتيب ، وتهاوسوا مستنكرين أن تؤثر الأميرة كاهنا على الفرسان الأشراف ؛ وكان بين طبقى الكهنة والأشراف عداوة شديدة ، فل يبع الأمير « أرجون » أن يزع عنه ثياب الكاهن ليهدي بين الجمع على حفيته أميرا بطلا .

هكذا عاد نجم « أسراء بنداق » إلى السمود حين نروج أحدم من أنة الملك درو يادا ، مكان لم من هذا الملك حليف موى ، أيدم في المطالبة بمفهوم في أرض سهارانا التي كانت لا يزال على عرسها « در بنار شقرا » — الملك الصرير — فأجابه هذا الملك إلى طلبهم ، وزل لم عن النصف القربي من مملكته ، وكانت بيبا بقسا ، وترك لأبنائه « أسراء كورافا » النصف الشرقي الخصب ؛ لكن « أسراء بنداق » أخذوا يوسعون من ملكهم ويشيدون به المدن — ومنها مذبذبة دلي — حتى أتاروا بنجاحهم كامن المخذ والغيرة في نفس « در بوزان » الذي سيؤول إليه ملك أبيه الصرير ؛ فأدار في دهنه مكيدة

نكرهه ، ودعا أبناء عمه الخسة إلى حفل سيج يقيمه في قصره ؛ وهناك أخذ بلاص أكبر الإخوة بمقامر هذا في اللعب على مائتك من ذهب وفضة وتيجلات وحبلة ، ولا يخرج من أشواط اللعب إلا خاسرا ، ولا تريد الخسارة إلا حارة في مواصلة اللعب حتى يخرج صفر البدين ، وانتقل كل منكم إلى ملاعبه ومنامسه الذي فره مخدعته لا عماره .

هذا تشرد الإخوة من جديد ، واشتغل عليهم أن يهبوا على وجوههم اثني عشر عاما ، ثم استغفروا في إحدى المدن عاما آخر ، فإن نهر أسراء كوراثا أن يجدوم طرال هذه السنين ، أعيد لهم ملكهم الصانع ؛ ونصد الإخوة إلى حيث الفتيات البعيدة ، وكان معهم الأميرة دروبادى — زوجة أرجون — أحد الإخوة الخسة — لسكنها لم تكد في مفاخر ثيابها كمهدنا بها ، بل كانت مهلولة الثياب حافية القدمين .

ولقد رويت القصص عما لقيه الإخوة الخسة من صروب العناء والضيق في حياة القاعة ، وجمعت في كتاب اسمه « كذاب الدابة » ، وفيه من النقص أروعها ومن الأمثال أحكمها ؛ ولذا فهو من أجل أحرار فضيدة « ماها مهاراتا » التي بروى لك حلاصتها .

ولما انقضى على الإخوة في حبهم الأمد المصروب ، جاءوا إلى إحدى المدن في هيئة زوية ؛ فارتدى أحدهم ثوب الرعاة ، واستخدم ثان في مطبخ النعمر المسكي ، وعمل ثالث في استطلاات الملك ، والنصف دروبادى محاشية للذكة وصيفة لها ؛ ومضى من العام الثالث عشر عشرة أشهر ، وابتهج الاخوة أن ند دما موعد الفكاك من هذا النفي والقشريد . ولكن حدث أن رأى قائد الجاش دروبادى فأحبها ، فلما صدت عنه وأعيتته الحبل في اجنذابها ، أساء إليها التند ،

مذارت من أحد الإخوة ثورة العصب وقتل ذلك القائد الميمنى .

وكاست عبون « در بوزان » عندئذ تنطلق فى كل أرجاء الهند بحثا عن هؤلاء الإخوة ، ولكنها عادت بلا نصيب مولاها بموضع الإخوة ، بل بنيا اضطراب وقع فى « ماتسيا » — وهو البلد الذى كان يقم فيه الإخوة — فانهز أمراء كوراثا هذه الفرصة السانحة لبصوا ماتسيا إلى ملكهم ؛ فخرج جيش حائسا لبلال العدو المفير ، وكان على رأسه أمير صغير لم يجارس الحروب ، وكان يفود عرسه « أرجون » — أبجد الإخوة ، وهو من ذكرنا قصة رواجه بالأميرة درو پادى — لم يكد الأمير الصغير يرى العدو مقبلا حتى سقطا بهشبا عليه ، هرب « أرجون » صائحا : « أنا أرجون » ، وهم فى وجوه العدو هبوا رنعت هذا جرائعهم ، ودب الاضطراب فى صفوفهم ، فعدوا فى هرج كاعا ثم قطع من القم يعدو من الفزع إذا سمع رثير الهيث .

واقضى العام الثالث عشر ، وطال الإخوة ملكهم ، لكن « در بوزان » أخذ براوعهم متعللا بأن « أرجون » قد كشف من عهده قبل أن ينفضى العام ، وذارت بين الفريقين حرب كان النصر فيها حليف الإخوة الحقة — أمراء باندانا — وسقط بها در بوزان صريحا .



ومن أجل القصص الشريرة التى وردت فى « ماها مهارانا » قصة « نالا » و « دامايانى »^(١) وهى حرب من شعر الرعاة ، وبشبهها بعض النقاد « بأماشيد الرعاة » للشاعر الرومانى « فرجيل » ؛ وحلصة القصة أن « نالا » ملك سام طامع يوما بناصر ملكه وكان من الخاسرين ؛ وأخذ « نالا » وزوجته بصربان

في غايه ، حتى شاء لها الحظ العاثر أن يعترقا يحمل كلاهما عن زميله ؟ وسرت بالملكه « داماباتي » قائلة تحمل للتاجر صطقوا عليها ، وعرضوا أن يمدوها إلى مدينه فريبه ، وجلسوا يستريحون في مكان جميل « حيث :

بحرى لله ينساب هادئا بغير موج
وفي حواشيه القاب منشر
ووقف الطير ألوانا بغي
وتزام الحيام ، وسبحت الأسماك ونلوت الأماهي
ولزذانت حامة الماء بالزهر والشجر
ورنت في الهواء أغاريد الطيور الصادحة

في هذا المكان جلس أصحاب القاطع يستريحون ؛ وإذا بفطام من القبله يهجوم من حيث لا يعمرون ؟ فسقط « داماباتي » مضطحا عليها ، ثم فبق وقد زال الخطر « ولكن وأسفاه ، قد ارتطمت القاطع وحلقتها وحده كما كانت ؛ فأخذت المرأة للسكينه تمشي بدمعين داميتين وشعر أشعث ، نضل في مناعة القايه حبنا ، وتهندى إلى الطريق السوى حيننا آخر ؛ حتى دخل غفلا ، وأنهك جسدها ، وأصبح الموت لها أمنيه ترقمى ؛ وأخفتها صفة من النوم ، لما استيقظت وأصنّت سبرهاء مرن في مسمعا خربير ماء دافق ، فأسرعت نحوه ، وإذا بها ، وأفرحتاه ! تجد عند جدول الماء مغرجا من القايه ؟ وامنتت أمام بصرها الحفلول اليانسه ، وشهدت هنالك في الأفق — حيث الشمس الثاربه ترسل ضوءها الخافت — عمودا من الدخان يتلوى صاعدا ، فأخذت تحمها نحو المدينه ؛ وبينما هي في طريقها إليها إذا بالملكه في عمرتها ماضيه إلى زهنها ، فاستوقف نظرها هذه المرأة التي ييم وجهها عن جلالها على الرغم من أسنال ثيابها .

فأمرت تركوها : وأعنت محبتها ، فاحتضنت بها وصيفة في قصرها ، ونس هذا القصر الذى انتهى إليه مطالعها سوى قصر ابن خالتها - ولما علت الملكة أن وصيفتها هى الأميرة « داماياتى » أقبلت عليها نفسها فى لفه ، وتقبلها وعينها ندمان إشفاقا وسرورا ؛ ثم أرسلتها إلى أبيها - وهو أحد الملوك - فى حاشية نليق بمكانها ، وحملها من ثمن الهدايا ما هو خليق بها .

أما « نالا » فكان قد انتهى « الأمر أن يعمل فى حاشية أحد الأمراء حاشيا لمرتبته الحربية ، ولم يكن يحزنه سوى فراق زوجته ، وكلا تحبها شربة فى النوبة أو سفارة بين أشجارها حيث هامة ضاق صدره ودمعت عيناه ؟ ولم تسكن « داماياتى » بأقل منه حزنا على فراق زوجها ، فأعلنت على اللا أنها ستقيم حفل البارات بين القصران لاختار لنفسها زوجا - لصل الدعوة تبلغ زوجها فيأتى لفاتها - وكان بين الأمراء المطالبين من كان « نالا » يصل فى خدمته ، وجاء الأمير بنود له المربة « نالا » ، فسا كان أشد دهشة حين وجد المدينة خاوية لا حفل بها ولا ربة ؛ وإنما جلست « داماياتى » هناك توب الزائر حتى أبصرت زوجها قادما فى عربة الأمير ، فاندفعت إليه وارتجت بين ذراعيه ، وكان اللقاء حارا جيلا .



نلك حلاصة قصيرة للنص طويطة يروى فيها الهندوس غار بهم مروجاً بالأساطير ؛ ويرجع مؤرخو الأدب الهندى أن تكون هذه للنص من نتاج عدة شعراء ؛ وحسبك أن تعلم من صفاتها أنها لو وضعت الإلياذة والأوديسية والإلياذة والفردوس المقود إلى جانبها لما بلغت من الطول ما بلغته نصيده

ماها بهاراتا ؛ ولكن الرأي الشعبي لا يرضيه إلا أن تكون هذه القصة الوطنية
شاعرا واحد ، فينسبها إلى « قيسا »^(١١) .
فهي صفة رامايانا^(١٢) :

لم نكن أغاني « ماها بهاراتا » وحدها مستفجرة بالأسنة اللندين ، بل قام
إلى جانبها قصيدة أخرى أوسع منها انتشارا بين عامة الهند ؛ وهي قصيدة تروى
منامرات « راما » وشاعرها هو « قتيكي »^(١٣) ؛ ولئن كان أساس « ماها بهاراتا »
هو الفروسة في الحروب ، فإن محور « رامايانا » هو الحب ؛ وقد نالت « رامايانا »
معنا لا ينضب للمسرح مدى ألف عام أو يزيد . وخلاصتها :

أن قبيلة « قنديها »^(١٤) وقبيلة « كوشالا »^(١٥) كانتا جارين صديقين ،
أضامنا إلى رابط الود صلة الصاهرة ؛ فتزوج « راما » — وهو أمير في كوشالا —
من « سينا »^(١٦) — وهي أميرة في قنديها ؛ وتطور القصة حول با لانيه الزوجان
في الحياة من مؤس ولهم .

كان « راما » ولها قهر في مملكة أبيه ، لكن أباه وعد إحدى ملكاته
— وكان كثيرات — أن يبنى له « راما » عن أرض الوطن أربعة عشر عاما ،
وأن يرضى بالعرش من بعده لابها « بهاراتا » .

وكان « راما » يازا بالده مطبعا ، ينادي الوطن طوعا لأمر أبيه ، وصحبته
زوجه « سينا » وأخوه « لاكشمان »^(١٧) ، وفصد ثلاثهم إلى غابة في الجنوب ؛
ولما كان « راما » متدبنا بطمه ، كان أثناء إقامته في الغابة يزور الرهبان في

صوامعهم حيث يندبدون ويتلقون الوحي من الله ؛ وقد أحب أحدهم — وهو أجاستيا^(١) — راماً إيماناً شديداً ، ففتح سبياً مسجوراً يساعده في خطر صديق .

ولم يمض طويلاً زمن على غنى «راما» حتى أحس للكب فداحة فعلته ، فوذه الحزن وأسلم الروح في حسرة ولوعة ؛ ونوى لثقت بعده انه «بهاراتا» ؛ لكن هذا الأمير الصغير كان من شرف النفس وزاغة الضمير بحيث أمرح من موره إلى أخيه «راما» ليميدته إلى العرش ؛ فكان جواب «راما» أن موت أبيه لا يبرئه من عهد فعله على نفسه أن يظل بيداً من أرض الوطن أربعة عشر عاماً ؛ وعاد «بهاراتا» كارهاً نائفاً على أمه التي وضعت — بمصنفاً — في هذا الوضع البئيس ؛ لكن «راما» أوصاه بأمة حيراً .

وكان على جزيرة سيلان في ذلك العهد ملك يدعى «رافاتا»^(٢) هوى الفصيدة مثال الشر والسوء ، بينما تتجسد في «راما» الفضيلة والخير وروح التضحية ؛ ولم يكن «رافاتا» قط المانعة غلبت القلب غلب ، بل زاده الله سوءاً ، خلفه في جسم إنس مخوف ؛ وكان له صديق يدعى «ماربكا»^(٣) ، وكلاهما ساحر ماهر ، يستطع أن يتضمن أي جسد وبهاكي أي صوت ؛ وقد حدث أن صادت أخت «رافاتا» أنشاء نجلها في الغابات «راما» هامت بحبه ، ولكنه لم يبادلها حباً محب ، فصرعان ما تحول رحيق شفيتها إلى سم زعاف ، وصممت أن تأخذ بالثأر لقلبها الجريح ؛ فصادت إلى أحبها «رافاتا» وأخذت تطلب له في وصف «بيتا» التي تفنن القلوب بجعلها . ولم تزل به حتى أشعلت الحب في نفسه ، وأقسم ليعمدن إلى حب هذه الفتاة الرائجة

فبتزحها من ذراعى حبيبها ؛ وأمر بمرته الموثبة أن تعُد ، واصطحب صديقه « ماريكا » وقصدا إلى النابة ؛ وهنا بدع الشاعر ويحمد في وصف تلك العربية السحورة وما نقش عليها من رسوم ، حتى لبذكر القارىء قطعة جميلة في إلياذة هوميروس يصف فيها درع « أجيل » وما نقش عليه من صور .

كان « راما » وزوجته « سبتا » وأخوه يستمتعون ذات مساء بهواء النامة النمش الطبل ، وإذا بهم يشاهدون غزالا وشيئا يبدو إلى جابههم مسرعا ، وكان الغزال يلمع كأنما يسيل من جسمه ذوب النضار ، هودت « سبتا » حين رآته أن نظفر به ؛ فها هو إلا أن ذهب « راما » بطارده ليمسكه ؛ وما كان الغزال إلا « ماريكا » قد تبدل بقوة السحر هيته ، غلبت « ماريكا » بدو فربها من مطارده حتى بفريه ، لكنه بفلت يميناً أو يساراً فلا يملكه من نفسه ، ولم يزل به يخادعه على هذا النحو ليهده عن موضع حبيبته « سبتا » حتى ضلقت صدر « راما » وقذف بهم يربد أن بفنك ؛ فاصاح « ماريكا » صيحة عالية بقدر بها صوت « راما » ، فارتفعت « سبتا » لاستغاثة زوجها ، واستحلت أخاه « لاكتيان » أن ينقذ زوجها وحبيبها ؛ وبقيت في مكانها وحيدة تنتظر « راما » بصبر نافذ وصدر مضطرب ؛ وشاركتها الطبيعة في حزنها ، ضامت السماء ، وأمسك الطير عن تنريده ، وارتفعت الأزهار وأخضت رءوسها العطرة ؛ ورفمت « سبتا » بصرها فإذا بكاهن يقف إلى جانبها ؛ إنه « راقانا » اللعين ، وأسرع هذا الشيطان البغيض قبل أن يعود « راما » ، وانقض على « سبتا » كما ينقض الثور على فريسته ، وعاد بها مسرعا إلى قصره في مدينه « لانسكا » بجزيرة سيلان .

وعاد « راما » فلم يجد زوجته ، فهام على وجهه في أرجاء النابة باحثاً

نادياً ؛ ولما علم حقيقة الأمر فسد مسرعاً إلى مكان « راقانا » ؛ وفي طريقه إلى الساحل الجنوبي مرّ بالقلم نسكنه قبيلة متوحشة ، سورّها الشامى في هبة الفردة ، فحاولت تلك الأمساخ أن نعوّفه عن السير ، ولكنه شق طريقه بينها في غير خوف ، فأهبطت القردة بيسالته وحالفته ، ونطوع جيش جرار منها أن يصحب « راما » ليحاربه على عدوه .

بلغ « راما » — على رأس جماعة القردة — الشاطئ الجنوبي ، وبظفر أنه لم يكن للهندوس في العصر القديم سمن ، فكيف عبر « راما » وجمعه البحر إلى سيلان ؟ عادت القردة إلى جبال الحملايا ، رجاءات تحمل أثقالا لا حصر لها من الصخر ، فذنت بها في الماء فتنبثت بها جسراً يصل ما بين الأرضين ؛ وعطف إليه البحر على « راما » أيضاً ، فرمى له قاع البحر حتى يهون على الفردة ما كانوا يستعمون ، « وما دامت السماء سما والأرض أرضاً ، فسبغل هذا الجسر مائلاً باسم راما »^(١) . وعبر جيش القردة إلى مدينته « لانكا » فحاصروها ؛ وندفق من المدينة سيل من الجند يدسون عنها هذا العدو الخبير ، ولكن هبّات أن ينزعج القردة عن مواقعهم فيد أغلّة ؛ ولبثت الحرب سجلاً سبعة أيام ؛ ثم مال البأس من « راقانا » فهجم على « راما » هجمة عنيفة برى أن يهوى عليه بفأسه ؛ ولكن « راما » سدد إلى صدر عدوه سهمه السحور الذي كانت أخذه من « أجاسنيا » الراهب ، فأرداه فتبلا بتفزع في دمايته .

أطلق سراح « سبتا » من سجنها ، لكن محبتها لم تلبث أن تنهاه بد .

(١) الجريبات العشرة المتفرقة بين الهند وسيلان لا تزال تسمى عند الأهالي « جسر راما » ، وهي التي تسمى في كتب الجغرافيا « جسر آدم » .

خدا ارتاب «راما» وشك أن يكون «رائفا» دنس طهرها ، وكان لا بد من إقامة البرهان على طهارتها ؟ وهل لمثل هذا البرهان من سبيل في تلك المهود الأولى غير نار نَشعل ثم يُلقي بالثمرة في سمرها ، لتحترق بنظاها إن كانت آتمة ، أو تكون عليها النار برداً وسلاماً إن كانت ريشة ١٩ وأعدت الناور — وكانت «ميثا» قد حَزَّ في نفسها شك روحها — فوثقت إلى جوف اللهب المستمر ، لكن «آجنى» — إله النار — أعاد الزوجة الطاهرة إلى زوجها الذي ضمها إلى صدره وعيناه تدمعان من المرح .

وعاد الزوجان إلى عاصمة ملكهما في «كوشالا» ، وكان قد انقضى عليهما في النفي أربعة عشر عاماً . وجلس «راما» على عرشه .

ومن أعظم شعراء المندوس — فيا بعد — «كاليداسا»^(١) ؟ ومن قصائده فريدة عنوانها «سلاقة راما» ، فيها وصف جميل لمدينة كانت قصبة الملك وموطن الأبهة والجلال ، ثم زال عنها كل ذلك حين انتقل مقر الحكومة إلى مدينة غيرها :

كانت هنا بحيرة تُردُّ إليها التانبات لتتبرّد بمائها .

وكان لموجها للتلاطم أنغام تُشجى .

فأصبحت اليوم مورداً لوحشى البقر تضرب مائها بقرونها .

فلا تسمع الآن غير الصدى لصوت الماء نلطمه القرون .

وهنا ~~شاوروس~~ يختال بتاجه الساطع .

بين الأغصان للقرنفة حيث طاب له الغمام .

وهذا النستان كان مرتفع الحسن .
 كنّ الزهر فاطقات ، وبالماء عابثات .
 فأصبحت اليوم لا أرى غير القردة في مرعها الوحش .
 تعرك الزهر بأفداسها ، وغرق الدباب بحر كانها .
 وفي القصيدة صيغة من نعمة الفيدا ، إذ تخرج فيها السحبات القسفية بأشعار
 الوصف في كثير من مواضعها .

ولهذا الشاعر أيضاً قصيدتان غنائيتان : قصيدة عنوانها « رسول السحاب »
 وأخرى عنوانها « المصول » ، هلك بعض أجرائها :

ها هي شمس الصيف المحرقة
 قد مدت على عرش السماء سلطانها
 وأخذت لوائح الريح تهب طليقة من أغلامها
 فيس السحب وصوح الشجر

وها هو ألهي ملك التساق
 انظر إليه هاتماً بين أشجارها
 وقد اشتدت عليه وطأة الظلم
 فزال صدره اللاهت صاعداً هابطاً

وها هي الكهوف في صخر الجبل
 قد ابدنت من جوعها الثيران الهائجة
 ألسنتها مدلاة من أمواها والزبد يحيط بها
 ترفع خياشيمها الواسعة عالياً

واكنوث الطواويس بذعة الشمس سطوت أذبالها ،
 واضطربت الضمادع موثبت من الماء لا تأبه لها الأمانى
 وقد رصت رأسها إلى الهواء حامدة
 لعل هبة ريح تحربها في الطريق شلودة
 ثم يسقط الطير فيحس الأرض بمد مونها ، ويملا الجو بأريجها ،
 وتنضج الأزهار في مختلف ألوانها
 وبحيرات الماء تزدان بالأزهار تنفتح أكمامها
 والحدائق ضاحكة طروب بأعراش وباحينها
 والغابات أزيفت لتبهج الناظرين
 فكشفت عن زهر ناصع جبل



ولنمد بعد إلى الأدب العربي فنرى أن غلادم السند على حياة الآريين
 الأوائل في سهول البنجاب ، حمل الجيل الجديد نفس ما لازم تلك الحياة من
 دقات وتقاليده ؛ ولما كان كتاب « القدا » — كما قدمنا — يدور حول حياة
 الهندوس الأولين ، فقد أخذت معاه وإشاراته نفس ، وامتة نصب على
 الأجيال الناشئة ؛ لذلك لحقت بالثن شروح تناولتها الأحبال جيلا بعد جيل ؛
 وكان من الطبيعي أن ننسج دائرة الشرح حتى تتدد ألوانها ؛ فكان واجب
 البراهمة عندئذ — وم طقة السكمان — أن يجمعوا هذه المجموعة
 المتباينة من الشروح ليوفوا بينها ؛ فمشأ من هذا التوفيق أثر أدبي جديد هو
 الذى يطلق عليه اسم « براهما » ؛ ثم تبعه « البوپاشاد » وهو ذيل للبراهمانا
 (وضع نحو سنة ٥٠٠ ق م) ، يحتوى على التأمل اللاهوتى الذى ساد في ذلك

المعمر؛ وفيه نزعات صوفية ودعوة إلى طهارة القلب وسناء النفس، وأن المعرفة أساس التحرر، والعجيب أن « يربانثاد » فيه نسخ لما في الإبراهيم من شعار، ومع ذلك يُلحق به كأنه متم له؛ وهو في ذلك شبيه « بالعهد الجديد » لا يقوم على الشعار اليهودية التي في « العهد القديم »، ومع ذلك فهو يعد مقبالة، بحيث يكون كلاما المكتاب للقدس؛ و« يربانثاد » فيه ذخيرة ثمينة من الشعر والتقصص إلى جانب لغاته الفلسفية التي نسطح آثا بعد آن.

والثيدا وإبراهيماء ويربانثاد هي كتب الوحي عند الهندوكيين، وهي تشتمل على نزعات مختلفة متباينة، تترى فيها تعدد الآلهة والآلهات وترعة التوحيد، وترعة الحلول ووحدة الوجود، فهي نظام اجتماعي يسمح بالمتأيد المختلفة أكثر منها دعوة إلى عقيدة مبنية — تمددت الآلهة في الثيدا وتنوع اختصاصها، وأستد إلى كل عمل، واختلطت أعمالها لأنها كانت آلهة تباين متعددة؛ وترقت هذه الآلهة للتعددية إلى وحدة منها أجتبى الملقى وإليها يسود، وظهرت هذه النزعة الراتية — على الأخص — في اليربانثاد، ويصل هذا الرق إلى « القيدانتا »، ومعناها الحرفي خاتمة القيدا.

وبمحرور القيدانتا^(١) هو أن الله والنفس الإنسانية شيء واحد، فإن خُيِّل الإنسان أنها شيان مختلفان، فذاك إلا لأن إدراكه أضيّق من أن يرى اتحادهما؛ وإن الإنسان ليظل على ضلاله هذا حتى يحلم من نفسه حدود الذات. وفي هذا الكتاب تشبيهات جميلة لتوضيح ما بين النفس والله من صلة لو أزيلت بينهما الخواجر، من أمثلة ذلك قولهم: « إن الهواء في قدح مقلوب يظل منفصلا عن الهواء المحيط، حتى إذا ما رُفعت القدح زالت التواصل، وانهدمت

أجزاء الهواء ؛ فالذات الفردية هي عبارة هذا القدح ، ولو رُصّت غشك على إنكار ذاتك ، خلطت هذا القدح القاصل بينك وبين الله ، وحقت لنفسك العجيبة حر بها ؛ إن أشعة الشمس لا تختلف من الشمس التي منها انبثقت ؛ وللوج المساعد من البحر لا يختلف عن البحر ، والسرور المتطاير من النار هو النار نفسها ، وكذلك الصق القائمة عن الله هي الله .

البوذية :

لبثت طينة الكهان مسيطرة على الفول حتى غامت في الهند « حركة عفاية جديدة » تدعو إلى الإصلاح الديني ، وقد تخلصت هذه الحركة عن « الثدانتا » من جهة و « البوذية » من جهة أخرى ؛ أما « الثدانتا » فتقيم آدابها على أساس « القيدا » غير أنها تهتم بروحه لا بألفاظه ؛ وأما « البوذية » فترفض القيدا من أساسه . ونسب صراع بين البوذية الجديدة والثدا وما إليها ، وظل قائما مدى فرين كاسلين ، حتى أنبثت حقائق الإسكندر الأكبر ثمزوه سهول البنجاب (عام ٣٣٤ ق . م .) ، فوجدت البرهمية القديمة تغرب شمها ، ونجم البوذية الجديدة يسطع في سماء الشرق ؛ لكن البوذية لم يذم سلطانها في الهند إلا إلى القرن الخامس بعد الميلاد ، ثم أفسحت الطريق لبرهمية مرة أخرى .

وله « بوذا » واسمه « حوتاما » في بلد قريب من « بنارس » بين القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد ، وكان من الأسرة الحاكمة ، غنيا ، جديلا ؛ وقد بدت عليه هلاثم التفكير والتأمل العميق ، وهو ما يزال في مقتبل حياته ، فكان يتخير مكانا منزلا يأوي إليه ساعات ينفقها في التفكير ، ولهاته من التفتيان بلهون وبلعبون ؛ وأول ما عزّ ظب الفتى القناع أن رأى الطهيمة من حوله تفتتح عن ألوان من الجمال الرائع الغلاب ، لكن تلك الروائع اقنانه

ما أخرجها الطبيعة من جوفها إلا لتعيدها إلى ضورها ؛ فكل ما تله الحياة
منفى^١ عليه بالتغير والقضاء ، وهذا الشباب الملتهب النضير سئلته ثروج الشبهوخة
فيجيد ؛ فالحياة أمدتها قصير ، وهو على تصرفه ملء بأسباب الغم والحناء ؛ وبعد
الوليد وسرير الليث كلاهما تحوطه ألوان العذاب والألم ؛ ولا يحقق الإنسان
لنفسه معلماً حتى يفتى في سبيله الشقاء والألم ، وكل محاولة يبذلها الفرد
ليثبت ذاته بمثابة كائن من العظم ليربحها ؛ وأشد مسرات الحياة بهجة
نشوبها شوائب الحزن . كنه استطلاع الإنسان أن يتخلص من الحياة التي
تسبب له هذا ألم والشقاء ؛ لكن الاتصال حيث لا يجدى ، لأنه لا يفتنغ الشر
من جذوره ؛ تقطعت الورود الناضجة لا بقتل شجرة الزرد ، فسرعان ما تزهر
ورداً دائماً جديداً ؛ إن جذور الحياة هي الرغبة في الحياة ، فإن محوت من نفسك
هذه الرغبة فقد طمست مصدر الألم ، وأعددت لنفسك العناء تهنه والرضا .

تلك كانت بواكير التسكر التي دارت في رأس بوذا وهو في صدر شبابه ،
فلما أقبلت رجولته كثر عزمه للصم قد انجحه إلى العزلة ، فلما كاد يبلغ التاسعة
والعشرين حتى غادر قصر أبيه ، تلوكا وراءه زوجة جميلة وطفلاً رضيعاً ؛ وكان
في صحبته خادم واحد ، ولم يمس في رحلته طوبلا حتى أعاد هذا الخادم وأعطاء
سبه وحواده ، ثم لم يلبث أن صادف في بعض الطريق سائلاً فقيراً ، فبادله
ثياباً جميلة برداء ممزق مأل ؛ لقد هاجر بوذا وخلف وراءه أبهة الفصور وجلال
الملك ، فلم يطمع أن يكون بين الناس حاكاً ، إنما أراد أن يكون لهم معلماً وصديقاً .
« إن الحياة في الأسرة مليئة بالعوائق ، إنها طريق أفسدته العاطفة ؛
أما ذلك الذي نغض عن نفسه كل رغبة دنيوية لحياته حرة مطلقة كهذا الهواء ؛
إنه ليتصد على رجل يعيش مع أسرته أن يحيا حياة رقيقة بكل ما في الحياة

الصحيحة من خصوبة وفاق. وكال ! دعني أزل شرى وخليق ، دعني
أرتد نوباً أصغر (نوب الزاهدين) ، وأعادر حياة الأسمرة والدار إلى حباة
بغير مأوى .

وقصد الأمير أول أسره إلى البراهمة يتلقى عنهم الدين ، ولكنه وجد في
تعالمهم نظراً صيقاً جامداً كان لروحه الوثابة كالشبكة تمسك بالظائر الخلق ملا
بطير ؛ فازدري تعالم القيدا ، بل استخف بكل هيئة تزم لنفسها سلطاناً
دنيا ، وأيقن أن تجربته الشخصية وتفكيره خير مرشد يهده في أمور الدين ؛
فها هو ذا الدين القائم إذ ذاك يدعو إلى ذبح الأضاحي قرباناً ، لكن قلبه برئ
حليماً إذ يرى الدبايح نحر إرضاء لله ؛ وتساءل كيف يمكن لهذا الشر أن
يقتحج خيراً ؟

نشئ رجال الدين من البراهمة في بيت الطائفة إلى نفسه الفلانة ، دائمين
المداينة عند مورد آخر ؛ وشامت له للصادقة أن يلقى جماعة مترهبة بروضون
عقولهم وحواهم رياضة منظمة تتبع منهاجاً معيناً ؛ فانخرط بودا في جماعتهم
وأخذ يُلقح حدة العقل وشدة الحواس كما كانوا يفعلون ، لكنه عاد إلى قلبه
بعد ستة أعوام ، إذ لم يفلح ذلك النهج في إرضاء نفسه ، فلا تعذيب الجسد
ولا رياضة العقل أناحت لنفسه المسجين ما يشد لها من حربة ومكالك .

فبينما هو جالس ذات يوم في ظل شجرة يتأمل ، إذا به بحس نيشاً من
النور يشرف على نفسه ، فقد تكشف الحق عندئذ لبودا ، وذابت شكوكه
أمام ذلك الإشراف الساحل ، كما تنفتح سحب الصيف أمام شمس الحرور ، إذ
تبين لبودا ما اعتد أن خلاص النفس من خطيئتها وشقاها هو في شيء واحد :
أن يحب الإنسان كل كائن حي حباً لا يرجو من ورائه عاية غير الحب .

« إن إنساناً تأخذه الرحمة ويملؤه الحب ، ويعرف قلبه ويمسك زمام نفسه ،
لقرب من نعيم الرفاقا^(١) .

والرفاقا حالة روحانية يقضى فيها كل تفكير في الذاتية الشخصية ؛ فكلمة
ميراث خطوة في إنكار نفسك دونت من الرفاقا ، وكلما حصرت تفكيرك في
نفسك سدت عنها ؛ إن كل ما في الحياة من ألوان المم والشقاء معدره الأمانة
التي لا تشجع ؛ فهذا المذاب الأليم الذي يشقى به الناس عزّده إلى الأثرة الطامحة ،
والشهوات الجاهلة ، ولا تزال حياة الإنسان شقاء موصولا حتى يتمتع في نفسه
كل شهوة شخصية ؛ وتتمتع هذه الشهوات في ثلاثة أنواع رئيسية ؛ فالأولى شهوة
الإنسان أن يتمتع بالحس ، والثانية رغبته في تخليد شخصه ، والثالثة حب الإنسان
أن يكون في الحياة ذا مال وجاه ، وهذه الشهوات الثلاث لا مندوحة عن فعلها
إذا أراد الإنسان أن نفسه عيشاً سعيداً ، فإذا ما اجتمعت هذه الشرور من جذورها ،
وزالت كلمة « أنا » من حياة الإنسان ، فقد بلغ الحكمة العليا — أو « الرفاقا »
كما تسمى عندهم ، وهي صماء الروح وأطشأنها ؛ فليس معنى « الرفاقا » طمس
الحياة ومحوها كما ينهملها كثيرون ، إنما هي طمس ومحو لهذه الغايات الشخصية
الناعمة التي تهبط بالحياة ؛ وتخلوها بالمم والشقاء .

وهذا القضاء الذاتي لب البوذية وصحيمها ، وفيه عرض لحل مشكلة الحياة
المدنية ، ووضع خطة لحدود الروح وسكونها ؛ والبوذية في ذلك ليست بتأني عن
سائر الأديان والفلسفات الكبرى ، فكلمة تريدنا أن نفنى أشخاصنا في شيء
أعظم من أشخاصنا ، لكن البوذية تعود تختلف عن كثير غيرها من الديانات
في أنها ديانة ترمم خطة للسلوك في الحياة اليومية ، ولا تعرض شيئاً من الشعائر

وأنواع الضحايا والقرابين ؛ وإذا لم يكن تحت شعار ملا معابد ، بل لبس للبودية
لاهوت ، ملامه نثبت ولا تنفي مئات الآلهة التي كان يعبدها الهنود إذ فلك ،
وما حاجتنا إلى نفي الآلهة أو إثباتها ما دامت لا نقصد إلا سلوكا عمليا فاضلا في
هذه الحياة الدنيا . وكان آخر كلمة فاه بها « مرزا » « إن المعنا لاحق بالأحسام جميعاً
لجأعدوا لنحمر برأغسكم ما استطعن »

ولما مات أخذ أتباعه ينشرون أقواله على طريق الرواية ، ولم تدون إلا بعد
ذلك بأعوام طوال .

والهيك مثالا من كتب البوذيين ، وهو مأخوذ من مجموعة الأشعار التي
نسمى « طريق الحق » .

إن السكرامية في هذا العالم لا نحبوها كرامية مثلها ،
إنما يمحور السكرامية الحب ؛ وهذه أبداً طيبيتها .

إذا ما جدَّ الحسبم في قع غروره
وصد في مدارج المسكة إلى ذراها
فسيظهر إلى الحق من أعلى ،
وسينظر نظرة العظمى إلى تلك الجوع السكادحة ،
كما بصوب الرافع على قة النل أظاره
إلى من ينف في أسفل الرادى .

إن الخير للعقل أن نقل جذته
فالعقل حووح صعب الراس
ينزع إلى ميله وهواه

أما الفضل الروضى فطريق إلى النعيم .

وكما غنص النحلة رحيقها — في غير إيذاء

للزهر في لونها وشذاها —

نم نطير .

فليكن كذلك ملك الحكيم على هذه الأرض .

إنيك لن نجى من الخطيئة نحرأ ،

وفد بحسبها الحن متعبة بالرحيق ،

لسكن إذا نم الخطيئة تصبها ،

هوى الحن يأنهم في هاربة الأسمى .

لقد نهر في حومة الوغى ألوف الرجال

لسكن من بغير نفسه حمر الطافرين .

لا تستخفن بالخطيئة فتقول : « إن خلكت منى زمامي »

مكاً بمنلى* الإماء بفطرات الماء اللسانطات

كذلك نرس الأحن نخلوها الخطيئة إذا أنصبت منها رويداً رويداً .

• مع أن رذا هندی الأصل ، وبعد مذهبه تهذيباً للبرهمية فإن مذهب البوذية

في الهند قليل نسبياً ، وأما السكثرة الغالبة من البوذيين فمن أهل اليابان والصين^(١) .



(١) يبلغ الهندوكيون نحو ٢١٧ مليوناً واللففون نحو ٧٠ مليوناً والبوذيون نحو

١١ مليوناً .

كتاب «بيورا»^(١) :

بيورا هو الكتاب الذى يندسه الهندوس المحدثون ، وند كتب لأول مرة فى القرن السادس الميلادى ؛ فالهندوس طمهم محبون للقصص التى تروى عن الآلهة ، ونشأت حول ذلك مجموعة كبيرة من الأساطير يتلقاها الأبناء عن آبائهم ، ثم بصيف إليها الشعراء حيناً بعد حين ما يخلفه حيلهم ؛ فكم من مجوز تجلس إلى منزلهما وحولها الأبناء والأحفاد ينصتون إليها وهى تروى قصص الجن التى سمعتها فى طفولتها .

من هذه المجموعة الزاخرة بالأساطير والقصص يتألف «بيورا» ، حتى لسكانه موسوعة تحوى بين دفتيها كل شيء ، فيه بسط مستفيض لحياة الآلهة والقديسين ، وفيه قصص عن الخلق كيف كان ؛ وتروى فيه التراتيل الدينية ، إلى جانب حقائق عن تكوين طبقات الأرض وصخورها ؛ وشبهاً عن التشريح إلى جانبه بعض قواعد الموسيقى ؛ وتروى فيه معلومات فلسفية عن مسالك النجوم إلى جانب دروس فى قواعد الهندسة ؛ فكأنما هذا الكتاب الضخم شيخ أفتلته تجارب الأيام ، تطيب لك سمته ، ويحلو لك حديثه ، حين يستطرد من موضوع إلى موضوع مما لفتته حوادث السنين .

والآلهة فى هذا الكتاب ثلاثة ، كل منهم يمثل جانباً من جوانب القوة ؛ «براهما» هو الإله الخالق ، و«ششنو»^(٢) هو الإله الحافظ ، و«شيوا»^(٣) هو الإله المهلك للبيد ؛ وهو بصور براهما فى هيئة رجل له لحية وأربعة رموس وأربع أيدي ، فى يده منها يحمل المولجان رمز القوة ، وفى تامة يحمل طائفة من

أوراق الشجر تمثل الكتب المقدسة ، وفي ثالثة يحمل زجاجة ملئت من ماء السكنج ، وهو نهر مقدس عند الهندوس ، وفي رابعة يحمل عقداً يمثل الصلاة .



ويشيع بين الهندوس عقيدة فناسخ الأرواح ، ولا يعرف على التحديد مبدأ ظهورها في الهند ، فلا أثر لها في الفيدا ، ولها أثر قليل في البراهمانا ، وهي ظاهرة مقبولة في اليوباناشاد وفي البوذية ، وعن البوذية انتشرت في آسيا ؛ وخلاصة هذه العقيدة أن الأرواح لا تموت ولا تبقى ، وأنها تنتقل من بدن إلى بدن كما يستبدل البدن اللباس إذا خلق ، وتترق النفس في الأبدان المختلفة كما يترق الإنسان من طعونة إلى شباب إلى كهولة إلى شيخوخة ، لأن النفس تتطلب الكمال ، وتشتاق إلى العلم بكل شيء ، وعمر الإنسان قصير فلا بد من نقل النفس من بدن إلى بدن لتستفيد تجارب جديدة ، والأرواح الهائبة تتردد في الأبدان اليالبة وهي تتردد من الأول إلى الأخرى حتى تسلم كالمسح وتتحلل بالله .

الفصل الخامس والعشرون :

وبعد هذا كله ، فلا ريب أن أنظر صورة للحياة في الهند القديمة إمعاناً مجدها في كتاب « جاناكا »^(١) « قصص من مولد بودا » ؛ وهي قصص مليئة بالسكاهة والحكمة السلية والشواهد المنقذة من الحياة التمهية في صميمها ؛ فكما تستطيع أن تتصور الحياة في بغداد في عهد هارون الرشيد ، من قراءة قصص « ألف ليلة وليلة » لا من المؤلفات التاريخية ، فكذلك نصص .

«چاناكا» تصور لك الهند القديمة في أسوانها وقواتها، ومزارعها ومعسكراتها، ومصانئها ومعابدها .

وإلى جانب قصص «چاناكا» توجد مجموعة أخرى عنوانها: «پانكا تانترا»^(١) ومعناها (الفنالات الحسية)، فكثير من حكايات «إيزوب»^(٢) اليونانية الشهورة لها نظائر في هذه المجموعة الهندية؛ وبما يستحق الذكر أن هذا الكتاب اليوناني {إيزوب} صاحب الحكايات الخرافية قد نزل ضيقاً في آسيا الصغرى على «كرويس»^(٣)، بلعله وهو هناك قد تصيد حكاياته من نفس المين الذي استلقت منه مجموعة «پانكا تانترا» بمصر حكاياتها؛ هذا إلى أن الحكايات الهندية الخرافية قد تسربت إلى العالم عن طريق الفرس في الزمن القديم .

وحسبك أن نعلم أن كتاب «كلبلة ودمنة» المنقول عن الفارسية إلى العربية فيه أبواب من «پانكا تانترا»، وهي باب الأسد والثور، والحمامة الطوفنة، واليوم والغربان، والقرود والغنم، والناسك وابن عرس؛ كما أن في هذا الكتاب فصلاً من «الماهاهاراتا» التي تقدم ذكرها، وهي باب الجرد والسنور، والملك والطائر قرة، والأسد وابن آوى . فليظهر أن الفرس جمعوا كتاب كلبلة ودمنة من أصول هندية، ثم نقله ابن المقفع إلى العربية بعد أن حور فيه بما يتفق مع الذوق العربي الإسلامي .

وكتاب «پانكا تانترا» مكتوب باللغة السنسكريتية — وهي من اللغة المستعملة حديثاً بمثابة اللاتينية من الإيطالية الحديثة — أما حكايات «چاناكا» فمكتوبة بأحدى لهجات الهندوس، لهذا كان من حظ «پانكا تانترا» أن يتسع انتشارها، على حين ظلت «چاناكا» محصورة

بجوهة لم نجد من يترجمها إلى اللغات الأوروبية الحديثة إلا في هذا العصر الحديث ،
 فيها ترجمت حكايات « يانكا نايرا » منذ زمن بسبب إلى كثير من لغات آسيا
 وأوروبا على السواء ؛ وهناك مثالا لها :

يحكى أن حماراً ألقى اليوم كله يجر عربة غسال ، فذا أنبل النساء حتى هذا ،
 النصب ، فأراد أن يمنع نفسه بأكلة شهية تموضه نصب النهار ، ففمد إلى حفل
 بجوار زرع فناء ، وصحبته إلى الحفل ابن آوى ، وأكل الزميلان من التنا
 الرطبة الشهية حتى شبا ، فقال الحمار لابن آوى : « ألا تراه مساء جيللا
 يا صديقى ؟ إني لأحس بنشوة تدفعنى إلى التنا » ، فأشار إليه ابن آوى بحكته
 أنه خير لمصوم أن يلزموا الصمت ، لكن الحمار الأحق نهق فى مرشح حتى
 أبقت صاحب الحفل ، فجاء وأشبعه ضربا بالما .

ثم لم كثير من الأمثال والحكم الرائجة جمعت فى كتب ؛ مثل :

(١) محك الصدانة الحنة الشدائد .

(٢) إن لمرص ولغم والمصاب والأفلال ، إنما تنتج من أخطاء ارتكبت

فى الماضى .

(٣) عدم الشجوب عند النمة ، وعدم اليأس عند اليؤس ، والرأى السديد

والقول المصيح عند المشورة ، والشجاعة فى ميادين الحروب ، والنافسة فى

الشرف ، والنزاهة السل بالحكمة — ست فضائل تتحلل بها النفس التنبلة .

(٣) ارحم من اسرحك ، وعم تسنك ، فاقصر بسوى فى ضوته بين المافى

ولابلى ، والسيد والسود .

(٤) اتبع الصدور إذا أخلص أكثر مما تتبع الصديق إذا لم يخلص ، فالتداوة

والصدانة لا تتميز بالألفاظ والأسماء ، بل بالقل والأعمال .

(٥) لا تسمع بأفك عند غناك ، فالتقدير يلعب بأعراض الدنيا. كما نذهب
اللبث بالسكر.

(٦) ليس الدين الحق ما يثر به الوعاظ ، إنما هو أن تحب ما يحب الله ،
يحب كل شيء صغراً أو كبيراً ، عظماً أو حقيراً ، السمة الخفة عقل صحيح في جسم
صحيح ، والبرقة الخفة مدركك الخير من الشر .

(٧) قد تقع الإجابة — كما تلح القدرة — إذا ركبت على فطسة من
ذهب ، كذلك الفر الجاهل إذا صاحب الحكيم العاقل .
وهكذا .

الأدب الفارسي القديم

لُقِّرَ أدب ديني محامد « زرادشت » وديانته ، وبيان ذلك أن القرص
التدما كانوا يمدون الأوثان حتى ظهر صيغتهم « زرادشت »^(١) فجاءهم بالدين
والحكمة ؛ ولما ندرى على وجه الدقة أين وضع زرادشت من عصور التاريخ ،
فالزورخون يختلفون في وضعه بين القرن العاشر قبل الميلاد والقرن الخامس .

و يروى عن نبي القرص أساطير ، منها أنه لما حملت به أمه هتف بها هاتف
في النوم ينشأ بما قدر الله توليدها من مستقبل عظيم ، وأنه سيرج إلى السماء
حيث يتلقى عن الله — وهو « أهورا مزدا »^(٢) — المكتاب للقدس —
« الأفيستا »^(٣) ؟ — قالوا — وعند أن شهد زرادشت نور الحياة بدت فيه
علامات النبوة ، فقد قيل إنه ضحك ساعة مولده ، وإنه منذ الصبا كانت له مكانة

محنة في غرس الناس ؛ فلما اكتملت رجولته أخذ يدعو إلى التوحيد ويقدم
عبادة الأوثان .

ودعى زرادشت قيثشل بين بدى لذلك حين بدأ دعوته الجديدة ، ملقاً
وذهب إليه في رداءه الأبيض القطنى ، يحمل في يده شعله النار القدسة وفي
أخرى صولجاناً من غصون الشرو ، وأخذ يحاجُّ تلك وبنغمه رسالته الجديدة
التي أوحى إليه بها من « أهورا مزدا » لينهى بالشعب الآرى إلى ذروة التوحيد ؛
فآمن تلك وابنه بدبانه زرادشت ، وتحمس الأمير الشاب « إسفنديار »^(١) مدعياً
الناس أن يجعلوا أوثانهم ليدخلوا في دين الله الجديد ؛ فبعض يعارضه أمور آخر
من أسرة أخرى هو « رسم » ؛ وتقابل الأميران في ميدان القتال . أما « إسفنديار »
فقرى عنه الأساطير أن جسمه قد تحول إلى كتلة من الشفر ، ولم يبق فيه
مقتل إلا عينه ، ومع ذلك استطاع عدوه الجديد أن ينعذ إليه مهما فاعماه ،
وعاد إسفنديار إلى أبيه ضريحاً ، ولم يلبث حتى أسلم الروح .

وانقسم الفرس فرقتين : فريق موحد تؤيده الدولة ، وفريق احتفظ بديانته
القديم ؛ وكان لا بد من صراع طويل بين الفريقين ، انتهى بهجرة الفريق
الأخضر — فريق الوثنيين — إلى سهول الهند الحصبية ، حيث استقر وتطورت
عقيدته حتى أصبحت « البرهية » كما يستغها الهندوس المحدثون ؛ وبقى الفريق
الآخر في أرض الوطن ، وازدهر فروعاً طويلاً ، وشيد إمبراطورية عظيمة ،
وشاعت الديانة الزرادشتية في أرجاء فارس بفضل تأييد الدولة لها ؛ ثم انضمت
رقعتها حين اتست أملاك الفرس على أبدي ملوكها من أمثال « كورش »
و « دارا » ، ولبثت مسيطرة على النفوس حتى فتح المسلمون فارس .

آمن زرادشت في كتابه « الأئتنا » بأنه واحد عظيم ؛ ثم أخذ بمسئله لقومه
كيف ينبغي أن يعيشوا وفق « آتون الطبيعة » ؛ طسكى يكون الإنسان جزءاً سلباً
في هيكل الكون يجب أن يعيش صحيحاً معافى ، وألا يكون ضعيفاً خائر القوى ،
ومن هنا أخذ يدعو إلى أن يحيا الإنسان حياة نفية تنظفة ليجنب نفسه العلل
والأمراض ؛ ولقد طبع الله في الإنسان بصيرة يميز بها بين الطاهر والدنس ،
أو مباركة أخرى بين الحق والباطل ، ذلك هو الضمير الذى يهذى صاحبه سواء
السبيل ؛ فمن يعيش وفق ضميره تكن حياته منسجمة مع إرادة الله

ولقد كان « أهورا مزدا » رمزاً للحياة الطاهرة النفية ، و « أهريمان »^(١)
يمثل الشر والدنس ؛ والصراع لا ينتكث دائماً بين « أهورا مزدا »
و « أهريمان » ؛ أو إن شئت قلل بين الطهر والدنس ، أو بين الحق والباطل ؛
وإذا اضطرر الخصمان في نفس الإنسان فإن الضمير يهذى — في وضوح لا لبس
فيه — إلى أين يقع طرف الحق .

ومن أهم المعتقدات الفلسفية في تعاليم زرادشت وجود مبدأين في الطبيعة
بمستلآن متضادين ، وهما « الروح الخالقة » و « الروح البهيدة » ، أو الكون
والفساد ، ومنذ تم الخلق وبين هذين الروحين كفاح وصراع وتنافس ؛ ولكن
هل هذان للتبدآن إلهان ؟ في الحق أن بعض الموصوفين في الأئتنا تدل على
التوحيد مثل :

« إن « أهورا مزدا » عليم بكل شئ ، ولذا فهو يعلم بوجود أهريمان . . .
أما أهريمانف — وهو روح الشر — فلم يكن لديه علم بوجود « أهورا
مزدا » . . . »

« إن «أهورامزدا» مرفى كل ذى علم وخير ، فهو فى جلاله لا يشبه
شئ »^(١)

ولقد ذهب بعض الباحثين إلى أن رب الكون واحد عند زرادشت ،
لا شريك له ، وإن يكن فى الكون خير وشر بلئانسان ؟ فرعة الشر مادية
فى برد الشتاء يمتد الماء ويثقل الأرض ويعوق الشجر عن النمو والإثمار ، وفى
الطواغر الشريرة تطوف بالزئوس وفى الثلج والإحلام ، وفى العفر والكسل ،
وفى الأوثان وعبادتها ، وفى الخيانة والكذب ، والغلام وكره الزواجر ،
والأمراض وضروب الرءاء ، وفى الحيوان للقتل والزواحف السامة والحشرات ..
ذلك وما إليها صدائع «روح الشر» التى أخذت على نفسها أن تهدم وتهلك وتبديد
ودعا زرادشت فى نتائجها أن يكون الإنسان حياً فى قوله وفى تفكيره وفى عمله .
وخير إنسان عند الله بئشلى و «بئنا»^(٢) — وهو الذى ورد فى الشاهنامة
والأساطير الفارسية باسم «جشيد»^(٣) ؛ فقد وهب الله «بئنا» عرائشاً ورمحاً

(١) فى التواليد أن النور فى الأسماء مضطربة مركبة ، فمضيا بهم من وحدانية الله
ومضيا عنهم من القول بالجمع ، لله الخير والله الشر . ولغذا الخلف الباحثون فى الحكم على
زرادشت أنه موحد أو متبني ؟ وبسبب أخرى هل العالم يسيطر عليه إله واحد ، وأن ما فيه
من قوتين متنازعتين قوة الخير وقوة الشر — ليست إلا مظهرين أو آثرين لإله واحد ، أو أن
هناك إلهين يمسكان ، إله الخير وإله الشر وبينهما الزواج الماتم ؟

قد ذهب كثير من الباحثين إلى معنى طاهر كلامه فقالوا بالثبوت زرادشت ، ومن
ذهب هذاذهب منحرف فى دائرة الطرف البريطانية وغيره ، ومن ذهب إلى أنه موحد
الصهرستانى فى كتابه التل والجل ، وكثير من الباحثين . ويرى الأستاذ «هوج» Houg
« أن زرادشت كان من الناحية اللاهوتية موحداً ، ومن الناحية الفلسفية ثوباً » ، ولله
برج من قوله أنه من ناحية النسخة الدينية كان يرى أن العالم إلهاً واحداً ، ولكنه
إذا نرى للمرح لفظة العالم وما فيه من خير وشر يظلمان ، فهو لوى يرى أن
فى العالم قوتين .

ذهبيا ليتخذ منها شاريتين لسلطانه فوق الأرض ؛ وأخذ « بما » يسئل في الأرض بما أمره الله صاحبها وأعدّها للزراعة ، وأسكنها رجالا وماشية وكلاباً وطيراً ، ثم أمدّها بالنار .

أخذ « بما » بنف في الأرض دولة الخير ، غير عالم أن « روح الشر » كامنة في حيايا الطبيعة نتر بص له ، فأذره الله بما قد يشاء من سبل وصنيع ليكون على حذر ، فهب « بما » من غوره بسد الحظائر الثيمة لما شئته وخبوله ، ورجاله ونسائه ، ومختلف أنواع الطير ، كما أعد أمكنة آمنة يحزن فيها الحب ، ويحفظ شعله النار ؛ أعد من كل شيء زوجين ، كأنه نوح بنفذ في سفينة صنوف السكائنات . إن « روح الخير » قد بذرت بذور الشجرة الثمرة ونعدها بماء الطهر والنقاء ، ورافيت غوها لكي تشر أطيب الثمرات وإذا بروح الشر يندفع من جهة الشمال ، فينفخ نفخة واحدة من الثلج والصقيع — هي الحياة والسوء — منأى على الشجرة النضرة وتحولها حطباً يابساً ؛ هكذا بدأت للمركبة بين الخير والشر ، بين النور والظلام ، بين الأول بصون صنع الله والثاني يهلكه ويُلغيه . ونتجبه البداية الإردشقة بكل هما نحو حاية الإنسان من روح الشر وصحته .

أراد زوداشت أن يجهت روح الشر من جذورها ، وبنفى روح التسدير ولا يُبنى على وجه الأرض إلا البناء والتصوير ؛ ففصل القواعد الصحية ونظم الحياة التي من شأنها أن تصون الفرد والمجتمع ؛ وأول ما ذكره « الأفسنة » من هذه القواعد هو كيف ينبغي أن يتصرف الأحياء في جثة الميت حتى يتخلصوا مما يترتب على وجودها من وباء خبيث ؛ ويمر ككتاب الأشتا عن هذه الحفيضة الصحية ببارة مجازة فبقول : إن روح الشر إذا ما وجدت جثمان

ميت نحوها من نورها إلى ذبابة خيشة تلتصق بجسدها بالمرض وتروح بين الناس وتندو لتشر بهم حلقها الخبيث ؛ ثم يستلرد الكتاب في ذكر الدقائق التي يجب على الإنسان أن يؤديها تأييداً لروح الخير : أين يضع الجنة ، كيف يظهر مكانها من النار ، ماذا يصنع بملابس الليث ... الخ .

وينتهي ذلك في أوامر الكتاب وجوب فلاحه الأرض لننتج الحب والشجر ؛ والله يأمر الإنسان أن يروى الياض الجاف ، وأن يحفف الشجرات ، وأن يشكر الأرض ناسماً وماشية وكل ذي نفع وخير ؛ وإن « زرادشت » لتأخذه رعدة الفرع حين يتصور أن الإنسان قد تحدثه نفسه أن يدنس الأرض بدم اللوث في جوعها ، وما خلقت إلا للزراع الذي يقسم الحياة في الأحياء ؛ لأن اللوث موضعهم قم الجبال ، تلتهمهم سباع الطير ، أو تأكلهم عوامل الطبيعة . ثم يأمر الكتاب بما ينبغي أن يراعى في الحبالي إبان الحمل وعند الولادة ، حتى تسلم الرائدة والولد ، ثم يفصل قواعد النظافة والطهارة والرفاية من الأمراض المعدية .

أما وقد سلم الجسد بهذا التدبير ، فإن « زرادشت » يستلرد في بسط قواعد الأخلاق ، فيقول : إن الإنسان قد ولد وفي فطرته عفتان : عقل خيّر وعقل شرير ؛ وكل من العفتين يحاول أن تكون له السيطرة على توجيه الإنسان في أفكاره وأفعاله وأعماله . وقد خلص زرادشت الحياة الخلقية في ثلاثة أركان أساسية : أفكار خييرة ، وأفعال خييرة ، وأعمال خييرة ، هذه الجوانب الثلاثة طرف ثلاثة تؤدي إلى الجنة ، ومن يسعى لتحقيقها ، إنما يسعى لتأييد الخير وإعلاء كلمة الله : « فلا نتصرف عن أمصال الأشياء وهي ثلاثة : تفكير خيّر وقول خيّر وفعل خيّر »

والتقصود « بالتفكير الخير » أن يمحى الإنسان صفه في الله الخالق ، وأن يعيش مع الناس في سلام وانسجام ؛ فإن أحب الإنسان الإنسان عمل على وقايته من الخطر ، وعلمه وقت المييق . وعلمه إن كان جاهلاً ، وعدها إلى خير ما يرى يزيد بها غلته وغماره .

والتقصود « بالأقوال الخيرة » أن يكون الإنسان حافظاً للهوود ، مسجراً للوعود ، موفياً للدين ، لا ينطق بما يؤذي ، ويقول ما من شأنه أن يوثق عرى الحب بين عباد الله .

و « الأفعال الخيرة » تقتضى الإنسان أن يخفف عن الغير ، وأن يزرع الأرض ، وأن يستنبط الماء الحذب ، وأن يشجع على إقامة الحياة الزوجية ، وأن ينفق ما زاد على حاجته في وجوه الإحسان .

ودعا زواشت الإنسان أن يزوج لينشئ الأسرة ، فسكا نصلح الأرض بالإخصاب نصلح الإنسانية بالتخاذا الأرواح ؛ ويشير كتاب الأفتا إلى أن أهل ما يرضى الله من عبده أن ينشئ لنفسه داراً ويختار لنفسه زوجة ، وينسل الأهل ، وأن يحتفظ في بيته بشعلة النار موقدة ، وأن يكون له قطع من ماشية . ثم يخرج زواشت بصالحه على الحيوان ووجوب الرحمة به ؛ فلنذبح منه ما نحن بحاجة إليه ، أما أن نطهو بقتله في الصيد وسائر ضرور البعث جناية كبرى عند الله خالق الإنسان والحيوان على السواء .

إلى هنا ينتهى تفصيل زواشت في الأفتا عن شروط الحياة الخيرة الصالحة ، ثم ينتقل بعدئذ إلى ما يكون في الحياة الآخرة ، مبيداً بقدر بر خلود الروح ، وبأن الروح الصالحة تصعد إلى الجنة في انتظار جسدها يوم البعث ، وأما الروح الشريرة فتلقى العذاب ألوانا حتى يوم الدين .

إن زرادشت يؤمن بحياة الجسد والروح معا ، فلا هو ينصرف إلى الحياة القادية وحدها حتى ينسى حياة الروح في اليوم الآخر ، ولا هو يحصر تفكيره في الروح بحيث يهمل الجسد ؛ الحياة بجوانبها هي محور الحياة الزرادشتية ، فليجسد ما أسلفنا من عناية بالصحة والطعام وما إلى ذلك ، ولروح ما طبعه الله في الإنسان من ضمير يهديه سواء السبيل ؛ وقد رمز زرادشت للحياة بجوانبها المادية والروحية بالنار ؛ فلا حياة بنير سى ونشاط ، وفي النار هذا النشاط الدائب ، ولا حياة بنير طهر ونقاء ، والنار أول عوامل التنقية والتطهير ؛ فلا يجب أن يُبنى سدنة الفرس على شعلة النار مشتعلة ملتهبة ، على سبيل الرمز لا على أن تكون هي موضع التقديس والمعبادة ، ثم خلف خلف من بعده لم يفهموا رمزه في النار فهدوها .

مقتطفات من كتاب «الأفستا» :

و «الأفستا» واحد وعشرون فسكا في موضوعات ثلاثة :

(١) المقائد والاصداث (٢) الماملات (٣) الفلسفة والعلم .

ولكن لم يصل «الأفستا» إلينا كاملا ، فابق منه عبارة «ن قطع من القسم الأول والثاني ، وأما القسم الثالث فلم يبق منه شيء .» وهاك نموذجا منه :

أسألك بالخلق يا أهورا أن تملني :

من كان أباه الخلق منذ يوم المثلثة الأول ؟

من الذي سير الشمس والنجوم ؟

من الذي يملأ القمر حيناً ويفرغه حيناً ؟

يا مزدا أريد أن أعلم هذا ، وأريد أن أعلم أشياء كثيرة أخرى

أَسْأَلُكَ يَا أَهْوَرَا بِأَلْقَى أَنْ تَمْلِكُنِي :
مَنْ الَّذِي يَحْفَظُ هَذِهِ الْأَرْضَ السُّفْلَى
وَيَحْمِلُكَ الْفَتْكَ الْأَعْلَى أَنْ يَسْقُطَ ؟
مَنْ الَّذِي خَلَقَ الْخَاءَ وَالْعَنْبَ ؟
مَنْ يَا عَزْدَا ! خَالِقُ الْخَلْقِ الطَّامِرِ ؟

أَسْأَلُكَ بِأَلْقَى يَا أَهْوَرَا أَنْ تَمْلِكُنِي :
مَنْ خَالِقُ الصَّبَاءِ النَّامِعِ فِي الْعَقْلَامِ ؟
مَنْ خَالِقُ النَّوْمِ الْأَذْيُذِ وَالْيَقِظَةِ ؟
مَنْ خَالِقُ الصَّبِيحِ وَالظَّهْرِ
وَاللَّيْلِ الَّذِي يَدْعُو النَّاسَ إِلَى الصَّلَاةِ ؟
وَقَدْ وَضَعَ عَلَى الْأَنْسَتَا شُرُوحَ وَتَحْلِيقاتَ نَدْسَى « رَنْدُ أَنْسَتَا » ، كَمَا
وَضَعَتْ كَتَبَ تَشْرَحُ تَسَالِمُهَا بَقِيَ إِلَى الْآنَ مَعْضُهَا وَمِنْ أَمْثَلَةٍ مَا مِيزَا .
الطَّهَر :

الطَّهَرُ لِلْإِنْسَانِ يَأْتِي — فِي الْقِيَمَةِ — بَعْدَ الْحَيَاةِ نَفْسَهَا ، هُوَ أَكْثَرُ خَيْرٍ بَعْدَ
الْحَيَاةِ — وَإِنَّ اللَّهَ لَيَسْغَرُ تَوْبَ الطَّهَرِ عَلَى مَنْ يَطْهَرُ نَفْسَهُ بِالْأَفْكَارِ الْخَيْرَةِ ،
وَالْأَعْمَالِ الْخَيْرَةِ ؟ طَهَرُوا أَنْفُسَكُمْ يَا أَيُّهَا النَّصُونَ .

وَصَايَا فِي الْجَسَدِ وَالرُّوحِ :

سَأَلَ الشَّيْخَ « رُوحَ الْحَسَكَةِ » قَاتِلًا : كَيْفَ يُمْكِنُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَنْهَدَ
جَسَدَهُ بِالْحَمَاءِ دُونَ أَنْ يُؤْذِيَ الرُّوحَ ، أَوْ أَنْ يَصُونَ الرُّوحَ دُونَ أَنْ يُؤْذِيَ الْجَسَدَ ؟

«أجابت «روح الحكمة» : انظر إلى من هو أدنى منك كأنه قريب ، وإلى
«الغريب كأنه أرفع منك ، وإلى من هو أرفع منك كأنه سببك ، وإلى سيدك
كأنه حاكك ؛ وكى لأولى الأمر خاضعاً ، مطعماً ، صادقاً . . . لا تكن واثقاً
حتى لا يهلكك العار والسوء ، لأنه يقال إن الوشاية شر من صناعة السحر .
لا تبلغ برغبتك حد الجشع ، فيخدعك شيطان الشر ، وتفقد النعمة من
حيوات الدنيا .

لا تسرسل في التنبؤ ، لأن السرسل في غضبه ينسى ما عليه من واجب
يؤدبه وخبر ينجزه . . . ونطوف بقوله الجريمة والخطيئة بكل صنوعها ، وإلى
أن يكفم الفاضل غضبه سيكون شيئاً بأهمل من «روح الشر» . .
لا تعذب نفسك بالمعوم ، لأن المعوم لا يشعر بلذة الدنيا ومتعة الروح ،
فبذبل جسده ونذوى روحه

إن فائت الأعداء نفقاتهم بالعدل ، وإن سارت صدقاً فسير منه ما يرضى
الأصدقاء ، وإن كنت في محبة حفود فلا تنازعه ، ولا تفرّك كامن غضبه ؛
ولا تشارك نوماً في نومه ، ولا تلق إليه بزمام أمرك ؛ إليك أن تفصل الرشاخ
بينك وبين من ساءت سمته ؛ لا تحالف جاهلاً ولا ناصحاً ؛ إن كنت مع
أحمق فلا تجادله ، ولا تمش مع السكران في طريق واحد . . .
إياك والصلف من أجل كفورك ومالك ، لأنك تاركها — ولا شك —
في نهاية أمرك .

إياك والغمز محسبك وفسيك ، فإنما تركن آخر أمرك إلى ما قدمته بذاك ؛
وإياك والتهنؤن محباتك نفسها ، فإن الغناء لا حلفك في النهاية ، وسيعود إلى الأرض
جزؤك العاقى .

ومجانب الأستا وشروحها الدينية توجد آثار فديعة عليها مفوش بلغة فارسية
فديعة من أمثلتها أثر لدارا في مدينته يسطخر هذه ترجمته :

« عظيم أهورا مزدا الذى خلق هذه الأرض ، والذى خلق تلك السماء ،
والذى خلق الإنسان ، والذى خلق سعادة الإنسان — الذى جعل دارا ملكا ،
ملكاً واحداً على كثير من الناس ، وشارعاً واحداً لكثير من الناس .
أما دارا الملك العظيم ، ملك الملوك ، ملك الأرض التى نصرها الشعوب كلها ،
ملك هذه الأرض العظيمة منذ زمن بعيد ، ابن وشناسب السكياني ، فارسى
ابن فارسى ، آرى من لسل آرى .

يقول دارا الملك : « بفضل أهورا مزدا ، هذه هى الأنظار التى أملكها
وراء فارس ، والتى أسيطر عليها ، والتى أدت الجزية إلى ، والتى امتثلت أمرى ،
وأطاعت شريعنى :

مديا ، سوسيانا ، بَرِنيا ، هرجا (هراة) بكفريا (بلخ) سُغد ، خوارزم ...
الهند ، بابل ، آشور ، بلاد العرب ، مصر ، أرمينية ، كَبْدُفِيَا ، اسيرنا .

يقول دارا الملك : حينما رأى أهورا مزدا الأرض اتعنتى عليها - جعلنى
ملكاً ، محمد أهورا مزدا قد أحكمت نديريها ، تغذيتها أمرى . إذا حدثتلك نفسك
كم الأرضون التى سيطر عليها الملك دارا فانظر إلى هذه الصورة : إنهم يحملون
عرشى مسمى أن تعرفهم ، فتعلم أن رماح القوس قد بلغت مدى بعيدا ، ونعلم
أن العرس أحرموا الحرب نائين عن فارس .

يقول دارا الملك كل ما عملت فأما عملت بفضل أهورا مزدا ، أهورا مزدا
أبدينى حتى أكلت العمل . لعل أهورا مزدا يحفظنى ويبنى هذه الأرض ، لذلك
أدعو أهورا مزدا ، لعل أهورا مزدا يمنحنى ذلك .

أيها الإنسان هذا أمر أهولاً مرزاً لك :
لا نظن سوماً ، لا نجد عن الطريق سوى ، لا نقارن إيماناً .

وكان للفارسيين في موطنهم للمتدين دجلة في الغرب ووادي السند في
الشرق لمجاعات كثيرة — منها ما كتب واتخذ لغة علم وأدب ، وهي أربع
لغات — ثلاث قديمة ، ورابعة حديثة وهي لغة القرم اليوم ؛ فأما القديمة هي :
(١) الفارسية القديمة التي هي لغة كثير من الآثار على الأحجار (٢) ولغة الأوستا
(٣) واللغة المملوكة وكانت لغة الدولة والعلم والأدب بعد اللغة الفارسية القديمة ،
وهي وسط في تطور اللغات الفارسية بين الفارسية القديمة والفارسية الحديثة .

والآداب الفهلوية الهاقبة أوسع موضوعاً ، وأكثر أنواعاً ، وأقرب إلى
التاريخ من الآداب القديمة . وقد ألقت بها كتب كثيرة أدبية وتاريخية
كانت في متناول المسلمين في القرون الأولى للهجرة ، غفلوا عنها كثيراً من تاريخها
كما نزل الطبري في تاريخه للفرس في كتابه الكبير تاريخ الأمم ، وكما فصل
العمودي في كتابه سروج الذهب ، وكما غفلوا كثيراً من حكمها وأدبها في كتب
الأدب العربية مثل : عيون الأخبار لابن قتيبة ، وكتاب التاج للذوق
للجاحظ ، وكتب الثعلبي .

مثال ذلك ما رواه من أن بزرجهر قال : « إذا أشبه عليك أمران فلم ندر
في أيهما الصواب فانظر أقربهما إلى هلاك حاجتبه »

وكتب إبرو بر إلى ابنه شعرويه : « اجعل غضبتك على القليل من الخيانة
كغضبتك على الكثير منها ، فإذا لم تطعم منك في الصبر لم تجفراً عليك
في الكبير »

ويقول ابن قتيبة قرأت في كتب المعجم : « حسن الخلق - بير نرين ، والأدب حير ميراث ، والتوفيق خير قائد » .

وقال أردشير : « إن للأذان حجة وللقلوب ملا ، ففرقوا بين الحكمتين »
وقال كسرى : « احذروا صولة الكريم إذا جامع . والنسيم إذا شمع » الخ الخ .
وقد ضاعت أكثر الكتب القهلوية التي نقل عنها العرب وبقى إلى وقتنا
بعض الكتب ، منها « باتكار زريران » ويسمى الشاهنامة القهلوية أو شهنامة
« كشتاسب » ، وهو قصة الحرب التي كانت بين كشتاسب ملك إيران وأرجاسب
ملك نوران ؛ وكان كشتاسب من أنصار زرادشت والمؤيدين لدينه ، فدعا الملوك
للدخول في هذا الدين ، فثار الحرب بين إيران ونوران ؛ وهي صفحة
من الحروب الكثيرة بين الأمتين التي تصورها شاهنامة الفردوسي في كثير
من فصولها .

ومن الكتب الباقية أيضاً بالقهلوية « كلرنامك أردشير بابكان » أي
أعمال أردشير بن بابك .

الفصل الرابع

الأدب العبري

الأدب العبري حلقة من سلسلة الآداب السامية القديمة التي نمت وأزهرت في شبه جزيرة العرب وما حولها ، وقد جاء العبريون من المحراء وعبروا الأردن ونزلوا فلسطين ، وكانوا قبل أن ينزلوها يتكلمون بلهجة آرامية^(١) أقرب إلى العربية منها إلى أي لغة أخرى ، فلما وفدوا على فلسطين تكلموا لغة سكانها الأصليين أعنى اللغة السكتانية ، وانغمضوا اليهود لغة التخاطب والكتابة ؛ وكانوا وهم يتخاطبون أو يكتبون متأثرين بلقمتهم الأولى الآرامية ، لذلك اختلقوا في لغتهم ولهجتهن بعض الاختلاف عن الفلسطينيين أو السكتانيين ؛ وأطلق على لغتهم اللغة العبرية ؛ وكان هذا المزوج حول سنة ١٤٠٠ قبل الميلاد . والنزعة الأدبية العبرية التي حفظت لنا يرجع تاريخها من نحو سنة ١١٠٠ ق . م . إلى نحو سنة ٢٠٠ ق . م .

وأول ما ينبغي أن نشير إليه أن الكتاب المقدس — وهو يشمل العهد القديم والعهد الجديد ، أو التوراة والإنجيل — يمكن اعتباره آية من آيات الأدب قد نقرأها لتستمتع بها كما تستمتع بأي كتاب أدى آخر من كتب الشعر والنثر ،

(١) الآرامية نسبة إلى آرام بن سام وأصلها مجموعة من اللهجات السامية نزلت منهم طائفة إلى كنعان (فلسطين) واستوطعوها حول القرن الثالث عشر قبل الميلاد وطائفة نزلت إلى العراق حول القرن السادس قبل الميلاد وكان منهم السكتانيون وظلت بقاياهم في العراق يتكلمون لغتهم في العصر البابلي وإلى الآن ومنهم الآشوريون وطائفة تالفة ألفت في شمال الشام وفدوا على الحيتيين .

وعلى هذا الاعتبار وحده وضعناه حلقة في هذه السلسلة التي تصور الأدب العالمي ؛
فنحن قد ندرس الكتاب المقدس على أنه كتاب ديني كالندرس الكتب الدينية ،
وقد ندرس ما فيه من تاريخ كما ندرس آثار هيرودوت أو غيره من المؤرخين ،
وقد ندرسه على أنه أدب ، ونستمتع بما فيه كما نستمتع بخير الآثار الأدبية من شعر
ونثر ، وهذا موقف إزاء الكتاب المقدس ينفع التاريخ والأدب ، ولا يضر الدين .
والتوراة — وهي العهد القديم من الكتاب المقدس ^(١) — هي أساس الأدب
العبري والديانة اليهودية ، كما أنها أساس الديانة المسيحية ، والكتاب الرئيسي في
آداب الأمم المسيحية ؛ إذ اليهود والمسيحيون متفقون على (العهد القديم) — أي
التوراة — ثم يبدأ بعد ذلك الخلاص ، فكتاب اليهودي بعدئذ هو «التلمود» ،
وكتاب المسيحي هو : «العهد الجديد» الإنجيل .

فأما التلمود فمجموعة من القوانين تناولها بالشرح والتعليق قادة الديانة
اليهودية على مر القرون ، وهي مؤسسة على التقاليد التي تناقلها اليهود من خلف
إلى سلف إلى موسى عليه السلام ؛ ولها من غررهم منزلة الشريعة إلى يومنا
هذا . وراى نسلهم بهذه التقاليد هذا الصراع الدائم الذي كان بينهم وبين
الأمم والذي ما انفك قائماً بينهم وبين المسيحيين في أوروبا إلى اليوم ، والذي
حفر اليهود أن يصنعوا تقاليدهم من القناء ، ويحفظوا نقاء جنسهم أن تشبه
شوائب الاختلاط . ولا ريب أن التلمود في طبيعة الكتب العالمة ما دامت
له هذه القوة في حناعة لها بين الناس خطرهما وأثرهما ، ولأنه يحنو على ما حباه
أن قادة الفكر منهم من حكمه ، وإن يكن طفيف الأثر في الآداب الأخرى

(١) والتوراة — بالحق الدقيق — لا تطلق إلا على الأسفار الخمسة الأولى من العهد
القديم التي تنسب إلى موسى وهي سفر التكوين ، والخروج ، واللاوي ، والعدد ، والشمية .

بسبب هذه العلة العقلية التي اختارها اليهود لأنفسهم ؛ فلم نجد من غير اليهود كثير بن طالعوا النطود ، ولكنه مع ذلك قد ترجم إلى اللغات الأوروبية ، ونسربت بعض آياته إلى الأدب الأوروبي ، فكنوزاً ما تصادفك مفتحات منه في الفصحى التي تصور أشخاصاً من اليهود .

على أن أهمية النطود تكاد تنحصر في أنه كتاب الهداية ضد الكثرة الغالبة من اليهود ، وإذا قال النطود قهره الفصل الذي يوضح للقرآن سواء السبيل ، وقد استغرق جمه ثلاثة فروع أو تزيد ؛ فقد بدئ في جمه في منهل القرن الرابع بعد الميلاد ، ولم يكمل حتى القرن السادس ؛ وهو بنفسه فسمين بسمي أولها « مشنا »^(١) ، وهو مجموعة من أحكام شرعية نسبت على ما ورد في العهد القديم ، ويسمى ثانيها « جمارا »^(٢) .

أما المشنا فقد كتب بالمعربة ، وأما جمارا فكتب بالمعربة والآرامية . والآرامية هي اللغة التي كان الجزء الأعظم من العهد الجديد مكتوباً بها لدى الأمر ، والقصبة الآنية مثال لما ورد في النطود :

« حدث ذات مرة أن أرسل حاكم مدينة خادمه إلى السوق لبشري له ممكلاً ، فلما بلغ الخادم حلقه للبيع وجد السمك قد بيع كله إلا واحداً كان يساوم في شرائها خائط يهودي ؛ فقال خادم الحاكم : « سأدفع قطعة ذهبية ثمنها لها » ، فقال الخائط : « سأدفع اثنين » ؛ فلم يلبث الخادم أن عرض ثلاثاً ، لكن الخائط لم يذعنها فقلت من يده ، حتى إن اقتضاء شرائها عشر قطع ذهبية ؛ فنادى الخادم إلى سبده ونفس عليه ما حدث وهو مقتضب ، وأرسل الحاكم في طلب الرجل ، فلما مثل بين يديه سأله :

« ما بهنتك ؟ » .

فأجاب الرجل : « خائط ياسيدي » .

« إذن فكيف تستطيع أن تتسأل في اليمن لتشتري سمكة ، وكيف تجرؤ أن ترفع من كرامتي بأن تعرض ثمناً أعلى مما يمرض خادمي ؟ »

فأجاب الخائط : « لقد بويت الصيام عداً ، وأردت أن أفتات السمكة اليوم لتكون في القدرة على صيام الله ، لهذا ما كنت لأدفع السمكة تغلت من يدي ولو اشتريتها بغير نفع من الذهب » .

فسأله الحاكم : « وماذا تفضلُ غدً أيُّ يوم سواه ؟ » .

فأجاب الرجل : « وماذا تفضلُ أنت أيُّ رجل سواك ؟ » .

فقال الحاكم : « لأنَّ لك أرادة أن أكون في هذا المنصب » .

فأجاب الخائط : « وعلى هذا النحو أراو ملك للترك لهذا اليوم أن يفضل سائر الأيام ! ونحن في هذا اليوم نرجو أن يفر لنا الله ما اقترعنا من إثم » .

فقال الحاكم : « إن كان هذا فأنت على حق » .

ومضى الإسرائيل سائلاً .

وهكذا إن عند إنسان عزمه على طاعة الله فلن يقنيه عن عزمه حائل كالنساء ما كان ؛ فقد أمر الله عباده أن يصوموا هذا اليوم ، فلا بد لهم أن يقنوا في اليوم السابق له ؛ ليزيدوا من قوة أجسادهم حتى يقنوا على طاعة الله ؛ وواجب الإنسان أن يظهر غبه جسداً وروحاً ليستقبل هذا اليوم العظيم » .

وأما « العهد القديم » — التوراة — فتوايه تسمة وثلاثون سفراً تقع في مجموعات ثلاث : أسفار القانون (الشريعة) ، وأسفار الأنبياء ، ومجموعة من

مثنويات ، وليست كل هذه عند الأدب من حيث القيمة الفنية سواء ؛ فالجمال الأدبي رائج فيما نحتوى من نصوص وروايات وسير .

أما المصول الذى نرى تاريخ الإنسان وما يفتضيه الشرع من واجبات ، هى إن تأملت اهتمام رجل الدين ، لا تقرأ الأدب بالوقوف والإيمان لما يكتنف عبارتها من عسر وغوص ؛ وغوص هذه الأجزاء راجع إلى انحصارها ، فائدة غزيرة فى حيز صغير . ولما ندرى لماذا لم يتناولها الشراح بالتفسير الذى يزيل غوصها ؛ لعلمهم تركوها على إيجازها لتوحى ما توحى إلى قرائها ، أو لعل تنافس الشراح قد انتهى إلى رمض الشروح جميعا ، فلم يبق إلا أصل نصير موجز .

خذ مثالا لهذا الإيجاز الشديد الذى أدى إلى غوص بعض فصول النوراة ، المصول الأربعة الأولى من سفر التكوين ، نجد قصة الخلق كلها قد اختصرت فى صفحات قليلة ، فيها نقرأ من الجنة وآدم وحواء وقايل وهابيل ، وفى بنية السفر التى لا تتجاوز قصة من قصار القصص الحديثة ذكر كرم سيور نوح وإبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف وإخوانه وكثير غيرها ، وأجفدها بالذكر من الناحية الأدبية قصة يوسف ؛ فقد قال عنها « تولستوى » ^(١) — وهو متدين متحس وحنان فدير — إنها قصة بلغت من الفن حد الكمال ؛ وقد يكون من أسباب ذلك أن شخصية يوسف تفيض بالحياة ، وهى واضحة اللامع على خلاف من سبقه من الأنبياء . وحسبك لتتحكم على قصة يوسف — كما وردت فى النوراة — بالكمال الذى أن تلم أن الكتاب الذى تناولوها فيها بعد فى فصصهم لم يكادوا يضيفون إلى حياتها روعة جديدة . أما قصة الخلق التى وردت غامضة

في التوراة ، فقد استطلع بعض الشعراء — مثل ميلن — أن يزبدوها حلاء ،
وخصوة ؛ لأنها تسمى إلى ضروب لا حصر لها من ألوان الخيال .

والسفر الثاني من التوراة — بعد سفر التكوين — هو سفر الخروج ؛
وسمى بذلك لتناوله الحديث عن خروج بني إسرائيل من مصر ، وتحلى الله لموسى
في سبنا ؛ ويشمل الجزء الأول منه سيرة موسى عليه السلام ، ثم ننصل رواية
هذه السيرة التي تحتل تاريخ بني إسرائيل خلال أعمار موسى الخمسة .

والسفر الثالث هو سفر اللاويين نسبة إلى أسرة تنتمي إلى لاوي أو «لبني»
ويتناول الحديث عن الشعائر الدينية الخاصة بالتقربين وعن هارون وابنيه .
والرابع سفر العدد ، وسمى كذلك لأنه يعدد القبائل وبين أنصباهم في الفئام
وتجوها ؛ ومنه حديث عن خروج بني إسرائيل من سبنا إلى شرق الأردن ، وعن
انتشار الاضطراب بين الشعب . والخامس سفر تثنية الاشتراع ، أي إعادة
التشريع مرة ثانية متطهره من بعض الشعائر ، مع تعيين مكان خاص بالعبادة .
وهذه السير كلها تكون ملحمة أدبية عظيمة تصور شعبا بأسره ، كعب
هاجر ، وكعب عاد إلى وطنه فاستقر تحت لواء دهم عظيم .

وليس ينسج المقام لنا فنتناول أجزاء التوراة باليسر سيرا سيرا — ولسكن
إن نطرد ذلك فنحضر مراسرهما على أروع ما في التوراة من أعمار .

هناك سفر يوشع — خليفة موسى — الذي تحت على يديه ثلاث معجزات
كبيرة ؛ فقد سار على رأس بني إسرائيل وعبرهم نهر الأردن من غير أن تبتل
أقدامهم ، واحتل مدينة «أريحا»^(١) بمجرد الصباح والفتح في الأبواب ، وأشار
إلى الشمس والقمر غوفضا في القلاخ عن السير ؛ مسفر يوشع ملحمة رائعة وسيرة

مطل يغوار ؛ بل هو تاريج شعب بأسره ، ممزوج بالتقصص وعنايد الدين .
ومنه إلى جانب ذلك قصة صغرى كثيرا ما يستوحىها كتاب الفصحة والرواية ،
وهي قصة « راحاب » ، فقد أراد يوشع أن يتم ما بدأ به موسى وهو عبور الأردن
والاستيلاء عليه وعلى ما حوله ، فأعد السدة وجمع بنى إسرائيل للفتح ، وبدأ ذلك
بإرسال جاسوسين إلى « أريحا » يستكشفان له الأرض ، ويستطلعان جهر
المدن وقوتها ، فترلا على بنى « راحاب » وقصيا ليلتهما عندها ؛ ولكن
ملك أريحا علم بخبرهما ، فأرسل إلى راحاب يطلب إليها أن تسلم الجاسوسين ،
فأنكرتهما وزعمت أنهما تركاها وذهبا ، على حين أنها كانت خبأتهما في سطح
منزلها وضلّت رسول الملك ؛ فلما ذهبوا لبحث عهما أخرجت الرسولين من خبئتهما
وطلبت منهما عهدا أن يسنحيا بنو إسرائيل هي وأماها وأماها وإخوانها وأحواها
إذا انتصروا ودخلوا المدينة ، فوعداها بذلك . فلما دخل يوشع أريحا حرم على
جفوده أن يقر بوا ما فيها ، وأمرهم أن يبقوا على حياة راحاب لإيوائها الجاسوسين ،
وأن يفرجوها وأهلها من الدابة ، ثم أسر ياحرق أريحا بكل ما فيها .

وقد كان يوشع قائدا حريصا يشغل بالحراسة الدينية ولا يرحم الأعداء ، مكانما
رسم بذلك حطة لكل من جاء بعده من قادة الحرب المتحمسين للدين .

وبجى . بعد ذلك سفر « القضاة » الذى لا تكاد تأخذ في مطالعته حتى تصادك
إحدى بطالات التوراة — دَبُورَة — التى قامت في شعبها بدور يشبه ما قامت به
« جيتان دارك »^(١) في فرنسا ، ذلك أن دُورَة كانت نبيّة ابنى إسرائيل ، وكان لها
مخلة في جبل ترف سها ، تجلس تحتها ، وتفضى مع من احتكم إليها ؛ فذهت
« باران » أن يهود بنى إسرائيل ليحاربوا الكنعانيين ويتحرروا من

سلطانهم ، فأبى أن يغود الجيوش ويذهب للحرب إلا أن تدفع معه ، فسلطت ، وظلت ديرة خمس الجبلش ، وتعرض على القتال ، وقسم المخطط ، حتى انتصر بنو إسرائيل وفكروا من السكتانيين ؛ ووضعت « ديرة » بعد ذلك أنشودة النصر ، ومبا « اسموا أبها الملوك وأصفوا أبها المظلماء ، إني أغنى لله إله بني إسرائيل — يا إلهي لقد تجلبت لأجيال عدت ، وللأرض فرزات ، وللسماء فانشفت ، وللحجب مأمطرت » .

وفي سفر القضاة كذلك قصة « شمشون » التي نُعدت في طبعة قصص الأبطال ، وشمشون هذا رجل أعدته العناية الإلهية منذ كان في بطن أمه لامتلك بأعداء الإسرائيليين ، فأرسل لأنه ملكا يبشرها بسلام ، ويجزها من شرب الخمر وأن تقرب محرما أثناء الحمل . لأن الله يمدد لتخلص الإسرائيليين من سطوة الفلستينيين . وولد شمشون وشب قويا متبنا ، ورأى فتاة فلسطينية فأحبها وهام بها ، وعرض على أبويه أن يزوجها مأبيا أولا — وقال له إن في بنتك جنسك غنى عنها ، فأصر شمشون ، وكان لله في ذلك حكمة ، لفصلة بالفلسطينيين أعداء الإسرائيليين .

وأخيرا رضى أبواه وسافروا جميعا ليتزوج شمشون بالفتاة ، وفي الطريق ينهى شمشون ناحية بدمرته أسد بهجم عليه ليمزقه ويلتهمه ، مبذف له شمشون ولبس معه سلاح فينتك بالأسد كأنه تحمل ودمج ؛ وبعود شمشون إلى أبويه رها في الطريق فلا يخبرهما بشيء . وبعد أيام يعود شمشون إلى مكان الأسد فيجد النحل قد بنى خلايا في جوف الأسد ، فاشقار منه وأكل .

وتزوج شمشون الفتاة ، وأعد وليمة ثلاثين من الشبان ، وأراد أن يسرم بلزق يلقيه عليهم ، فإذا حلوه أعطاهم ثلاثين ثوبا وثلاثين قيصا ، وإذا لم يحلوه في سبعة

أيام أعطوه م مثل ما كان يعطيه لهم ، والافر يدور حول الأسد والعسل ، وصيته هكذا : « ماشىء كان آ كلا متج منه الأكل ، وكان جافا فخرجت منه حلاوة »
 فلما لم يبرفوا حل القز ألغ الشبان حل امرأة شمشون لئحتال عليه فنصرف
 منه سله ، فعلت وأخبرتهم ، فقال لهم : لولا ما احتلتم على نرجنى ما عرفتم
 أحببى ، ونزل إلى قرية وقتل منها ثلاثين رجلا وأخذ سلهم فأعطاهم لمن راعهم .
 ثم نجد شمشون قد هام بأمرأة أخرى بنى فى غزة ، صرف أهل غزة به
 فأغلقوا أبواب المدينة عليه وجسوه ليقتلوه . إذا أصبح الصباح ، فقام شمشون فى
 نصف الليل وخلق مصرامى باب المدينة ووضعها على كتفه وصعد بها إلى الجبل .
 وأخيرا أحب امرأة اسمها « دليلة » ، فأتصل بها فأدته الفلسطينيون وأأمروا معها
 أن تصرف منه سر قوته ، فلدعها مرارا ، فمرة يقول لها إنه إذا أوتى بحبال من حديد
 خدعت قوته ، مكان يوثق بها فيتمطى فيها فيقطعها كأنها خيط . وأخيرا ضاق
 شمشون بالمرأة فدعا فأجبرها بالسرا الحقيقى فى قوته ، وأنها فى شره ، فجاء الفلسطينيون
 وغافلوه وهو نائم فى حجرة الرأة وعلقوا رأسه ، مدهت قوته فأحذاه الفلسطينيون
 وقلعوا عينيه وأوثقوه بسلاسل من نحاس ، وذهبوا به إلى غزة وسجنوه هناك
 حتى يفتلوه .

ولكن شره كان قد نبت ، وعادت إليه قوته وما درى بذلك حصومه .
 فى ليلة اجتمع فيها جميع أنطاب الفلسطينين ، ودعوا شمشون ليلعب لهم
 وبسخروا منه ، فغض شمشون ، ودعا وبأن يلعب دعاه ، وبميد إليه قوته ولو مرة
 واحدة ، فاستجاب دعاه وقال للثلام الذى بمحك بيده : دعنى ألس الأعدة التى
 يقوم عليها البيت ، ففعل الثلام ، وأمسك شمشون السودين أحدهما بيده والآخر
 يساره ، وجذهما فسقط البيت على من فيه ، وخر جميع من فى البيت ومعهم

شمشون صرعى ، فكان من قتلهم في موته أكثر من قتلهم في حياته .

وقد تناول الشاعر الإنجليزي « ملتن » هذه القصة فخلع عليها في قصيدته «شمشون الجبار»^(١) قويا زادها بهاء وحلا لا كما تناولها كذلك الكاتب القرنى « سانت سافنس »^(٢) في رواية تمثيلية غنائية هي في الطليعة بين مثيلاتها في الأدب الحديث .

وبأني بعد سفر القصة سفر صغير ولكنه جليل جميل ، وهو سر رؤث أو (راعوث)^(٣) ، ويقع في أربعة أصول فصار ، لا تزيد أسطرها على مائة ، ونحتوى قصة يشمل جانب منها دستور ووضع المرأة ، وفانونا من لفبط قواعد البراث ؛ ولكن ذلك الجانب من القصة لا يهم الأدب كثيرا ، وإنما يهمها ما بها من عاطفة مرهنة حمرة .

فتروى القصة أن إسرائيلية ضاقت به الحال في بلاده ، فدخل هو وامرأته « نَمسى » إلى بلاد مؤاب ، ورزق فيها بابنين تزوجا مؤابيتين ، إحداهما راعوث هذه ، ومات الرجل ومات أبناه .

وأرادت « نَمسى » أن تعود إلى وطنها ، فتملفت بها راعوث وأرادت السفر معها وألحت ، على الرغم من إلحاح « نَمسى » عليها بالبقاء .

فقال راعوث قولها الشهيرة : « حنا أن أموت حيث نومتين ، وأدفن حيث تدفنين ، شمعك شعى ، وإلوك إلهى — بحال أن بفرق بينى وبينك إلا الموت » .
ففي القصة قلبان لمرأتين بغيضان بعاملتين قويتين تمران على التعطيل —

وهذا هو ما جعل القصة معروفة للعالم — عاصمة الحبلى للوطن ، وعاصمة الوداد ،
وحما عاطفتان ينبض بهما قلب كل إنسان .

وهناك أسفار أربعة تسمى أسفار « الملوك » ، تروى قصة الدولة اليهودية
إبان مجدها ، لكن بني إسرائيل في مجدهم ضلوا سواء السبيل ، فضايقوا عن ذكر
الله ، فكان جزاؤهم بعد ذلك الجحد عذابا وهزيمة وأسرا ؛ وإن هذه الكتب
الأربعة لتؤلف ملحمة من الطراز الأول ، متبناة البناء ، قوية التركيب ، ولا بد
أن تكون قد صادفها شاعر عظيم مَسَّها بحَيَالِه ونُبوغه ، بل ربما تناولها على سر
الأيام أكثر من شاعر واحد بالصياغة والتجويد ؛ إذ الملاحم الكبرى تنمو مع
الزمن على أيدي الشعراء ، ولها تكون الملحمة الكبرى وليدة عقل واحد .

وهالك موجزا لفظة : فصول ، وهو المتحس لدبته ، الباسل المناسر في
فناه ، يهاجم حماد الأبطال لبقير الأعداء ، داخل ملكه وخارجه على السواء ؛
ولكن الشيفوخة تدب إليه ميسر الأمر إلى بنيه ، وبهم ما فهم من ضعف
وفساد : عندئذ يستدجد القوم بشامول^(١) ، لكن شامول لم يخلفه الله للقتال
فينهى أمره إلى خضوع ، وبنيته القوم بيد الترواة ؛ فيعقبه ابنه برناثان^(٢) ،
وهو أشد من أبيه استبسالاً في القتال ، وأسمى منه روحا ، ولكنه بعد لم يبع
من القوة ولا من سمة التجربة ما يجعله صالحا لقبادة بني إسرائيل ؛ وكأنا أراهم
به الله أن يكون سفا يدرج عليه شو إسرائيل لوصولهم إلى دود ، وهو شخصية
جبارة في الترواة ؛ فقد كان داود قائدا حربيا ، وحكيما عظيما ؛ فهو في القتال
مجزء ، لأنه قتل « جولياث »^(٣) ، وهو في القدرة الضليلة قذ فريد ، لأنه سلك
في حياته سلك الحكماء .

فقد جاءت صورة داود في التوراة من الكمال الفني بحيث نفيض بالحياة ؛ وإنها لتتفوق تصوير يوسف على ما في هذه من حياة وقوة ؛ وحيكته في التوراة حول داود — كما حيكته حول سائر أبطال الملأح — صفات حارفة لطابع البشر ؛ ولكنه رغم ذلك صورة لشخصية حقيقية أبداع تصويرها فأصبح مرورها مألوفا ، تميزه بسواعده وأحرانه وعصباته ، كما تميزه بنساجه وجهه وقوته وإرادته وحوائب صفه ؛ إنها شخصية أنتم الفنان تصويرها وتعيددها ، كما أنتم الشاعر تصوير «أخيل»^(١) في الإلياذة^(٢) ؛ لهذا كله كانت قصة داود في التوراة آية الأدب العبري .

ونكاد ندنو من قصة داود في وضوحها وقوتها قصة ابنه سليمان الحكيم العظيم ، وإبن سليمان في جلاله ليصور بني إسرائيل جبدا حين بلغوا أقصى مراتب المجد والثراء . لقد أفاض الكتاب ما أفاضوا في وصف عظمة سليمان وجلال ملكه ، ولعل ما يحرك العاطفة في هذا الوصف هو أنه كُتِبَ بعد أن دالت دولة بني إسرائيل ، فأخذ الكتاب ينظرون إلى الوراء فيها يكتبون ، فيرون حديثهم في الآذان رنين الأسى والأسف ، حسرة على ماضي اليهود الذاهب ؛ وسليمان — كما يبدو في التوراة — شخصية متناقضة ، فبينما هو مثال الحكمة بحيث لو اختصرنا على حشر ما نُسِبَ إليه من أمثال وأقوال لظل رغم ذلك أحكم الحكماء ؛ تراء — في التوراة — ينحرف في مسلكه ، وخاصة في شيخوخته ، ويرند إلى الوثنية متأثرا بإغراء النساء ، وبهذا ترك سليمان ملكه مُصَدِّعَ البنيان مَرعِضَ الأركان . وجاء خلفاؤه من بعده على حال من الضعف لا بمجد بأبناء سليمان وخدة داود .

ولما دالت دولة الملوك للدين ظهر في اليهود نبيا نوريان شديد اللامع

« الياهو »^(١) ثم أحد أتباعه « اليسع »^(٢) وهما من أصحاب المعجزات ، تشبه
معجزتهما معجزات موسى أحيانا ، مثال ذلك حين انحسر لهما ماء الأردن
« فطسح أمامهما الطريق » ؛ وتشبه أحيانا معجزات المسيح حين أعاد الحياة إلى
اللولي ، وأعاد إلى طلم الأرملة النقود طلما من لاشي . ؛ ولكنهما رغم ذلك
لا يقنعان من القلوب مواقع الحب الخالص لما عالا — في إرغام الناس على
الإيمان — من صنوف القسوة والانتقام ؛ فقد يكون لهما وجه من الصواب فيها
أزلا . بالملك الآتين من عقاب ، ولكن كيف تُفتقر لهما تلك القسوة التي
دستهما إلى الفتك بأربمين يأسا حين سخروا من اليسع كما يصخر الأطفال ؛
اللهم إلا إن كانت قصة الفتك بهذا الأبقاع الأربمين قصة ومزية تشهر إلى
معنى حي . مستغر .

ثم أخذت الأمور تفسير من سبي إلى أسوأ ، حتى إذا ما سقطت « أورشليم »
في يدي « مخنصر »^(٣) ملك البابليين ، وأصاب اليهود ما أصابهم من سبي
ونقي وتشريد ، كان ذلك — على وجه التفرير — حادثة على إسرائيل .

على أنك تعود فتقرأ في سفرى « عزرا »^(٤) و « نحميا »^(٥) عودة اليهود
من بابل ، وكيف أعادوا بناء « أورشليم » ، وإنه لما يثير عجب القارئ أن يقرأ
هذين الشئرين بعد ما أصاب ملك اليهود من صنوف السكوارث والبلاء ؛ فقد
وضع عزرا ونحميا لتجديد المدينة برامجا منتظا ، فأعاد نحميا بناءها ، وفتح فيها
عزرا روحا جديدة ، إذ أعاد لها ما كانت قد بددته الأيام من قوانين . وبشوق

Elisha (٢) Elisha (١)

Nebuchadnezzar (٣)

Nehemiah (٢) Ezra (١)

نظر مؤرخ الآداب أن يرى عروا ومنه خسة من الكتتاب ، نشر وافي أربعين .
برما مائتي كتاب وأربعة .

• • •

بأنى بعد ذلك سر « إسنير » ^(١) الذى نسوه مثالا (روعة الخيال فى تلك
الأعصر الأولى ؛ واليهود يندسون هذا السر لأنه يمجّد فى هذه الملكة اليهودية
— التى تزوجت من ملك فارسي — ذكائها وحيلها وأعمالها .

هذه كانت « إسنير » امرأة فارسية يهودية حظيت عند ملك الفرس ، وكان
فى مملكة الفرس يهود كثيرون ، يمدل الوزير « هامان » على اضطهادهم وسفك
دمائهم ، فاحاطت « إسنير » مع مربها اليهودى الآخر « مردوخاى » على
الإبغاع بهامان ، والإبغاع بالفرس ، وإنهاء اليهود ، وتحريرهم من الاضطهاد ؛
واستطاعت إسنير بنفوذها عند الملك أن يقتل اليهود فى يوم واحد ٧٥٨٠٠
فارسي ، وجعل اليهود من هذا اليوم عيداً لم يسموه « يوريم » .

وقد قال لوتر : « ليت هذا السر لم يوجد » ولعله نظر فى ذلك إلى ناحيته
الخلفية لا الأدبية .

رسوءه كانت تلك القصة تاريخياً صحيحاً أو من فصح الخيال ، هى تحرك
العاطفة فى نفس قارئها ، وما ظنك بقصة تروى لك كيف دبر مربي أن يقتل
بفريق ، يمسطنع هذا حيلة يخرج بها من أحبولة المتأسرين ، ثم يكون محور
الحوادث كلها امرأة بارعة الجمال ؟

• • •

وأقوى مثل يساق للقصة فى التوراة هو سفر أبوب الذى يمجّد به القارىء

صراخا بين الشخصية وما يحيط بها من ظروف ، صراخا بين الرجل وما يرصد له من عوامل الشر ، مينجو الرجل المحاهد آخر الأمر عما أقوى من صبر وإيمان ؟ وكأن هذا السفر الجليل رواية غشيلية قوية تدور حول الله والإنسان والشيطان ، ويرجح بعض الباحثين في قصص التوراة النسخيين لأصولها ، أن قصة أيوب — كما وردت — بداية لم تذكر ، وهي أن أيوب عصي ربه أول أمره ، ولكنه عاد آخر الأمر ، آمن وأطاع ، صوّه الله شجوخة مطمئنة سعيدة ؛ إذ رزقه بسرا في أحريات سببه ، ورزقه بنين وبنيات حوصاً له عما فقد من أبناء ، إيمان بحسنه الأولى ، لـ كـه عـرض " لا يُطْعِمُنْ نَفْسَ الْوَالِدِ الشَّكْلِي " ، لأن الأبناء لا يُتَوَضَّونَ عدداً بعدد كالأغنام ؛ فإن الوالد لهبني عودة أبنائه الذين فقدهم حتى إن وهبه الله ما وهب أيوب ، سبعة أبناء وثلاث بنات .

لهذا نرى السطور بسندل في حتام قصة أيوب على نهاية لا تطعن لها النص طمأنينة كاملة ؛ ولكن إن كان بناء القصة مصدوعاً ، فإن شعرها جميل رائع من أول بيت منها إلى آخر بيت ؛ وإن شئت فاغذ إليها من أي موضع أردت نجدك قد وقعت منها على سطر جميل . يقول فراء العجربة : إن جمالي النص في لفته الأصلية بسنجيل أن ينتقل مع الترجمة إلى أية لغة أخرى ؛ وهو قول صائب ، فكل من حاول الترجمة من لغة إلى لغة يعلم علم اليقين أن الشعر سائل سائل لا شكاد نمبه من وعاء إلى وعاء يختلف شكلاً حتى ينسكب ويمسر إمساكه ؛ ولقد أجمع النقاد على أن أسرار أيوب والزامير ونشيد الأماشيدي قد كتبت كلها شعراً جيداً ممتازاً . وسفر نشيد الأماشيدي سفر غرامي بطن بعض الباحثين أنه مجموع من الأغاني التي كانت الشعب الإسرائيلى يرددوها في مناسبات الزواج والزفاف في عصور مختلفة كما يذهب آخرون إلى أنها أغان دينية رسمية .

وتفرغ من نشيد الأناشيد فإذا بك عند سفر « أشعبا »^(١) ، وهو من الأنبياء الذين امتزج إيمانهم بروح الشكوك ؛ وإن الأنبياء لينطفئوا بأبلغ درجات البلاغة حين يقعون موقف الرثاء والبكاء لإثم الإنسان وخطيئته ، يتوعدونه على لسان الله عذاباً أليماً ، ويدعونه العودة إلى الدين الصحيح ؛ ويكون لغوهم من الأثر نوفي ما لا شعر الحيل بها يأتون « من قول بليغ ، وروح نبيل .
جاء أشعبا لليهود نذيراً وبشيراً ؛ فهو يتوعد أصحاب السوء عذاباً أليماً ، ولكنه يعلن فدية « يهواه »^(٢) على تخليص أورشليم ، ثم ينبأ آخر الأمر بفدوم المسيح دائماً ومخلصاً . ولما كانت نحتج في أشعبا الفسوة على أصحاب الضلال ، والأمل في مستقبل شعبه ، حامت رسالته مزجها متشابهاً من العواطف .
حتى غاب بعض النقاد أن هذا التباين الظاهر بنفى أن يكون مصدرها رجلاً واحداً ؛ ولكننا لا ندري لماذا يستبعد هؤلاء الفقاد أن يقف النبي والمصلح والشاعر مواقف تختلف باختلاف مظاهر أهمهم ومشاعرهم ، يؤدون لكل موقف رسالته .



وبتلو أشعبا سفر « أرميا »^(٣) الذي يصف عهد اليهود المظلم ، وكان ذلك قبيل سنهم ، وإنك لتس تشاء أرميا في سفره ، وفي « مراثي أرميا » التي لا يكفى فيها بالوعيل والبكاء على ما حل باليهود من كوارث ، بل نوله تأثيراً على الدولة التي دب فيها الفساد ، وعلى ديانة الدولة التي أصبحت صورية لا حياة فيها ولا روح .



نم بنوه في الأسفار سفر « حزقيال »^(١) الشغوف بالرمز في أدبه العاتق ، بما له من روعة في التصوير وجمال في التشبيه : انظر مثلاً كيف يصور ملك مصر وقد تحطم بشجرة دب في جذعها السوس ، ونحرت منها القروع ؛ وهو بجلا سيفه بأمثال هذه الصورة ، ميوثر في غس قارنه تأثيراً فورياً ، ولكنه إلى جانب ذلك في بعض المواضع ترتفع أسنار التشبيه والرمز ، فيأتي بعبارة التأنيب التي تنهيه القارئ كأنها السياط في نثر واضح قوي .



ويجيء بعد ذلك سفر « دانيال » ، وهو على صفره بروي من الأحداث شبتاً كثيراً ، وغايته أن يبرّئ عن أغس اليهود كرهاً ، وأن يحثهم على طلب الهدد والعلل ؛ وقد فرّج دانيال من قلوب اليهود ما أظهره من معجزات ؛ فقد كان فديراً على نفسه الأحلام التي يميز سحره الكفار أن يفسروها ، وألنى في عربن الأسد نخرج منه سليماً من الأذى ، وقذف في أنثون مسمر مكات النار عليه برداً وسلاماً .

وبنار سفر دانيال ببساطة التصوير ووضوحه ، فهو من جلاء العبارة وسلاسة اللفظ بحيث يصلح قصصاً يروي للأطفال ويستمر ثونه وينصنون إليه .



وعلى الجملة فقد عى الناحثون من علماء أوروبا بكتاب العهد القديم من حيث أصله ومصادره ، وتاريخ كشافه كل جزء منه ، وبيان الظروف التي كسب فيها ؛ لم في ذلك نظريات طويلة لا مجال لذكرها ، وهي تكاد تجمع على أن العهد القديم يؤرخ شعباً بأسره ، بأحداثه وحالته الاجتماعية ، وانتصاره وانكساره ،

ومجده وذهاب مجده ، كما أنه سجل لحياتهم العظيمة والزوجية والأدبية فيما يقرب من أسعة فرون .

وإذ كان الذي بهما هو الناحية الأدبية فإن هذا الكتاب بتطبيقاته ما قدمنا من سبق الشعر فنتر ، بأن أقدم نحن أدنى عبرى كان شعراً كقصة « دوزر » التي يرجع المقاد أنها ترجع إلى عام ١١٠٠ ق م ، وهي مقهر من مظاهير الشعب الإسرائيلي وحياته ، مع أغنية كانت تنفى في البهوت والشوارع ، في المدن والقرى ، في المراعى وحرث ثم الجبال .

وتدل هذه الأغنية وغيرها من الأغاني الإسرائيلية على وجود طائفة كانت حرفها الغناء والتأليف والتأحين ، وكان الإسرائيليون ينظرون إلى نظرة العرب إلى الشعراء ؛ وقد سميت (دوزر) في الكتاب القدس بنية ، لأن كلمة النسي عندكم كانت نوحى بالشعر ودفا الحس والخبرة بأعقاب الأمور . وإلى جانب هذا النوع من نمون الشعر نجد في العهد القديم نموناً أخرى شعر به ندور حول الأدب والمجاء ، ووصف الأحداث التاريخية ، والحديث عن المعجزات والشعائر الدينية ؛ فلما ظهرت المكتبة ، واستغرت الحياة الإسرائيلية ، نطلبت الحياة الجديدة أخباراً تفصيلية تعنى بتدوين تاريخ الملوك والرؤساء والقادة ، وإذ ذلك نجد الشعر هو الذى يؤدى هذه الرسالة ، فنجد أخباراً كثيرة نثرية تعنى بأسرة داود وتتمنى أخبارها ، كما نرى فصلاً ندور حول إسماعيل تاريخ الشعب الإسرائيلي إلى عهد سمن فى القديم . ومن القرن السابع ق م . نرى بعد نجد الأدب العبرى يدخل فى دور جديد ، حيث أثر بالأنبياء وبنجه إلى التشريع والتلوين ، مغزاً كثيراً عن موسى وما جاء به من التشريع والوصايا الصخر .

١٢ وبعد ذلك نجد أنفسنا فى العصر المعروف فى الأدب العبرى بالعصر الكلدانى

ومن زعماء ذلك العصر (أرميا) ، وكانت رسالته موجهة إلى العالم أجمع وليست مقصورة على بني إسرائيل ، وفي هذا العهد كان للأشوريين السلطان السياسي العالمي ؛ إذ كانوا يسيطرون على مصر وعلى كثير من بلاد الشرق ، وكان (أرميا) شاعراً ناثراً تجلت عنصريته في خطبه وفيما كتبه ، ولكن مما يؤسف له أن أجل أعانيه لم نصل إلينا كاملة . وحدث حادث بش ذلك تغير له تاريخ الأدب العبري والفكر العبري ، وذلك أن عصر النبي (٥٨٦ — ٥٤٠) ق. م. انتهى بسقوط (بابل) في أيدي ملك الفرس ، وسمح الفرس لليهود بالسعودة إلى اورشليم ، فساد منهم من عاد ، وبقى منهم من بقى ، فثبت على الأصحار رج جديدة ، إذ أخذت الأمة تحيا وتنبه ، وأخذ الشعب بتصرف مرة أخرى إلى الحياة الأدبية والدينية . وفي هذا العصر نجد قصتي (راعوث) و (إستير) .

والأدب العبري ملوئ بالشعر الذي يطلق عليه الشعر الغنائي أو العاطفي ، ولعل أفندم نوع من أنواع هذا الشعر هو الزمنا ، وهي أشعار شعبية حزينة نتحدث عن مجد صهيون الفار والكاء عليه .

وإلى الزمنا نجد الزمير ويسمى بالعرب « الزبور » ، وتستطيع أن نقسم للزامير إلى أنسام عدة : فمما ما يتصل بالمصادفة ومنها ما يتصل بالانغاث الدينية ، ومنها ما يتصل بالمراني والشكر والثناء للشكسية ، وكما أنها مختلفة الواضع معي أيضاً من وضع مؤلفين حبيدين في صوره متواليه ؛ ثم تشيد الأمائد ، وموضوع هذا الشعر من اللواضع الترامية ، وبخلفه الباحثون في أنه قيل رسمياً أو هو غزل دنيوى .

وبين أهدبنا نوع من الشعر العبري يعرف بالشعر التلمبى ، وقد حفظ لنا في كتاب الأمثال ، وسفر الجامة ، وكتاب أيوب . أما كتاب الأمثال فهو مجموعة

متفرقة من الحكم والأمثال ، وقد تناولت مختلف المواضيع ، كما عكس فيه آثار عصور مختلفة ومؤلفين عديدين . وكذلك سفر الجامعة ، مواضع حكيم عظيم له الخبرة الثمينة ، والمعرفة الواسعة ، متشائم فائد الأمل (باطل في باطل ، وكل شيء باطل) ، هكذا ابتدئ ، وهكذا ينتهى ، وهو شاك في قيمة كل شيء . في الحياة ، فليس أمام الإنسان إلا الأخذ بأسباب الحياة والتنع بهذه الأيام . أما سر أيوب فمن خير الكتب لا في الأدب المعرى وحده ، بل في سائر الآداب ، فأسلوبه الشعرى الأدبى من أحسن الأساليب وأروعها ، وموضوعه من المواضيع الفلسفية العميقة التى تحصل بالجزء . وهو إلى جانب ذلك مملوء بالقوة والجودة حتى يصح أن يوضع فى مصاف نتائج العبقريات العالمية . وقد أثبت رجال الأدب الألمانى تأثر (جون) هـ فى (موسى) .



حينما ذلك عن « العهد القديم » (التوراة) لنقول كلمة ختام قصيرة عن « العهد الجديد » (الإنجيل) الذى هو قبل كل شيء تاريخ حياة المسيح عليه السلام . فليس فى الأمم للسيحية كتاب واحد قرأه الناس وحفظوه وناقشوه بقدر ما صنعوا بهذا الكتاب ، وهو بين الكتب التى تروى تراجم العلماء أشدها تأثيراً فى قلوبهم ، حتى الذين لا يؤمنون بالقييدة المسيحية تراهم يلون بطرف من نفسه ، لأنها قصة تنقلت فى حياة الأمم الأوروبية وآدابها حتى بلغت منها الصميم .

وضحة عيسى عليه السلام كما جاءت فى الأناجيل الأربعة — أناجيل متى ومرقس ولوقا وحننا — قصة قصيرة ، وتزداد تصراً إذا حذفنا الأجزاء للكررة فى الأناجيل الأربعة .

ولم يكن أصحاب المسيح وتلاميذهم بكانيين ؛ بل كانوا — كالمسيح — يعطون الناس بالقول ؛ وحتى وسائل بولس — وهو أعلم من شَرَحَ تعاليم المسيح — تطالعها فكأنما نستمع إلى وعظ بليق ، لا إلى كتابة تُقرأ ؛ ولم يصطره إلى كتابتها سوى أن الكتابة هي الوسيلة الوحيدة التي يبلغ بها من لا يستطيع أن يتصل بهم اتصالاً قريباً .

وقد نشأ أدب عريض حول « حياة المسيح » ، وحاول كثير من الكتاب المحدثين أن يبيدوا وواية هذه الحياة العظيمة في لغة حديثة ، ولعل أروع هذه المحاولات كتاب « حياة المسيح » الذي دمجته براعة الفيلسوف الفرنسي « إيرنست رينان »^(١) ، وذلك كتاب اعترف له النقاد جميعاً بأنه آية من أجل ما جادت به فرائح الأدباء .

ولا يفنصر « العهد الجديد » على تاريخ حياة المسيح ؛ بل يروي حياته في أشخاص حوارية ورسلة ، وعلى الأخص « بولس » ، الذي لولا نبوغه لما نشرت النصرانية لواءها على أوروبا بأسرها ، وفي وسائله تقرأ العفيدة المسيحية مشروحة في جلاء وتفصيل ، كما تلج صورة لشخصية بولس نفسه .

ويختص « العهد الجديد » بسفر الرؤيا ، وهو قصيدة صوفية مليئة بالرؤى والألوان التشبيه ، ولكنها جاءت قاطعة خضرة صفاً وشرحها . والفكرة الرئيسية في هذا السفر هي الوعد بمدينة مقدسة طاهرة نجي . في إثر هذا العالم الذي دلسته الخطايا ، وهي مدينة لن تكون لغير المؤمنين .

ومع الأسف فالترجمة العربية للكتاب للقدس يسوزها البلاغة وفوة البيان
وجزالة الأسلوب ، ومن أجل ذلك لم يستطع قراء العربية أن يتدبروا ما فيها من
جمال فنى ! وأنى أن أترأى بقدر روعته وجماله إذا ضعف أسلوبه ، فهو إلى اليوم
ينتظر ترجمة عربية بلينة . ولعل هذا أحد الأسباب التى منعت من استغلال
أدباء العربية لهذا الكتاب كما استغله الأديباء الأوروبيون ، مع أن المسلمين
الأولين قد استلوه فى بعض كتب التفسير والتاريخ كالتطبرى وأبى الفداء ، وفى
بعض كتب الأدب كابن فنيبة فى صون الأخبار ، وفى بعض كتب الجدل كما
صل ابن حزم فى كتابه الفصل فى الملل والنحل ، وبظهر أنه كانت لهم ترجمات
للكتاب للقدس أصح عربية من التراجم التى بين أيدينا الآن .

نماذج من الأدب العبرى^(١)

سفر الخروج :

الأصحاح العشرون :

الوصايا العشرة : قال الله : إبنى أنا ربك ، أخرجتك من أرض مصر ، بيت
اليهودية ، فلا تتخذ إلهاً غيرى .

لا تصنع لك تمثالاً ، ولا تتخذ لك صورة مما فى السماء فوقك ، ولا من
الأرض تحته ، ولا من الماء تحت الأرض . ولا تسجد لشئ منها ولا تعبدوها
ولكن اعبدنى ، إبنى أنا الله إلهك ، وإبنى غيور ، أتعصب ذنوب الآباء فى الأبناء
إلى الجيل الثالث والرابع ممن يبغضنى ، وأحسن إلى من يحبى ويعطى أمرى .

(١) اختبنا هذه النماذج من الكتاب المقدس وأعطينا بعض الآيات وسداها بصيغة
أدبية عربية حديثة بعد مراجعتها النص الإنجليزى والعربى للكتاب .

لا نتخذ اسم الله طمواً أو عبثاً ؛ فإن الله لا يفر السبب باسمه .

اذكر يوم السبت وقدمه ، فلكمل ستة أيام تيمم بها ما ينبغي أن نعمل ،
وأما اليوم السابع « السبت » فله إلهك — لا نعمل فيه أنت ولا ابنك وابنتك
وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك القدي نضمه دورك — فمجد خلق الله السماء
والأرض والبحر وما فيها في ستة أيام ، واستراح في اليوم السابع ، فباركه
الله وقدمه .

أكرم أبائك وأمالك نطل أيامك على الأرض التي أعطاك الله .

لا نقتل ، ولا نزن ، ولا نسرقي ، ولا نشهد زوراً على جارك ، ولا نغدن
ميناك إلى بيتك ، ولا نطلع إلى روحه ولا عبده ، ولا أمته ، ولا ثوره ، ولا
حماره ، ولا شيء مما يملكه .

سفر أشعيا :

الإصحاح الأربعون :

يقول الله : المزاء المزاء يا شعبي .

حدثوا أورشليم حديثاً قلبياً ، حدثوها أن قد نم جهادها ، وأن الله قد عفا
عن إثمها ، وآناها كغفلين من رحمته عما اقترعت من خطايا .
إن في البيداء هاتفا يهتف : مهدوا لله الطريق ، واتخذوا له سواء السبيل ،
فليسهم الوعد ، ولينخضض النجد ، وليستقم الموج ، وليسهل الوعر ، مسيلن
الله عن محده ، وسيراه الشر جميعاً إذ ينطلق الله هـ .

قال الماتف : صبح ؟ فقال بتادا أصبح ؟ إنا الجسد عشب ، وإن جماله كزهرمة
البيستان ، وقد يذوى العشب ، ويذبل الزهر إذا طاف به طائف من الله ؛ ألا إن
الناس كالعشب ، وقد يجف العشب ، ويذبل الزهر ، ولكن كلمة الله باقية أبداً .

سفر حزقيال :

الإصحاح السابع والثلاثون :

سكتني يد الله ، وتحنني روح منه ، فسلطني إلى واد قد ملئ بهظام
المرئي ، وحملت نظوف بي حولها فنزل : انظر إليها ، ما أكثرها في أرض الرادي
وما أسفها ، وما أئيسها .

قال لي : يا ابن آدم ! أتتمكن أن تصياعذه العظام — قلت : أنت — باري —
أعلم ، قال : قل لها أيتها العظام اليابسة ! أوصني إلى كلمة ربك ، لقد شاء الله أن
ينفخ فيك من روحه متبعين ، وشاء أن يجد فيك أعصابا ، وبكسوك لحما ،
وبنشر عليه جلودا ، فتعودين إلى الحياة ، وتعلنين أن الله ربك .

لقد فعلت كما أمرت ، وإذا بصوت يذئب ، انظر إلى العظام تترفع ،
وبدنو عظم من عظم . ونظرت فإذا هي مكسوة عسبا ولحما وجلدا ، ولسكها
بغير روح

فقال لي يا ابن آدم : سبب الروح أن الله أسرها أن تأتي من الرياح الأربع ،
وفتبت في هؤلاء القتلى ، ففعلت ما أمرت ، عدت بهم الروح ، ونهضوا على
أقدامهم ، جثسا جرارا عظميا .

مزمير داود :

١٣٩ :

يا إلهي ، إنك عالم في كل أحوالي ، في قبالي وبعدي ، عالم بما يدور
بخلفي ، بما ظهر وما طعن مني ، لا أنطق بكلمة إلا وعلما ، قد أحطت بي من
جميع جهاتي ، وشملتني قدورتك ، فما أعجب علمك ، وما أيسرني عن إدراك كنهك .

— لا مهرب منك إلا إليك ، إن صعدت إلى السماء فأنت هناك ، أو هبطت
الهابطة فمَن أنت ، إن طرت بأجنحة الصباح ، وسكنت في أقصى البحار ، تلتقي
بذك ، وأمسكني يمينك .

وإذا قلت إن الظلمة تلغى ، رأيت أن الظلام ليس ظلاما ، ورأيت أن
الليل كالنهار لديك ، وأن الظلمة والنور سواء عندك .

أنت مالك كل أسرى ، لأنك واضى بيدك في بطن أمي .
أحمدك وأشكرك ، صدق أنيت بالأعاجيب في خلقى ، كونت عظامي في الخفاء ،
وصنعتنى على حينك ، وفذرت أمورى في كتابك ...

أنا لا أحصى نعمك ؛ نعمى أكثر عددا من الرمل ...
إلى — يارب — أبغض من يفضلك ، وأقت من يحاربك ، وأعادى من
بمادبك .

رائدنى — يا إلهى — واعرف قلبى ، واعلم ما يحول بنفسى ، فإن رأيتنى
ضلت فأهدنى الصراط المستقيم .

• • •

: ١٣٧

على ضفاف نهر بابل جلستا ، ثم بكيتا إذ ذكرا « صهيون »^(١) ، وبين
أغصان الصلصاف علقنا كِئثارنا^(٢) .

طلب إلينا أسروا أن نقتبهم ، وأراد هلكونا أن نفرح لهم ، ونشدهم
تشبدا من أقاليم « صهيون » .

(١) بيت في أيام سبي البابليين لليهود .

(٢) الكسارة آلة موسيقية يهودية وفد مر بها العرب . وورد في حديث أسرو بن
العاص أن الله أنزل القرآن ليذبح « الباطل ويهبط » الغيب والظلمات والزناهر والكفارات .

كيف لنا أن نترجم بشيد الله في مطارح الغربة ! إن فببتك يا أورشليم
ولم أفضلك على كل أسباب فرح طئس عنى ما علمت ، وليلتصق لسانى
بأعلى فى !

اذكر اللهم لى أذوم يوم أورشليم ! إذ هتفوا : دكوا للدينه دكا ، وأتوا
عليها من أساسها .

يا بنت بابل ! طوبى لمن يجاز بك عما جازيقنا ، فبطوح بيسارك وبضرب
بهم السخورد .

سفر أيرب :

مفصبات ٣٨ ، ٣٩ :

كلم الله أيرب من الماصفة :

من هذا الذى بظلم القضاء بكلام لا علم فيه — اشدد حياز بلك كما بفعل
الرجال ، لنجيب عما أسأل .

أين كفت حين أسست للأرض أساسها ، ووضعت لها ميزانها ، وبسطت
فوقها كساءها ... !

من وضع لبحر برزخا حين تدفق الماء من ينايبه — متى جمعت من
السحاب لبحر لباسا ، ومن الظلام له أنفا ... ومتى شفت له مستقره ، وأفت
من دونه المحارح ، وقلت له لك أن تبلغ هذا الحد فلا نعد ، فها هنا كتب على
أموالك الشاخصة أن تقف .

• • •

هل انتهت إلى ينايب البحر أو مرت في أعماقه ؟

هل تكشفت لك أسرار الموت وعمرت مداخله ؟

هل أدركت عروض الأرض ؟

نكلم إن كنت تعلم .

أين يسكن النور وأين مقام الظلمة ... ؟

هل أنت تنظم الثريا ، وتحل نظم الجبار ، وتُنزل النجوم في منازلها ، وتَهْدِي

بنات نض ، وترف سنن السماء وتسلطها على الأرض — أبتدى السحب

منهل بالمطر الغزير ، أو تستدعي اليرق فيجيبك ؟

من وضع في باطن الأشياء المسكنة ، وفي القواد المظنة ... ؟

هل أنت الذي يهْدِي الأسد إلى فريسته أو يشبع أشبائه ... من يرزق

الغراب طعامه ، إذا نمت مراخه إلى ربها طالبة قوتها ؟ !

سفر الجاهل :

الإصحاح الأول والثاني :

قال ابن داود ملك أورشليم :

باطل في باطل ، وكل شيء باطل .

ماذا يحى الإنسان من جهده تحت الشمس ؟

جيل يذهب ، وجيل يأتي ، والأرض باقية أبدًا .

الشمس تشرق ، والشمس تغرب ، ثم تظهر في مكانها حيث أشرقت .

تجري الرياح جنوبًا ، ثم تجري شمالًا ، وتورد في جرياتها ، ثم تعود من

حيث دارت .

تندفق الأنهار في البحار ، والبحار لا تمتلئ ، وإذا الأنهار والبحار كما كانت .

كل شيء . في حركة ، والكلام يقصر عن وصفها ؛ لا تشبع العين من النظر ، ولا الأذن من السمع .

ما كان سيكون ، وما سبق عمله سبباً عمله ، ولا جديد تحت الشمس . هل في الدنيا شيء . يستطيع أن تنظر إليه وتقول إنه جديد ؟ كلا ، لقد كان قديماً ، وكان قبل أن نكون .

لقد عشت آثار الفايبرن ونسى ذكرهم ، وسيكون شأن الآخرين شأن الأولين . لقد كنت ملكاً ابني إسرائيل في أورشليم ، ووهبت قلبي للبحث عن حكمة ما حدث تحت قبة السماء ، فإذا كل ذلك عناء نصب الله فيه الناس وشغلهم به . رأيت كل ما تحت الشمس باطلاً ، وفنغنّ الريح ، فلا المروج يستقيم ، ولا النقص يجبر .

لقد سألت نفسي ، ماذا بعد عظمتك ، ونظام حكمتك ، وتخوفك هل من كان قبلك على أورشليم ، ونفتح قلبك للحكمة والفرقة ، وتميزك بين الحكمة والتفلة ، والعلم والجهل — فإذا هذا أيضاً قبض الريح ، فن زادت حكمته زاد غمه ، ومن ازداد علماً ازداد حزناً .

قلت لنفسي : سأمتحنك بالقرح ، فملكك ترمي في ذلك خيراً ، فإذا هذا أيضاً باطلاً . رأيت القرع جنونا ، فإذا ينقئ القرع !؟

قلت تعال بالقرح ، والهج بالحكمة ، وأنت سبيل الجاهلين ، لتدرك ما ينبغي أن يعمل الناس في دنياهم ، « رست ملكي ، وبليت الببوت ، وزرعت الكروم وأخذت لنفسي الجنان والبساتين ، وغرست فيها الأشجار من كل صنف ، وأجريت فيها الماء . يسقي أشجارها ، وملكت الصيد والجوارى ، وملأت بيتي بالخدم ، واقتنيت من القر والنساء ما لم يملكه أحد من قبلي في أورشليم ؛ وحسنت الذهب

والفضة ، وأصبح في بدى كنوز اللوك والبلدان ، وكان لى المغنون والمغنيات ،
ونبيت أطيب ما تسم به البشر ، وزدت في النسيم على ما كان لآثى ، واحتفظت
مع كل ذلك بحكمى ، ولم أحرم عيى أن تستمتع كاتشاء ، ولا فلى أن يفرح ما يشاء
ثم نظرت ، وجدت كل ذلك باطلاً وفض الريح ، ولا خير برنجى
تحت الشمس .

وقلت : إن الحكمة تفوق الجهل كما يفوق النور الظلام ، والحكيم عينه فى
رأسه ، والجاهل يضل السبيل ، ولكن رأيت أن الأحداث تحدث للحكيم كما
تحدث للجاهل ، فما غناء الحكمة ؟ كل شىء باطل ، والحكيم يفتى بحكمته ،
والجاهل يفتى بجهله ، ويموت الحكيم كما يموت الجاهل ، فما الحياة ؟
كل ما تحت الشمس باطل وقبح الريح .

سخرت من عمل القى أعله ؛ إذ علمت أنه صائر لن يمدى ، ولا أعلم
ما سيكون ؟ حكماً أو جاهلاً ؟
وكل شىء باطل .

حاولت أن أياس من كل ما عملته ، فالإنسان يهذى فى حياته ، وينجح بحكمته ،
ثم يترك ما عمله لى لم يهذل فيه جهداً ، ولم يتعب فيه فلباً .
كل شىء باطل وبلاء عظيم .

فاذا بدال الإنسان من عنائه فى يومه ، ونغمه فى عمله ، ومعه فى ليله ؟
كل شىء باطل .

لا شىء للإنسان خير من أن يأكل ويشرب ويستمتع طقة الخير فى عمله ،
وقد رأيت هذا من سمة الله ، ومن أولى بها عنى ؟
إن الله ليهب للخير الحكمة والعلم ورضا النفس ، وبدع الشر بر جميع لذل
وبعدده ، يحسب أن ماله يخلده .

كل شىء باطل وقبح الريح .

شجر الله شابر :

الإصحاح الثاني :

أنا وردة « حارون » وسوسة الولدي .

حبيبي بين اليفات ، كالسوسة بين الأشواك وحبيبي بين البنين
كشجرة النفاخ بين أشجار الغاب .

نبتات غلاله في أعظم فتوة ، ووجدت ثمرته أحلى مذاق .

أدخلني إلى دار الشراب ، وفتر موني لواء الحب .

أسفوني بشراب ، وانشوني بنفاخ ، فأنا مريضة بمحب .

إن يسهل نحت رأسي ، ويمتد نعانفي .

تشدنكن الأطباء وآلام الحفول ، يا بناتي أورشليم ، ألا توقظن الحبيب
ولا تُبرئن ناعاه حتى يشاء ؟

ذاك صوت حبيبي ! انظر ، هاهو قادم يعطر فوق الجبل ، ويففز موني
القتل ! ما أشبه بظي أو رشم .

انظر ، هاهو ينف وراه الجدار بتطلع من النوافذ ، ويبين من خلالها .
ونحدث إلى الحبيب فقال : انهض يا حبيبي وفتني ، وتعالى معي بعيداً !
فقد مضى الشتاء ، وأثلست السماء ، وأزيت الأرض بزهرها ؛ هافد آن أو ان
قريد الطير ، وغنى النعام في أرضنا ؛ وأخرجت شجرة التين حُفَر ثمارها ،
وعبفت السكروم بأريج أعنابها .

انهض يا حبيبي ، يا فتني ، وتعالى معي بعيداً .

إيه يا ورقاء ! دعيني أشهد عيالك بين شباب الصغر وسر المعاقل ؛ أجمعيني
رينين صوتك ، إيه الطروب ، وأريني عيالك ، إيه الجليل .

أبتلوا عينا الثعالب ، صفار الثعالب ؛ لأنها تعد الكروم ، وإن كرومنا
لقد نصجت أعينها .

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ، وما هو بعلّم بين زهرات السوسن .
إلى أن يقبل الصلاح وينهزم الغلام عُذْ — يا حبيبى — كما كنت غليبا
أورثنا فى شباب الجبال .
من أمثال سليمان :

رأس الحكمة مخافة الله ، ولكن الجاهل يزدرى الحكمة واللوعة ؛ اسمع
يا بنى وصانك أهلك ولا ترمض شربة أملك ؛ توكل على الله بكل قلبك ،
ولا تعتمد على عطاك ؛ لا تنفع الخير عن أهله متى استعظمت أن تعلمه ؛ لا تغل
لصاحبك اذهب اليوم وسأعطيك غدا إن كنت غمّك اليوم ما تعابه ؛ اذهب
إلى الجملة أبها السكّان ، ونعلم طرائفها وكن حكيما ؛ ولا تزل إلى الزابسة ،
ولا تشرد فى سالكها ، فإن بينها طريق إلى المأوى ، وسبيل هابطة إلى القبر ؛
العامل بيد رخوة مصيره الفقر ، والننى فى بد الجحد ؛ نأى الكبرياء بئى ممها
المهوان ، ومع المتواضعين الحكمة ؛ طربق الجاهل مستنم فى نظره ، وسامع
الشورة حكيم ؛ إن من الناس من ينطق بمثل طعن السيف ، ولسان الحكام
شفاء ؛ المرأة الحكيمة تبنى بيتها والحقا ، نهدهم ؛ الكلام اللين يمحو الغضب ،
والكلام التوجع يثير السخط ؛ قصة يابسة ومعه سلام خير من بيت مليء بالدخانج
وفيه خصام ؛ الأخ أمنع من مدينة حصينة ؛ الصبت أنصل من الننى ، والعمه
الصالحه أنصل من النصه والذهب ؛ الننى والقدير بلقيان ، مكلاهما من صبيغ الله .



وللهود أمثال شعبية قديمة جرت على ألسنتهم فى أزمان مختلفة ، نخل

حبائهم وعسكريهم وعاداتهم في تلك المصور، التي تماثرت عليهم بها الفرة والفلة والاستقلال والاستعداد، نصف الحياة العائلية وفصائل الناس وردائهم، وفواعد السلوك في الحياة البيتية والاجتماعية، والخط والقسمة، والفقر والغنى، في عدالة متنافسة، كذلك التي في الأدب العربي، ومن خصائصها أنها لا تصبغ الحكمة في قاعدة عامة تنطبق على كثير من الجرائيات، ولكنها غالباً تنعاق بمزئبة يمكن أن يشبه بها كثير من الحالات، وأكثرها يدل شكها على أنها نمت من فري صغيرة لا من مدن كبيرة.

نوفى بعض أمثلة منها للدلالة على ما فيها^(١) :

١ — الشباب إكليل من الورد، والشيوخة إكليل من الصنصاف .
أى أن الإكليل في عهد الشباب خفيف وجعل ، أما في عهد الشيوخة فتثقل فيبعث .

٢ — شجرة الشوك من صفرها تفتح الإبر .
أى أن الطفل تنهى أعماله في صفره عما سيكون في كبره .
٣ — قد يملك الحكمة بعض ولدهك .

ومعناه أن الكبار كثيراً ما يهتمون بمن يصغرونهم صداً . والقصة التي من أجلها جرى هذا اللثام :

أن حبراً يهودياً كان له زوجة عنيدة تعمل دائماً عكس ما يريد . فلورضب في القول أعدت له عدسا ، وفي القدس أعدت له مولا . وحدث يوماً أن أرسل الوالد ابنه بحمل رسالة إلى أمه ، بأمرها بصله ونفل الابن إلى أمه عكس ما أمر به أبوه ، وبهذا حقق لأبيه ما يريد . ولما علم الرجل بما فعل ابنه ألّبه على عصيانه . ولكنه تعلم من تصرف الوالد ما يفبى له أن يصنع مع زوجته .

(١) ليست هذه الأمثال مما في الكتاب المقدس ، وهي مختارة من كتب إنجليزية جمعت أمثال اليهود القديمة .

٥ - كذا في شينها رجالا ، فلما أصبحنا شيوخا صرنا في أعين الناس صغارا .
والمنى أن كثيرا من الناس يدرون قدره في سن الشباب فيمهد إليهم بهام
الشئون ، فإذا ما تقدمت بهم السن همزوا عن القيام بمخطير الأعمال ، كأنعام صغار .
٦ - [قال الشيخ] : إني أبحث عن شيء لم أنفعه .
والمنى أن الشيخ إذا اعدوب ظهره مشى وعيناه إلى الأرض كأنما يبحث
عن مفقود .

٧ - كم من رجل مسن يحمل جلد رجل صغير .
والمنى أنه كثيرا ما يلاق الشاب حظه قبل الرجل السن ؛ كما تحمل الجلال
التي تقدمت بها السن جلود صغارها التي دُحمت إلى الموت .
٨ - الفخر يقتل أثر الفخر .
٩ - إذا ما فرغت الدار من شيعتها ، جاءها العناء بدخل من بابها .
١٠ - الكلب الجائع يزدد الروث .
١١ - نعل الآلام بأشد من يمسح جاره بمسح الطعام وهو لا يملك ما يأكله .
١٢ - إل أن بهزل يمكن الرجال بقى منهم العجاف .
١٣ - عند باب الدكان يكثر الإخراش والأصدقاء ، وعند باب البؤس
لا نجد أحدا ولا صديقاً .

أى أن الأصدقاء يكثرون في البسار ، ويختفون في الندم .
١٤ - إن قبل مات الصديق صدق ، وإن قيل أرى الصديق مكذبا .
أى أن سوء الأخبار أقرب إلى الحدوث من حسنها .
١٥ - من استلأ جوفه زادت شروره .
١٦ - نزل الرأه وهي تتحدث .

أى أن المرأة تنهز كل فرصة ممكنة لتحقيق أغراضها ، معى تركيز أنبائها في الغاية التى تنشدها ، حتى وهى تتلوى مع غيرها بالحديث .

١٦ — كما أن النجعة تنبع الصعجة ، كذلك نفعل البفت ما تفعله أمها .

١٧ — سليطة الأمراء والفوك قد تمتن للسلطة .

١٨ — المرأة فى السنين كالصبيبة فى السادسة ، فسرع نحو اللوم .
تعرف فى احتفال الزواج .

ومعنى ذلك أن المرأة لا تفقد مهلها نحو أمور الأمومة مهما بلغت منها .

١٩ — انزل درجة فى اختيار الزوجة ، واصعد درجة فى اختيار الصديق .

أى أن الزواج من امرأة أرفع منك منزلة ، خليق أن يضعك موضع الولاية من زوجك وأقاربها ؛ أما مصادقة من هم أعلى منك فقد ينفكك .

٢٠ — لا أريد لقدى حذاء أوسع منها .

أى أن الزواج من أسرة أرفع ليس سبيلا إلى السعادة .

٢١ — تمجل فى شراء الأرض ؛ وتتردد فى اختيار الزوجة .

٢٢ — إن كانت زوجتك قصيرة فأنعن إليها تهمس فى أذنها .

أى لا بد لك من استشارة زوجتك فى كل شئ ، حتى لو غلظت فكك أووسع مها عفا وحبرة وذكاه .

٢٣ — الرذيلة فى البيت كاللودة فى الحياكة .

٢٤ — صب الوالد لبنيه ، وحب الأبناء لأبائهم .

٢٥ — إذا نبعتك كلب فادخل النار ، وإذا نبعتك كابة فادخل النار .

الكلب هنا رمز لزوج البفت ، والكلبة رمز لزوجبة الابن ، أى أن الأول غسبه محتل ، وأما الثانية منضبا لا يحتل .

الفصل الخامس

الأدب اليوناني

(١) أساطير اليونان

كانت حياة الإنسان الأول شاقة عصيرة ؛ وكان العالم من حوله يعج بظواهر لا يفهمها ، ومشكلات لا بقوى على تعنيها ؛ ولكنه كلما ازداد على مر الزمان خبرة وذكاء ازداد رغبة في فهم هذه الطبيعة وتفسيرها ؛ فما أصل العالم وكيف خلق الإنسان والحيوان ؟ كيف نشأت أملاك السماء في مسالكها ونظامها ؟ كيف نطالع حركات الشمس والقمر ؟ لماذا كانت هذه الشجرة حمراء الزهر وذلك الطائر أسود الذيل ؟ ما أصل هذا وذاك من كل ما يحيط بالإنسان ؟

حاول الإنسان الأول أن يجيب عن هذه الأسئلة وأشباهها ، وهو في محاولته الإجابة لم يكن يعرف بين الإنسان وسائر الكائنات كما نفعل اليوم ؛ إنما الكائنات في رأيه مخلوقات سواء ؛ فكل حيوان له روح كروح الإنسان ، وكل شيء في الوجود له شخصية كشخصية الإنسان ؛ وينبشاه هيرودوت : « أن المعسر بين الأولين كانوا يبدون الناس حيواناً نسيطاً ، والرياح كانوا حياً يتزوج ويحب الأبناء . »

على هذا الأساس أخذ الإنسان الأول في تفسير الطبيعة ، فكان من الطبيعي أن ينبج النصص حول ظواهر الكون كما نفصج حول أفراد الإنسان ؛ فكل ظاهرة قصتها ، أو أسطورتها التي تشرح تاريخها ؛ فكانت بذلك طائفة من

الأساطير تصوّر عقليّة الإنسان الأول في فهمه للأشياء . ولما بدأ الإنسان في إنشاء أدبه وتدوينه ، لم يجد بدا من تسجيل تلك الأساطير الأولى التي أخذت تنوارثها الأجيال ، وكل حبل جديد يضيف إليها شيئا من إنتاجه بصور وجهه نظره في مشكلات الحياة والموت وعلاقة الإنسان بالعالم الذي يعيش فيه .

هذه الأساطير — التي اتخذها الأدب أساساً يقوم عليه — متنوعة متعددة كما تتنوع ظواهر الحياة وتعدد .

هذه أساطير عن أصل العالم وأصل الإنسان ؛ وهذه أساطير عن فنون الحياة نفوس علينا كيف نعلم الإنسان رمابة الرمح وجبر الحراث وصناعة الخزف وهكذا ؛ وهذه أساطير تدور حول الشمس والقمر والنجوم ؛ وأخرى تتعلق بالموت وما بعد الموت ؛ ثم هذه مجموعة من الأساطير — لعلها أروعها وأمنها — تتصل بالحب وعلاقة الرجال بالنساء ؛ والصفة المشتركة بين هذه الأساطير كلها هي الشخصية التي تخلفها على الحيوان والجماد . وقد أدت هذه النظرة بالإنسان إلى العقيدة بوجود آلهة لا عدد لهم يسكنون ويكنون في كل ظواهر الوجود ، ويعتنون بشئون البشر فيرقبونها ويتدخلون في مجراها في شنف وإهتنام ، وكثيرا ما يغف بعض الآلهة موقف العداوة من الإنسان ، لهذا لم يكن بد عند الإنسان الأول من عبادة الآلهة وخشبة عرشها ، ومن هنا كانت هذه الأساطير وثيقة العلاقة بنشأة الدين . ولما كانت حلائع الأدب تدور في جملتها حول الآلهة وما يعملون ، ثم لما كان الدين قد استقبح في نظره إنشاء المبادئ ، فقد صار المعبود الديني في كثير من بلاد العالم القديم مأوى الآداب .

وإنه لمن أروع وأهم ما برويه تاريخ الإنسانية هذا التشابه الشديد بين أم الأرض في أعابها الشعبية وفي أساطيرها ، فأغاني الشرق وأغاني الغرب متشعبة

في الموضوع ، وكل شعوب العالم تقص قصصا متشابهة أو متقاربة ، أ يكون هذا الاندفاع حادثا عارضا ؟ أم سطل اتفاق المنود والقرس والإغريق والرومان والجرمان وأهل اسكندماوه والروس والككتيين بأنهم جميعا استمدوا أساطيرهم من الجنس الذى عنه نفعوا جميعا ، وهو الجنس الآرى الذى كان مفرقا من حضة آسيا الوسطى قبل أن يهاجر نحو الغرب في موجات متلاحقات ليؤسس الأمم الأوروبية ؟ قد يكون هذا التمثل مقبولا لولا أنه لا يفسر التشابه بين الآريين وغير الآريين ، لهذا كان الأرجح أن يكون تشابه الأساطير عند مختلف الشعوب راجعا إلى أنها نتيجة تيارات متشابهة وعقليات متقاربة وعواطف متجانسة بعضها الإنسان ما دام إنسانا ، صى إنتاج العقل والعاطفة الإنسانية في بدايتها . ونحن نيسط لك أمثلة من أساطير اليونان ، لما لها من أثر قوى في الآداب العالمية وخاصة الأدب الأوروبي :

١ — قصة كيربر وسيك^(١) :

كانت سيكه صغرى بنات أحد للوك ، وكانت من الجمال بحيث أثارت الغيرة في إلهة الجمال نفسها « فينوس »^(٢) ، فأمرت الإلهة ابنها كيويدي أن يقتل هذه الإنسانة التي تنافسها في جمالها ، فتسلل كيويدي إلى مخدع سيكه ، ولكنه لم يكذ بهصر هذا الجلال العائن حتى ارتد مذهولا ، وانطلق أحد سباهه إلى صدره ، فاقسم ألا يئسدى على مثل هذا الجمال العرى . وسرعان ما أحبا ، وأخذ يزورها في ظلمة الليل ، بعد أن وعدته بالآ تحلول التعرف باسمه أو النظر إلى وجهه ، ونوعدها بالمهر والقطعة إذا هي أخلفت وعدها ؟ ولبثت سببكه زمانا طويلا

(١) Cupid and Psyche كيويدي إله الغرام وسيكه منمها العرس .

(٢) Venus .

حافظه لمهددا ، ضابطة لأمرها ؛ ولكن رغبة الاطلاع غلبتها آخر الأمر ،
فنهضت ذات ليل وأضطت سراجها وحطت معجبة في حبيبها الزاهد ؛ وشاءت
المصادفة أن تسقط من الصباح قطرة زيت على كيوبد متوقفة ؛ فمر لساعته من
النافذة المفتوحة ؛ وظلت شئكة تعاني ما تعاني من هر حبيبها حتى عاد إليها



وهي قصة ترمز إلى حقيقة إنسانية قريبة ، وهي أن النفس لا يجوز لها أن
تغفل النظر في الحب وإلا نهتد ، وترب من هذا قول الشاعر العربي :
لبس بئس محسن في شرع الخوى عاشق بحسن تأليف المحجج

٢ - قصة ديانا وأنديميون^(١)

كانت ديانا — إلهة القمر — تسوق جيدها البيض التواضع في السماء ، فلهجت
إنديميون نائما على سفح جبل ، وانديميون شاب من الرعاة تأن الجمل ، فأنجست
إليه قهله ، وأخذت كل ليلة تقف بربتها في هذا المكان ، فتنفض مع الشاب
الجميل لحظة قصيرة ، هي عندها السعادة والتعيم ؛ ثم مالت ديانا أن أشفت على
هذا الجمل أن يفلت منها أو تُسَلِّقَه الحياة على الأرض ، فأغرته في نفاس دائم
وأخفته في عار لا يبدنه إنسان من البشر .

هذه القصة من أساطير المجوم ؛ ويقول شارحوها إن إنديميون يمثل الشمس
العارة التي ينطلع إليها القمر كلما بدأ في الليل رحلته .



٣ — طريق الممرار أو فصة فبتون^(١) :

فصة فَبْتُون هي قمة الكون كله ، قد كان مبتون بن أولو^(٢) إله الشمس وهو يمثل السائق الأرحم الذي يتخبط بهرته هنا وهناك ؛ طلب فبتون من أبيه أولو أن يقيم له برهانا على حبه الأبوى ، فأقسم أولو أن يستجيب لطلب ابنه مهما كان .

ولكنه سرعان ما ندم على قسمه . لأن فبتون قد طلب إلى أبيه أن يعود إليه بعربة الشمس يقودها برما واحدا ؛ فقال أولو : « لن يقود عربة النهار ذات الالهب إلا أنا » ، وأنذر أبيه بما يصيب الكون من الكوارث لو هود إليه بعربة الشمس يقودها ، وأخذ يصف له مخاطر الطريق : « أول الطريق شديد الانحدار ... ووسطه عال في أجواز السماء ، حتى أكاد أنا نفسي لا أستطيع أن أصوب نظري نحو الأرض التي تَمُتُّ تحتي دون أن يأخذني للزع ... أضف إلى ذلك كله أن السماء لا تنفك دائرة تحمل معها الجيوم ، فلا بد لي أن أكون على حذر خشية أن تدنسي حركة السماء الدائرة التي تدفع كل شيء ؛ تَهَبِّي أَعْرُنُك العربة برما ، فإذا أنت صانع ؟ ... »

إسم الطريق مملوء بالخناوب ؛ مستمعي بحجاب قَرْنِي « الثور » أمام « المسهم » ، بالقرب من مَسْكِي « للقيث » ، حيث « المقرب » قد أخذى ذراعيها في ناحية و « السرطان » في ناحية أخرى ؛ ولن تجد الأمر يسيرا أن تقود هذه الجلياد بعدورها للليثة الالهب الذي تلعظه من الأفواه والخباشيم . ولكن مبنون

Phaeton (١)

Apollo (٢)

الأحقق أبى إلا أن يكون أبوه عند وعده ؛ فأسلفه أبوه عربة الشمس فأمسكت
العنان وبدأ رحلته في السماء ؛ وسرعان ما أحاطت به الصعاب ، فندأحت الجهاد
رعونة سائقها فانطلقت منحرفة عن طريقها ؛ متلاحفت الكوارث : احترق الدب
الأكبر والدب الأصغر ، وذوت مجموعات بأسرها من النجوم ؛ فلما غارب الأرض
أخذها الملح من كل صوب ، فسقط العنان من يد فيثون ، وجثا راکما أمام أبيه
بطلب معونه ، اسكن دعاء ذهب به نحة الفزع تلبثت من أرجاء الأرض
جها ؛ فالنهابات تشتعل ، والجبال تذوب ، والبحر يفيض ، والفاغ يبرر على
هيئة الجزر ؛ والأرض تنشق ، والدائن تصعد دخانا في الفضاء ثم تهبط ذرات
من رماد ؛ وسر التيل ينحرف إلى الصحراء حيث لا يزال حتى اليوم ؛ واسودت
وجوه أهل الثوبة ؛ وماج البحر حتى كاد إلىه بنور في الهم غرقا ، واهترت
الأرض ضارعة إلى « جويتر » ^(١) أن يُخَيِّدَ نارا كانت تحملها رمادا .

وسمع « جويتر » (إله الشقري) دعاء الأرض ، ودعا الآلهة أن يشهدوا
ما دبر للأرض من خلاص ؛ وما هو إلا أن طوح يسهم من البرق الخاطف
نحو السائق المحتون ، فارنج فيثون وسقط من مكانه في العرة إلى نهر
« أريدانوس » ^(٢) حيث غرق في موجه ، وأقامت عرائس النهر قبراله ؛ وبكت
عليه أخواته بكاء سرا طويلا ، حتى أشفق عليهن « جويتر » فأحاطن شجرات
من الحور ما تزال ورفاتها تسقط عبراتها القانيات ، وحزبت عليه صديقه
« سجنوس » ^(٣) حزنا كاد يقضى عليه ، فبدله الله ^(٤) لن يزال إلى الأبد ساجدا
على النهر بنشد فير فيثون .

هكذا على عقل الإنسان الأول — وفيه ما فيه من ضعف التليل وشروء
الظلال — نشأة الصحراء والأصقاع الجذبة وما إلى ذلك على ظهر الأرض .

• • •

٤ — قصة إكو ونارسيس^(١) (الغريسي والغريسي) :

كانت إكو — غريوس الجبال — بارعة في جمالها ، ولكنها أخرجت صدر
ديانا^(٢) بحديثها الذي لا ينقطع ، وكثرة لجابها واعتراضها في الكلام والحوار ،
فضت عليها ديانا بالعقاب الآفي .

« منحرمين هذا اللسان الناطق الذي تخدعيني به ؟ ظن بطنك لسانك
بعد الآن إلا بشيء واحد أنت به مغرمة ، وهو : الجواب ، وسأثقي لك القدرة
على رد الكلمة الأخيرة من حديث التكلم ، وأسلبك القدرة على البدء بالحديث »
فتذهب إكو صامتة اللسان لا تحرك إلا لكي تكرر به آخر كلمات المتحدث ؟ ثم
يشاء حفظها الأمكد أن تُقرَّم بشاب جميل « نارسيس » (الغريسي) وتهم بمنازلته
فلا تستطيع ؟ فنال منها الحزن والماركل مبلغ ، وآوت إلى الصخور والجبال حيث
أخذت تكدى وتذبل حتى فنى منها الجسد ، ولم يبق لها إلا الصوت تردد به
الكلمة الأخيرة مما نسمع ؟ ولا تزال حتى اليوم نرضها بصوتها ، وشادت للغاير
أن تنظم لها من نارسيس الذي رفض حبها بل أشاح بوجهه عن الدرائس جميعا .
وذلك أن نارسيس رأى يوما صورة وجهه معكوسة في لاء فأحبها ، ولكن
لا سبيل إلى ضم هذا الحبيب .

لذلك اعتزل في حزنه حتى مات ؟ فأرادت الدرائس أن توارى جسده في

جدت بليق به ، ولكنها لم تجد من جسده إلا زهرة تحمل اسمه ، هي زهرة
الفرجس . ولعلها رمز إلى زهرة الفرجس التي تنمو على حافة المياه .

٥ - قصة پروزر بين المنتصب^(١)

لم يستطيع يوتو^(٢) - إله جهنم - أن يقرى إلهة من الآلهات بزواجه ،
فظل في مملكة الموت وحيداً حتى ضاق بهذه الوحدة ذرعاً ؛ وحدث مرة أن كانت
« سيريز »^(٣) إلهة الذبح والخصاد تجول مع ابنتها « پروزرين » في سهل مرمر
من سهول صقلية ، فأخذت الفتاة تجمع الزهر مع جماعة من الرفاق ، فباغتها « يوتو »
وقد أنهل في عربته مصرعاً ، وأحسا للظلمة الأولى فاختصمها لتكون فرقة له في
مملكته العاتية الموحشة ؛ فسقط الزهر من حجر الفتاة وأخذت تصيح مستنجدة
ولكن الإله المنتصب استمعت جيلده حتى وقف به الطريق عند نهر ، فنصب
يوتو وضرب الأرض بصولجانه فانشق له وهبط إلى جوفها مع عروسه المنتصب ،
فغرمت ضوء الشمس وهواء الأرض وأصبحت زوجة ملك الموت ؛ وأخذت أمها
سيريز تبحث عن فئاتها في سورة من المنتصب والحزن ، وأشبهت صراخين وهامين
على قمة « إلفنة » لتبحث عن ابنتها في سواد الليل ؛ فلم يجرؤ أحد من الآلهة
ولا من الناس أن يثبتها حير ابتها حوا من يوتو ؛ ولبقت الأم هاتئة على وجهها
نسمة أيام ، حتى صادفت إلهة أنبأتها قصة ابنتها التي أصبحت ملكة على
دولة الأموات .

فأسرعت سيريز في عربتها إلى مقر الآلهة لترفع إليهم شكاتها ؛ فاستجاب

لها «جوف»^(١) وأرسل عطارد^(٢) يستردّ برونز بين من خاطبها بلونو ، ولكنه اشترط ردها ألا تكون قد اكتت شيئا من طعام العالم السفلى ؛ وذهب عطارد وكاد بلونو يمدح بأمر كبير الآفة ، لولا أن برونز بين عندئذ شوهدت وفي يدها زمائة تمص رحيفها ، فكان ذلك مانعا من ردها ؛ ولكسهم انفقوا آخر الأمر أن يقموا من العزمين موثقا وسطا ؛ متفقين على برونز بين أن تنفق نصف عالمها مع أمها وللصف الثاني مع زوجها .

وبرونز بين في هذه القصة رمز لحبة القمح التي تنفق الشتا ، رافدة في غيبا مظلم تحت الزراب ؛ ثم تعود متبرزة على وجه الأرض في الربيع مورقة مزدهرة ؛ أو بهبارة أخرى ترمز هذه القصة لموت الشتاء تنفوه حياة الربيع إلى أبدي الأبد .



هذا نموذج من الأساطير اليونانية وتسمى الميثولوجيا^(٣) وهو اسم يطلق على أساطير كل أمة تتعلق بألفتها ، فيقال للميثولوجيا اليونانية والميثولوجيا الهندية الخ وقد تناولها العلماء بالبحث في أصولها وذاقتها ورموزها ، وسموا هذا العلم «ميثولوجيا» أيضا ، وهو علم واسع احتدم فيه الجدل واحتاشت فيه وجوه التفسير . ولعل أنتم محاولة كانت ما زعمه ملاسعة أيونيا من أن الأساطير ليست إلا رموزا لقوى الإنسان النفسية والأخلاقية ، وعن هؤلاء الملاسعة أخذ أفولطين وعمرغوبوس وغيرهما من ملاسفة الإسكندرية ، فأسرعوا في التخريج ، وإن لم نحل آرائهم من عمق وجمال . هذا فذلك مثلاً قصة « يوليسير » والساحرات المعروفات باسم سيربنتا^(٤) ، فقد حدثنا هوميروس عن وجود أولئك الساحرات بأعلى الصخور في إحدى المضائق الخطرة ، وقال إن أصواتهن كانت رائحة الجلال وبهمن

كن إذا غنن أذهلن البحارة عن سفنهم ، فتركوها تسير مع الموج إلى أن ترنطم بصخور المضيّق وتتجطم . ولهذا عندما اقترب « يولبيز » منهن تألدا من حرب طروادة أسر بحارته أن يسدوا آذانه وأن يشدوه إلى شراع السفينة ، وبذلك نجا من سحرهن ، واستطاع أن يظل يلفظا معنيا بقيادة سهيخته وإصدار أوامره إلى البحارة .

في هذه الأسطورة يرى أفولطين وتلاميذه أنها رمز للصراع بين العقل والنوابة ، وهو بدء تسير فريب مذبول ؛ ولكن موضع الخطر كان في تعميدهم لمثل ذلك العلم ومحاوالتهم تطبيقه على كافة الأساطير .

وفي القرن الرابع قبل الميلاد ظهر مذهب آخر يعرف « باليهيميرية »^(١) نسبة إلى الفيلسوف اليوناني يهيميروس^(٢) ، وهو يرى أن الأساطير ليست إلا قصصا خياليا لحوادث تاريخية ، «آلهة وأشخاص الأساطير الأخرى ليسوا عنده إلا ملوكا وأبطالا أصبحوا آلهة بعد موتهم في فريوس مثلا ليس إلا عازيا شجاعا مات بجريرة كريت ودفن بها ، وبعد موته قُبد على أنه إله ؛ وبهذا الذهب أخذ رجال الكنيسة في التاريخ القديم وفي القرون الوسطى ، لأنهم وجدوا فيه ما استطاعوا منه تخرج آلهة الوثنية . وهذا للذهب وإن كان في عبادة الأموات التي شاعت عند الشعوب القديمة ما يؤيده إلا أنه لا يمكن أن يفسر ثناء كل تلك الآلهة التي ملأها اليونان الأرض والسماء .

هنا فإن ما اتخاذه إثنان الكبيرتان اللتين عرضهما القدماء ورجال القرون الوسطى في تفسير الأساطير ! وأما المصور الحديثة — أعني منذ النهضة الأوروبية — فقد نعتت في الفروض يضعها العلماء ثم يأخذون في البرهنة على صحتها معتمدين على

الغارقة . ولقد كان في اكتشاف أمريكا ومجاهل أمر بقبا وجزر الأوقيانوس ما يمكن العلماء من تدوين كثير من أساطير الشعوب القطرية التي لا تزال تسكن بعض تلك الجهات ، وعلى ضوء تلك الأساطير حاولوا تفسير الأساطير القديمة . وقال البعض إن الأساطير لم توضع إلا لتفسير العقوس الدينية التي توارثها الأقوام البدائيون دون أن يفهموا لغياها ^{لغياها} ، فأخذوا يسجون لتفسيرها القصص ؛ وقال آخرون إنها وضعت لكي تفتت نوعا من الحياة في الأسنام والتماثيل التي توارثها أولئك النعم ؛ وقال آخرون إنها نشأت عن عبادة الشمس أو غيرها من قوى الطبيعة التي خشها الإنسان البدائي وهجر عن مهملها فبهذا . وهكذا تنوعت للذاهب مما لا يحيل إلى عصره ، وفي كل منها شيء من الحق ، ولكها كلها لا تقوم إلا على الفروض التي لا تفيد بغيرها .

والأساطير اليونانية لم نصل إليها على حالتها القطرية الأولى ، بل إن الشعراء الذين أمروا بعد تلفنوا الأساطير من أمراء الشعب ، وهم لم يبقوا عند مجرد التدوين أو الصباغة الشعرية بل نموا ما سموا وهوسوا بعقولهم المتنازعة ، ووجهوه نحو معان جديدة عجيبة ، ثم عادوا مردوا إلى الشعب ما أخذوه عنه ، وإذا بالشعب يفسى الصانع الأولى لأساطيره ولا يسود بذلك غير ما يرويه الشعراء . وعلى هذا النحو نستطيع أن نقول إن الشعراء هم الذين خلقوا الأساطير التي بين أيدينا الآن . وأقدم شعراء اليونان الذين خلقوا لنا ما كتبوا هو « هوميروس » الذي عاش على الأرجح في القرن العاشر قبل الميلاد . ولقد تحدث هوميروس عن الكثيرين من آلهة اليونان وذكر الكثير من خصائصهم وصفاتهم ؛ ولكن ما ذكره ذلك الشاعر العظيم عن الأساطير لم يأت إلا عرضا ، وفي خلال قصصه لاجراءات التي اتخذها موضوعا للمحنية اللتين ستمحدث عنها بعد . ومع ذلك من البين أنه

كانت لدى هوميروس فكرة جاسمة عن روح الأساطير الإغريقية ، تلك الروح التي نجدتها شائعة في كل ما يقول وكأنه يفرضها معلومة ، وهي لا شك كانت معلومة لسامعيه ؛ وأما نحن الذين مجئنا فلا بد لنا من الاعتراف على شاعر آخر أثنى بعد هوميروس بأربعة قرون غربا ، وحاول أن يعرض بتاريخ الآلهة اليونانية والأساطير التي تتناقل بها ، ولكن عرصه لم يخل من شائض وتشتت ، ليسره اليوم محاولته التوفيق بين تقاليد المدن اليونانية المختلفة ؛ ومن المعلوم أن بلاد اليونان كانت مقسمة إلى عدة مدن تكون كل مدينة منها مملكة صغيرة ، وكان لكل مدينة نظامها وتقاليدها وآلهتها وأساطيرها ، وإن تشابه ما كان قائما بالمدن المختلفة ، كما أن فهارم الأعياد الإغريقية العامة والمسابقات الرياضية المشتركة ، ووجود معابد في مدينة دلف وجزيرة ديلوس^(١) ومدينة أولمبيا وغيرها يبيح إنها الإغريق كافة ، كل هذا ساعد على وجود آلهة مشتركة موحدة الخصائص ، ولكن دون أن يمحوا الاختلاف في التفاصيل .

ذلك الشاعر هو « هزود » الذي سيأتي ذكره ، وكتابه الذي نشر إليه هو « نسب الآلهة »^(٢) ، وبإسعادنا في ذلك الكتاب نستطيع أن نفهم الأساطير اليونانية فهما بوضوح لنا الكثير من خصائص الأدب الإغريق بل والروح الإغريقية عامة .

والذي لا شك فيه أن أساطير الإغريق كثيرها من الأساطير تدور حول العناصر الأبدية الثلاثة (١) الإنسان (٢) الطبيعة (٣) الآلهة ؛ وهذه العناصر الثلاثة هي أساطير كل تلك القصص ؛ والذي تمثل الإنسانية منذ أقدم الأزمنة — ولا يزال يشعنها حتى اليوم — هو صراع العلاقة بين هذه العناصر وعلى المشككة القائمة بينها ،

ولقد استطاع اليوناني أن يفهموا تلك العلاقة وأن يحلوا ذلك الإشكال حلا شريفا فيه نذكر كل خصائصهم الروحية .

ولعلهم لم يستطيعوا حل تلك المشكلة المويصة — مشكلة الإنسان والطبيعة والآلهة — ذلك الحل الشري إلى الأفضل تلك الخاصية التي يجمع التفاد على نورها لديهم ، ونعى بها أنهم قوم كانوا يعكرون غيالهم ، وبذلك استطاعوا أن يجمعوا بين نشأة الآلهة ونشأة العالم ، حتى لنقرأ اليوم كتاب هرودوت الذي فخر به بوضوح فاسع لا يكون ثمانى قسائل الآلهة ونور مع الاحتصاص بهم ، وكانت هذه أول مرحلة لحل المشكلة ، وكانت الثانية خلغ صفات الإنسان على آلهتهم وبذلك قربوها إليهم وحملوها زعامتهم ، ومنذ أن أصبحت لهم آلهة شبيهة بالبشر أخذوا يتصورون آلهة أخرى وربات في كل ما في الطبيعة من جهال وأنهار وغابات وأشجار ، حتى تستطيع أن تقول : إذا كان المهود يعتقدون بالحلول الإلهي في السكون ، فإن اليونان قد آمنوا بالحلول الإنساني في الآلهة ، والإنسان عندهم حال بكل شيء ، حال الآلهة ثم حال بالطبيعة التي تصورها تلك كل خصائص الإنسان . وهكذا أخذ اليونان من الإنسان محورا لوجود كله ومنهما له .

وعن خصائص هذا الحل نذكر خصائص الأدب اليوناني كله ، وهو أدب (١) إنساني ، أعنى أنه يعالج مشاكل الإنسان التي تمس حياته الفيزيية ، وبسلط الصور على الدرس البشرية ليكتشف عن أسرارها ، وهذه الخاصية من الوضوح بحيث لم يجد علماء النهضة اسما يصدق على الدراسات اليونانية اللاتينية حرا من الإنسانية (٢) وهو أدب تشخيص «دراما» ولقد أنهت تلك الميزة من تشخيصه لعناصر الطبيعة التي ملأوها بالآلهة البشرية ، فأصبح الوصف نفسه أشبه ما يكون بالرواية الخيالية التي تتشبع فيها الإرادات الخلقية وتعارض أو تتعاطف (٣) وهو

أدب اصبحام^(١) تقناغم أجزاؤه ولا نصنع فيها ، وتلك خاصية امتازت بها أساطيرهم التي خلقت ذلك الأدب .

خذ لذلك مثلا ما ذكره هرود من أن الأرض « جيا »^(٢) لما خلقت وخلقت السماء « أورانوس »^(٣) تزوجت الأرض السماء — وبهذا فسر الخيال اليوناني جثوم السماء على الأرض عند الأئني — وننج منها أبناء نخص بالذكر منهم الزمن « كرونس »^(٤) ، ولما كان الزمن لا يبقى على أحد ولا على شيء ، وكان فاسي القزاد لم ينزع عن أن ينال بعمونه أباه أورانوس نفسه بطلعه فيهوى إلى الأرض .

هوى أورانوس غل محله كرونس في السيطرة ، ولقد كان من العائبي أن يصور اليونان سيطرة « الزمن » على الوجود ، والنفس كرونس له زوجة لم يجد خيرا من « ريا »^(٥) ورثا معناها « الجريان » ، وإذن فقد تزوج الزمن من جريانه وكانت لها أبناء ؛ ولكن كرونس الذي لم يبق على أبيه أخذ يتلف أبناءه بمجرد أن يولدوا ويبتلعهم ، إلى أن كان يوم ولده له « زيوس »^(٦) ، وسعى زيوس « النهار أو الضوء » ، ونظرت الأم وجدت ولدها مشرق الحيا ، فز عليها أن يبتله أبوه ، واحتالت لنجائه فلف حجرا في قاط وألقته الأب ، وهربت بابنها إلى جزيرة كريت حيث أودعته عند جدته جيا .

بجزيرة كريت غا « زيوس » وترعرع ، ولكنه لم يكد يبلغ أشده حتى علم بوجوده البتلان^(٧) أعمامه إخوة كرونس ، شار غضبهم إذ أنهم لم يسلموا لكرونس بالسيادة إلا على شرط ألا يصب أحدا يمكن أن يخلفه في الملك ، أما

وفدأملت من أبنائه ولد منهم في حل من عهدهم ، بل لابد لهم من إزله عن عرشه ليتخلصوا منه ومن ولده ؛ وكانت معركة حاسية اهتز لها الوجود كله وأوشكت « كرونس » أن ينهزم وقد وجد نفسه وحيدا أمام جموع إخوته التي تركت فيها قوى العالم لولا أن حلف « زيوس » إليسه . ونظر زيوس فرأى بولدر المزعجة ، فأسرع إلى أبيه يجره شرابا لم يكذب قوله حتى رد ما ابتلع من أبنائه ، فاموا بجوار أبيهم في مناصرة أعدائهم ، حتى كانت لهم ولأبيهم القلة .

انتصر كرونس وكان الفضل الأكبر في انتصاره لزيوس الذي لم ينس أنه لم ينبج من أبيه إلا بحيلة أمه ، والذي كان يعلم حق العلم أن لقاء مع « الزمن » شيء ولا لأحد . وتطلع زيوس إلى الخلود فأخذ بتلايب « كرونس » وألقاه إلى الأرض حيث سقط إلى جوار روما ، فجا يروى « فرجيل » شاعر اللاتين الذي حسب أن سقوطه بجوار نكث المدينة العريقة سيضمن لها الخلود ، ولكننا لسوء الحظ نلاحظ أن نزوله إلى الأرض لم يحفظ روما ولا حفظ غيرها .

تخلص زيوس من كرونس فضمن الخلود .

وانتصار زيوس هو انتصار النهار على الزمن . انتصار هذا الجزء من اليوم الذي يمد كل صباح إلى الظهور ، هو انتصار الحياة للتجدة على الفناء للسمر . وهكذا عبر الخيال اليوناني من الزمن للدمر الذي يخفى بضمه بضاً إلى النهار الذي يقبه الليل ، إلى الحياة يتلوها الفناء .

انتصار النهار على الزمن انتصار لمقياس محدود وقانون معرّد على امتداد الزمن الذي لا أول له ولا نهاية ، فهو انتصار للمحدود على اللا محدود ، انتصار للنظام على التروني ، ومن هنا سمى هو زيوس « سيد النظام » .

بذلك وصل الخيال اليوناني في صمه لنشأة الآله ونشأة الكون إلى مبدئين

أساسيين : (١) مبدأ الخلق والهدى ، (٢) مبدأ النظام الذى يسود هذا الوجود .
 انفراد زبوس بالسيادة وقد ضمن الخلود بخلاصه من الزمن ، و« زبوس » كما
 رأينا رمز النظام . ورمز هذا الجبر الذى يدير الوجود وفقاً لقوانينه ، بحيث لا بد
 لهذا الإله الجديد من إخضاع ما بقى من قوى خلقها الآلهة القديمة . مماهى الرباع
 ما تزال تهب والبراكين تنور .. الخ على غير معنى واضح ، حتى لكأنها عند عصر
 الثورة فى هذا الوجود ، ثورة إلهها برمز الخبال اليوماني عندما يحدثنا عما كان
 من نشوب الحرب من جديد بين زبوس وبين إخوته ونفى عمومته من
 الملائكة^(١) ، وأوشكت المزيمة أن تحل بزبوس لئلا أن حذف إله أحد بى عمه
 بروميثيوس^(٢) أى « المنصر » جد البشر مما يزعم البعض ، ورمز الإنسانية
 وحماها ، فشد من أزره حتى كان له النصر ؛ ولا أدل على أن هؤلاء الملائكة
 هم قوى الطبيعة من أن هزيمتهم لم تتم إلا بعون البشر ممثلين فى بروميثيوس ،
 البشر الذين ينلخص تاريخ جهادهم الطويل فى غزودهم إلى فوائن الطبيعة غزوداً
 بتكمهم من السيطرة عليها . ثم من هم أولئك الملائكة ؟ ألبسوا أمثال تيفون^(٣)
 الذى قضى عليه زبوس حد المزيمة بالسجن تحت جبل « الأنا » حيث لا يزال
 إلى اليوم ينور من وقت إلى آخر فينفث الحلم لها ، ثم أطلس^(٤) الذى ألقاه
 زبوس بشمال إفريقيا حيث لا يزال جبلاً يحمل على أذرعه نمة المياه ؟
 هكذا انتصر « زبوس » على الملائكة من قوى الطبيعة مصاد الجبر عالم المادة ،
 ولكن هل سيبسط هو نفوذه أيضاً على البشر ؟ وهل سيقصع له هؤلاء البشر
 فى شخص بروميثيوس أم لا بد من قيام صراع بينهما ؟ وإن كان فلن
 ستكون النتيجة ؟

والحق أن هذا الصراع لم يكن منه بد ، برومئوس لم ينس أن له الفضل الأكبر في تمكين زيوس من الانتصار و برومئوس يمثل هؤلاء البشر الذين يحسون أن لهم إرادة حرة أو يعتقدون أنها حرة ، وفي تلك الحرية أملهم العذب ومصدر شعورهم بكرامة الإنسان للشئول عما يأتي وما يدع .

ولقد كانت لهذا الصراع قصة طويلة ، وإنما يهمنا الآن أن نقرر أن زيوس و برومئوس ، أو قل إن مبدأ الخير والبشرية قد وصلا إلى كلمة سواء ، فكف زيوس عن البشر أذاه وحصنت الإنسانية لأحكامه . ولكن بعد زمن طويل تحول فيه الإله عن طبيعته الاستبدادية إلى إله مفيد بقوانين الحق والعدل والظفر ، وأشرك معه في الملك من إخوانه وأقاربه عدداً انورد كل منهم بالسيادة على جزء من الوجود وإن ظلت له السيطرة العليا ؛ بل ودعا من البشر فأخذ الكثير من خصائصهم ، فأصبح يفرح ويحزن ، و يلهو ويتألم ، ويحب وبكره ، ويشتهي ، كما يفعل البشر سواء بسواء .

فأما مثل الخير والعدل والحق ، فقد احتال لاكتسابها بأن اجتمع «الحكمة»^(١) التي استشرت برأيه صدر عنها في قيادة العالم ، إلى أن كان يوم ناه بحملها فدعا إليه هيفيستوس^(٢) إله الحدادين وأمره أن يشق رأسه بحموله فخرجت منه الحكمة مشبعة في تلك الآلهة الزائفة آتينا « بالاس آتينا »^(٣) . خرجت من عقل الإله ويدها رجمها ، ورأسها خوقتها ، رمزا لقوة الحكمة . ثم تزوج من « تيمبس »^(٤) نوى الشريعة ، فولدت له « الساعات » وحيدة الزمن ومقياسه ، وولدت ايسوميا^(٥) «الحكم الصالح» تحمل إلى العالم العدل والسلام ،

Pallas athénée (٢)

Hephaestus (٣)

Metis (١)

Ennomis (٥)

Themis (٤)

ثم « البارك » ^(١) آلهة الأعمار الثلاثة فنزل إحداهن خبط آجالنا ، ونطوى الثانية ما فنزل الأولى ، وأما الثالثة فتقطع المحيط عند ما يحين الحين .
كذلك أشرك معه في اللاك إخوته وأقاربه بركة ديمفراطية إغريقية معنه ،
ومن أشركم معه يوزيدون ^(٢) الذي ولي عبادة البحار ، وهديس ^(٣) الذي
ذهب بالسيطرة على العالم الآخر ، وأما هو فقد استغل بالمياه لبشرها منها على
من دونه ، مبها غال سطح الأرض ملكا شامدا للجميع عما فيه الأولب ، ذلك
الجليل الجليل الذي أنجذنه الآلهة ندوة بجميع سمته حملها ؛ وكان هؤلاء الأرباب
أنساء كثيرون انصبا إلى آبائهم في السادة ، وقد انفرد كل منهم بظاهرة من
ظواهر الطبيعة المتعددة ، فأصبح للمحار حوزيات ، وللأنهار والعاليات والبنابيع
ولللروج الرطمة ربوات ، وذهب الإله الرابع أجولو ^(٤) بالعذون على رأس حوفة
بجيلة من القنات التسع السمبات بالمبز ^(٥) ، ولكل منهم اختصاص من موهبة
أو شعر أو ناريج . . . الخ .

وأخذت كل تلك الآلهة صنعت الشر حتى غال حصصهم إذا كانت بعض
الآديان فنول إن الله خلق آدم على صورته . فاليوناني هو الذي خلق آلهته على
صورته « صورة الإنسان » .

ولما كان كل أدب قديم وليد الدين وصورة له ، فقد انصف الأدب اليوناني
بما انصفت به آلهتهم ، فجاء كلنا أدبا إنسانيا ، أدب الانجم ، أدب تشخيص
فيه كل ما في أساطيرهم من صفات .

(ب) شعر المومم عند اليونان^(١)

في القرن التاسع أو العاشر قبل الميلاد ، كان شاعر ضرير يتنقل بين المدن اليونانية في آسيا الصغرى بشد الأماشيذ ، وبرتلي الأساطير التي صيغت في فوائب الشعر وفنائه ، ذلك هو هومر أو «هوميروس» الذي يقال عنه إنه منشئ الإلياذة والأوديسة^(٢) ؛ وقد يكون القول صحيحا ، وقد يكون اسم «هوميروس» رمزيا اعطاه من الشعراء أحد كل منهم بنصيبه في خلق هاتين الآيتين . وأيا ما كان ، فقد كان القدماء يروون هذا الشعر على أنه لشاعر واحد بنزاع شرف مولده كثير من البلدان .

ولسنا بدري من أمر هوميروس في حياته الخاصة شيئا ؛ إذ أنه لما أصبح المؤرخ اليوناني وثاقم في القرن الخامس والرابع قبل الميلاد أن ينعقوا أشخاص التاريخ وبنقوا على أصولهم لبروزا صريح أخبارهم ، كان هوميروس بين أيديهم أسطورة بمجرون من تخفيفها كما هو اليوم أسطورة عند الباحث الحديث ، فلم

(١) اعتاد الفرع أن يسموا الشعر إلى ثلاثة أقسام كبير يتفرع منها فروع كثيرة ؛ القسم الأول شعر التلامذ ، وهو الشعر الذي يبره التلاميذ والأخبار ويتضمن أساطير الآلهة وحوادث الحروب ، أحسن من اللحن وهي الوفاة الطيبة .
والقسم الثاني شعر المثالي ، وهو في الأصل الشعر الذي كان يلقى على الفئران وهي آلة نغمة القود ، ثم ألتقى على كل شعر يبره من مواعظ التلامذ من غزل وسديج وروثا . وثالث وهو ذلك .
وحدثا السبيل متقابلين . صبح أن يشعلا الشعر كله ، لأنه إما نصير من أمور خارجية وصبر وواقع ونحو ذلك فهو التلامذ ؛ وإما نصير من أمور حسية داخلية فاعلمه وهو شعر المثالي .
ولكنهم في البادة ضلوا إليها فبها ثانيا باعتبار مظهره وهو الشعر التمثيلي ، ولتعدد من الطوم من الروايات التمثيلية . وهذه الروايات وإن كانت مريحا من الغصص والثناء إلا أنها لا تصدع الجمع بين هذين المصيرين بل فسح عليها صيغة فنية خاصة هي الحوار وتصوير الشخصيات وعلاج المشاكل النفسية والأخلاقية والاجتماعية والدينية ، وفي هذه المقامات ما يميز الشعر التمثيلي عن النوعين السابقين .

يكن اليونان في عصر أفلاطون وأرسطو يملكون عن شعرائهم السابقين ما نطه نحن من شعرائنا ، لأن شعرائنا قريبا العهد بنا ؛ وإذا تجاوزنا الأولين منذ كانوا يعيشون في عهد الكتابة ، وفي خمسة القرون الأخيرة كانوا يعيشون في عصور مطبوعة ونشر ؛ أما اليونان في عصر بركليز فلم يكن لهم بالطباعة عهد ، وكان عليهم أن يحفظوا أشعار هوميروس عن ظهر قلب ، والأرجح أن تلك الأشعار لم تخط وضعا وترتيبها كما هي اليوم إلا في القرن السادس قبل الميلاد

ولم تنشأ ربة في نسبة هذه الأشعار إلى شاعر معين اسمه هوميروس إلا في أواخر القرن الثامن عشر ، وذلك حين أثار هذه المشكلة العالم الألماني ، « فردريك ولف »^(١) وهي مشكلة لن نجد لها حلا سائما .

وبعد ، فما الإلادة ؟ وما الأوزيس ؟

الميلادة :

نسبت بين الآلهة خصومة إذ أقت إلهة الشفق « إيريس »^(٢) بين الأضياف — في حفلة عرس — فتاحه نفثت عليها هذه الكلمات « إلى رمة الجلال » ؛ وكان بين الحضور ثلاث إلهات هن : « جرنو »^(٣) و « فينوس »^(٤) و « مينرفا »^(٥) وكل منهن تزعم لنفسها السيادة في دولة الجلال ، وترى أن لها الحق في التفاحة ؛ فقرر كبير الآلهة « حوبز »^(٦) أن يكون « باريس »^(٧) بن « برتيم »^(٨) ملك طروادة حاكما بين الإلهات الثلاث ؛ فحكم باريس لفينوس^(٩) وأعطاهها التفاحة ؛ فعرض بذلك لخطئ الإلهتين الأخرتين .

Juno (٣)	Iris (٢)	Friedrich Wolf (١)
Jupiter (٦)	Minerva (٥)	Venus (٤)
	Paris (٧)	

(١) الأسماء الواردة هنا هي الأسماء اللاتينية لا اليونانية وقد حريا عليها علامة :

وحدث بعد ذلك قليل أن أضر « بارس » إلى بلاد اليونان وزل ضيفا على « مينلاوس »^(١) ملك إسبرطة ، فأكرم تلك ضيفاته ؛ ولكن الصنف أراء لصبيته ، إذ أحب زوجته « هيلن »^(٢) وهي امرأة طرعة الجمال ، وأضرعا أن نمر معه من خدر زوجها إلى بلده طروادة ؛ فثارت لذلك ثائرة « مينلاوس » وأهاب بأعدائه ملوك اليونان وأعطاهم أن يملونوه على رد زوجته الطارئة ؛ على الدعوة من هؤلاء : « بوليبيز »^(٣) ، « أخيل »^(٤) ، « أجاكس »^(٥) ، « ديويد »^(٦) ، « نيسطور »^(٧) ، « أجاستمون »^(٨) أخو مينلاوس ؛ وكلهم من الأساطال المحول ؛ واختير أجاستمون قائدا للجيش اليوناني ؛ وكان على رأس الجيش الطروادي « هكتور » ، وهو الابن الأكبر لبريham ملك طروادة وزوج أندرومك^(٩) . وانقسم الآلهة في القتال ممسكين ، كل جماعة تناصر فريقا من القتار بين ؛ أما « جومو » و « مينرفا » فكانتا بالطبع في جانب اليونان لتنتقما من « بارس » وأهله ؛ وأما « ثينوس » و « مارس » — وهو إله الحرب — فكانتا في جانب طروادة ؛ ومال « نيبتيون » إلى جانب اليونان ، ووقف « جوبيتر » و « أبولو » على الحيلاد ؛ وليأت الحرب بحوتس سنين ؛ ثم حدث خلاف بين أخيل وأجاستمون ، ومن هذا الخلاف تبدأ قصة الإلياذة .

== للمزجيين الإغاييز والفريسيين . و « حونو » إلهة الزواج ورمز قداسته و « ثيوس » إلهة العرام والجمال الجسي و « سرفا » إلهة الذكاء . وجمال الروح . والأسطورة تشير إلى التزاوج وللانفاسة بين الزواج المخلوق وبين حاله الغم والفرح وبين الذكاء . وجمال الروح . وجمال « حونو » باليونانية « هيرا » و « نايبي » « ثيوس » « أفروديت » و « بابل » « سرفا » « أثينا » و « بابل » « جوبيتر » « زيوس » .

Ulysses (٣)	Helen (٧)	Mentelous (١١)
Diomedes (٦)	Ajax (٥) ويرجه بعضهم أليس	Achilles (٤)
Antimaché (٩)	Agastemon (٨)	Nestor (٧)

يحدثنا الشاعر في السطور الأولى من ملحته أن الجيش اليوناني الزاح
أمام طروادة ، ففى عليه الآلهة أن تمنح به الأمراض ، فتشابه الطاعون ،
ولما سئل العرفاء عن تحليل هذا القضاء ، أجاب بأن « أبولو » قد ردهم بحرا به
للسمومة ، لأن أجاممنون قد أبى أن يعدى ابنة كاهنه لها ونمت أسيرة في
إحدى المدن التي منحها اليونان تقسموا بينهم نساءها وأسلابها ! فما إن سمع
أجاممنون جواب العرفاء حتى رد السكان أخته ، واستبدل بها « بريسيس »
التي كانت مصيب « أخيل » من السبال ؛ فلم يسمع أخيل إلا أن يغفل راجعاً إلى
سفينته ، وهو يكاد يتميز من التعب ، وأعلن أنه لن يشارك في صفوف اليونان
بعد ، وطلب إلى أمه ثيس — وهي من عرائس البحر — أن نصب نفسها على
المستبد العاصب ، ودعا « جوف » أن يفتح له من قائد اليونان وجنده ، فأبى
« جوف » أن يُنزل باليونانيين شراً لأنهم في حمى زوجته .

ونضرت « ثيس » إلى « جوف » أن يكون لابها أخيل عوناً على عدوه
أجاممنون ، وأوصى جوف إلى أجاممنون حلاً زائلاً بزعم أنه طروادة قد آن
لما أن تسقط في يديه ، عليه أن يبادر بالمحجم ؛ وانخدع أجاممنون بالحلم . وصفاً
جند اليونان في حومة الوغى استعداداً لقتال ، إلا أخيل وأتباعه الذين غادروا
للمعنة عاصيين ؛ ونقدم جند طروادة للقاء اليونان ، وعندئذ تحدى « منلاوس »
عدوه « بارس » أن يباريه بتمرده ، إذ كان هذان العارسان هما سبب القتال ،
مد اختطف الثاني زوجة الأول ؛ وأعلنت المدينة بين الحبشين حتى تتم المبارزة
بين الثائدين ، مطوّح بارس برمحه ولكنه لم يفض في درع مقاتله ، ونأهب
منلاوس واستمان جوف تم :

قرّ رمحه ورماله ، اخترم به درع بارس

وكانت الضربة نوبة فاطحات بالمارس
 وغرقت عليه الدروع ، لكنه اجتنب أن يذيقه للنون
 فأتبع هذه العطسة سباً عليه من غده الصبي
 ورمى السيف ثم هوى به على العدو فوق الناصية
 متحطماً السيف وانتثرت أجزاؤه من كفه البائسة
 وقال : « انظر ! لم يصبره ربحي وتبدد السيف من يدي
 ونحاس السيف والريح معاً » قل هذا وكرك على العدو مهاجماً
 وأمسك بجواده من غرقة نذت فوق الحيف
 ليجذبه إلى مسكر الإغريق ، وذلك ما فعل
 وبهذا أخاف إلى الصر مجسداً راثماً
 لولا أن قطعت فينوس الرباط ، فطهر العار إلى كفه
 فإذا به لا يمسك من عدوه شاكى السلاح إلا خوة فارغة
 فأدار الخوذة حول رأسه وألقى بها بين الأصدقاء
 وتجمع حول الخوذة الصجاء في هرج صائحين
 وجدد الفارس العزم أن يستل من عدوه دماً ، حبائه
 وأدفع إليه سيف بهز الريح ، وإذا بالملك التي يشفيها العاشقين^(١)
 نبدو من حديد لتتجد صاحبها من هذا اللقاء
 وأنجزت ما أرادت في بسر وإسراء
 وإنها تستطيع ذلك وهي الإلهة القادرة
 قلعت في سجادة من نصار وغيبته عن الصيوت
 وفي غرفته استعادت له الطاقة والنشاط

(١) بعد فينوس وقد أخففت عن نفسها حاجة فارس أثناء اللقاء .

وزالت الهدنة المفعودة بين الجيشين حين غَدَرَ « يانداروس »^(١) فطمعن
« منلاوس » بسهم ، وعندئذ اتحم الجيشان ، وأبلى « ديمود » وهو في صفوف
الإغريق بلاء حسناً ؛ ودخل هكتور المركب ، وكانت زوجته « أندروماك »
ترقبه فوق سور المدينة :

فأسرعت إلى هكتور ومعها ابنتها الوليد تحمله للرصة
وليدٌ رقيقٌ قلباً وبداء ، مشرقة في جلال طلمته
كأنما هو لحنٌ من سماد رصت بالنجوم الساطعات
فابتنس من الفرح هكتور ، رغم حزن قطع أنفاس الكلام
صاحت أندروماك بأكية ، وشبكت يديها في يديه
وصبّت حُناً طروادة في بكائها ، وفي سبيل مجدها قالت :
« يا أشرف الرجال مقصداً ! كأي بك تلقى بنفسك في الالهيب ،
إذ بلهبُ عقلك حبُّ الخيل للآخرين
هلا رحمت وليداً أو زوجة هي يمدك أرملة
وتركت القتال ! أين ضلّت فانت هدف الضاريين
فأجاب : « كلا ، لن تطلع عني إلا في الالهيب ؛
ففي شخص هكتور سيبلى الجدّ وطني وأبي والأصدقاء ؛
على أي أحسن — بسفلى وروحي — أن سيفتني طروادة يوم عاصف
يوم نذكّ فيه طروادة أبراجها كأنها دموعُ التهميم .
وسنفر تلك الدموع الساطعات يريّام تماثله من محمد وسلطان
المكن فجيلة أخلامنا لا نَحْزُ في غنى ،

كلا ولا يَحْرُ فيها ما يلاق بريلم وهكوبا^(١) والأصدقاء من أحزان
(هؤلاء جميعاً - على كثرتهم وجودتهم - مصيرهم طعام الأعداء)
إنما يحز في نفس أحزانك ، يوم يملك إغريقى وفج حاكبة العبران

قال هذا ومد يديه لابنه يحمله ، والوليد بين قواعى أبيه خائف مرع
وكانت على رأس هكتور شارة من شعر الجياد
مأوياً لابنه فاهتزت الشارة الخفيفة ، فأطبق الولد الذراعين وأعول باكياً
وتكلفت أمه العظم الضحك ، وأزاح عن رأسه الخوذة الخفيفة جانباً
ولمعت الخوذة فاستفاحت الأرض بمسحها اللامع
ثم أخذ الوليد الحبيب وقبله : « زوجتى العزيزة لا تحزينى
بأحزانك هذى التافهة ؛ ليس بين الأحياء من يزوق حياى
أو يحرق هذا الصدر الثابت ؛ إنما ذاك من فعل القدر
وأبن من يحناحيه استطاع النجاة من القدر ؟ ! »

ويعشق هكتور حسامه ويدخل مصعان التزال ، فيبارز « أجاكس »
مبارزة تنتهى أول الأمر بالنادل ، فتبادل البطلان كلمات طيبات وهدايا كأنهم
الصديقان ؛ وبعدئذ يمتد القتال إلى آلهة الأولمب أنفسهم ، إذ بشركون مع
القرتين فى الحرب ، وهنا يجر « زيرس » الآلهة متنبئاً بالفرقة لمرىق اليونان ؛
وبعد هكتور عدته للهجوم على أهدائه فى الصباح التالى ، ميوجس أبطال
اليونان خيفة ، ويذهب منهم « يوليسيز » و « فينكس » و « أجاكس » إلى
أخيل يصلحون ما فسد بينه وبين أجاممنون ، وبعدها أنف رُد له مناته

الغضب « بر بيس » ، وأن يُسمح له زواج إحدى بنات أجامموني ، وأن يُعطى فوق ذلك النع والهدايا . وبهذا سيعُ من أجل اللد : ولكن أجيل برهن كل هذا في حديث هو روع ما خلفته فدره الشعري البلاغة الخطابية .

وأجاب أجيلُ نغزُ الإغريق قائلاً :

إيه ، « أجاكس » ، يا ربَّ للمارك ، ومن لشعبه هادٍ وقائد !

فد أجندَ الخطاب ، لكلك إذ نطقت باسم الطاعية

غضبتُ واحندم العصب ، واضطربت نفسي بين الجوائح !

وإن غضبني لعادتهُ جذيرة بطل مغوار

نول من شرمه ، ودست كرامته كأنه عبد ذليل !

عودوا إذن أيها الأبطال واحلوا مني الجواب ،

لم يُقدُ الفتل العظيم بعنبي حتى تراني من الإغريق الدماء ،

ونسيل دنافة بين سماء الأسطول الإغريق في النريق ،

مبسطع بها البحر الفاتم حتى يصبح قابلاً ،

سأتل رابعاً حتى تلتهم النار -- بلقي بها هكتور في غضبته -- صفائكم ،

وحى يدنو لحيها من صفيفي ! !

عندئذ ستبلغ هذه المحررة البشرية القطيعة غايتها !

عندئذ ستفك المركة ، إذ يحسُّ العدو سرب حسامي

وكانت ليلة مليئة بالأحداث ، بنلوها صاح يشهد جند طروادة -- وعلى رؤسهم

هكتور -- يهجمون على الإغريق همه لا حيل إلى ردها : وحاول « بتيون »

الإله أن ينفذ الإغريق من الأسر لم يستطع ، لولا حيلة نسجت حبالها الإلهة

« جونو » وجمعت الحب قوامها : فالحب والحرب هما في الإلياذة ما يقصد إليه

الآلهة والناس .

ذلك أن « باتروكلس »^(١) — من أبطال اليونان وصديق « جبر »
 لأخيل — رأى موجة الدمار تنصب على جند الإغريق كاسحة طاشية ، فأسرع
 إلى أخيل يستأذنه في أن يسلم في القتال ، وطالب إليه أن يعيره عذته
 وشكته يتناول بها إذا لم يكن في عنقه هو أن يهض الدمار عن بني وطنه !
 فأذن له أخيل بما أراد ، وأعطاه درعه ، وطال في سفينة عصابة .
 حمل « باتروكلس » درع أخيل وعذته — معا هذا الزمج الذي لا يستطيع
 القتال به غير سيده وصاحبه أخيل — ورمل للمعركة « باتروكلس » وصحبه من
 أتباع أخيل .

... . رأيت في وعرة الجبال عرين القناب

في قلبها بأس شديد ، نهضته حتى تجاوزت به الحدود !

أرايتها عائدة بعد أن نهشت وقلاً وفي أنيابها بقية من دماء !

وجاءت إلى ينبوع ماء كدير وازدحم فاعلموا ،

وأحدث بالسنّة رافق مذلاً في تلقى الماء .

فلما كرت صفوة الماء ، راحت تنجشاً من رئاتها

مُجْبِجَةً الدماء ، تنفث من بظرائها الرعب وهي لا تعرف الرعب ؛

فد ملأت معدتها في نهم حتى أنشيت ؟ !

لورأيت هدى القناب . فقد رأيت رجال أخيل العظيم قوة ومظهرا

حين دعاهم الداعي لهذا القتال الخفيف . . .

نزل « باتروكلس » « سمعة مشجعة » بدرع أخيل . فلما رآه الطرواديين

ظنوا أحبا ومرورا بين ، لسكى « أيوب » . الذي كان هواء مع الطرواديين

منذ اسنى قائد الإغريق ابنة كاهنه ، نزع من پاروكلس عُدته ليكشف
للطرواديين عن حقيقته ، هجم عليه طروادى من الخلف فأسقطه ، وأمرع
إليه هكتور وأرداه قتيلا ؛ وهنا هب من أبطال الإغريق « أجاكس »
و « منلاوس » بنقدان جثة البطل السريع ، ورم هكتور . بعد أن انزع من
پاروكلس عُدته ؛ وهنا نقطة التحول في حوادث هذه الأساطير الكبرى التي
أثارت آلهة السماء وأهل الأرض على السواء . فلما جاء النبا إلى أجيل بموت
صديقه الحميم ، غضب غضبا جبارا : ارتفعت بها اللعنة إلى أسمي مراتب
الشعور ؛ لم تكن غضبة أخيل الأولى — من أجل فتاة أسيرة — جذيرة بمأساة
عظيمة كالإلياذة ، لكنها هذه القصة الثانية هي الخليفة بالبطولة .

هكذا هو أجيل بشور كالليث المانح ، غاضبا حزينا على موت أصدقائه
« پاروكلس » ، ويحرق في نفسه ويطغى صفعة شرفة أن تؤخذ دروعه ، وذلك
عازلا بجهته محارب حراً كريماً ؛ سمعت أمه تبتس أبنته وشكوا ، فجاءت
إليه مسرعة من جوف البحر — ضى من هرائس البحر — تنسذره ألا ينزل
الأعداء . حتى تذهب إلى « فليكان »^(١) إله النار ونطلب إليه أن يمدّ لآبها
درعا جديدة ؛ لكنه لم يستمع لنصح أمه ، واستجاب لدعوة الإلهة « إيريس »
فهم من فوراً إلى حومة الوغى

ودنا من سور المدينة ، وأرسل الصوت داويا
وردد الصوت الصدى ، فرق الدوى قويا عاليا
وسمع الصوت الداوى فذب الرعب في النفوس ديبيا
فأنستوا ، وصاح البطل تلاما

ونلتا في حومة القتال ارتد أهل طروادة راجعين .

وفي هذه الأثناء كانت « نيقس » قد تصدت إلى « فليكان » وطلبت إليه أن يمسح للبطل دوماً جديدة بصفتها هوميروس في مغلطة هي من أجل ما جاء في الإلياذة : ولم نكد نيقس تقبل الفرع الجديدة من صانعها ، حتى هبطت بها من قمة الأولمب واثبة كأنها البلزى يندفع وراءه ريسه .

وبنم الصلح بين أخيل وأجاممنون ، ويدفع أخيل بدرعه الجديدة ، ويميط إلى ساحة القتال ، بضرب يسيره هنا وهناك ، فيقتل عدداً من أطفال طروادة ؛ ولكنه لا يفي سوى هكتور ليوربه الخلف جراء ما فعل صديقه الحميم ؛ وذلك هو هكتور بأني أن يحتسى بأسوار الدبنة مع سائر الطرواديين المماربين ، وبظل واقفاً في مكان كأنما جاءت به إليه أيدي القدر ؛ وهذا أجود السكول « بريام » يجلس على سور الدبنة ، فيرى أخيل مندفعاً إلى ابنه كأنه رسول الفضاء ، يصيح بريام الوالد وهكوبا الزائلة بأبهما هكتور أن يتوارى من عدوه داخل الأسوار

هالك أمه المذمت ، وبالسيرات صبيها هطك
تعال ! تعال ! الأسرار في وجه المدي امتنت
إليها لئلا ، وبها تحمض ، وفائل ذلك العاق
ولا تلاقى السدو وحيدا ! !

ولكن هكتور يبر والديه أذنا صماء ، ويمتدل إلقاء عدوه ؛ انظر إلى أخيل يقترب منه كأنه الأمي الجبلية في عرينها ، سار السم في بدنها ، واحتدمت بالفضب فارنج هكتور في وضته ، ثم فرّ وجلا .

يريد النجاة من يد شقي في النفوس العزع

وانفضَّ أخيل كأنه الصقر ، في سبعة يشق الهواء
بطارد حمامة حزمت ، لكنه ماض في طراد العذيق
وتسرع الورقاء ، وينبع الصفر في رمف محب ،
وبدور يئنة وبسرعة مع الورقاء حيث تدور

هكذا كانت الحال حين انتفض أخيل على عدوه بدرعه اللامعة ، فأدرك
هكتور في انفضاضه معنى الموت ، وعمد إلى الفرار فرعا ، مناعه أخيل حول
أسوار المدينة كأنه البازي يلاحق حمامة ، لينشب بها أظفار الشداد ؛ ودارا حول
الأسوار ثلاث مرات ؛ وكان أو باب الأوامر عندئذ جريون ، فقال « جوف » :
« أنقذ هكتور أم مدعه لأخيل بعمل ميسر السيف » ؛ فأحسبت الإلهة
« مينرفا » أن ينفذ الآلهة من أراد به القدر هذا الفناء مدمر من طويل ، قالت
ذلك « مينرفا » ، ثم زلت إلى ساحة القتال متشكرة في هيئة « ديويس »^(١)
أخي هكتور ، لتوقع بهكتور وتنصب له الحائل ؛ زعمت له أنها أحود جاء بعبه
على عدوه ، فذهبت في هكتور الشجاعة من حديد ؛ ووقف بشجدي أخيل أن
ينازله ، ولكنه طاب إليه قبل النزال أن يشاهد — كما يشاهد الأبطال —
أن من يسقط سهما في القتال صريحا لله على صاحبه أنت يسلم جناته إلى
أصدقائه ليقبضوا له ما يلقى به من شعائر الموت ، رمى أخيل رمعا حاسما ،
فلا تماهد اليوم بينه وبينه ، وهل يكون تماهد بين رجال وأسود ، أو بين
ذئاب وخراف ؟

وبهدف أخيل برمحه ، فسقط هكتور جانبا ، وتمر الرمح فوق رأسه فلا
بصية ؛ فتنسلل مينرفا خفية وتعيد الرمح إلى أخيل ، ليصيد المظل المظلم صريحا ؛

وبعد هكتور هذه المرة برعه ، ولكنه لا يصب الهدف ، يبادى بأحبه « ديويس » أن يناوله ربحاً جديداً ؛ ولكن أين « ديويس » ؟ إنه ليس هناك ، وهنا تشرق الحقيقة لهكتور أن « ميروفا » قد حكمت هذه الخبة تقدمته ، وبذلك أن تضاهه عنوم ، ولكنه يستل حسامه ويهاجم عدوه لعله يأتي نملاً من البطولة قبل أن يلفظ الروح ؟ غير أن أخيل بضرب عنقه بالرمح ضربة نهى عليه ، ويسقط الهزوم ، وصرع إلى قتله ألا بدع جثاه طامعا تنهشه الكلاب التي بطنها الأغر بق من صفاتهم ! ولكن أخيل يحبه — ولا يزال القصب في وجهه بلديا — « وددت لو أطاعني فاني ، إذن لم أتركك إرباً إرباً ، وطعمت بلحمك الآن ، جزاء ما جرّعتني من غصص وأوزنتني من كروب » .

ونعى هكتور محبة ، فأقول به أخيل شرماً يبرل عدو بعده : فقد تقب قدميه وشد وثاقهما إلى عربته رباط من الجلد ، ودفع الجلياد دماً مربها ، وجثه عدوه رأسها تفرغ في التراب ، حتى بلغ به سكر الإغريق وشهد « برام » الوالد و « هكوبا » الدالة مصرع ابنها هكتور ، وهما جالسان على قمة السور برفيان : أما زوجته « أندروماك » فلم تكن تعلم أن زوجها بق خارج الأسوار طريداً لأخيل ، حتى سمعت ضجيج الأصوات بلاء القضاء ! صعدت إلى رجها ، ضيّقت ، سقط الغزل من يدها ، اضطرب وثاقها ، نادى حدمها ، إنها تريد أن تعلم ما وراء تلك الصبغة للشثومة ؟ صاحت « تعالوا »

ومشت نائرة ، ونهبتها حادمان — كما أرادت — أعانتها على الصمود إلى قمة الهرج . . . وأدارت عرها لللهوف نحو الجلع المحند

فرأت هكتورها فتبلا مشدوداً إلى عربة أخيل
يجذبه — في غير إكرام — إلى حيث سفان الإغريق
نعميتها الفاشية كأنها الليل البهيم ، وخار قدمها ، وسقطت في غير
وعى

وحزت طروادة على بطلها الصريع حزناً شديداً ؛ أما أخيل فقد أقام
شعائر الجنائز لصديقه « باتروكلس » ، وأقيمت لتكريمه الألعاب ؛ حتى جاءت
إليه أمه « ثيس » مبسوطة من الآلهة فأمره أن يمنع مسخه على هكتور ، فقد
كدها ماصنع ، وأن يجيز لطرولدين أن يستردوا جثة فتاه مقابل فدية للظافر ؛
وذهبت الإلهة « إريس » إلى « بربا » الوالد الحزون نحرص أن يدمع فدية
لأخيل يفتدى بها جنان ولده هكتور ؛ وما عثم الشيخ للسكروب أن حمل
أثمن الهدايا ، وتصد إلى أخيل في خيمته ، وجثا على ركبته أمام البطل
مستطفا مسترحا :

« ارحم شيخاً مجبوراً مثل أبيك ، وإن كفا في هذا مختلفين :

« أنا البائس الذي يرزح تحت عبء الشقاء

ما لم يرزح تحت رحمة رجل من قبل ؛ وشعناى النستان

عليهما أن يأتيا بهذا قتلت بنى » !! قال هذا

وانحنى رأسه على قدمي أخيل^(١)

فاهتز قلب أخيل رحمةً بالشيخ ، وعلامة الرسالة التي حملتها إليه أمه ثيس
من عند الآلهة ، قبل القدية وأذن ليريام أن يحمل جنان هكتور ، ومنحه
أثنى عشر يوماً يقف فيها القتال ؛ لتمكن الوالد الحزين من إقامة شعائر الجنائز
على منيذه السكريم ، وإنه بها لجدير

(١) قد تصرفنا في الترجمة تصرفاً يسيراً أحبالاً والمقصود الأصل أحبالاً .

ودرع الجنان فوق النصار حتى احترق ، ثم جمع رمانه في وعاء من ذهب
دفن في القبر



ولم ير الإغريق في الأجيال التالية فيما صمعه أخيل بحجة عدوه هكتور
موصفاً بـ «مجدد» ، لأنهم يفتنون التمثيل بأجساد لائق ؛ ولم يغمروا غط لأخيل
هذه القصص السماء وما انتهت إليه ، ولذا لا تجد أحداً من كتاب المأساة من
يعدله بنسخ من أخيل بطلاً لأساته . مع أن حياته أصلح ما تكون لأبطال المآسي
وتنتهي الإلياذة بمحاضرة هكتور ؛ أما طروادة فقد قوض الإغريق بقياتها ؛
ولم يذكر الشاعر في الإلياذة شيئاً عن موت أخيل وباريس ، ولسكنهما قتلا
أنقاه الحصار .

الفرسية :

سقطت طروادة في أيدي الإغريق ، واستعاد «ميتلاوس» زوجته «هيان»
وعاد بها إلى إسبرطة ، كما عاد سائر أبطال الإغريق إلى أوطانهم ، إلا «بوليبيز»
الذي لبثت زوجته «بنلوب»^(١) وابنه «تلاكس»^(٢) يرتقبان عودته إلى وطنه
«إناسكا»^(٣) .

لم يعد بوليبيز مع من عاد لأنه خاطر وغامر ، والأوديسية هي قصة هذه
الغاسرات والمخاطرات ؛ ومن السكن تنسبها إلى ستة أجزاء كل جزء يشتمل على
أربع أغان ؛ أما الجزء الأول فيدور حول ما تقيه «تلاكس» من عت مع الذين
جاءوا بمخطون أمه «بنلوب» ليشعروا بها وبما لها ؛ وفي هذا الجزء وصف لرحلة

فلما كس إلى « پيلوس »^(١) وإلى لسرطة يسقط الأنباء عن أبيه المفقود ؛ ومضت
عشر سنوات بعد سقوط طروادة ، ولم تأت الأنباء بمجديد عن يوليبيز وما عسى
أن يكون قد أصابه من شر أو خير .

كان يوليبيز في عودته مع جماعة من أتباعه ، وببهاهم في طريق العودة إلى
« إيثاكا » زل رجائه زلة فادحة وذبحوا ثيرة يملكها أحد الأرباب ، فأودوا
بهيأتهم إلى التهلكة ، وفق يوليبيز وحيدا ، فقدمه البحر إلى جزيرة منفردة
كانت مسكنا لإحدى عرائس البحر ، وهي « كاليسو »^(٢) ؛ وأعجبت كاليسو
ببوليبيز وأحبته وأرادت أن تتزوج منه ؛ فأخذت تفر به بالزواج وبسيان زوجته ،
ولم تنك لحظة في أن الرجل لا يمنع أن يستبدل زوجته ثانية زوجة من عرائس
البحر الخالدة ؛ اسكن خاب رجلها وورده يوليبيز زواجا ، فأمسكت على
حزيرتها زماما طويلا لمده يقطع عن عساده فلم يفعل ؛ فاحتجع الآلهة على الأولمب
ودروا عودة يوليبيز إلى وطنه ، عودة الرجل الذي :

جاء تقي البلاد ،

بعد أن أتى على طروادة المقدسة وفوق أرض أركاشيا ؛

وطوف حول عالم تباينت فيه الشعوب

فكم رأى وكم عرف من عادات وأمسكار وأنماط ؛

وكم لاقى في لجة البحر من أحران ،

لشد ما كملح الممالك لينجو

بنفسه وبصحبه في الطريق إلى الوطن ،

لكن حطمت صهبة الأعداء* ، ولم يستطع لها دضا

اجتمع الآلهة وذهبوا أن يعود جوليبيز إلى وطنه ، ويشوا بالآله « هرمس »
 — رسول الآلهة — بيق كاليسو هذا القرار ؛ وفي الوقت نفسه بدت ميترقا
 متكررة أمام نلما كس ، وأشارت عليه أن يستطلع أخبار أبيه من صديق
 أبيه : اسطور ومنلاوس .

فأرسل نلما كس في اليوم التالي مناديين يحسون خلال الدبنة ليعطبوا إلى
 الناس أن يفتدوا حمائهم من به شكاة نلما كس من خاطبي أمه الذين أخرجوه
 غابة الحرج ؛ وأرسلت يولوب إلى هؤلاء الخاطبين تحاطلهم وتحادهم ، ولشت
 أربعة أعوام تزعم لهم أنها نزل رداء لأخي زوجها ، وظلت تنزل في النهار وتنفض
 في الليل عرقها .

وتكررت ميترقا في هيئة جديدة ، وهيات نلما كس سمينة أرفع بها إلى
 « يولوس » ليلقي بصديق أبيه « اسطور » عسى أن يعلم منه شيئا عن أبيه ؛
 فلم منه نيا العنك بأجامنون — وهو أخو اسطور — لكنه لم يسمع شيئا من
 غيبة أبيه ؛ ونصح « اسطور » « نلما كس » أن يقصد إلى منلاوس في اسبرطة
 لعله يعلم عن أبيه شيئا ؛ ودعب الفتى إلى اسبرطة ، وهناك التقى « بيلن »
 فصرعته وذكرته ، وأخذ أصدقاؤه بيبكون أياها جيلة مضت ؛ ثم أخذ منلاوس
 بقص على السامعين كيف حي بالحسان الخشي في طروادة بعمل في حوزة أطال
 الإغريق ، وكيف أحدث حيل تدور حوله وتقرعه بكفها وشادى أبطال اليونان
 واحدا فواحدا ، ونقل لكل واحد منهم صوت زوجته حتى تستفز للجواب ،
 وكانت في تنفيذ الأصوات بأربعة حتى كاد الأبطال المختبثون في جوف الحصان
 يلبون النداء ، لولا أن رأوا في زميلهم بوليسبر راحة جأش كانت لهم جميعا شكابة .

رادة ! ثم أبأ « منلاوس » « تغاكس » أنه شهد أمه في الجزيرة المعزلة التي
نسكها عمروس البحر « كاليسو » .
لقد شهدت ابن ليرنيز^(١)

في قصر عمروس البحر كاليسو
وقد أرمته على البقاء في صحبها
إذ انك ما دأ أن حُرمت عينه أرض الوطن

• • •

إلى هنا ينتهى الجزء الأول من الأوديسية ؛ وأما الجزءان الثانى والثالث
فيمصان مفسراته وهو في طريقه إلى أرض الوطن ؛ ذلك أن « كاليسو » حين
جاءها رسول من الآفة ينبئها أن الأرباب اجتمعوا على الأول وقروا أن يرسل
بوليسيز إلى بلده ، أباحت لمشوقها الرجوع أن يبادر أرضه ، ولو أنها هجت
من أمر هذا الرجل الذى آثر زوجته عليها وعلى مناعة بارعة الحول ، هذا مع خطر
الرحلة إلى زوجته في بحر عاصف ؛ لكنها أعدت له سفينة وأقنع بوليسيز . وبينما
هو يشق العباب نحو الأهل والوطن ، إذا بنبتون إله البحر يلججه من بعيد —
وكان بنبتون كارهاً لبوليسيز لأنه قتل ابنه « سيكاوب »^(٢) — وأخذ بنبتون
يقرب من بوليسيز المواتر ويدور له الكائد حتى لا يعود إلى وطنه ؛ لكنه
ارتحل إلى أرض أثيوبيا لبعض شأنه ، فاشتهر سائر الآلة حرصه غيابه وأدناوا
لبوليسيز بالسفر . أدرك بنبتون كل هذا حين رأى عدوه المغموم يسبح على
الوج يسقيفه ، صفح في البحر عاصفة عاتية ، « ارتجت سفينة بوليسيز وهوى
إلى البتم . لكن « إينو » نكسرت في هيئة طائر بحرى وأغارنه فطاعاً مسحوراً

بمنته على السباحة آمناً إلى البر . ورسا يوليبيز في أرض ميبيا^(١) ، ولم يكبد
بجد له مأوى حتى رقد مبهوكا وغط في النوم ؛ وعندئذ طارت « منبرثا » إلى
« نوسكا »^(٢) ابنة ملك الإنلجيم الذي رسا بأرضه يوليبيز وبَدَتْ لها في الحلم :

وسرعان ما أشرق الصباح الجليل

فنهضت معه « نوسكا » ذات القناع الساحر

وون نصبا ما رآته في سُحُها من ثناء ملأها إجماعا

ودهبت مع مصيفاتها إلى التهر بغسلن بعض الثياب ، ولما فرغن من غسلها :

غسلن أحصادهن ، ووالدُهن للتلائم

دَلَسْنَ بهن بعض جلودهن ، ثم انتعشن بعد عشاء الكدح

بشهى الطعام ؛ ولَفَذَتْ نوسكا

نمرح لاهية مع سائر العذارى

... .. وصاح الكل صياحا عاليا

فاسنفظ مع الصياح يوليبيز الرز بن

وأصرع فأطل من خلف النصوص كي يرى

مذاك صوتُ حسان ما سمع بمثله

فوفت أنظار العذارى فاعامت الشعر على منظره

... .. فما أبشعه منظراً كان مظهره ،

فد أذواء الطريق الصعب على متن المهاب ،

فزعرن لمنظره ، وانتثر التداوى هاربات .

فرون جميعاً إلا نوسكا ، وفنت في مكانها لا تريم .

تُعدُّ بشت منيرةً الجُرأة في صدر الفتاة
 فأحبست رعدة خوصها في جوارحها
 وظلت واقفة تحدج فيه كأنما صممت
 أن تدرى مَنْ هذا الرجل ومن أين جاء ، فقال :
 تشدُّنك الله ، أي مليكتي ، أن تحدثيني
 أبشِّر أنت أم من سلاله الأبواب ؟
 فإن كنت من آله السماء ، فما أجدر لك بين الآلهة
 شيئاً سوى « سنثيا » ^(١) ولذُنك من جوف !
 وإن كنتِ وليدة بشرٍ على سطح الأرض
 فأسم ثلاثاً بوالدين أخرجاك إلى الحياة !
 وأكبر النصى لمن يكون خطيباً لك
 فيُخضع هذا المنق المنلاني لخير الزواج .

ثم طلب إليها يوابسيز أن تسم عليه ببعض الثياب ، لأنه خرج من البحر
 عارياً ، وأن تهديه إلى طريق المدينة . فمادت نوسكا وصيقلانها فأحضرت له
 طاماً وثياباً ، وابستعدن قليلاً حتى يغسل جسده ويرتدي ثيابه ؛ وبينما هو
 جالس وحده :

أخذت عينا نوسكا نهزُّ بالفتنة ظمها .
 فما رأت منه حتى الساعة إلا نَزْراً قليلاً
 لكنه قلبٌ شَفَّ عن جلال كأنه جلال الآلهة .

وحشيت نوسكا أن تلوكها الألسنة ، فأمرت الرجل أن يقيم وصيفاتها
إلى قصر أبيها ؛ غل " بوليسيز في قصر الملك محل إكرام ، ولقيه أهل نيقيا أبجل
اللقاء ، وأظهروا له الألعاب ، وأعدوا له مائدة كبرى ، ومنتعروا الهدايا ليدخلوا
إلى قلبه الرح منقبل على عشائه بنفس راضية . وبينما هم جالسون إلى مائدة
العشاء أخذ الغنى يشتد ما أصاب طروادة من دمار ، ويصف بفنائه همه
الإغريق على طروادة من الحصان الخشبى ، فكان لذلك أعق الأثر في نفس
بوليسيز حتى سألت عبراته على وجهه ؛ لكن أحداً لم يلحظ ذلك الدمع
السفوح سوى الملك . فهض الملك من حوره يغلب الناس ويطلب إلى الضيف
أن يبهوح لم باسمه ؛ فأعلن بوليسيز عن نفسه وعن وطنه وما لقيه من مخاطرات
ومفاسرات منذ غادر طروادة قاصداً بلده ، فقال إنهم بمدبحوال كثير جاءوا
إلى جزيرة « سيكابوب »^(١) ، ونزل بوليسيز مع اثني عشر رجلا من أنبائه
في كهف سيكابوب ، فلما جاءهم السلاق ووجدهم في كهفهم خاطبهم قائلاً :

من أنتم أيها الأضياف ، ومن أين جئتم تذرعون البحار ؟

المنجارة جئتم ، أم تحبون الأرض ، لتسطوا كالصخور

على الرحالة التراباء الساكنين ، تضرعون بهذا السطر

أرواحكم للشطر ، وحياتكم للهيم والأحزان ؟

« أنت يا أعظم الأحياء ، نحن — بحق الآلهة —

لرحمتك ضارعون » ! فأجاب : « أيها الحنى ،

أجبتكم هذا السفر البعيد لتشفوا على

بأيمانكم وحبكم المطنع !

نحن — معشر السيكلوب — لا نبالي بإلهم خوف
ولا بغيره من الأرباب ، فنحن عنهم بمنأى هادئون
مل إلى لا أبالي أن أتحدى خوف إلى نزال .

نم التهم « سيكلوب » اثنين من رجالى ونام ، ولم أستطع أن أنقله وهو
نائم لأنه قد سد مدخل الكهف بصخرة ضخمة لا فيل لنا يحملها ، فلو قلنا هذا
الصلاف لطلنا سجناء فى الكهف حتى يدركنا الموت ؛ ولما جاء الصباح أخرج
« سيكلوب » فطاع غنمه من الكهف وراح يرعاها بعد أن أحكم إغلاقى الكهف
بنك الصخرة الكبرى ، وقبل أن يبادر الكهف مع غنمه التهم اثنين آخرين
من رجالى ؛ وفى غيبته أعددنا فضبنا نقاً ، عينة الواحدة إذا عاد ؛ وعاد مع
الماء بسوط فطبعه ودخل الكهف وأغلقه

واحتلف اثنين آخرين من جندى

وذهب بعد طعام المشاء

غمت قوتى وخاطبته بهذه الكلمات ،

وقدمت له — وأنا أحده — كأنما من تبيذ :

« خذ هذا الكأس يا سيكلوب » ، فشربه وقال :

« ما اسمك كي أجاز بك خير الجزاء ، فهذا

الحمر الشهى لعله أنساب مع التهر ، إنه صنع الآلهة ... »

« اسمى باميكلوب ، لا أحد ، فأجاب فى عنف :

« لا أحد ! ساكلت بعد صحبتك جميعا » ، ونام ؛

فأخذنا التصيب وقد أرهقنا حده ، وغشينا السنان فى عبه

فانتفض برأر بصوت كأنه الرعد

واجتمعت عشيرة السيكلوب تسأل من اقترف الإثم ، فقال لهم :

« غداً مثلك في (لا أحد) بخدعته لا يفوته »

فأجابوه : « إنك لم يفنك بك أحد إلا نفسك »

فالتى أنزل بك الأذى هو جوف الإله »

فرجعوا في كهفه حيثة وذهاباً ، ونحس

حتى بلغ الصخرة فأزاحها ، وحلّس عند الباب

بنحس الأغنام عند خروجها كي لا يفلت

من أسراه إنسان

لكننا رصّنا الأغنام ثلاثاً ثلاثاً ور بطنا أنفسنا في أسفل بعاونها ، وخرجنا

سها مسرعين حتى بلغنا السفينة ، فما إن احتوتنا حتى صرخت ثلاثاً :

« أيها السيكلوب ! إن سألك سائل

من صفّا عينك فأعماها

فقل إنه يولبسيز بن ليرنيز الشيخ

وطنه إناكا ، وهو من بات بُدعى

باسم مُحَرَّب للدن »

فلما سمع السيكلوب هذا صاح بصوت دلو

حتى هزّ الهواء من حوله بأصدائه

واحتدم غصه فأمسك بصخرة

وألقي سها نحو السفين

هكذا مجونا ، لكن سيكلوب أثار علينا سخط أبيه نيليون إله البحر ،

مهيّج البحر ونفخ فيه العاصفة ؛ وبعد لأي بلغنا سفارة رب الريح ، وبعدها

وصلنا أرض المألفه ، وهالك لم تلت من لفلالك إلا سفينة واحدة من سفننا ؛
ثم أدركننا جزيرة نسيطر عليها « سيرس »^(١) ، فأرسلت جماعة من زملائى
يجوزون الجزيرة :

فأبصر الزملاء فى وَفْدٍ دار « سيرس »
وأمام بابها حشمٌ ذئابٌ وأسود
استأنسها « سيرس » بما تملك من عقاير
فلا ذئبٌ منها رلاً أسدٌ عاد مستوحشا ،
ورفضت أذئابها الطوال الصدام نهزها
كما نهض من الكلاب الأليفة بأذيلها
مدهنى أحماسى وظلوا عند الباب واقفين
وصموا داخل الدار صوت الإلهة ونبنا ملائكتها
إذ كانت سقى وهى تنزل غزلها غناء وفيفا جيلا

ودعهم الإلهة أن يدخلوا ، فلبوا إلا رئيسهم إذ ظل برئيسهم خارج الدار ،
وأرأها نطمعهم شئى الطعام ، ثم منهم بمصاها البحرية فإذا هم خنازير أفدا جاء
رئيسهم ينشئ بذلك فصدت إلى دارها مسرعا ، وتقبلى فى الطريق رسول من
الآلهة وأعطانى عشبا يغبى سحرها ، ودخلت الدار فأطمعنى « سيرس »
وسقى بمصاها :

فسلت حسامى وهاجنها لأنتكها
كما دبرت ، لكها صاحت ونفّت ركبتيها
نحت سيقى ، واحتملت بذراعيها ركبتى

وفات وعينها تفتح الدمع الغزير : « مَنْ أَنْتَ
ومن أي أسلاف أحماد عبطت ؟ لا بد أن
تكون يوليسير صاحب الحمة الشفاء » ! فأجبتها :
« أَنَا مَنْ ذَكَرْتَ بِسِيرِس ؟ هِيَ انْزَعِي
أَغْلالَ السَّحَرِ الَّتِي تَغْلِي أَصْحَابِي
وَرَدِّي كَرَامَ أَصْدِقَائِي أَمَّا كَمَا كَانُوا » .

فعلت كما أمرتها ، وأكرمت بعدئذ ضيافتنا ، حتى طاب لنا المقام فكننا
معهما أياما كاملا ؛ ولم نقادر ذلك المكان حتى زرتُ العالم الأسفل حيث انقضتُ
بكثير من أعلام الرجال الذين ماتوا . وودعنا سيرس بعد أن حذرنا عما عساه
أن يصادما في الطريق من صعب ومخاوف ؛ وظلنا نقع في الخطر بعد الخطر
حتى بلغنا جزيرة بأكل من عشبها تيران الشمس ، مهمُّ أصحابي أن يذبحوها ،
وحقت عليهم كلُّ رُسا وأهلِكوا ، ونجوت وحدي ورسوت في جزيرة كاليسو .

• • •

ولما مرع يوليسير من نصته ، أرسله ملك « فيقيا » إلى وطنه « إناكا »
بكل ما معه من هدايا في سفينة أعدها له . وهاهنا نتودع مع يوليسير إلى هذا
العالم الأرضي ، بعد أن خلق بنا وهو يقص مغامراته في عالم الآلهة والأرواح ؛
وكان لا بد له حين وصل إلى « إناكا » أن يدخل بحمد شديد خشية أن يقتله
حاطبو زوجته غيرة وانقاما . ويوصل يوليسير إلى داره فلا يمرعه بأذى الأمر
إلا كلبه ، لكن كلبه الوفي لا يلاحقه أو يداعبه ، لأنه لم يكذب بعرف سيده
حتى ينفى نجبه . ثم يدخل يوليسير داره في هيئة سائل مسكين ، فيقابلُه الخدم
وحاطبو زوجته في ذراية وعنف ؛ وهكذا نشاء سخرية القادر أن يقاقله في داره

فوم لا شأن لهم بها ، وما حروا أنه مرسل من القدر لينضم .
ولما حانت ساعة الحساب ، نشبت بين يوليسير وأعدائه معركة هي أقرب
إلى اللذبة منها إلى المبارزة والقتال ؛ وأنزل يوليسير واسه فلما كس بالخدم الذين
خافوا عهد سيدهم ضروبا من الانتقام المر ، فغرت منها نفوس اليونان ميا بعد .
وأخيراً بلغت يوليسير زوجته الوية ، بطنها بين ذراعيه ، ونهذل « منيرفا »
وسمها لتعطل ليل اللناء بعد أن قضى الزوجان ما قصياد من أعوام طويلة ملتبئة
بالأحزان والصعاب .



ولعل الأوديسسية أن تكون بين آيات الأدب العالمي أشدها تحريكا
الشاعر والمواظف ؛ وهي في موضوعها أنوى وأجمل من أختها الإلياذة ، فهذه
سلسلة من دسائس ومعارك بين الآلهة فيها كثير من التكرار المملول .
وأما سيرة يوليسير منهير جميل من دوافع الحياة البشرية وبوارعها ، وهي
تس في قلب الإنسان شعوره المعطى ، وتشتير منه مصادر الحوبة والنشاط .
أضف إلى ذلك أن يوليسير في حلية البطولة أخل من أخيل ، وانصار
يوليسير بحث في نفس الفارى طائفة لا تشوبها شائبة من فاق ، لأن نصره
نهبه صبره ودكائه ، وهو نصر أسمى منزلة من فوز يظهر به أحيل مجسمة
القوى وعضلاته المنفولة . وفي أعمال يوليسير ومغامراته تنوع مريع يستولى على
قلب الفارى ؛ هو إلهان فيه من الإنسانية معناها الصحيح ، أو إن شئت فقل
إنه إنسان أعلى .

فلا عجب أن ينفذ شخصه بين أعلام النصوص الأدبية في آداب العالم
جمعا . وقد استوفت شخصية يوليسير أعلام الشعراء فنصروها ؛ هذا

« فرجينى »^(١) بصورة ماهرة ما كركا ، وهذا « دانتى »^(٢) فى « الجحيم » يصف موت پوليسيز فى بضعة سطور مبالغ فى جمال التصوير والتفسير حدًّا كبيراً ؛ ونماؤه بالوصف الشاعر الإنجليزى « تينسن »^(٣) فأندع وأجاد . وقد أصاب الأديب من التومئ عند فراء الإنجليز ما أصاب الإلياذة ، فترجمها « تشان »^(٤) ثم ترجمها « جوب »^(٥) كما ترجمها الإلياذة .



وعد ، هذه خلاصة ضئيلة للإلياذة والاولمبية ، فإن أردت أن تستمتع بجمالها — حقاً — فليس لذلك من سبل سوى قراءتها فى أصولها أو فى تراجمها الوافية الدقيقة .

وقد نالت إيجاب الأدباء فى كل المصور ، وترجنا إلى أكثر الآلهات ، وترجمت الإلياذة إلى العربية ، ولسكها قد كتبت كثيراً من حواش .

وبرجع ما لهوميروس وماجنييه من شهرة أديبه خالده إلى ما بهما من البساطة ، والقوة فى الأسلوب ، والصدق ، والجل .

هوميروس فى عرضه للأحداث يؤثر بلاطه وإيجازه ، فلا تكلف ، ولا إطناب ، ولا تعقيد ؛ وإعماهى بساطة كساطة الطفل .

انظر إليه فى موقف هكتور وأندرومك وطاعهما الرضيع ؛ فإليه يبكى من منظر والده ، والوالد يضحك من بكائه ، ثم يخلع حوذته ويفلده ويقول : يا إلهى زورس يا جميع الآلهة ، أَدْعُوكم أن يبلغ ابنى بين أهل طروادة ما دلتنه من العظمة والقوة والشجاعة ، وأن يكون ملكاً كبيراً لطرودة .

والزوجة تبكى مشغفة على زوجها ، وهو يردها قائلاً : إن القضاء المحتوم لا ينجو منه أحد . والروجة تعود إلى بيتها حزينة ، ويثير منظرها في وصيحتها الأشجان ، إذ توفعن ألا يعود سالماً من الحرب .

كل هذه عواطف إنسانية تحدث في كل عصر ولكل الناس ، عرضت في سهولة وبساطة ؛ والطريقة التي عولج بها الموضوع ببساطة ، والاهتمام كله موجه إلى النقط الأساسية للفأساة .

وبجانب البساطة ، كان الفن في تصوير الأشخاص والأحداث ، كخُلُق أخيل ، وموت هكتور ، « ووف أيبه » .

كذلك مما امتاز به شعر هوميروس صدقه ، ولسنا حتى بالصدق مطابقة الخبر للواقع ، وإنما نرى به إجادة الفنان في التميز عن شعوره ؛ هوميروس لبس آلة صماء ، ولكنه يشعر كل الشعور بما يقصه ، وبسبغ شعوره على ما يحكيه ، كما نرى في موقف أبي هكتور من أخيل .

كذلك امتاز هوميروس في ملحمته بأنه — فيما يحكى — لا يتعجز ، فالتقارى بطف مثلاً على هكتور أكثر مما يعطف على أخيل ، ولكن هوميروس ينف منجرباً يعتمد عن هذا التراجع كل البعد ، وكأن عمله الوحيد أن يسجل لكل منهما ما له وما عليه من غير أن يحكم ، وفي صراحة تامة .

إلى ذلك ما برام غارنو الإلياذة والأوديسية في أسلوبها من جمال مني رائع هو حال البساطة والجمال الفطري الطبيعي .

كل هذا جعل الإلياذة والأوديسية هذه القيمة الكبيرة التي لا تزال لها إلى اليوم .

ومن شعراء اليونان « هرود »^(١) مؤلف « الأعمال والأيام » وهي قصيدة تهذيبية لم يبق منها سوى ثمانية بيت من الشعر ، وله أيضا « نسب الآلهة » ، وهي قصيدة قوامها ألف بيت من الشعر ، تدور حول أساطير اليونان ؛ وأما سائر الشعر الذي ينسب إلى « هرود » فقد بلدته الأيام . وليس بتردد نالت في يومنا هذا أن يحكم على شعر هرود بقلة الشأن إذا قيس إلى عظمة هوميروس ، مع أن اليونان أنفسهم لبثوا قرونا طويلة يضمونه مع هوميروس في منزلة واحدة من السمو والنبوغ ، واتخذ الشاعر اللاتيني العظيم « فرجيل » أستاذا احتفاه في قصائده « الريفيات » التي تشبه « الأعمال والأيام » مما ورد في الكتابين من وصف لحياة الريف وأعمال الريف في مصول السنة المختلفة .

(٥) الشعر الفنتاى عند اليونان

منذ أقدم المصور كان ميلاد اليونان قصص شعبي كما كان بها غناء شعبي ، ونحن لا نستطيع أن ندعي أسبقية أحدهما في الظهور إلا أن نكون ذلك على سبيل الفروض التي لا تستند إلا إلى الحقائق النفسية العامة ، وهنا قد نستطيع أن نجازف ونقول بأسبقية الغناء لتأصله في طبائع البشر ، ثم لأن القصص لا ينشأ إلا بتاريخ الزمن ، وبعد اجتماع أحداث شتود الشعوب أو القبائل إلى ذكرها . ذلك إذا نظرنا إلى هذين النوعين كأدب شعبي وأما إذا نظرنا إليهما كأدب فني فالثالث تاريخياً هو أسبقية القصص الشعرى على الغناء ، وتلك ظاهرة يمكن تفسيرها من الناحية التاريخية إذ يمكن تقع المراحل التي انقضى فيها شعر الملأح وحل محله الشعر الفنتاى .

ويمكن القول برجه عام أن الشعر القصصى الفنى (شعر الملاحم) قد سيطر على بلاد اليونان ثلاثة فرون (من القرن الحادى عشر قبل الميلاد إلى القرن الثامن قبل الميلاد) ، ثم سيطر الشعر الغنائى ثلاثة فرون أخرى (من الثامن قبل الميلاد إلى الخامس) ؛ وأخيراً سيطر الشعر التنبئى خلال القرنين الخامس والرابع ، ومنذ القرن الرابع يمكن القول بأن عصور الإنتاج الحقيقى قد انتهت بفزوفدونيون لبلاد اليونان وتحملهم لاستقلال مدنها .

برجعنا إلى الإلبادة والأوديسية نجد إشارات إلى الشعر الغنائى ، ففى مفاسيات كثيرة يحدثنا هوميروس عن تردد الجند لثغرات الهياك (pean) ، وهو أشيد دى كانوا يعبدون « أبولو أو غيره من آلهتهم . نذكر لذلك مثلاً عشاء جيد « أخيل » عندما قتل غاندُم هكتور أشجع أبطال طروادة . « والآن يا أبناء الآكيين لنعد على ثغرات الهياك إلى سفننا الجوفاء ساحبين ثلاث الجثة . لقد كتبنا مجداً عظيماً لقد قتلنا هكتور الإلهى ، هكتور الذى كان أهل طروادة يحلمونه كاله » . وكذلك يشير الشاعر إلى أغاني الرثاء للسماء باليونانية (ترمينوس)^(١) . وذلك عندما بكى صديقه بتروكلس ، وعندما بكى بريام وبكت هيكوبا ولدهما هكتور من أعلى الأسوار ، وكذلك عندما بكته جوفه من النساء المحنزمات أولاً ثم سيدات المنزل : هيكوبا وهيلامة وأندرومكح ثانياً بعد أن رد أخيل جثته إلى أهله ، بل وفى الأوديسية يحدثنا هوميروس عن شاعر غنائى متجول هو ديمودوكس^(٢) الذى كان بطرب للترك فى قصورهم بشعر مرصع ، فيه إقبال على الحياه .

وإذن ، فالمصوص تؤيد وجود شعر غنائى معاصر للشعر القصصى أو سابق

عليه ، ومع ذلك لم يجرى هوميروس على أن يصوغ ذلك الشعر ، ولا أن يرويّه ، وإنما انصرف جهده إلى كتابة الشعر القصصى . لأن الشعر القصصى كان براعة لم نكتمل .

نم في القرون الثلاثة التى سبقت الحروب اليبية (من القرن الثامن قبل الميلاد إلى القرن الخامس) تطورت بلاد اليونان من الناحيتين السياسية والعنصرية ، فقد اختلعت الملكيات القديمة التى نقي بها هوميروس ، وكثرت النزوات والمجرات التى قلبت أوضاع الحياة ، وعلى أوضاع الملكية نشأت حكومات أوستفراطية وحكومات ديمقراطية ، ومن حين إلى حين نظم استبدادية ؛ وفى وسط تلك الحركات والانقلابات أزهت الإحساس ، ونمت الشخصية ، ونهبط التفكير ببنى إخصاع الأشياء لأمثال أو فهم قوانينها ، أو المباشرة عن تأثيرها فى العوس . هذا الانقلاب فى الحياة العامة كانت له نتيجتان : الأولى ظهور الشخصية الفردية ؛ والثانية نمو الحالة العقلية . وفى هاتين النتيجتين ما يفسر انصراف الشعراء إلى الشعر القصصى وفضيلهم له على الشعر القصصى ، فالشاعر القصاص يضع نفسه فى شعره ، كما يصدر فيه من واقع الحياة التى يدركها بمحواسه ، فنتركه فى هذه الأعمال شعورية ، أو ترشيب بقوله أمكاراً .

ونحن بعد أن نلتج مرحلة انتقال بين القدماء والفناء ، نتمثل فى الشعر المسمى بالعلمى^(١) ، كشر هز بود الذى عاش على الأرجح فى القرن الثامن قبل الميلاد ؛ فسكتابه المسمى « بنسب الآلهة » . واضح فيه الحرص على المعرفة المنظمة والتسلسل المنطقي ، رغم تضارب الروايات ، وفى كتابه الآخر « الأيام

والأعمال » نجهده يتحدث عن أعمال الحقول ، وصول السنة ، ويصف الحياة اليومية وصفاً واقصياً ؛ وفي الكتاب الأخير تظهر شخصية الشاعر بوصوح — تظهر آرائه في الحياة وفلسفته في مهها ، بل وتظهر بعض حوادث حياته ، كالحلاف بينه وبين أخيه في اقتسام تركته أبيهما واحتكاكهما إلى الفصاة .

شعر هز يود التليسي إذن مرحلة بين القصص والفناء . مرحلة عابرة ، إذ سرعان ما غلب الفناء وأصبح هو الفن الشعري السائد في بلاد الإغريق كافة . لقد كان اليونان بنشدون الشعر القصصي بمصاحبة القيثارة ، ولكن للموسيقى لم تكن تمانى الشاعر عندئذ مقطوعاً مقطوعاً ، بل كانوا يكتفون من الموسيقى بخاني الجوز ، وأما في الشعر الفصائي فقد استخدموا الموسيقى — وبخاصة في الأغاني الشخصية وفي الأناشيد الجماعية — استخداماً أشمل وأعمق ، فتمددت الآلات وتعددت النفثات ، وأصبحت كل نغمة تمانى مقطوعاً في التفاعل ، ولقد فطنوا إلى استخدام كل آلة بما يلائمها من موضوعات ، فترام يستخدمون الناي حيفاً والقيثارة حيفاً آخر كما قد تجتمع الآلات في أناشيد النعمر ، وكل ذلك دون أن تغنى للموسيقى على الشعر كما نرى اليوم في الأوبرا . وقد استطاع اليونان ذلك بمساعدة موسيقام ، هي موسيقى قريبة من موسيقانا الشرفية .

ولقد أتى على الإغريق زمن كانوا بنشدون فيه الشعر القصصي دون أي مصاحبة موسيقية . وأما الشعر الفصائي بمعناه الدقيق الذي ستراد فيها بعد ذلك فشد مع الموسيقى ، وكان الميز لآلواع الشعر الفصائي المختلفة هو أوزانها الشعرية أولاً ثم موضوعاتها بعد ذلك .

والشعر القصصي مكتوب كله فيما يسمى بالوزن الداسي hexameter ، أعنى ذلك الذي يُبنى البيت به من ست تقاعيل ، وهذا وزن سهل معرود رحب

بلائم القصص ؛ وأما الشعر الفنتاني فليس له وزن واحد ، وإنما تختلف أوزانه باختلاف موضوعاته ، وهي بمد أوزان معقدة متنوعة غنية بموسيقاها .
والناظر فيما يسمى بالشعر الفنتاني عند اليونان يستطيع أن ينسبه إلى وعين كبير بن :

١ — الشعر الإليجي والشعر الأياجي : elegy — iambic poetry

٢ — الشعر الفنتاني بمعناه الدقيق . وهذا ينقسم إلى قسمين :

(١) — أغان رديئة songs .

(ب) — أناشيد جماعية دنيئة وغير دنيئة hymns & odes .

وأساس هذا التخصيص يستند قبل كل شيء إلى الأوزان الشعرية ، فكلمة إليجي وكلمة إياجي عند اليونان لا تصدق إلا على وزن معينين : الوزن الإليجي وخصته ما نستطيع أن نسميه بالشعري ، والثنتوي الأليجي عبارة عن بيتين : أحدهما سداسي التفاعيل والآخر خاسي ، وطبيعة التفاعيل فيه تقرب من تفاعيل الشعر القصصي ؛ وأما الأياجي فوحدته البت الواحد المسكون من ستة تفاعيل إياجية ، والأياج عبارة عن مقطع قصير وآخر طويل .

شعر الأياجي إذن لا يتميز إلا بوزنه ، وأما موضوعاته فثابتة أشد الثبات ، ونحن لا نعرف لها ذا سمى بذلك الاسم ، وإن يكن الرأي الرابع اليوم عند العلماء أن لفظة elegy ليست إغريقية ، وإنما هي أرمنية مشتقة من كلمة معناها النأي ، وذلك لأن هذا النوع من الشعر كان في أول نشأته ينفى به بمصاحبة النأي ، بحيث نستطيع — إن أردنا — أن نسميه « أشعار النأي » ؛ وهذه اللفظة وإن غلب عليها في المصور الحديثة معنى الرثاء والحزن والشكوى لموت أو ألم أو تضر في الحب ، فإنها عند اليونان لم تنحصر بموضوع

بذاته ، بل إن أهدم الأشعار الأليجية التي وصلت إلينا إنما هي أشعار
حساسة وحربية .

وأما الرثاء ، فلا يجده إلا عند أرخولوكوس ، ثم عند الشاعرة سامو ،
وأخيراً عند سيمونيدس السكيوسى أيام الحروب الفيدية .

وأما الشعر الأبايى ، فاسمه مشتق من فعل يونانى معناه « برى » أو
« يهذب » ؛ ولهذا استعمل هذا الوزن السريع الدافق في الهجاء بحيث استطاع
أن نسميه بالشعر الهجائى ، وإن كان قد استخدم بها «د» فى الحوار فى اللسان
(التراجيديا) ، كما استخدم فى اللهاة (الكوميديا) ، ومع ذلك فالشعر الذى
لعبنا من هذا الوزن — بصرف النظر عن الشعر التمثيل — كله فى الهجاء ؛
كشعر أرخولوكوس وشعر سيمونيدس الأمورى^(١) ؛ وهما من شعراء القرنين
السابع والسادس قبل الميلاد .

هذان النوعان من الشعر — أشعار الناي ، وأشعار الهجاء — ليسا من
الشعر القدائى بالمعنى الدقيق ، لأن الموسيقى لم تصاحبهما دائماً ، وإنما صاحبهما
فى أوائل نشأتهما ، ثم استقلا عنها منذ القرن الخامس قبل الميلاد ، وأصبحا
بنفسدان مجرد إنشاء ، ولهذا يميز النقاد بينهما وبين الشعر المتناقى ؛ فهذه الدفوق .
والشعر المتناقى بالمعنى الدقيق لا يشمل غير الأغاني الفردية والأماشيد
الجماعية ، فهذان النوعان هما اللذان غلت الموسيقى تصاحبهما حتى العصور
للأحرار . وأكبر شعراء الأغاني هم : أناكربون ، وسامو ، والسكيوس ؛
وأما شعراء الأماشيد الجماعية ، فمعاوهم باخيليدس وسيمونيدس السكيوسى^(٢) ،
ثم يبدار أكرهم جميعاً .



و نحن إذا ما أخذنا نعمل الحديث عن الشعر الفنى عند اليونان ، لجأنا
 فى أول الطريق خسارتان فادحتان أصابتا تاريخ الأدب ، أما صغرى ما نعى أننا
 لا نجد أحدا ، مهما بلغت دراسته فى اليونانية القديمة ، يستطيع أن يقرأ الشعر
 اليونانى فى صوت إيقاعى على نحو يبين تمايله ووفاته بياناً صحيحاً جميلاً ؛
 وأما كبرى ما نعى أن معظم الشعراء الفنائين من اليونان القدماء قد اُحيت
 آثارهم ، ولم يبق من تراثهم إلا بقية قليلة ، وإنما عرفنا نسبة أشعارهم من تلاميذهم
 الفحول الذين اغتفوا أثرهم وحيدوم فى شعرهم .

شعر الأليجي :

وما كان أضغفه من تراث أدبى لو حفظ لنا الدهر كل ما جادت به فرائع
 اليونان من جند الشعر بهذا « صولون » المشرع الحكيم الذى ظهر فى أثنائها
 بين القرنين السابع والسادس قبل الميلاد ، وهذا « ثيوجنيس »^(١) لم يبق لنا
 من أشعارها إلا قليل ؛ وما من شعراء الأليجي ، ويتصح من شعرها ما سبق
 أن ذكرنا من أن الأليجي عند الإغريق لم يكن معناها للرثية كما هو معناها
 الآن عند الأوروبيين ، وإنما كانت تتميز بوزنها العروضى . فالأليجي عند
 صولون سياسية وطنية وعند ثيوجنيس كانت نظرات أخلاقية ، وما أبعد
 ما يكون عن رثاء الموتى والبكا ، على نؤس الفقراء ، بل إن ثيوجنيس لم يمت
 الفقراء وزدريهم لأنه أرسقراطى معتز ، شامخ الأنف ، ولو أنه قد ينزل من
 عليائه ليشتطف على الفقراء أحياناً .

(١) Theognis مائى حوالي ٥٢٠ ق. م . وهو من بلدة مباراء وقد خلفه الانقسام
 السياسية ، فاضطر به الأمر إلى التفرج . واضطره حاله أن يبتدع قصائد الملح
 — كارهها — لى إماموه . لأنه معروف بكبريائه .

وهناك مثالا من شعره الذي وصلنا منه ما يقرب من ١٤٠٠ بيت :

اختيار الأصدقاء :

يَقِي : لا نأخذ من عصابة السوء أحداً ،

صحتك والنفس بين أهل الخاء إخواناً ؛

حالهم في طعامهم وشرابهم وانحزم رداً وشملنا ؛

وادرس العظام ، إن في درسهم لذة وسبا

صاحب دوى الجاه يزدد منك القفل رجحانا ،

وعائير أهل السوء نحرهم الحجبى حرمانا

ومن شعره أيضاً :

لا تلثم فقيراً على فقره

لا تَسْخَرَنَّ مِنْ مَقَرٍ مَدْحَ فَنَالِ

لا تَنْفِيَنَّ عَلَى مَنْ سَاءَتْ حَالُهُ بِحَبِيبِ خَالِ

إن رُبَّ مَسْكِينٍ يَوْمَ يَمُوتُ يَوْمَ فَوَاتِهِمُ الْبِرَانَ

يمدح هذا الثاق الربيعى وينفى على هذا بالحرمان

ومن شعره أيضاً :

المُسرَّات لا يتمروبه :

لا أريد لعللى البالي فَنَحْمُ الْمُرَادِ .

وأودُّ أَنْ أَفْضِيَ الْحَيَاةَ فِي عَشْرِ رَاغِدٍ ،

فسواء لى الجئان وثيرُ الفراش وصلدُ الجلامد ،

وما البساط الناعم عند الموتى مخير من الاشواك الشداد

قصص القبابي :

ومن أغنى شعر الأيَّاب عند اليونان « أرخيلوكوس »^(١) ، ولعله مبتكر الوزن الذي يستخدم في قصائد الهجاء ، وهو وزن يشبه إلى حد ما أوزان « دُرَبْدُون »^(٢) و « يوب » من شعراء الإنجليز مما أفشده من أشعار الهجاء اللاذع ، ولكن الزمن قد أغرق في موحه آثار « أرخيلوكوس » ، وعلينا أن نصوره لأنفسنا من القليل الباق ، لتندور فيه تلك الشعلة الحاسية التي أجمت « هوراس » ، وذلك لافظ القخم الذي فلهه كثير من شعراء اليونان واللاتين . ومن شعراء الهجاء سيمونيدس الأمورجي ، وله هذه القصيدة الجميلة :

بعضه النساء :

تَقَلُّ اللهُ عند الخلق طوائع النساء مخنعات ،
لجأت إحداهن كأنما أخرجها الله من حنجر ،
يسرح نواهي الدار في موسى واضطراب ،
وزاعم طرحي على الأرض يشرعون في أشكال من القذر متباينات ،
بيننا تراها في أقدارها ونوبها للنفيل
نرح كما ترح الخنازير في حظائرها ، وتزداد شحها على نعم ؛



(١) Archilochus عاش أرخيلوكوس حوالي ٦٥٠ ق . م وهو من مدينة باروس Paros ويعتبر أعظم شعراء الأيَّاب ، في قصائده الحمائية ، وقد اضطر لبادرة وطه حيث خطو حاله في « تاسوس » Thasos وهي على حد قوله « جزيرة حبيثة خروا » ، وحرمة الأدم تملو في البحر كأنها ظهر حنجر ، وكان معه في عيرته جماعة من سلفه الأشرار ، وقد اغتصبوا في سرقة مع أهل جزيرة تاسوس اضطروا فيها الناس أن يلبسوا سلاحه ويعدو إلى الفرار ، وله في هذه الحادثة قصائد هجاء . وعاد الجزيرة واستغل بالخدمة في بيت الهبات آنا ، وبالقرعة آنا كثر ، حتى قتل في إحدى المواقف .

Dryden (٢)

وأخرى كأنما أخرجها الله من ثلثة ماكرة
 فهي بكل أمر محبطة — لا تنفل عن شيء
 شرا كان أو خيرا ؛ بكل شيء خيرة علية ،
 كم نطق بالشر والأذى ،
 أسكتها قد نعل الخير : هكذا جُيِلَتْ طبعها فلما ؛

وأخرى كأنما هي الكلبة حركة ونشاطا ،
 يشوقها أن تسمع كل شيء ، وتكشف عن كل خافية ،
 نجوس أرجاء المكان فاحصة منطلقة ،
 فإن لم تجد شيئا أطلقت بالسوء لسانها ،
 ولن يجدي بها عهد زوجها ،
 كلا ولا يتركها الغضب ، ولا تحبّر بقلبي عليها مبعظم أسنانها ،
 ولا تجدي كلمة طيبة ولا تمنع بكفر عطف ،
 بل وهي في ضيافة غيرها ،
 تظل كالكلبة في صباحها ومساءها ،

وصاغت آلهة السماء من تراب الأرض امرأة ،
 فذكرتها على نفعها للرجل زوجة ،
 يموئزها العلم ، فلا خيرا عرفت ولا شرا ،
 ولا تدرك عليها واجبا إلا أن تأسكل ،
 إن لدعها برد الشتاء طارتمشت ،

فلن ترحلح نعلها نحو النار تصطلي ؟

• • •

وأخرى خلقت كالبحر ذات طبعين ،
فيوما تراها مشرفة نحوكا ،

إن رآها في دارها غريب لم يدحر ثناء ،
فأثلا ليس على وجه الأرض مثالا ظرفا وسناء ،
وبما تبس فلا تقوى على الدنو منها والنظر إليها
فكأنما مئها عندئذ من جنون ،
فغروب كما تكون الكلبة مع جرائها ،
حقود نصيب نعتها الجميع على السواء ،
كأنها حجر يتعثر به الأصدقاء والأعداء ،
ولسكها كالبحر ، قد تسكن في هدوء رحيم ،
كالبحر في الصب ، هو الملاحين سحرة لا عهد
ثم قد ينقلب السكون إلى جنون ،

فيدوى بموجه دوى الرعود ،
مثل هذه المرأة تحنو على ذوى قراها ،
وطبعها شبيه باليم في قلبه ؛

• • •

وأخرى تراها نحلة في دارها ، تطوي لحائرها
لن يجذ القوم في أخلاها مستقرا
هي تجعل الحياة منتجة خصيبة ،

ونفج من بينها كل محب نبيل ،
حتى تنفخ الشبوحه في حب زوجها ،
وتزداد على مر الأيام طيبه أهدونه بين لغاتها ،
ويهبس عليها الله من بركاته العلييات
إنها لا نجد منعة في الكسب بين النساء .
حين يتحدثن في الحب ، لقاء الرجال
مثل هذه المرأة نعمة من الله لزوجها
وهي بين الزوجات أكثرهن صلاحاً وحكمة

المؤلفات الضرورية :

ومن حبر ما يمثل الأغاني الفردية ما أنشد « ألكيوس »^(١) ، وما أنشدته
« سافو »^(٢) ، وما أنشدته « أنا كريون » ، وقد فقد أكثر شعرهم ؛ أما أن
ألكيوس كان شاعراً مجيداً ذلك ما يشهد به « هوراس »^(٣) الشاعر اللاتيني
العظيم الذي جرى على نسبه في شعره .

وأما أن « سافو » كانت رائدة بارعة ، دليل ذلك أنها كانت في القرن

(١) Alcæus : عاش ألكيوس في حياة القرن السابع قبل الميلاد ، وأصل حياته
في الحروب الخارجية ، ولما وضعت الحرب أوزارها عاد ألكيوس وطنه « جزيرة
لوس » ، ولما عنه عدة عشر عاماً ، أنفق فيها في مصر جداً ما حوراً سببه تلبسه من
وطنه بعد هزيمة الحزب اليساري الذي كان متباً إليه .

(٢) Sappho : كانت سافو شاعرة ومواطنة لألكيوس ، والأرجح أنها كانت جماعة
أدبية من النساء ، منهن الشاعرات ومنهن المشتغلان بدراسة الأدب ؛ وقد أحرقت عزاء كبير
من شعر سافو على يد روما في التسطيطية عام ١٠٧٣ ، إذ خفي أولو الأمر عندئذ أن
يكون له أثر سيء في الأخلاق ، لما فيه من قوة وصعب في التعبير عن الحب تتوجه به
إسماً لامرأة .

Pléacé (٣)

السادس قبل الميلاد معقودا لها زعامة مقدسة للشعر في أثينا ، إحدى جزر اليونان ومهد الأغاني مما يذكر القديما .

وإن الأشعار القليلة التي بقيت لنا من عظمها لتتعلق بملوكها ، و بما كان لها من عاطفة حادة وإحساس شديد بنعم الحب وحجبه ؛ وقد كانت « سافو » في أعين اليونان شاعرة مجيدة وضربها في صف هوميروس ، وسرعان ما أصبحت في أساطيرهم بطلنة تحاك حولها الأنبياء والأحبار ؛ ولقد سمي باسمها وزن من أوزان الشعر ابتكرته أو وجدته هزيلة قبلت به حد الكمال ؛ وهذا الوزن « السافي » كان عودها لكثير من شعراء اللاتين ، وخاصة هوراس .

ومن نسوق لك مثالا من شعر « ألكيوس » ثم نقف به بمثل من شعر « سافو » .

قال ألكيوس في أشعار من أغاني الشراب :

إن « زبوس » عزته هامية ، وريح السماء صرصر عانية ؛
و في الأشجار تجمدت مياهها الجارية

هذى من الماصفة فوكتها ؛ تجمع للثار جذوتها ؛

أعرج - كما انتهى - من الصبياء صفوتها ؛

ثم طوفى منك الجبين

بأكليل من رياحين

لا تسلمن القلب للأشجان ؛

أى خير نرتجيه من أحزان ؟

لبس لدا . يا صاح غير هذا الهواء

الحر — فأخسني الحر حتى تنفسي^(١)
إلى الشراب هيا ! فمِ انتظارك المصباح ؟
لم تبتني إلا ساعة وتبدلتك المصباح^(٢) ؟
هات الكؤوس واختر منها الضخم المكبار ،
ها هي تدلّت من المشاج فوق الجدار ،

إن « ممل » و « زيوس » أنجبنا « باكوس »^(٣) حفيدا ،
تلقى الحفيد لذيذ الحر خلفا جديدا ،
ثم حبأها للإنسان وسقاها
فكانت لهوميه بلسها وسلواها
افلتها بالنساء : واجمل من الحر قدرا ومن الماء مثابها ؛
واملا الأنداح مُترعة حتى نهايتها ،
وأعطيني فدحا وانتظر حتى تراق
حسوته ، نقدم الثاني



وهذا مثال من شعر سافو . قالت في امرأة ستفسي لأنها لبست فتاة :

- (١) هذا كقول أبو نواس :
إذا خطر منك الهوم فدأوها بكأسك حتى لا تكون هوم
(٢) في ذلك يقول أبو نواس :
وباء بمصباح له فأثاره وكل القى بنى لديه قربه
فلتأرحاء هات إن كنت بالما فإن الهوى عن طمك سيحب
(٣) باكوس هو إله الحر في الأساطير اليونانية وهو ابن زيوس كبير الآلهة .

خَفِيَّةٌ :

غداً سترُفدين في جود الموت جَنَافاً
وذكرُك لا يترك لساناً أو يثير جَنَافاً
إذ لم تسكوى في دوحة العن غصناً مَيَّافاً
إلى سنكوبين في جنبات الجحيم
وفي زمره المُعْتَدِينَ
لن يصاحب ظلك ظلي حبيب^(١)

المسألة :

إيه يا مساء ، قد هُذت إلى الديار بساكنها ،
بعد أن يَهْتَرُمُ العَجْرُ في الأرض ، قاصيها ودانيها ؛
فإلى الخفايا هُذت بالحراف والنعجات
ورجعت البين إلى صدور الأثبات

أما « أما كرهون »^(٢) التي لم يبق لنا من شعره إلا شذرات ، فقد أدار
غناءه على الحب والحرف أسلوب رقيق ، وليسته أقل عاطفة من شعر رامو ،
وقد كانت رقة لقطه مبعث إعجاب الشعراء اليونان والمحدثين ؛ وقد كان له
مقلدون أنشدوا شعراً في أسلوبه ، وضاعت أسماؤهم ، فضل ينسب له خطأ
قروناً متلاحقات .

والمعجب أن مقلديه ومنزجيه من المحدثين إنما يقلدون ويترجمون ذلك

(١) هكذا وردت الترجمة في الأملجزة فربما عاوى اختلعت الأبيات الأشعرية بس التي .
في الأصل اليوناني .

(٢) Anacreon — ١٦٣ ، في ج — ١٧٨ في ج .

الأشعار المنحولة ، أكثر مما يرجعون إلى أشعاره الصحيحة .
والحق أن مجموعة من هذه القصائد المنحولة قد جمعت في ديوان اسمه
« أماكرونيات » ، وهي من الجمال والروعة بحيث تستحق النسبة إلى هذا
الشاعر العظيم .

وهناك مثالا منها :

الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ :

إن يعود الشَّيْبُ الحَلَوَّ ويحطو إلى
بمد أن كان لي أصدق الخلان
وابيض رأسي فوق كنف
كما ابيض مني العارضات
وأسنائي — لقد نطمت اليوم بنائ أسنان
سكنتُ عرى ، ما أنبت إلا قلبلا
أستري به سيم الذات
ومزقني الشكوك تحريقا وبيلا
وبقيت لهنق وعويل وحسرتاه ،
ألا ما أعق سراقد الأموات !

ما أعق ما يزدون ولا يمزنون !
وند تقطت بهم إلى السودة أسباها
وعلى المزعج ضمدا لم يعودوا بملكون
أن بسلوكوا الطريق بين أيابها ،

هم في الموهبة السحيقة يرفدون !

إن القصائد الفنية التي أنشدها «أناكرتون» و «سامر» وغيرها ، فيها من الطابع الشخصي شيء كثير ؛ هي تعبير عن عاطفة فردية ، إذ ندس فيها أننا الحزن وصرخة الألم ، ونسمع فيها صرخت السرور وإشفاق الأسف ، وغير ذلك مما كان يحسه الشاعر في حياته الشخصية .

الوثائق الجماعية :

وأما أناشيد الجماعة عند قرسها فأرضوها لتغنيها مجموعة من الدس ، وهي نغمة عن عواطف جماعة لا عاطفة فرد ، ومن أمثال ذلك الترانيل الدينية وأناشيد الجهد التي كانت تُغنى للأبطال الظاهرين .

أمثال هذه القصائد — وإن تسكن بغير شك ، طائفة بطابع فأرضها — إلا أنها من حيث موضوعها لا تدس تجربة الشاعر في حياته اليومية ، وإنما تعبر عن الحياة الدينية والاجتماعية التي تحيط به . وأعظم شعراء هذا الصنف من الشعر الفني هم «سيمونديس السكيوسي»^(١) و «باخيليدس»^(٢) و «بندار»^(٣) وثلاثتهم عاشوا في القرن الخامس قبل الميلاد .

أما «سيمونديس» فقد أجاد في قصائد للدح يتوجه بها إلى من أراد مدحه من العفلاء ، وكانت طريقته أن يذكر بطلا من أبطال الماضي ليعرضه على سبيل المقارنة بالمظيم المدوح ، ولذلك فقد حفظت لنا أشعاره كثيراً من أساطير الأولين .

وهذه أمثلة من شعره :

صوفي العوخرى في ترموبولى :

إن صرعى « ترموبولى » لن العظماء الأبحاد

فأشرفها نهاية ، وما أسمىها غاية

وقدوا هناك تحت مذبح ، إذ لا تشق لمؤلاء اللحد

ولا بنشى صراخهم الزأون النائحون

إننا يحج إليهم القاكرون عمادحون

قله ما أعظمه من قربان مجيد

لن بطمسه الصدا ، ولن يفتيه الزمان الليبد

قدست أرض باتت للأبطال مستقرة ومرند

مهائنا أدام « الشرف الإغريق » له معيدا

وها هنا بين الصرعى رجل حدير أن يُنجدنا :

« ليونيداس Leonidas » حليل ملوك اسبرطة

الذى حُتف الأعقاب كاللآلى السواص

شجاعة وشهرة

فاسمه باقى على الدهر

يتوارثه عصر بعد عصر

الصعود إلى القضاة :

عن القصيدة قال الزواه

إنها على جبل صعب صرقة

وعرائس الجن المقدسات لها سُخاء
ووجهها في حرِّ جهات لإنسان أن يراه
إلا رجلا شق الطريق مُتَّصِداً
لا يبالى نصيباً هنيئاً وثقلاً مُجْهِداً
حتى يبلغ بالأسى ذلك المرفداً

قبر :

ها هذا دهم يرفدوا ، إهم الذكر عاكفون
قد قصوا في سبيل « تبعيا »^(١٦) وم على الزمان قايضون
كاوا لحسوتها الليوث الحنة
كاوا لقطعاها الخراس الرعاة
انغثوا حرية « هلاس » اكليلا وتاجاً
واندعروا في حومة الرقي أمواجاً وأمواجاً
انظّل « هلاس » مامية على الأيام
ولا يضر إكليلها عمار الرعام

وأما « ماحلديس » سكان من شعراء الأماشيدي تغنى لآفان ن ، ومن
أروع نساءه تشيد قاته في تمجيد حواء كعب السبق في حلبة الأنتاب الأولمبية ؛
وقد كاه الأغر يق يدطرون إلى الرياضة القديمة مظرة فيها الروح الوطنية ومبا
العبادة الدينية ، مما لبس لنا به عهد نحن المحدثين

وأعظم شعراء الأناشيد الجماعية التي غال في موافق القليل والتصر « بندار »
 وقد بقى لنا من أدبه قصائد كاسية قيلت في تمجيد السابقين التغالبيين في حلقات
 الألعاب الأولمبية وما شابهها من المباريات ؛ ولعلنا « بندار » وكثرة ما بقى
 من شعره ، أصبحت الأناشيد في المصور الحديثة تغفر باسمه ؛ والتعبدة الفئانية
 من هذا الضرب كانت تغنيها جوقة في جوع من الرقص في حلقة ، ففعلومة
 من القصيدة فللأزما حركة الراتقين من اثنين إلى اليسار ، والمفعولة التي تليها
 تلازمها حركة من اليسار إلى اليمين ، وفي المفعولة الثالثة ينف الراتقون في
 سكون ؛ وهذه الوحدة الثلاثية يكررها الشاعر في قصيدته عدداً من المرات
 كما يشاء . وقد أصبح هذا البناء المعى للقصيدة الفئانية غالباً هاماً في الشعر
 الإنجابي ، ولأن القصائد الفئانية الإنجابية تختلف كثيراً من حيث الموضوع
 عن اليونانية ؛ ومن أمثلة هذه الأغاني في الشعر الإنجابي قصيدة
 « شلى »^(١) وعنوانها « نشيد الرياح الغربية » وقصيدة « كينس »^(٢)
 وعنوانها « أغنية السندليب » وقصيدة « سوين »^(٣) ؛ « نشيد عيد الميلاد »
 وقصيدة « نيسن »^(٤) ؛ « الدوق ولندجن » ، فهذه كلها نشبه أصلها اليوناني في
 فطنة وثبته وهي وقار موضوع القصيدة وما فيه من جد الماطنة .

ولقد وصلنا من شعر بندار أربعة وأربعون قصيدة موزعة في أربع مجموعات
 حسب نوع الألعاب التي قبلت فيها .

وها هو أحد أناشيده قاله تمجيداً لزينوفراط أمير مدينة « أجرجتوم »

١ . Shelley — Ode to the West Wind (١)

٢ . Keats — Ode to the Nightingale (٢)

Swinnburne — Birthday Ode (٣)

٤ . Tennyson — Duke of Wellington (٤)

بحزيرة صلبة ، والتشديد موجه إلى « تراسيبولس » ابن الأمير اندكور
والراجح أن الشاعر قد كتب قصيدته بعد موت الأمير . قال :

(تقطوعة الأولى نشدها الجوفة وهي تتحرك من الخمين إلى اليسار) :

أي تراسيبولس ! إن القدماء الذين صعدوا إلى عربة ربات الوحي الذهبية
ليأخذوا بأيديهم الفئارة النيلية ، لم يتواصوا عن أن يظنوا أناشيدهم الملوحة
كالعمل ، تمجيداً للجمال الشباب^(١) ، أولئك الذين يدعونا شباههم المحسب إلى
أن نحمل بأمر ديت الإلهة ذات العرش للشرق .

إن ربة الوحي إذ ذلك لم تكن جشعة ولا أجيرة^(٢) . لم تكن
« ترپسيكوزة »^(٣) نضع قناعاً من الفضة على وجهها ، ولم تكن أغانيها المذبذبة
الملوحة نوع بالمال ، وأما الآن مما هي تدعونا إلى أن نقبل تلك الكلمة القرينة
من الحق ، كذا أحد أبناء « أرحوس » :

« للال . للال . هو الرجل » . قالوا عندما فقد أصدقاؤه نسا فقد ماله .
وأما أنت فرجل حكيم . إني أشيد بتعمر لا يجهل أحد ، هو العصر الذي وهبه
« بوسيدون » لزيوت فراط مكافأة لمرتبته ، ذات المهبول الأربعة ، لينتزع
بأكليد الآس .

(١) إشارة إلى تراسيبولس أين المدوح وإليه قد ست الشاعر كما قلنا فيما مضى .
فهو ما يصح بهال الثياب عند تراسيبولس . ذلك الجمال الذي يفسد على أن نعلم ما فروديت
إلهة الجمال والحب ، ولقد كان الشاعر صديقا بها لتراسيبولس الذي كان في سن الشاعر

(٢) المظاهر أن الشاعر يرضى ما يخاصر ، ومثاقفه « سيبوبديس السكوبوس » الذي
أنهم بالجنس والفرس على صلاته ممنوحة ، ومن الثالث في « بندار » كذلك كان بقماني
أجراً على أناشيد ، ولكنه ما يربد أن يفرق بين مدبره وبين مدبر مائه ، فهو صادق
وأما مثاقفه فمرتق .

(٣) Terpsychen هي ربة الرقص عند اليونان .

(انطلاوة الثانية : نشدها الجوفة وهي تنحرك من اليسار إلى اليمين) :
 لقد عهد نبه الإله سيد الرباب للثابه ، مجد فيه غر « أخرجننوم » ، ومن
 قبل قد رمقه أبولون بنابنه في « كريسته » ، حيث وهبه النصر هالكاً أفساً .
 وفي أثينا المشرفة بال حظوة أبناء « إركنيوس »^(١) الأمامد . ولم يجد مأخذاً
 على تلك اليد الساحرة في قيادة النمرة ، بد السائق « نيقوماحوس »^(٢) ،
 ليقوماحوس الذي ساط الحبل في حرارة ، حتى إذا جد الجيد أطلق لها الأعنة .
 وهو الذي شاد يذكره « الأثينيون »^(٣) « رسل » مواسم الأملاب وحاملو القران
 إلى « زيوس » ، وذلك عندما ملوا كرمه . لقد حيتهم أصواتهم الجيلة عندما تلقاه
 العصر الذهبي على حديه بيلادم . تلك البلاد التي تدعوها حرم « زيوس »
 الأولي انداق « تلك أسا » ، أنسبد بموس « مجداً خالداً . آه إين تصوركم
 — تراسيواس ! — لا تحمن الولاثم المحبوة ، ولا تنقطع عنها الأناشيد الجيدة .



(انطلاوة الثالثة . نشدها الجوفة وهي ساكنة) :
 يا زعن عماري « المليكون »^(١) لا يسدمون بالصخور ، ولا تنوعر بهم
 السيل عند ما يحفون إلى الناسين من الرجال ، حاملين هدايا هؤلاء السدري .

١١١ إركنيوس : هو سد الأثينيين المرفي

(٢) نيقوماحوس : هو سائق النمرة ، وذلك لأن الأحرار أصحاب الربات لم يكتروا
 يلودونها بأسمهم . بل كانوا يتعدون سائلاً خلف كل مدم النمرة والاعه يندبه و صاحب
 النمرة جلس تحفه

(٣) « الأثينيون » نسبة إلى مدينة « أثينا » والقدما يدسون إلى سكان تلك المدينة
 المذكورة الأولى في قصة الأملاب الأولى . وقد كتبت الرسول الذين يتعدون إلى ملاه اليواس
 بالقدمة ليخبروا الناس بمجد تلك الأملاب . كما كان من بينهم كيميد و يوس وأوليا .

(٤) المليكون رجل شاعيا ، وهو مأوى من مأوى ربات لرحى السبات هاسدوى
 المليكون ورساين في الشعراء

لباني أستطيع أن أصل بسهامي حيث وصل زينونراط بكرمه العسى العذب ،
مخلداً وإياه الناس كافة . لقد حاطه مواطنوه باجلالهم . لقد أحسب ربة الخليل
لكي يسار تقاليد الإغريق في أعيادهم . لقد أقام دائماً الولائم في بشاشة مُجيداً
للآلهة . ولم تحمله يوماً رباح الكَرَم التي تهب حول مائدته على أن يطوى قلاعه .
في الصيغ يبحر حتى « فاس » ، وفي الشتاء يبحر حتى ضفاف النيل . ولما
كانت آمال الحسد تهوم حول البشر ، كان من واجب « تراسيبولس » أن
لا يترك فظ عن الإشارة ببطولة أبيه . عليه أن لا يترك هذه الأناشيد نهوى إلى
التسبان . إني لم أكتبها لكي تنام خامدة . أحذرك — يا نيكاسوس ! —^(١)
هذه الرسالة وأنت عائد إلى الكريم الحبيب إلى نفسي .



هذا التشيد الصغير يرينا مثلاً من أناشيد النصر عند اليونان ، فالشاعر
يقفنى بحمال تراسيبولس الشاب الذي أرسل إليه دحـه لأبيه ، وهو يشيد بذلك
الأب لانتصاره في الألعاب في سباق العربات ، وهو يذكر ما كان من نصر
سابق في كرسه وفي أثينا وفي أولبيا ، نصر أحرزه المدوح أو غيره من
أمرته ، ثم يجدد سائق العربة ، وأخيراً يتحدث الشاعر عن نفسه معلناً اعتزازه
بشعره . ولست كل أناشيد بتدار في هذا الاختصار ، إذ أن من بينها ما يبلغ
خمسائة بيت تقريباً ، أى ما يقرب من أغنية من أغاني الإلبادة أو الأوديسة .
والشاعر يلتمس عندئذ مادة لشعره في الأساطير التي تدور حول أجداد الطلل
أو حول مدينته .

(١) نيكاسوس هو رسول تراسيبولس إلى الشاعر لطلب إليه هذا التشيد وبهذه
الأمير .

وشعر بندار بمناز بقوة التركيز ، وهو شعر غامض حارت في همه القول .
انظر مثلاً إلى جمعه بين « رباح الكرم التي نهب حول مائدة المدوح »
و « رحلات المدوح إلى الشمال حتى طامس » ، وإلى الجنوب حتى صغاف
النيل ، الخفاً لوجهه الثراء ، وكيف جمع الشاعر بين اللعين الخفي
والخزى ، واصلًا بينهما بقوله إن رباح الكرم لا تمنع المدوح من أن يحرر
طالباً لقال من التجارة ، « هذا تركيز لا يغفل عن الخوص ، ولكنه من مصادر
عظم ذلك الشاعر الذي يرى فيه الفاد أكبر شاعر عراقي .



كانت أثينا طوال ذلك الزمن الذي عاش فيه من ذكرنا من الشعراء
وعيمة اليونان العظيمة ، ولكن المدنية اليونانية لم تنحصر على أثينا ، بل
نشرت إلى آسيا الصغرى وإلى صقلية وجنوبي إيطاليا ، وازدهرت الفنون في
كثير من هاتيك المدن والأقاليم ، وإنه لما بدل على تناسلها وتساوينا أن ادعى
سبع منها بكونهم مومبروس ، كل منها يدعي لنفسه ، وقد ظهر من ذكرنا من
شعراء في مدن مختلفة من البلاد اليونانية ، ولكم كانوا ينجون إلى أثينا ،
هنا يذهب إليها في زيارة قصيرة ، وذلك بقصد إليها لإقامة طوبله

فلما بسط الإسكندر الأكبر سلطانه على العالم ، ضمت المدن اليونانية قوتها
وإن لم تفقد طابعها ، فأخذ الأدب هناك يضعف وتناهى دعائه ، ولم يعد
— على مر الزمن — نصيراً طبعياً عن حواضر الشعب تجري على ألسنة شعرائهم ،
لم يعد الأدب — تدريجاً — صوت الحياة ، بل أصبح موضوعاً يدرس في
كسب ، وأصبح الأثر الفني تقليداً وصناعة يؤديها الأدب بتله لا يلبه .

وانتقلت الزعامة الأدبية إلى الإسكندرية بسد أثينا ، الإسكندرية التي

أسسها الإسكندر في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد ، وسرعان ما بلغ سكانها ثلاثمائة ألف ، وأخذت تحذب إليها أرباب العلم وأصحاب الفن بسبب هذه المكتبة المنظمة التي أنشأها فيها البطالسة ؛ ما زدهم العلم وازدهرت الفلسفة وفنوى النقد ، لكن الشعر لم يزدهر لسبب لا ندريه ، فقد فقد جلالته وضاعت فونه ، ولعل ما أدى إلى ذلك أن الشاعر كان يكتب قصيدته لتقرأ لا لتُسمع ، وأصبح يكتبها للمعين لا للأذن ، ضاعت من الشعر ألقامه الحلوة ، وبقيت له القوالب المشجرة والصور العارضة ، أو لعل المصربة اليونانية قد أمرت جمعيتها ، فلم يعد لديها شعور جديد ولا أسلوب جديد ؛ لكن لا ! فقد ظهر بعد ذلك شاعر آخر كان له فكر جديد صاغه في أسلوب جديد ، وذلك هو « ثيوفريطس »^(١) الذي يتوَدَّ الشعر الريني حتى أصبح هذا المكون من الشعر ينسب إليه كما ينسب الشعر الفخاني إلى « بندار » ، والشعر الريني إنما يجري على ألسنة الرعاة ؛ يمزج عواطفهم ، ويضع خرافاتهم ووصف ما يحيط بهم من مناظر الطبيعة الخلوية ، ويسجل ما يدور بينهم من حوار ، وما يترنحون به من أناشيد ، وإن في محاوراة الرعاة وأغانيهم لفة وعذوبة وشاعرية حتى ظن بعض النقاد في الصور التي سادت فيها الصنعة في الأدب ؛ أن هؤلاء الأجلاف السذج لا تصدر عنهم هذه العواطف الرقيقة ، غير عاقلين أن الأغاني الشعبية الرفيعة كثيرا ما تبلغ حد الإبداع في حيالها وجمالها وألفاظها وفوائدها .

استند ثيوفريطس أغانيه من أناشيد الرعاة الذين كانوا يمشون في صفلة موق نلالها الحضر ، وتحت جمالها الزرقاء ، يرحلون ويترنحون ؛ وعلى الرغم من حلمه ثيوفريطس على تلك الأناشيد الحلوة التي جرت على ألسنة أصحاب

الليفة والطبع ، من صناعة لقطبة أجده من جمال الطبع ، فإن ما في فصائده
من صدف التعبير ودقة التصوير لمؤلا الرعاة الذبح جملة شاعرا مجيدا .
وهذا مثال من الشعر الفسوب لثيوفر بطس :

الصبابور :

إنه العفر وحده يوقظ القفون ،
وبلهم الحذق يد الصانع الصناع ،
وبلهم الكدح ملا بنام العامل إلا خرازا ،
وترى العاء والم من حوله زاحفا ،
فإذا ما أحذه الكرى دمه الصناه والهم برثيره العارى ،
انظر إلى هذين الشيعين — وقد حذا صيد السمك ،
بنشازان من أعشاب البحر الجافة مخلتا وطيا ،
تحت كوخ مغروش بجانب جدار من أوراق الشجر ،
والشباك مطروحة على مقربة منهما ،
وحولها انثرت نضبان وسلال من القاب ،
كما انثرت مشابك وشباك وحيوط جدها الأعشاب ،
... ... وعلى مقربة منهما مجدافان منأ كلان ،
وحبال تشابكت كلها في خليط ،
وزروق مشدود إلى البابس في عرض الطريق ،
والرصادنان تحت رأسهما مطمان رقيقان من صوف غليظ ،
والنملاء فوق جسدتهما عطبان صميكان ،

هذه عندهما كل ما يملكان ،
وما عداها قبض لبس فيه غناء ،
فلا حاجة لهما للحراسة إلى معنّاع وكثير ولب ،
مذ وقف العفر من دونهما حارساً أميناً
فلن يفتد جار من جوار كوخهما . وطناً ،
فما الجار عندهما سوى مد البحر الزاحف في رفق ولين ، الخ الخ .
وقد أصبح الشعر الريني بعد ثيو فرطس تقليداً في كل اللغات الحديثة
فالشاعر « فرجيل » في ديوانه « أناشيد الرعاة » تأثر خطو ثيو فرطس ثم أثر
هو في الشعر الإنجليزي ، فإليه يرجع الفصل في اصطلاح الأدب الإنجليزي الشعر
الريني ، ولئن كان كثير من الأدب الريني في الآداب الأوروبية الحديثة كادب
العاطفة لبعد ما بين قائله وبين البيئة الريفية ، فإن كثيراً من هذا الشعر الريني
قد بلغ السكّال لأن قارضيهم كانوا يسكنون الريف ويحبونه فيسندون عنه
صدور الطبع لاهن تقليد وصناعة ؛ وقد ظهر الشعر الريني في الآداب الأوروبية
الحديثة في أربعة ألوان :

أما اللون الأول فكانت فيه « أناشيد الرعاة » فصائد قصاراً تحفل طابع
« ثيو فرطس » و « فرجيل » وقد دام هذا اللون زماناً طويلاً ، وهو يكثر
جداً في الأدب الإنجليزي في عصر اليمانيات ، وأشهر أناشيد الرعاة في
هذا الأدب عندئذ هو قصيدة « سبنسر »^(١) وعنوانها : « تقويم الرعاة »
كتب فيها اثني عشر نشيداً ، كل واحد يصف شهراً من شهور السنة ، ولئن
كان « سبنسر » مقتنياً في قصيدته تلك أثر الآداب الكلاسيكية القديمة ، إلا

أنه عرّفها عن الروح الإنجليزية تصديق تسيير، ثم ترى في القرن الثامن عشر « جون جاي »^(١) في قصيدته : « أسوس الرعاة » يستخدم هذه الأناشيد الرغبة ابدور فيها حياة الفلاح الإنجليزي في حشد وشرفه وإصلاحه ؛ والصورة الثانية التي شهدا الشعر الربي ، هي امتداد الحوار القصير حتى أوكدك التشديد أن يكون رواية تعيلية قصيرة ، وحيث مثال لهذا في الأدب الإبطال هو فمسيبة « أيمنتا » للشاعر « تاسو »^(٢) ، وفي الأدب الإنجليزي قصيدة « الراعي الحزين » لـ « بين جونسون »^(٣) ، وفيها عبر الشاعر عن روح الفاعمة الإنجليزية ، ورواية « الراعية الراجعة » للشاعر « جون فليشر »^(٤) الذي استوحى فيها شعر « تاسو » والأساطير اليونانية .

واللون الثالث هو قصة نثرية خيالها شعري ، كما في رواية « أركاديا » للكاتب الإيطالي « سانازارو »^(٥) ، وعلى أساسها كتب الكاتب الإنجليزي « غلب مدني » روايته « أركاديا » في أسلوب مروق مزخرف لا يدينه من أوساط أهل الريف ، بل لا يدينه من أية طائفة أخرى غير طائفة الأدباء ؛ والأدب الربي اللئيم الذي يستباح هو الفضة العاطفية التي تصور أهل الريف ، مثل قصص « جورج ساند » في فرنسا و « توماس هاردى » في إنجلترا وقد لا يكون هذان الكاتبان متأثرين بشعور بعلس ، ولكنهما مع ذلك بنظر طان في سلك « أدباء الريف » ، لأن رعائهم صور حقيقية لأهل الريف

واللون الرابع للأدب الرمي — وهو أعلاها في الروح الشعرية — ينسب

John Gay : Shepherd's Week (١)

Ben Jonson : Sad Shepherd (٢) Tasso : Aminta (٣)

John Fletcher : Faithful Shepherdess (٤)

Sanazaro : Arcadia (٥)

أربع تمثل في قصيدة « ليسيديس » الشاعر « ملتن »^(١) وقصيدة « أدونيس »
لشاعر « شلي »^(٢) وهما يرقى الشاعر صديقا له مات ، فيصور نفسه وصديقه
شخصين يونانيين ، ويشيع في القصيدة روحا ريفية ، وترى « ملتن » في قصيدته
المدكورة يرقى صديقه « كنج » — وهو من يطلق عليه اسم ليسيديس —
يقول عن نفسه وعه إنهما :

.. أرَضَعَا رَحِيْقَ نَلِّ وَاحِدَ

وأطما سم يا تطيعا واحدا ، إلى جانب اليبورع والعلل والجدول
قال ذلك ليمر عن أنهما كانا طالين زمينين في الجماعة ، وبعد فلأرحح
أن هذا اللون من الشعر قد ذهب زمانه ، ولن يعود إلى الأدب الحديث عظيمها
كما كان .

(٤) الرواية المسرحية عند اليونان

نشأت الرواية المسرحية عند اليونان — أول ما نشأت — في احتمالات
دينية كانت تقام نسكربا للإله « ديوتيسوس »^(١) إله الإغناء والإثمار وبخاصة
العنب والخمر ، فكانت المادة — بها يرى بعض المؤرخين — أن يقوم نهر في تلك
الاحتمالات ، ويظهرون على نشر وسط قوسهم على هيئة البشر في نصفهم
الأعلى ، وصورة الساعن في نصفهم الأسفل ، يمثلون أدوارا وبديروا حوارا ؛
ومن هذه البداية الساذجة تكونت آخر الأمر الرواية المسرحية على أيدي
جماعة من لغول الشعراء ؛ ومن هذه الأساطير التي كانت تظهر بين الناس اشق
اليونان كلمة أطلقوها على النساء ، تلفظة « تراييدي »^(٢) أي المرأة شتىفة

Shelley : Adonais (٢)

Tragedy (٤)

Milton : Lycidas (١)

Dionysus (٢)

من لفظة الماعز ولفظة أغنية في مركب مزجي ، على أن ذلك التطور قد تم
بغير شك في فروع طوال .

وشعراء للأسافة التوايح عند اليونان ثلاثة ، أولهم « إسخيلوس »^(١) الذي
بقيت لنا سبع روايات كاملة مما كتب ، وقد بلغ ما كتبه سبعين مأساة تدور
كلها حول موضوعات دينية أو أسطورية — شأنها في ذلك شأن حائز الروايات
المسرحية عند اليونان — فيها نصف الكتاب كيف هُزل الآلهة عقابهم
ويعذبون عذابهم على الناس ، جراء وفاء بما قدمت أيديهم من إثم ، وما اعتزوا
به من كبرياء ، فَوَرَاهُ الآلهة إله أعلى ، هو « القدر » يترص بالناس الدوائر ،
وهيات أن هُزلت من برائته أحد ؛ ولئن كان اليونان ينظرون إلى الحياة أحيانا
في شيء من التفاؤل والرحم ، ولئن كان كثير من حكمائهم — مثل سقراط —
قد نظر إلى الأشياء والأحداث نظرة باسمة بهيجة ، إلا أن العاصفة الأساسية
التي أقام عليها كُتُيبُ المأساة منهم كانت — على الحقة — قائمة على روح الجِدِّ
والعصاة الخلقية ، وهي في ذلك شبيهة بأدب « العهد القديم » .

كان إسخيلوس جنديا حارب في الجيش الأثيني الذي هزم الفرس في
« ماراثون »^(٢) هزيمة مشكورة حادها التوايح ، غفلد فيه اكيف تغليب متة فليلة
دولة قوية عريضة السلطان .

وكان لهذا النصر الساحر أثر عميق في شخصية إسخيلوس وفنه ، فقد كتب
رواياته في عصر يروج بذكر البطولة والأبطال على أثر هذا النصر العظيم ، مصوِّر
فيها مزجاً من الإيمان الديني والزهو بالوطن والجنس .

ولا يجب ، فقد كان بلده « إليوس »^(٣) مركزاً دينياً يجمع إليه الناس

زرايات يلتصون لمشكلاتهم حلا عند معايدتها ، فقدأ إسجيلوس على عبدة
تخلأ شباب نصه ، وهي استجابة أن بعلت الإنسان من أبدى القدر أنها حل
أورارنجل ، ملا حياة بعير عبدة وإغلى .

أخرج إسجيلوس أول مسرحية له في سن السادسة والعشرين ، وكانت
يقوم بدور في التمثيل كما نزل شيكسبير من بعده ، وقد استنى مادة مسرحياته من
أساطير نومه ، وإنه يعترف أن رواياته « فتت نفاثر من مائدة هوميروس » ؛
ولم يهتز في إسجيلوس في كنهه موضوع الحب وما يؤججه في الغلوب من
عاطفة ، إنما غنى بالتروى العليا التي نذحل أصابعها في الحياة الإنسانية ، مندسها
هنا وهناك ، رمى الإنسان أو غصب ؛ وقد حلق على « القدر » و « الخوف »
و « العدل » و « الظلم » صفات متخضة جعلت منها أمرادا تنصرف وزروح
وتندو ؛ و بلغ إسجيلوس في فنه حدا من السمو لم يألوه اليونان من قبل ، ما أتى
في رؤسهم أن الآلهة توحى إليه وحيا مستثرا ؛ وتروى عنه الأساطير أنه كلف
في بفاعته حراسة كرمه ففله العانس واستقر في اليوم مصط إليه « دهرنيوس »
وأمره بكتابة مسرحيته ، فلما استيفظ شرع يكتب وأصابه الخوف من موره ؛
وفد قال عنه سوبركار^(١) — وهو منافسه العظيم — إنه أجاد الرواية ولكن بنور
وعى منه . جربد أنها تصدر عنه بغير نسد ونديير ؛ وقال بعض معاصريه إنه
كان يكتب كنبه وهو محور ؛ قبل عنه هذا وذلك ، لانه بلغ من الصرفة
في الإشاء والإداع حدا دهش له معاصروه ، فلم يسمهم إلا أن يلتسوا له تمليلا
خارفاً لما لوف البشر .

ورجع أن نذكر رواية « رومنيوس للصد »^(٢) أجود رواياته السبع
الباقية ، وهي الوسطى من ثلاث روايات ألفه إسجيلوس .

فأما أولاد فرواية « برومتيوس حامل النار » .

وأما الثالثة فهي « رمينوس الطليق » ، وقد صاحت الأولى والثالثة ، وبقيت لنا الوسطى التي نلخصها بما يلي :

يحيى برومتيوس إلى زيوس ، فيأمر هذا إلهاً من أنسائه هو « هيفيستوس »^(١) — إله النار والحديد — أن يشد برومتيوس إلى صخرة عانية ؛ فقد كان زيوس حديث عهد بإنشاء أسرة له في السماء ، ثم شامت لإرادته أن يحبس الشر من وجه الأرض ليمسح مجالاً للخلوقات جديدة أرق وألطف ؛ فيثور برومتيوس على مشيئة الإله الأعلى زيوس ؛ لأنه يحس نحو الإنسانية عطفاً وحباً ، ولا يريد لها هذا القيد والقياس الذي قضى به زيوس ، فسارع وذهب الإنسان من فنون الحياة ؛ ثم علمه التجارة والزراعة والطب واللاحة ، فكان « ذمامه » عند زيوس ذلك القاب الشديد الذي ذكرناه ؛ وقد شامت حزمة برومتيوس عند ما شدّ وثاقه إلى الصخرة ألا يتألم أو يشكّ أمام حاوئه « هيفيستوس » ، ولكن لم يكف بتضيء عنه حارسه حتى صاح برومتيوس بالأرض والشمس أن تنظرا كيف أسامت إليه الآلهة وإلهه لإلهته بين يديهم :

هأنذا مصعد في مكاني ، أنا إله مفكود الطالع ،

هأنذا أنا صبّ زيوس المدا ،

ويعتني كل من تغاله فونه ، وإله على كل شيء غدير ، وذنبى أنى شديد

الحب للإنسان .

وتعدّ عرائس البحر إلى برومتيوس زائرة فينبئها أنه يعاني الآلام للبرمة

لأنه أراد الخير للإنسان ، لكن بروميثيوس في محنته تلك لم يئأس ، ملا يرال
 بلع في أفق حياته بصيص من الأمل ، وذلك أنه يعلم — دون غيره — أن
 قصاء محتوما يقرنن الدوائر نزيوس الإله ، وسينزل به من ذروة سلطانه إلى
 أسفل ساطلين ؛ فتبلغ هذه التسوية البيعة مسامح زبوس ، ويرسل «هرميس»^(١)
 يستعسر من بروميثيوس عن تفعيل الأمر ، لكن بروميثيوس يمسك عن
 الجواب ، فيبدهد «هرميس» مذكرا إياه كيف نزلت به التوازل حين أعلن على
 ربه العصيان . لكنه يحجب :

لن أرتضى الزُّق لهذا العقلب بدبلا

فالكرب عندي خير من أن أعيش ذليلا

فما هي إلا أن تُعصَّب على التائر ألوان العقلب ، فيرسل الله نسرا جارحا
 ينهش لحمه نهشا ، وهنا تشق الأرض وتغوص الصخرة التي شدَّ إليها بروميثيوس
 إلى أعماق الهاوية .

وقد روى المؤلف في الرواية الثالثة من نالونه للمسرحي أن بروميثيوس وزبوس
 قد وصلا إلى اتفاق بينهما وانحسم الخلاف .

ولعل الحكمة التي قصد إليها الكاتب هي أن الآلة كانت في بداية الأمر
 تريد أن تأخذ الإنسان بالقانون الصارم ، لكنها بعد جذب وشد ، وأنت أن
 تخفف من حدة القانون الذي تفرضه على الإنسان ، فأصبح على نمو ما يرى
 قانونا مقبولا معقولا يجمع بين المدل والرحمة ، والشدَّة واللين ، والجار والاحتياط .

وإذا استثنينا بروميثيوس ، فإن أمتع شخصية خلقها إسخيلوس في
 مسرحياته هي «كليشمقرا»^(٢) في روايته القوية «أجاممسون» ، فهي امرأة

صَلْبَةً المود شديدة للرأس ؛ بَشَبَهَا التَّفَادُّ بشخصية «الليدى مكيت»^(١) عند شكسبير ، فكانت كلينمنسرا لا تخشى أَنْ تَجْفَرَ عما تراه الحق في وجه الآلهة والناس ، وقد فنكت زوجها «أجاممنون» ، ولم تحس على طلبها أسفا ولا ندماء ، ولم يتورعها ضعف أو خور ، مكأتما هي فيها ضاقت بد «القدر» ورسول «العدل» ؛ شخصية أجاممنون محقونة ، ولذا مقدر روجنه به لم يعد ما هو حذر به ، لكن ذلك لا يبرز جرمتها الشقاء ، ولا يسمع لها إذا جاء يوم الحساب ، لذلك بدبر «القدر» أَنْ ينظم انهما «أورستيس»^(٢) لأبيه من أمه ميقتلها .

ونتنبه الآلهة بالعقاب ، واسكها نمود — في رواية أخرى للكانت —
منغفور هم .

مكأتما أراد إسخيلوس أَنْ يفرز مدعيه وهو أَنَّ الخطيئة لا يد أن تفي جزاءها فيل الغفور عنها .

وأعظم نجدبد جدده إسخيلوس في الرواية المسرحية أنه أدخل أكثر من ممثل واحد على المسرح في وقت واحد ، لأنه بذلك هيأ الظروف للمحاورة التي هي ركن أساسى في المسرحية .

ولساندرى — على وجه التحقيق — كيف كان بناء المسرح عند اليونان في عهد ازدهار الرواية المسرحية ، ولا كيف كان منظوم إرسون صاغتهم المسرحية ، إذ لم يبق لنا أثر للمسرح بُنى في القرن الخامس قبل الميلاد نستشهد بمكانه ، فمسرح ديوبسوس الذى كشف عنه في النصف الأخير من القرن التاسع عشر بفتح الأكروبول بأثينا لم يتم تناؤه إلا في القرن الرابع ق . م .

ولكننا نرجح أنهم بلغوا في ذلك من الدقة مبلغاً عظيماً ، وإلا كيف استطاعت الجوفة في رواية إسخيلوس ؟ « برومبيوس الصند » أن تثلث عرائس البحر ساححة في الهواء ، وتظل ساححة حتى يأمرها « برومبيوس » بالهبوط ؟ وقد يكون تمثيلهم للسنائر على غير ما نفهمه في عصرنا الحديث ، لأننا إن قرأنا الرواية اليوم وجدناها أقرب إلى أن تكون قصة تُروى مصحوبةً بقناة الجوفة منها إلى أن تكون عملاً ومحاورة بين الممثلين يراه القارئ ويسمونه كما يحدث اليوم ؟ وهما يمكن من أمر ، عند كان لا يظهر على المسرح إلا ممثلان يتبادلان حواراً ، بغيره وغناء نشده الجوفة التي كان الغرض منها أن تُلهم من مشيئة الآلهة وتدير القدر ما لا يعلمه البطل في خطبه ومحنته .



وثاني شعراء للأدباء عند اليونان هو « سوفوكليس » الذي يصنف جبلاً عن « إسخيلوس » ؛ وقد كانت عادة الشعراء أن يتنافسوا من أجل جوائز معينة تعطى للمعززين ، وتنافس سوفوكليس وإسخيلوس في إحدى هذه المسابقات ، ففاز بالجائزة سوفوكليس .

ومنذ ذلك الحين أخذ نحنا بهرطد الطراداً موصولاً لا يتقطع ، حتى راتته مئذنة حول سنة ٤٠٠ ق . م ، وكانت سنة إذ ذاك تسعين عاماً .

كتب « سوفوكليس » أكثر من مائة رواية ، بقي منها سبع ، وهي تدور حول الأساطير ومسائل الدين كروايات إسخيلوس . فلم يكن ككتاب الرواية المسرحية من اليونان — وهم في هذا مثل شيكسبير وبعض الشعراء المحدثين — يزعمون لأنفسهم ابتكاراً في الموضوع ، بل كان موضع التنافس والمحرّك كيف يعالج موضوع معروف في غالب الرواية .

ومن أشهر رواياته «أوديب الملك» و«أنثيجونا» و«إلكترا» و«أيبس»^(١)؛ وإن لهذه الروايات لأثراً كبيراً في الأدب الحديث^(٢)، وفي مسارح العالم أجمع.

ولعل قصة أوديب القى قتل أباه وتزوج من أمه عن عمر علم، أن تكون من أروع وأبشع ما يراه الإنسان ممثلاً على المسرح. ولا بد أن يكون أثرها أشد وضاعاً في نفوس اليونان منه في نموسنا، لأنهم كانوا يرمون القصة، بمنظر المفرجون في إشعاق إلى أوديب على المسرح بعدل غير عالم بما يجتبه له القدر من أحداث جسام.

إن ما كبته المسرحية على يد سوفوكليس، هو أنه حدث بعض الشيء من سلطان الآلهة على سلوك البشر، فقد كان ما يقضى به الآلهة عند إسكبولوس، هو ما يرسم للإنسان سلوكه، أما سوفوكليس، فقد جعل الإنسان مسيراً وقدّر هو نتيجة أعمال الإنسان نفسه إلى حد كبير.

وللصادفة عنده فسط مومور في تحديد تلك الأعمال، فالإنسان عند سوفوكليس كأن مجيد عليل، يترى أشخاصه يجاهدون ويستمون لأنفسهم الخبط، وهم إذا جابهوا الكوارث، بأنما يجابهونها كأن يواجه الشبح المهرج البحر الهائج؛ بصارعه ويكافئه ما استطاع إلى الكفاح سبيلاً.

ولنا أن نتخذ «أنثيجونا» نموذجاً لفن سوفوكليس، فنحن نلتصق بما يلي: شادت إرادة «كربون»^(٣) ملك طيبة اليونانية^(٤) أن تظل جثة «بولينيس»^(٥) القى قتل أثناء الهجوم على المدينة في العراق، لا يترك لها

(١) Oedipus the King; Antigone; Electra

(٢) ترجم هذه الروايات الأرمع الدكتور طه حسين

Polyxenes (٥) Thebes (٤) Creon (٣)

في جوف الأرض رَمَسَ نَسْتَرُ بِهِ ، قد « أعلن الأمر ألا يدين الشقي
بوليسس ولا يُبكي ، وأن يترك — من غير أن يُفكر أو يُؤدى إليه الشعائر
الدينية — نهياً لسماع الطير التي تتأهب لافتراسه » . لكن أننجبونا أخت
بولينيس تصم على دمن أخيها على الرغم من أمر الملك .

« أما أنا ، فلا بد أن أأرى أخى ، فإذا أدبتُ هذا الواجب ، فما أجل
ي أن أموت ، والى من متي ؟ أنا صديقة لحفت بصدقها ، سأؤذى واجباً عدلاً
ملوء النوى ، لأن الوقت الذى سأقيم فيه بين الموتى أطول من الوقت الذى
سأقيم فيه بين الأحياء » .

فنهض عليها أوامر الأمر لصيانتها ، وجىء بهما بين يدي كرون ، لم نحاول
إحداث ما عدلت ، بل أعلنت أمام الملك أنها كانت عالمة بأمره ، مقدرة ما يترتب
على عصيانها من نتائج :

كرون — وكيف جرأت على مخالفة هذا الأمر ؟

أننجبونا — ذلك لأنه لم يصدر عن « زبوس » ولا عن « المبدل »
مواطن آلهة الموتى ، ولا عن غيرها من الآلهة الذين يشرعون للناس فوائدهم ،
وما أرى أن أمورك قد بلغت من القوة مبلغاً يجعل القوانين التي تصدر عنك
أحق بالطاعة والإذعان من القوانين التي تصدر عن الآلهة الخالدين ، ذلك
القوانين التي لم تكنب ، والتي ليس إلى صحتها من صيل .

وبعد حوار طويل بين الملك وأننجبونا ، يقضى الملك أن تدفن العنة حية
في غار صغير .

لكن أننجبونا كانت حطية « هيون »^(١) من « كرون » ، فينوسل

هيومن إلى أبيه أن يفر عن حبيته ، ولكن رجاءه بصادف من أبيه أدنا
صما . ميدور بين الآن وأبيه حوار غابة في القوة والحياة ، وهو أقرب ما يكون
شها بالحوار في الرواية الحديثة .

كر يون - إن أسمع بأن نكون زوجاً لك ، إنها سموت

هيومن - لن مانت فلبين منونها موت آخر

كر يون - كيف ! أنبلغ بك الجرأة أن تهددي !

هيومن - أهددك حين أحارب فيك عواطف ظالمة ؟

كر يون - سأعطيك أن نكون أعدل في عواطفك ومهلك !

هيومن - لو لم تكن أبي لقت إن عواطفك تضاد الفل .

كر يون - أيتها العبد الذي نملكه امرأة ، لا تنفل عل بانطك

هيومن - أتريد أن نتكلم من غير أن نسمع ؟

كذلك يقول كرون نصيحة « ترسياس »^(١) « ذبّر أدنه » و ترسياس

عرافاً ضرير ، مبتدر العراف الملك بأنه ملاق في « بيسل عتاده أشد

ألوان العناب » .

ترسياس : إذا فاعلم أنك لن ترى الشمس نطلع مرات دون أن تصاب

بموت كأن أنت أبوه ، دية لموت آخر ، لأنك ألعيت في بطن الأرض كأنك

كان يمش على ظهرها ، ولأملك أخزيت نفسك ! حبست حياً في القبر ،

وخلبت حنة بالمرء ، ميسداً عن آلهة اللوى ، في غير ما ينهى لها من

الشرف والأوى » .

وينفذ أمر الملك في أتيقجونا ، فيرهن هيومن نفسه بحوار قبرها ، متلعن

أمه « يوربيدس »^(١) نفسها حزناً على موت ولدها ، و يظل كـ « برون » ذلك الأرمـن الأحمق « بندب حظه دون أن يجد إلى جانب من يواسيه .
والغاية الخلقية من الرواية تلخصه الجوفة في ختامها :

« إن الحكمة لأوّلُ بتابع السعادة ، لا ينفى أن تقصر في تقوى الآلهة .
إن صلف التكبر ينلدهم الحكمة عما يحرج عليهم من الشر ، ولكنهم لا يتعلمون إلا بعد فوات الوقت وتقدم السن »^(٢) .

سـ وثالث رابع الأساة عند اليونان « يوربيدس »^(٣) ، وهو أصغر من سوفوكليس بأعوام فلا تـل ، وقد لبث الشاعران العظيمان نصف قرن يلتصقان أمام النظارة من اليونان ؛ ولكن الفدركان أرحم بآثار يوربيدس منه بآثار زملائه ، فاحتفظ للأجيال التالية من سبع عشرة من رواياته التسمين ؛ وكان « يوربيدس » شاعر الحب بين كُتّاب المسرحية اليونانية ، لأنه أدار كثيراً من فمعه حول هذا الدواعي الإنساني .

ولم يكن الحب باعتباره حافزاً للإنسان في سلوكه ، مجهولاً قبل يوربيدس .
ألم يكن يـراز « يارس » مع حبيته « هلاة » هو الذي أثار حرب طروادة ، ولكن « يوربيدس » هو أول من اتخذ عاطفة الحب وغيرها من المواقف الإنسانية محوراً أساسياً في سلوك أشخاصه ؛ فالناس من البشر في رواياته أهم من الآلهة ، بل إنه حين يقص عن الآلهة وأشخاص الأساطير فأعما يطلق ألسنتهم يتحدث هو أقرب شيء إلى حديث الناس في مدطرب الحياة ؛ فقد كان « يوربيدس » أعرف الناس بالخصائص اليوناني في عصره ، عرف كم بلغت

المدنية والعلمية والثقافة العقلية والثالث عند قومه ، وكيف صرهم هذا كله عن الإيمان الخالص الساذج بالهتهم ؛ وأدرك أنه إذا أراد أن يجرى في العاطفة في غموس نظارته ، فيصير على أوتار العواطف الإنسانية التي لا تنكر على الدين ؛ فهذا « ميدبا »^(١) الساحرة — إحدى شخصياته الروائية — بصورة ، في الطاهر كما صورنها الأساطير القديمة ؛ ساحرة تغفل أبنائها انتقاماً من « جيسن »^(٢) وتطير في عربة مُحَنَّجَةٍ ، ولكنه يُجرى من الكلام على أسنانه ، ويثير من العواطف في قلبه ، ما يجعلها امرأة ممذمة من هؤلاء الناسوة اللاتي يصادمنك في الحياة .

كان بور يهدس يميل إلى العلة ، لأنه كان في نعمة عصره نذيراً لا يتسامح مع قبول العامة من الناس ، زاعماً أنه يؤثر حياة الربف السادسة على حياة المدينة المنحصرة ؛ وقد كان في منه محدداً ، فسكان مُعَدِّدَه ذلك وحروجه على التفتيد المؤلف موضع السحرة من شيخ الساحرين « أرسوفانس » الذي كان رعباً لرجسية وإماماً ، قد كره كل حديد وسحر منه ؛ لكن بور يهدس كان صرّ النفس ، ضيق الصدر ، بكراه أن يكون أغصوكه الصاحكين :

إن روعي لثقت

أولئك الساحرين الذين يطلقون للسخرية عتاب
تفتنحهم حطير الأمور وحدها .

ولعل ما زاد صدر الشاعر حرجاً أنه زوج مرتين . وكانت الزوجتان يمدن عن الوفاء ؛ فنادى أثينا في أحرايت أيامه نافاً ساخطاً ليعيش في مذبذوبا حيث ألفت آخر رولباته وهي « كاهنات ماحوس »^(٣) ؛ وقد قرره الملك إليه ،

مأثراً ذلك غيرة في نفوس طائفة من رجال البلاط ، «دبروا له نياً بزعم القدماء مدداً من السكّاب الصارفة تهاجمه ونفتك به متكا مروّعاً ذريعاً» .

واسكن إن جاء شاعرنا فتازاً في خسة عصره ، فقد كان مفسقاً ، مع ذلك العصر من بعض الوجوه ؛ ذلك أنه شاطر زمناه ما ساد من شك في الآلهة والعفاند ، وكان شكّه قائماً على أساس خلقي ، عند رأى في الأساطير القديمة ما يتنافى الأخلاق ، لأنه إن كانت تلك الأساطير صادقة بما ترويه عن الآلهة ، عذبت الآلهة — إذن — جديرة بالعبادة والتقدير ، وإن كانت الأساطير كاذبة فقد أهدم بناء الديانة الإغريقية القديمة من أساسه ، فإذا انهزم أرسطو فاس بعد ذلك بالإلحاد ، لم يتهمة زوراً واطحلاً ؛ لكن بربريدس يصر على أن الشك في الله أو الآلهة لا يمس مبادئ الأخلاق عند الشك ، ولا تعجب من مثل هذا الرأي يصدر عن شاعر يوناني ؛ «العصبة عند اليوناني العريق تهتذب النفس بمجملها لا بثوابها» .

وقد عنى بربريدس في رواياته التحليل الدقيق للشخصية الإنسانية ، وخاصة شخصيات النساء ؛ وهذا المهم الصيق لأحوال المرأة ودواعيها النفسية هو الذي حدا بعض الكتّاب المحدثين أن يطلبوا عليه : « إيسن العصر القديم » (١) .

وحير مسرحياته هي « ميدبا » التي كتبها في صدر شبابه حين اضطلعت في صدره جذوة الشك ، والتهمت نفسه حبا في الحفيضة الخائفة .

ونبدأ الرواية إذ يكون « جيمس » قد صجرت نفسه من ريقته الساحرة « ميدبا » ، تزوج من الابنة الوحيدة لملك كورثة ، وتمضى السنون وبلغ

جيسنُ من الرجولة المكتملة ، فيمل شواغل الحب ودواعيه ، ويدفع بها سخفا
لا تحمله النفس ، فيصدف عنه لثقل على شؤون حياته بكل ما وسعه من
عناية وجهد ، وعندئذ نكون « مبديا » قد أدركت سن النساء وتمتلى مفتا
وبنفا ؛ وبأسر منك كورثة بهذه الساحرة أن يطوح بها في المنى بعداً عز
أرض الوطن ليحلو لابنته الجرو ملا تهددها « مبديا » ولا تناصبها العداء ،
لكنه يسبح أيها اليوم واحد تقضيه في المدينة فل نمها ؟ وها هنا نشهد لقاء
مراً بينها وبين « جيسن » تكيل له القوم والتأنيب كتبلاً لما أدها بحوها من
نكران للجصيل .

ألم تكن هي التي عاونه حتى بلغ أوج الحد ؟ ألم تكن هي التي أحته من
حظر كاد يورده موارد الملاك ؟ ألم تكن هي التي فطنت عه « بلباس »^(١)
الذي هم بأغصانه ؟ حتى إذا ما فرغت مبديا من تفريع جيسن قال رأس
الجرومة ما معناه :

إن القلوب إذا ندام ودها مثل الزجاجة كسرها لا يُنجَرُ
فيغضب جيسن وبشور في غصه السخط كما يصنع الرجال إذا سلقتهم ألسنة
النساء الجداو :

وَدِدْتُ لَوْ شَاءَ اللَّهُ

لَتَأْتِيَنِي أَبْنَاءُ النَّسَاءِ أَنْ تُنْهَيْتِ الْأَجِنَّةَ

في غير أجواف النساء ،

لكن مبديا لم تكن المرأة التي تنمو وتنفر ، فأخذت تدر كيدها لتصب
على أعدائها النعمة والانتقام ؛ فَصَرَّهَا سِيرَهَا الْمَوْتُ الْمُحْتَمُ ، ولكن لا يكفهم

أَنْ يَتَّعَمَّ جَيْسُنُ الزَّوْجَةَ وَبَقِيَ لَهُ الْبَنُونَ . فَلَمَّا دُرِّرَ الْقَتْلَ هَؤُلَاءِ الْأَسَابِ حَتَّى
يُنَالَ ذَلِكَ مِنْ آبِهِمْ ، وَلَكِنَّهُمْ أَبْنَاؤُهُ مِنْهَا ، هَلْ تَتَنَكَّ هَذَاتِ كِدْهَا أَنْتَظِمَا
مَنْ غَدَرَ حَبِيبَهَا ؟ وَلِمَ لَا تَقْتُلْ ، هَلْ لِلثَّارِ حَيٌّ قَبْصَرُ ؟

مَنْ أَتَقَى لِحَبِيسٍ مِنْ دُرُوبِي أَحَدًا

نَفَرٌ بِهِ عَيْنَاهُ ، كَلَّا وَلَنْ يَنْسِلَ أَحَدًا

مَنْ مَرُوسُهُ الْجَدِيدَةُ

وَحِينَئِذَا نَلْتَقَى « مِيدَا » بِجَيْسُنَ سَرَّةً أُخْرَى تَتَظَاهَرُ بِالْإِذْعَانِ لِمَا أَرَادَ لَهَا
الْفَضَاءُ مِنْ تَعَذُّبٍ ، وَتَقَعُ عَيْنَاهَا عَلَى أَبْنَائِهَا فَتَنْفَجِرُ بِأَكْبَةٍ ، وَنَمُودَ لَهَا الْمَاطِفَةُ
الْإِنْسَانِيَّةُ أَمْدًا نَصِيرًا :

أَوَاهِ ! كَمْ لَقِيتُ الْكُفْرَ مَعَكُمْ يَا بَنِيَّ مِنْ أَمَلٍ عَرِيفٍ

وَأَنْتُمْ أَتَانِي إِذَا مَا دَهَمَ الشَّيْبُ ،

وَبِأَيْدِيكُمْ الْمَرْزُوزَةُ سَتَلْقَوْنَ كَفْفِي حَوْلَ جَنَائِي ،

حِينَ أُرْنَدُ جِلَّةً بَارِدَةً

لَكِنْ هَذِهِ الْمَاطِفَةُ الْخَنُوفُ مَرَعَانِ مَا تَخْفَى ، وَبِلِقَائِهَا نَبَأَ مَوْتِ ابْنَةِ الْمَلِكِ
تَتَأَخَذُهَا شَوْوَةُ السُّرُورِ ، وَنَحْصَمُ أَنْ نُورِدَ أَبْنَاءَهَا مَوَارِدَ الْخَنُوفِ ، وَتَسْتَحِثُّ
نَفْسَهَا لَتَضْرُفَ ذَلِكَ الْإِثْمَ الْعَظِيمَ ، ثُمَّ يَتِمُّ لَهَا مَا دَبَّرَتْ . وَكَانَ جَيْسُنُ قَدْ أَسَى
عَمَّا اعْتَرَمَتْهُ مِيدَا مِنْ قَتْلِ فِيهَا وَبَنِيهِ ، نَظَارَ بِرَأْسِهِ الْجَنُونَ ، وَانْدَمَعَ بِتَقْدِ الْأَبْنَاءِ
الْأَبْرِيَاءِ مِنْ نَكْلِ لِلرَّأَةِ الْجُرْمَةِ الْقِسُومِ ؟ وَهِيَ هِيَ دَا عِنْدَ دَارِهَا يَدُقُّ الْبَابُ دَمًا
حَتَّى لِيَكَادَ يَدُوكُ الْعَنَاءُ ذَكَ ، وَلَكِنْ مَاذَا تَجِدِي لَهْفَةٍ ؟ لَقَدْ سَبَقَ السَّيْفُ الْعَزَلُ
وَهَذَا الْفَضَاءُ الْمُحْتَوَمُ فِي الْأَبْنَاءِ .

وَتَبْدُو مِيدَا فِي عَرَبَةٍ نَحِيرَهَا وَحُوشٌ مُجْتَمِعَةٌ وَعَلَى سَطْحِهَا رُصَّتْ جِثْتُ

أطفالها ؛ فلما أصرت جيسن نظرت إليه محنقة ونفثت له «أدبح الخطوب .

أما أنت فانظر ! إن الموت يدور ليطبق عليك .

وحكمة الرواية أن صل الشر يفيقه العذاب ، ضد عذر جيسن عجيذا وانكر عليها ما صنعت له من جعل ماصيب بالكوارث تترى ؛ وإن مبدأ التعريف أنها صيحة لنسوة قايها . وقد يبدو للقارئ أو الزاقي أن العقاب كان أظلم من الإثم ، ولكن هكذا الحياة التي حرص بوربيدس على تصويرها .

وفي روايته « هيبوليتس »^(١) ترى « مبدرا »^(٢) تقتل نفسها ، لأن ابن زوجها لم يبادلها حبا محب ، ونفس فيها امرأة تصلح شخصية لرواية في الدهر الحديث^(٣) ، ولكن على الرغم من حسن لغات بوربيدس نحو المواقف الإنسانية في روايته ، مما جعله يمتاز عن أقرانه ، فإن آفته الكبرى هي رواية « كاهنات ماخوس » التي تدور كلها حول الآلهة وما قد يزلزله من عقاب على يدي الإنسان ملوكا كانوا أو صمامالك ، إن حذرتهم النعم بمعارضة المفاهيم الدينية وشعائر العبادة .

إن بوربيدس يعتقد عقيدة حازمة بأن العقاب لا مندوحة عنه للفصاح من الخطيئة .

فالإثم دين على الآثم ولا بد من الحساب ليتم للدين الوفاء ، ولا عزة سد ذلك إن جاء العقاب أحب من الجرم أو أشد وأقسى .

ذلك هو بوربيدس الذي يجد فيه أرسطو الصخرة والنسوع ؛ ولما جاءه مدينه ليس عليه سوى كلبيس ثوب الحداد ، كما حزن لعنفه أهل المدينة جميعا . وبمحوه انتهى عصر اللأسة (أو التراخيدي) الذهبي عند اليونان .

Phaedra (٢)

Hippolytus (١١)

(٣) وأند استلها راسين فكتب رواية « عمر » الشهيرة .

السكوميديا (المظاهرة) :

معنى لفظة كوميديا في اليونانية - على الأرجح - « أغنية السكوموس » (Komsos - Odia) والسكوموس معناه عيد أو ولجة ، والقصود بذلك هو تلك الولائم والأعياد التي كانت تقام احتفالاً بالآلهة ما كوس (المسمى أيضاً دوبيسوس) وهو إله العنب والجر ، وتلك أعياد مرحلة كل البنات يجتمعن فيها غناءً كلون و بشر و بن و بنون ، ساترين في مواكب على رأسها غنن ينن و بنبة أفراد الموكب يرددون غناؤه أو يحاوونه ، وكان موسم تلك الأعياد في الشتاء ، حول آخر يناير وأول فبراير ، في ذلك الحين كان الفلاحون يحملون إلى آتينا دفان الحار التي عصروها ، ولهذا سميت تلك الأعياد بأعياد العصير .

وأعياد العصير إذن هي الأصل الشعبي للسكوميديا الإغريقية ، كما أن أعياد العنب كانت الأصل الشعبي للفراخيديا ، مكملاً للفن فدا نشأ من عبادة ما كوس الفراخيديا بعد التفتي ، حول شهرى وفير ودسمبر عندما يأخذ العنب في الجفاف ويبكون إلهه ، والسكوميديا عندما يهون العصير غبشون و برحون . وإلى جانب هذين المبدئين نشأت أعياد كبيرة في آتينا كانت تقام في شهر مارس ، وكثيراً ما كان يجتمع فيها الفنان : الفراخيديا والسكوميديا . وقد بلغت من الشهرة في بلاد اليونان كافة ملتقى أعظيا حتى إن الكثيرين من الإغريق كانوا يأتون من كافة المدن لحضوره .

كانت السكوميديا إذن تمثل في أعياد العصير ، ولقد أصبحت فيما أديباً بآتينيا في القرن الخامس قبل الميلاد ، وكان ظهورها في هذا المظهر متأخراً عن الفراجيديا نحو مئتيين أو أربعين سنة ، إذ أن الثالث تاريخياً هو أن الدولة

لم نعلم مساجلات الكوميديا إلا قبل سنة ٤٥٨ ق . م بقليل .
 ذلك في آثينا ، ولكن الكوميديا قد عرفت في البلاد اليونانية الأخرى
 حتى إن أرسطو في كتابه عن « الشعر » ليحدثنا عن رعم الدورين — وهم أحد
 شعوب الإغريق — أنهم خالقو الكوميديا ، رعم ذلك أهل « ميثارا » فآثين
 إن الكوميديا قد نشأت عندهم في القرن السادس قبل الميلاد عندما وصلوا في
 مدنيهم إلى الحكم الديمقراطي الذي مكن شعراهم من أن يستخدموا هذا الفن
 الأدبي في النقد السياسي والاجتماعي ، وهم يزعمون أن شاعراً لم اسمه سبسر يون^(١)
 هو الذي رحل إلى آثينا سنة ٥٧٠ ق م نافلاً إليها ذلك الفن ، وزعم ذلك
 أبصاً أهل صقلية ، ورعوم أقوى تاريخياً من زعم الميثاريين ، فقد ظهر بالعمل في
 بلادهم شاعر كوميدي كبير هو إبيكارموس^(٢) الذي يضمه أعلامون في فنة
 شعراء الكوميديا ، كما يضع هوميروس على رأس شعراء الللاح . ولقد أخذ هذا
 الشاعر يؤلف الكوميديات منذ سنة ٤٨٦ ق م مما يروى القدماء . ولقد بلغ
 من دجوع الصب أن استنداه حكّام سوراخوسة إلى مدنيهم حيث استقر
 رماً طويلاً ، وعاش فيها يقولون حتى بلغ التسعين من العمر وأنف ما يقرب
 من أربعين كوميديا ، ولكن مؤلفاته لسوء الحظ قد ضاعت ولم يبق لنا
 منها إلا فقرات صغيرة لا تكفي للحكم على منه حكماً شاملاً ، ومع ذلك فأرسطو
 يحدثنا أن إبيكارموس قد أحدث تجديداً عظيماً في الكوميديا إذ جعل لها
 موضوعاً ، أي قصة تشبه قصة التراجيديا ، فأصبحت تتناول حوادثاً بينها ناعليها
 في مراحلها المختلفة حتى تنتهي بها إلى حل . وبذلك أصبحت الكوميديا رواية
 مسرحية بعد أن كانت مكونة من عدة مناظر وأعلن معسكرها برنجل « مظهيا ،

والظاهر أن إبيكادوس كان يأخذ موضوعاته من الأساطير ومن الحياة الواقعية على السواء، بل إنه ليبدولنا من بعض الفقرات التي وصلت إلينا أنه قد عرف كبرت بصف الحالات النفسية والخلقية بروح علمية تحمل منه في مجال السكومبديا شيئاً ليوبريد في ميدان التراجيديات، وربما كان هذا هو السبب في إدراج القدماء له في عداد الفلاسفة الفيناغوريين .

وهامى فقره بصف فيها شاعرنا «الرجل الطويل» .

«أتناول المشاء مع أي إنسان يربدني . يكتفى أن بدعوى أحد ، بل وأتناوله مع من لا يربدني ، ملاذني قدعوة . وأنا على المائدة حاضراً النكتة أخلصك الجميع وأمدح مقدم المشاء ، وإذا سولت لأحد نفسه أن يمارسه في شيء ونست ضد هذا العارضي ، وأخذت فتاله على عاتق ، حتى إذا أكلت وشربت ملء بطاني انصرفت والمصباح يبدى لا يصحيتي عند . أسير وحيداً وسط الظلام وأندثر أحياناً ، فإن قابلت الحراس مصادمة حدث الله إذ لم يغفلوني واكتفوا بأن يطوقوني بعصيم . وعندما أصل في الهابة إلى منزلي وقد نصح جلدي أستطيع على الأرض الصلدة ولكنتي لا أستطيع أن أنام قبل أن أبحث التبيذ للنقي أثره الطيب برمي» .

ولا شك أن مثل هذا الوصف يدل على نزعة واضحة نمتد على الملاحظة المباشرة .

ولعل السكومبديا قد ازدهرت في صقلية قبل أن تزدهر في أثينا لوجود روع من الأدب الشعبي عرف بنفك الجزيرة يشبه السكومبديا ، وسعى به ما يسمى «جوار الحكاكة» وهو عبارة عن حوار واقعي بين فردين من أفراد الشعب : بين إسمائين أو بين رجلين يتبدلان فيه حديثاً عادياً كالذي نسميه كل يوم

في الأزقة والخلجان . ولقد وصلتنا أسماء كتاب حقلين برعوا في ذلك الممر خلال القرن الخامس قبل الميلاد . ولقد عُدَّهم فيما بعد شعراء الإسكندرية وعلى رأسهم نيوفر بطس غسه ، وقبلة هذا الفن إنما نأثبه من بساطته ورصده للحياة وتخيره للتصايل الدالة على النفوس وما يشاهد من تواتره . وهو بذلك يعالج عقلية السواد الأعظم من الشعب كما يعالج الحياة في معاديرها الابدائية الثالثة ، ولهذا كان يكتب في أول الأمر شراً ليكون أقرب إلى الواقع .

ويلاحظ أن سكان صقلية كانوا ميالين طبعهم إلى السخرية والروح والمحاكاة وكثرة الحركات للعبارة . لقد كانوا بما كَوْن كل أمر جدي ليحبوه إلى سخرية ، حتى ولو كان ذلك الأمر من الأساطير الدينية ، وكانت لهم بها بطور مدبرة واضحة على للملاحظة والنقد ، وكل هذه خصائص السكوميدبا .

نشأت إذن السكوميدبا صقلية عناً أدبياً قبل أن تنشأ بآئندا ، وكان فيها أحدهم إبيكارموس من تجدبد أن جعل للسكوميدبا موضوعاً كما كان حوار المحاكاة الذي تحدَّثنا عنه أثر كبير في الوصول إلى مرتبة التصوُّج ، ومع ذلك ملاحظ أنها قد تأثرت أيضاً بالتراجيدبا الآتينية من حيث الموضوع والشخصيات والممثل . وأما ما كان فالسكوميدبا في حلتها فن آتيني وإن كانت الدولة الآتينية قد تردت طويلاً في تنظيمها وإدخالها في الأعياد الرسمية ، ولعلها كانت تخشعاً لما فيها من نقد لاذع لرجال الحكم . ولقد حدث بالفعل أن نبذت الدولة من حرية شعراء السكوميدبا ، ولكن تلك القيود لم تدم طويلاً ، ولم يلبث هؤلاء الشعراء أن انحصروا بحرية كاملة وإن لم يفلتوا دائماً من المحاكاة أمام القضاء .

وللسكوميدبا ما أثبتنا ناريخ طويل تطورت في حلالته وتغيرت روحها وموضوعاتها . ولقد كانت السكوميدبا والفلسفة المظهرين الوحيدين للتأطُّل العقلي

ما تبنا بعد سقوط تلك المدينة العظيمة في يد القذونيين ، في النصف الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد ، إذ دوت عندئذ كل منون الأدب والتصكير ملا ملاحم ولا غداة ولا تراجيديا ولا حطاة ولا تاريخ ، لم يبق كما قلنا غير الفلسفة ثم الكوميديا .

وإذن ما سطرار الكوميديا حية مردهرة بآتبنا خلال القرن الخامس قبل الميلاد ، ثم خلال القرن الرابع — رغم انحطاط التنون الأدبية الأخرى بل وانفراؤها — قد أدى بذلك الفن إلى التطور ، ولهذا نرى مؤرخى الأدب اليونانى يفسمون الكوميديا الآتينية إلى ثلاثة أقسام : (١) الكوميديا القديمة . (٢) الكوميديا المتوسطة . (٣) الكوميديا الحديثة

الكوميديا القديمة :

هذه هي كوميديا القرن الخامس حتى سنة ٤٠٠ ق . م . وتمتاز هذه الكوميديا بأنها كانت سياسية أو شخصية فهي تتخذ صيغة الحوار وتتمدد على قصة لا لتصور شخصيات ولا لتحلل حالات نفسية ، ولكن لتنفذ نظاما قائما ، ولتسخر من حالة اجتماعية بذاتها ، أو لتجرح شخصية من الشخصيات الباروة ؛ لقد كانت أشبه ما نكون « بالمجاء المثلثى » وروحها روح هزل صراح ؛ هزل لا يتهرج من أنبيع الألقاط هي مسرفة في الواقعية ، ومع ذلك فقد استطاع أكبر ممثل لتلك الكوميديا وهو أرسطوفان أن يعبر بذلك الهزل عن كثير من الحقائق ، بل وأن يجمع إلى الهزل أرق الشعر ، فلهذا ترى جوقات كوميدياته تشكلون من السحب أو الضفادع أو الزماير ومع ذلك تسمع تلك الجوقات نغنى بأجل الغناء وهكذا بأنى الشعر مصاحبا لهزل الشخصيات الروائية فدهش لقدرة ذلك الشاعر

المعظم على الصبور من الشعر الرقيق إلى الميت السلف في هذا البسر وذلك القوة ،
ولعل أغاني الجوقات في كوميديا أرسطوفان هي التي أوحى إلى ناتد لابنبي كبير
فوله عن الكوميديا القديمة « لقد كانت الكوميديا القديمة الفن اللادى الوحيد
الذى احتفظ بنقاء اللغة الأتيكية ورشاقها الأصيلة ، هي مصبغة مصابة صريحة
رائعة في مدحا لردائل ، مليئة بالقوة في الوصول إلى ما تريد ، اتشد امتازت
بالمنظمة والرشافة والسحر وفي ذلك تركزت خصائصها » . هذا الحكم يصدق
على الأجزاء الدائنية وعلى سمن الحوار ، ولكنه لا يصف تلك الكوميديا
وصدا شاملا إذ نجد فيها إلى جانب الرشافة والمنظمة التسبح والإسفاف في اللفظ .
أكبر تمثل لتلك الكوميديا — كما قلنا — هو أرسطوفان المولود حوالي
سنة ٤٥٠ ق . م . وله هذا الشاعر اللوهوب لأبوين آتينييين من أصل حر ، وكان
لوالديه إقطاع صغير بجزيرة « إيجينا » يستغلانه فيقوم بأودهما وقد عثر الشاعر
منقطعاً عنه فشكل ما نمره عنه إنما يتصل بذلك الفن ، ومن كوميدياته نسما
استقى المؤرخون معلوماتهم عنه ، وذلك لوجود عنصر في الكوميديا القديمة هو
« الاستطراء » وفيه يتحدث الشاعر دائماً عن نفسه وعن روايته وعما يريد أن
يدلل عليه . ولقد كان أوستوفان مبكر النضوج ، فنذ سنة ٤٢٧ ق . م أخذ يقدم
لل مسرح كوميدياته وكانت أولها بعنوان « ضيوف مرفل » وهي مفقودة ولكننا
علم أن الشاعر قد هاجم فيها الاتجاه الذي أخذ يسود إذ ذاك تربية الشبان
وتوجيههم نحو النقد الفلسفي للتقاليد القديمة دينية كانت أو اجتماعية ، وفي السنة
التالية ٤٢٦ ق . م قدم « الباليون » ونال بها الجائزة الثانية ، وهذه الرواية أيضاً
مفقودة ولكننا نعلم أنه قد هاجم فيها الزعماء الشعبيين وبخاصة كليون . ولقد
خدم للحكاكة من أجل تلك الرواية ولم يستطع أن يفلت من العقاب إلا بعد مشقة

كبيرة ، ولكنه خرج من الحافة أشد إقداماً وأجس فقه ، وقدم في سنة ٤٢٥ في م
رواية جديدة هي « الأكاربيين » وهي أقدم رواية وصلت إلينا من رواياته .
وقد مال بها الجائزة الأولى ، وفي تلك الرواية يعرض الشاعر قصة ملاح أبيكي
من الحرب (حرب البليونير) التي كانت طاعة وفنتد بين آثينا وأسبرطة) التي
أكرهته على التحلي عن سفله والاتجاه إلى المدينة ، ومن ثم هو يريد السلام
ولكنه يريد وحده ، ولهذا نراه ينفذ وحده وباسمه الشخص المذنب مع الأعداء
و يصل الجبر إلى الحامين وهم الذين يكونون الجوقة فيسرعون إلى الترحل ليقفوه
كثائن ، ولكن ملاحنا يتدح في أن ينضمهم بجزائها السلم ، وبأنه كان على حق بما
فعل وراء عدته ينم . كل حيرات السلم يشتري ويبيع ويولم ويخزح فيما
الآخرين ينصرون جوعاً وبسفن وبلات الحرب ، وفي سنة ٤٢٤ في م قدم
رواية « العرس » وبها أعنف هجوم على « كليون » حصة اللدود ، مع أن هذا
الزعم الشهير كان عقدت في أوج الجدل بفضل انتشاراته الحربية ، وفي سنة ٤٢٣
قدم رواية « السحاب » وهي من أشهر رواياته ، وفيها يعود إلى مدالثر بية الفلسفية .
وقد احتللت الفلسفة عنده بالسطوة ، ومن غريب الأسر أنه عد سقراط كبر
السوطاثة ، وقصة الرواية تشخص في أن ملاحاً يسقط تشبطاً مقتصداً له
ولد مسرف ما أتى بيده أموال أبيه حتى أثقلت الرجل الديون وبجز من دعوا ،
فأراد أن يتعلم البلاغة معتزلاً عنها التي عكته من السث بدائنه والإملاط
من الفضاة . وقد بلغه أن معلم هذا الفن هو سقراط الذي يمثله الشاعر محنالا
كبيراً . وذهب الملاح إلى سقراط ولكنه كان أصغر عقلاً من أن يحى دروس
الأستاذ ، ولذلك أرسل ابنه بدلا منه ، وتعلم الابن فن البلاغة وحفظه ، ولكنه
بدل أن يستخدمه مع الفضاة والكتابين استخدمه مع أبيه يصريه ويعيث به

و ينفذ ما هو الخطي ، وهذه هي مزيا التربية الجديدة التي تستطيع أن تحمل الحق باطلا والباطل حقا . وهاج الأب الفلاح وعلى دمه تأخذ داراً وأمه إلى بيت سقراط وأشعلها فيه . والسحب في الرواية هي التي تكون الجوف ، وهي مثل الأنقرة التي يهبها العاصف ، وبرغم قوة هذه الرواية لم يبل الشاعر سوا غير المرتبة الثالثة ، ولكنه مع ذلك قد أصاب نجاحاً وانجحاً إذ كانت روايته من الأسباب التي مهدت الرأي العام لقبول الحكم على سقراط بالموت بعد ذلك بخمسة وعشرين عاماً ، ونحن اليوم لانغفك أن نشأ من الدهشة عندما نرى شاعراً كبيراً كأرسطوفان يمثل أبا العاصف في هذه الصورة الطائفة ، وإياه لما بدوء أن يتحمل الشاعر نصيباً في مأساة تلك الروح النبيلة الخالدة وروح سقراط ، وفي سنة ٢٢٠ هـ ندم الشاعر رواية « الزناير » وموضوعها أن رجلاً مسناً نطن من حمله الزناير الذين يمشون رجال الهاكم ولكن ابنه بأحد في علاج داء أبيه ، ومحاولات الان في هذا السبيل هي التي تكون الجزء الأساسي من الرواية ، واتد شق الرجل من دائه منخلص من عموم الهاكم والدعاوى وراق له العيش ، ومن هذه الرواية استوحى الشاعر القرنسي راسين روايته الشهيرة « النقاظون » وهكذا . ولكن ابتداء من سنة ٤١٤ ق . م . تتتابع رواياته التي تمثل مرحلة ثانية في من الشاعر إذ أصبح أقل عذفاً وأكثر بعداً عن الهجاء الشخصي ، من تلك السنة ندم رواية « المصاير » وموضوعها أن رجلين آتبيين قد سئما معاناة العمل من الصداق إلى النساء هجرا القشر ليحبشا مع الطير . وقد اتفق مزاجها ومزاج الطير ، واستطاعا حل الطير على بناء مدينة جديدة معلقة بين السماء والأرض ، وعندما يحاول المدايمون من رجال الأرض أن يشغوا سيولهم إلى تلك المدينة يحال بينهم وبين ذلك بالضرب بالسعى . وأما الآلهة فنبهتاً تحاول السيطرة على تلك المدينة ، وأخيراً

يحقدون صلياً مع أولئك الآلهة ويقتل «ريوس» أن ينخل عن السيرة لأحد الرحيم .

والظاهر أن الشاعر قد قصد بهذا الرواية إلى المرح أكثر مما قصد إلى درس أخلاقي بعبه . وكل ما نستطيع استخلاصه منها هو مهاجته للساسين والمغاليين . ويختم الشاعر هذه الدورة برواية الصفادع وهي من أهم روايات أرسطوفان ، وبها وصف كامل لمن يوريسد الذي كان قد مات فأخذ ديوبسوس القلق إذ لم يعد للزاحديا من يثأر لها صمم على الذهاب إلى العالم الآخر ليعود بأحد شعراء الزاحديا : ولمسكن بمن يعود ؟ هنا موضع الحيرة فالإله يتردد بين أسكليوس ويوريسد وأخيراً يقرر تنظيم مسابقة بين الشاعر بن الهذين بأحدان في مهاجمة أحدهما الآخر ، وبذلك ينتد كل منهما شمر صاحبه نقداً دقيقاً معصلاً من التلاعبين الأخلاقية والشعرية ، وينتهي الأمر بأن يظهر يوريسد في مظهر السومطاني الذي أمسد للزاحديا وحط من الكتل العليا وأنزل الاضطراب للعوس وساق إلى انحلال الأخلاق ، وبذلك يعصل ديوبسوس أسكليوس وعوده إلى الأرض .

في سنة ٤٠٤ ق . م كانت المزمجة قد حثت بآثينا عدلت لاسيرة بما تريد مع الحزن القديمة ولم يعد للمرح مكان ، وهنا ترى أرسطوفان يجد من مراحه وبكم من محكماته وقد تطور فنه فاشق الحالة الجديدة ولكنه لم يعد في فبه الأولى . وأقدم رواية سد سنة للمزمجة هي « جماعة النساء » التي قدمها سنة ٣٩٢ ق . م . وبها يمرض نساء آثينا وقد تزن مسيطرن على مجلس الشعب وقررن الأخذ بالاشتراكية للطفة فلا مالكية ولا أسرة ، والذي يريده الشاعر هو إظهار نتائج اشتراكية كهذه ، فلا ترى في الرواية نقداً قديماً للأسرة أو لها .

لأشخاص ، وإنما يريد الشاعر أن يهيج شدة لا وجود له . « إنما هو مجرد مرض وشيخ فكرة » إذ ليس من الثابت تاريخياً أنه قد هجم بذلك الفكرة التي يقول بها أفلاطون بما بعد ، ونحن لا نعلم تلك الفكرة وجوداً تاريخياً في ذلك الحين . وفي روايته الأخيرة للمساء « بلونس »^(١) أي إلى الذهب نجد نفس للنهي . وموصوعها أن أحد رجال آتبنا قد عثر بإله الذهب الأسمى وذهب إلى « ديد اسكليپوس »^(٢) إله الطب حيث شفى الإله . وذهب الرجل إلى معرله . وبذلك أرى هو وجبراه وعهم البديع . ولكن لغة العثر لم تأت أن صغرت أمدافع عن مرلها ، ولعل في ظهور تلك الإلهة ما يشير إلى مغزى الرواية فاصل الثراء لبس الذهب وإنما هو عمل الإنسان ، فهو أن الأرض ما تلت ذهباً وجلس الناس بحوارده لما ترا جوعاً وهم لن يأكلوا الذهب . وقد كانت هذه الرواية بما يظهر آخر رواية فدها أرسنوفان الذي يحكي أحد القدماء أن أفلاطون قد كتب على قبره « إن ربات الحجال عندما يحزن عن معبد لا يدينه المشاء . فمجن حوراً من روح أرسنوفان فأوبن إليها » . وفي الحق أن أرسنوفان لم يكن شاعراً كبيراً عسب بل كان قوة اجتماعية لها خطرها . ولقد رأيتاه يفتاؤل للشا كل الكبيرة في عصره يدل بها آراء لا فف صحتها عند عصره بل فسرى إلى كامة المصور ، فتصبل السلم على الحرب ، ومهاجمة السطة السياسية . وهذه الاشرا كبة وتخرج النهرج الذي يستخدمه الزعماء الشعبيون ، كل هذه مشا كل إنسانية خالدة وأرسنوفان بوجه عام رجل محاض ، وفي المحاضرة التي لا ضلع التحجر خير لا شك فيه ، وذلك لما هو معروف من أن الحياة الاجتماعية لا يمكن أن تتأكل إذا تفككت التفاليد الفديفة .

الكوميديا المتوسطة والكوميديا الحديثة :

نجد رأينا في الكوميديا القديمة آثار التطور الرومانتيك أرسنوفان التي كتبها بين ٤٢٦ و ٤٢٩ تتأثر تلك التي كتبها بين ٤١٩ و ٤٠٤ إذ حمت حدة الشاعر وهدأت مباحته للأشخاص بوعا ما ، وأخيراً جاءت روايتاه الأخيروتان (مجمع التمس) و(بلوتس) من منحنى حديد ، هم لاجلهم مهمما نظماً قائمة بل ينصور مجرد نصوص كعرض الاشرافية وعرض الثراء العام وبعث ما يفتح عن ذلك من مث كل ، وهذه هي خصائص الكوميديا المتوسطة التي يعبر عنها روايتي أرسنوفان بدءاً من .

ولمّا أننا أضفنا إلى ذلك احتلافاً منياً في بناء الكوميديا المتوسطة — هو حلولها من الجوفية ومن الألفاظ — لكل له نمر بف الكوميديا المتوسطة ، وهي رواية تعالج مسائل فرضية ينصور الشاعر حدودها ثم يعالج نتائجها كشكل النقي والفر والتقابل والعبور ، وهي قد استعدهم لذلك الأساطير ترمز بها لما تريد كما نجد في صور الخيال المواقف والأوضاع .

ونحن لسوء الحظ لا نملك شيئاً من تلك الروايات وإن كنا نعرف أسماء بعض الشعراء المؤلفين مثل أنثيغانس الذي كتب بها بقولون ما يقرب من ٣٠٠ رواية أو يزيد ، والذي نروج بالنصر ثلاث عشرة مرة ، ثم الكسبس^(١) الذي كتب ٢٢٥ رواية وغيرهما كثير .

تطورت الكوميديا إذن من معالجة المسائل الواقعية إلى معالجة الفاروض ، وبذلك انتقلنا من الكوميديا القديمة إلى الكوميديا المتوسطة ، ولكن

النظور لم يغب عند هذا الحد ، ولم نلبث الكوميديا المتوسطة أن أسلمت مكانها
للكوميديا الحديثة وهي الكوميديا الأخلاقية التندسية التي تعف الحياة كما
هي ، وتصور الحالات الأخلاقية .

وإن كان هناك فرق في معالجة ما يسمى بالكوميديا المتوسطة وما يسمى
بالكوميديا الحديثة لتلك الموضوعات فإنه يقوم كذلك في جودة العلاج بالكوميديا
الحديثة هي التي وصلت تلك الشخصيات إلى حد الصور الأخلاقية ، وإلى في
تصل إلى مستوى كاتب كير كولبير في القرن السابع عشر . وذلك لأن هذا
الشاعر الفرنسي الكبير لم يصور شخصيات واقعية ، بل صور شخصيات
نموذجية ، صور السخيل والفاق وكاره البشر الخ على نحو يجعل الرجل السخيل
يعترف صفاته المسترفة في نفسه على ضوء الصورة التي رسمها موليير « لمار بون »
مثلا . وهذه مرحلة لم يصل إليها الإغريق قط . لقد صور الإغريق الواقع
بالكهم لم يستطيعوا أن يصلوا إلى الواقع التندسي الدمين ولا أن يصنعوا
حدايا النلوب .

ثم إن الكوميديا الحديثة قد امتلأت موضوعا لا يحدله أثر في الكوميديا
القديمة ، وهو موضوع الحب . شاب يحب شابة يجهل كل شيء عنها ، ويقوم عدة
صعوبات في حيله ، كأصل الفتاة أو قهرها أو إرادة أبيها ، والمكن الذي يستخدم
عبدا ما كرا في تفاصيل الصعوبات ، ويتناول الشاب السجاح والإحسان ، والأمل
والياس ، وأخيرا يكتشف أن الفتاة من أصل حر أو أنها قد ورنمت أو ينهر الأب
رأيه لسبب من الأسباب وينتهي الأمر بالزواج ، وفي مثل هذه الموضوعات ترى
الروح الأبيقورية التي كانت منتشرة عتقت نفوذ المسرح ، وهي واضحة لا في
الناحية الخلقية أو العقابية بحسب بل وفي الناحية الفنية ، ناحية الحكمة المسرحية

فكثير من الروايات تنتهي بفضل المصادفة البحتة كتمسك شخص خفيف آخر أو حدوث أمر غير متوقع ، والأببغورون — كما نعلم — قد تأثروا بالمصادفة نتيجة للإسكارم وجوده إلى يحكم سير العالم ، ومع ذلك فلا يجوز أن نتوهم أن المسرح قد أخذ يطبق الأببغورية كذهب شامل .

أقد كانت الكوميديا القديمة مثلها العليا : الشرف في السياسة والبساطة في المثلق منفذها إذن كان غداً ملياً غوا . وأما الكوميديا الحديثة فأصبحت لآسهم بالتفند قدر اهتمامها بآثاره الضحك ، بفعل إظهارها ما في البشر من مواضع ضئف ومضحكات وشهوات لا يحكم قيادها .

وأكبر ممثل لذلك الكوميديا الحديثة هو « مناندر »^(١) الذي فله بها بعد كبار مؤلفي الكوميديا من اللاتين كثير انتبس^(٢) وبلونس^(٣) بل إن بعض رواياتهما لبست إلا ترجمة عن الشاعر الإغريقي .

ولد مناندر ما آتبنا سنة ٣٤٠ ق م ودرس بنوع خاص يوريبس ونعرف بها بلونون بأببغور ، وقدم أول روايته له سنة ٣٣٢ أى بعد موت الإسكندر بعامين ، والظاهر أن الحوادث المؤلفة التي اجناحت بلاد الإغريق في ذلك الحين لم تؤثر كثيراً في شاعرنا الأبيغوري المشتهر ، إذ أولع بأحدى الفتيات وعاش معها في يبره ميناء آتبنا ، وعبثاً حاول بطليموس سونيير أن ينز به بالخي إلى مصر . ولقد حمل كل هم كتابة الكوميديات حتى أنهم ليهولون إنه قد كتب مائة كوميديا خلال ثلاثين عاماً وكانت وفاته سنة ٢٩٢ ق م بعد أن نال الجائزة في ثمان مسابقات .

ولقد كنا لا نملك مما كتب مناندر إلا فقرات ضئيلة ولكها غنية

بجانبها حتى كانت سنة ١٩٠٧ ما اكتشفت بمصر أوراق ردى سالم أحرأ حولة
من ست روايات لذلك الشاعر العظيم وهي الخارث ، النملق ، البطل ، التحكم ،
السامية (نسبة إلى ساموس) ، المرأة القصوفة الشعر .

وأطول قطعة وصلتنا نسلخ حسنة بيت وهي من رواية « التحكم » وهي
تمكنا من استقراء حصائص الشاعر ومواقع فوه ، من غريزة غشائية فوه ، إلى
مقدرة على وصف الحالات الأخلاقية ، إلى تلك الوسائل الإنارة العاطفية ، بمجدة
مع الهارة في تحريك الصلح ، وأحيراً نلح في تلك القطعة انجاءه نحو المزج
بين معارك الشهوات ومبادئ الأخلاق وإضاءة أحدها الآخر .

ونمة خاصة أخرى امتدحها جميع النقاد القدماء عند هذا الشاعر وهي غوفه
في القصص وفي حطط الدفاع ، ولدينا أصل من أصول « التحكم » يؤيد ما ذهب
إليه هؤلاء النقاد ، وهو يمرض عيدين أحدهما راع والآخر لحام ، بمشكنا إلى حكم
وذلك أن الراعي كان قد مثر بطل أعطاه للحمام ، ولكنه احتفظ بها كان على
الطفل من حلى دلبلا على أنه هو الذي عثر على الطفل وأعطاه للحمام ، وبأى
الحمام إلا أن يطالب بالحل وأحيراً بمشكنا إلى حكم كافلنا ، و يمرض كل
منها وجهة نظره ويدافع عنها دفاعاً فوياً ، وموضع قدرة الشاعر في حدين الدفاعين
هو في السكبفة التي استطاع بها أن يظهر ما على خلق كل من الرجلين بنوع
دفاعه وطبيعة الحجاج التي بدلى بها . وما غننى من فراءة الدفاعين حتى نلح
أننا أمام رجلين من أبناء الشعب وأن لكل من الرجلين صفاته ، فالحمام رجل
أثري ، به جشع مادي ولكنه محلى مؤمن بحقه ، والراعي رجل كريم حيالى مثالى
في سداجة ، وما نلح أن تلك القدرة العجيبة على تصوير الشخصيات مخطب
بنولونها قد استطاعها عدد كبير من شعراء الإنسانية وكثافتها .

هذه هي التخطيطات العامة للكوميديا الإعرابية ، تخص منها بأن هذا الفن قد نشأ كما نشأت كافة الفنون الأدبية عند الإعراب نشأة شعبية ، حتى إذا نوزع عليه الشعراء أصبح فناً أدبياً ، ولقد كان في أول أمره محتاطاً بالأساطير والمعادن ، ولكنه لم يلبث أن تخلص منها ليصبح فنّاً سياسياً وشخصياً ، فنّاً يعتمد منه إلى مهاجمة الواقع وتغييره والدعوة إلى ما يحمله ، وهذه هي الكوميديا القديمة ، وإتراح الزمن ونزول الحالة السياسية والعقلية في أمثنا بسبب المزيحة التي لحقت بتلك المذهب العرفية في حرب بابلونيزيا ثم سقوطها في يد الفدوينيين ، تغير معنى الكوميديا ، ولعله قد حدث من حريقها فلم تعد تنقد الواقع وترصد تفهيمه ، ولم تعد تهجم الشخصيات البارزة وتعمل على هدمها ؛ بل أصبحت تكتفي بنصير ذلك الواقع كما هو ، وقد حدثت عن التجريح إلى تصوير حالات خفية أو شخصيات روائية ، وهذه هي الكوميديا الحديثة التي لم تكن الكوميديا للتوسعة إلا تمهيداً لها ، وكانت الروح الفلسفية قد أخذت تدهو أياها للكوميديا الحديثة ، ولهذا جاءت ملاحظات كتابها العسية أغد وأحق ، وإن تكن روح الصديق المصراع قد صفت كما ضمنت جرأة الشعراء وفوة عومهم وحرصهم على حبر مدبقتهم ، ومن العلوم أن الكوميديا من بين فنون الأدب من يمكن أن يوضع في خدمة الحياة الأخلاقية والاجتماعية للدولة دون أن يفقد شيئاً من قيمته .

كانت الكوميديا القديمة إذن فنّاً سياسياً شخصياً ، وأصبحت الكوميديا الحديثة روايات أخلاقية ونقبت مرحلة أجيال لم يصل إليها الإعراب ولا اللاتين هي مرحلة الكوميديا ذات الشخصيات النموذجية ، وهذه كما أثرنا من قبل هي المرحلة التي خلفها مولير أكبر شعراء فرنسا بل أكبر شعراء الكوميديا في العالم .

النثر عند اليونان

(١) التاريخ والمؤرخون

نشأ النثر : لم يظهر النثر العنى عند اليونان إلا متأخراً ، وبعد أن ظهر الشعر بقرون ؛ طبع لدينا منه — سواء ، فى الفلسفة أم فى التاريخ — تصوص أقدم من القرن السادس قبل الميلاد . أما الشعر فقد سبق أن قلنا بأن الإلياذة والأوديسة يرجعان إلى القرن العاشر قبل الميلاد تقريباً .

ولقد حاول المؤرخون تعليل تلك الظاهرة ، فراحها بعضهم إلى الجهل بالكتابة وعدم وجود البردى ، ومن المعلوم أن وزن الشعر يساعد على روايته الشعبية ، كما يمحط تلك الرواية من الاضطراب ؛ وأما الثرقلبس من السهل حفظه . ولكن هذا التعليل قد ثبت عدم صحته ، فالإغريق كانوا يعرفون الكتابة قبل ذلك زمن طويل ، والدليل على هذا يمكن استنتاجه من طبيعة الكتابة الإغريقية ذاتها ، وهى مأخوذة عن الكتابة المينائية ، وقد كانت العلاقات قائمة بين الإغريق والفينيقيين منذ أقدم الأزمنة ، ثم إن هناك مصوراً قديمة مربعة كتبت على بعض الآثار . وأما عن البردى فحين نعلم أن الإغريق كانوا يكتبون على الجلود قبل أن يعرفوا البردى ، ويدل ذلك حديثنا بهرودوت .

وإذن هذا التعليل غير صحيح ، وسبيل مهمنا لتلك الظاهرة هو أن نلظر فى طبيعة الشعر وطبيعة النثر وفى موضوعاتهما ؛ ففى أن أقدم الشعر كان قصيداً حماسياً ، لماس بصيد يتخذ شكل التاريخ وهو باب الأساطير أدخل ،

ولكن الإغريق آمنوا بأنه تاريخ ، وكانت النفوس ساذجة لم تستيقظ بها بعدُ من تلك التفكير أو النقد ، ومن ثم قامت لللاحم مقام التاريخ ، والشعر أنسب شئ لهذه الأساطير وهذه اللاحم التي يسودها الخيال . ولم يشعر أحد بحاجة إلى كتابة التاريخ الدقيق ثراً . وأما الفلسفة فن الرصاص أن نشأتها لم تكن منتظرة قبل القرن السادس ، وهي دليل نضوج عقل وعنتع لعهم صفائق الوجود .

ولقد كانت نشأة الشعر بأيونيا في آسيا الصغرى ، حيث كانت نشأة الشعر أيضاً ، وذلك لأن تلك البلاد — لاتصلها بالحصارات الشرقية القديمة ولتوفر أسباب الحصار للعادة بها — كانت أمهق من بلاد الإغريق الأوروية في كابة مظاهر النشاط العقل ؛ صبحا ظهرت الفلسفة ومها ظهر التاريخ ، وهذان هما المظهران الأولان للنثر .

وكان بعد ذلك أن استولى الفرس على كثير من بلاد الإغريق بآسيا الصغرى فحب انجذبتهم إغريق أوروبا ، وكان لأثينا في ذلك الفصل الأول ، ما صبحت تلك المدينة المحيدة أفقرى مدن اليونان وأنشأها وأشدّها سوءاً وأودعها حرية ، وإذا ما نثر يزدهر بها بعد أن لزدهر الأدب التمثيل ، وإذا ما لاثنين بكتسون في الفلسفة والتاريخ وبصيفون إليها الخطأية ، ومن ذلك الحين لم يكتب أثر فط في غير اللغة الأنيكية — لغة مقاطعة أثينا — ولقد استطاعت أثينا — مدينة وكلبس — أن تجمع كل ألوان الأدب والتفكير لأنها أصبحت زعيمة العالم الإغريق كله ما يقرب من نصف قرن ، وذلك في اللغة التي تقع بين الحروب الميدية وحروب البيلوبونيزيا خلال القرن الخامس قبل الميلاد .

نشأ النثر إذن بأيونيا في القرن السادس قبل الميلاد ، وبقصرها على

الحديث عن النسر التاريخي ؛ فنلاحظ أنه في أول الأمر كان يتناول نفس الموضوعات التي تناولها الشعر القصصي ، وأنه لا يكاد يفرق بينه وبين ذلك الشعر مثق . غير الوزن ، فهو قصصي ثرى ، بل إن لغته ذاتها لم تختلف من تأثر بلغة الشعر .

اندرس المؤرخين في أيرنيا جماعة من الكتاب يسدون اللوحوجراف^(١) أى الكتاب النأرين ، معارضة لليثوجراف^(٢) أى الشعراء من فصاع الأساطير ؛ وكان هؤلاء النأرون يتحدثون عن نشأة المدن القديمة وفاريخ بنائها وعن الأحداث الذين فيها والآلهة التي هيمنت على مصائرها ، وعن المعارك الخارفة التي كسها أبطالها . كانوا مألوفة بكثون شراً عن موضوعات تشبه موضوعات الشعر القصصي . ولقد كان في كتابات هؤلاء النأرين ما مهد السبل لظهور المؤرخين ، فكثباتهم وسط بين الشعر القصصي وكتب التاريخ التي هي من كتاب هيرودوت أقدم نموذج لها .

هيرودوت :

ولد هيرودوت — أقدم مؤرخ الإغريق في آسيا الصغرى — بمدينة هليكرناسوس سنة ٤٨٠ ق . م ، وكانت تلك المدينة الدورية الأصل قد اضططعت في ذلك الحين بالحصار الأيوني اضطباء ناعاً ، فأصبحت لغتها الآتية الأيونية . ولد هيرودوت من أسرة عريقة ، كان من بين أفرادها من أولعوا بالنواريخ القديمة وبفراء الشعراء واحترام التغاليد الدينية ؛ وكانت هليكرناسوس —

Logographes (١)

Mythographes (٢)

مسقط رأسه — ودونست في قصة القوس الذين لم يكن سكان المدينة عن
مذاهبهم ، ولكن مؤرخنا من أنصار الحزب القوي الذي لم يلبث وثبه —
وهو أحد أقرباء هيرودوت — أن قتل ، منى هيرودوت إلى جزيرة ساموس
لعدة فميرة ، ثم عاد إلى وطنه ؛ ولكنه لم يكدر يستتر حتى نفى مرة ثانية سنة
٢٥٤ ق . م ، فقام عندئذ بسياحاته الطويلة التي زار فيها مصر وجاها حتى
مبد القبل ، كما زار القوس وأوغل منها حتى وصل إلى ما بعد سوس ، وفي
الشمال سافر حتى وصل إلى البرسور مما يحدث هو عن نفسه ، ونصيف إلى
ذلك أنه قد زار أبصاً آشور وفينيقيا وطبرق وغيره ، وأنه قد استقر في
آخر حياته بمينوب إيطاليا في مدينة نورجم^(١) الإخريفية حيث مات بها بجمع
سنة ٤٢٥ ق . م .

وأما أثينا عند زيارها بلاريب غير مرة ، وأقام بها إقامات طويلة ، ولم
يحدثونا أنه قد فرأ في سنة ٤٤٦ ق . م جزءاً من كتابه في الساحة العامة بتلك
المدينة فنال إجاب الساميين ، وكأمانه للمدينة مكافأة مالية كبيرة ، وفي سنة ٤٤٠
ق . م حياء الشاعر سوفوكليس نحيسة شعرية جميلة عند عودته إلى مدينة
ركليس .

لقد كتب هيرودوت كتابه عن الحروب المبدية^(٢) ، وهي الحروب التي
نشبت بين القوس والإغريق من سنة ٤٩٢ ق . م إلى سنة ٤٤٩ ق . م ، ولهذا
سمى كتابه « عرض للبحث »^(٣) أي بحثه عن نشأة تلك الحروب وأسبابها

(١) Thurium (٢) سميت المدينة نسبة إلى الديدان ، وهي القوس القديمة .

(٣) كلمة Historia في اللغة اللاتينية معناها البحث ، ولذا أفادت هي التاريخ
متوا كتاب هيرودوت الذي كان أول كتاب من نوعه ، فأصبح كل من يكتب في التاريخ
بسي كتابه Historia ، وبذلك أفادت الكلمة هي التاريخ .

ووقاتها ونتائجها ، وذلك بما يقول : « لكي لا نغى ذكرى وقائع الماضي غنى الزمن ، ولكي نظل أعمال البطولة التي قام بها الإغريق والبرابرة عنوان الجدة ، وأخيراً لكي يعلم اللاحقون لماذا قامت تلك الحرب » ؛ ولكنه في الحقيقة لم يقتصر في كتابه على ذلك الحرب ، بل تناول الحديث عن الدول التي اشتركت في تلك الحروب حديثاً معاصراً استلزمه إلى ذكر ماضيها وحاضرها وأحلافها ، كما وصف بلادها أو البلاد التي انصلت بها تاريخياً عن طريق الحامية أو العزوة ؛ فهو في الواقع لم يتحدث عن الحروب البديهة إلا في النصف الأخير من كتابه ، وأما النصف الأول فقد كشفه عن الإمبراطورية الميوسينية وفضل كتابتها ، بما فيها مصر .

كتاب هيرودوت مقسم إلى تسعة كتب ، كل كتاب منها يحمل اسم إحدى ربان الوحي التسع^(١) ، وإليك ملخصاً لموضوع كل كتاب : (١) الكتاب الأول يحمل اسم كليو^(٢) ربة التاريخ ، وهو يتحدث المؤلف عن نشأة الإمبراطورية الفارسية وتاريخ نبرها ، وعن أخلاق وعادات الليديين والفرسي (٢) الكتاب الثاني يحمل اسم إيريه^(٣) ربة الموسيقى ، وهو تاريخ قبر (من ٥٢٩ — ٥٢٢ ق.م) وحملته على مصر ثم وصف مسهب لمصر (٣) الكتاب الثالث يحمل اسم نالبا^(٤) ربة السكوميديا ، وهي أحياء اسفيليا ، قبر على مصر ونهاية حكمه وإصابته بالجذون ، ثم حكم دارا^(٥) (٥٢١ ق.م — ٤٨٥ ق.م) وتنظيمه للإمبراطورية في عشرين مقاطعة (٤) الكتاب الرابع باسم ملبومينا^(٦) ربة الفزاجيديا ، وهو حديث الحلقة التي قام بها دارا على بلاد السكيت^(٦) ومثل تلك الحلقة مثلاً

فربما ، ثم وصف تلك البلاد الواقعة على البحر الأسود في شمال الدناوب ووصفه لأحلاق أهلها (٥) الكتاب الخامس باسم تريسيكور^(١) رة الرنص ، ومنه بدأ المؤلف حديثه عن الحروب ليخبره ميفص أنها ثورة أبونيا على القرس واسنيلا . هؤلاء على مدينة سرد^(٢) (٦) الكتاب السادس باسم كرانو^(٣) رة الشعر الغنائى ، و نه أحبلر الحرب الميدية الأولى أى حملة دلرا على بلاد الإغريق بأوروبا وانتهائها بمركة مرتون الحالية في تاريخ اليونان (٤٩٠ ق . م) (٧) الكتاب السابع باسم بولنيا^(٤) رة الأماشيد المتعددة الاحصاص ، ومنه حديث الحرب الميدية الثانية — إعداد إكسربس للحملة ومنه الحرب حتى مركة القرموبولى (٤٨٠ ق . م) — (٨) الكتاب الثامن باسم أورانيا^(٥) رة القلق ، ومنه بقية الحرب الميدية الثانية حتى مركة سلامين البحرية (٤٨٠ ق . م) (٩) الكتاب التاسع باسم كلبويه^(٦) رة الشعر الحامى والخطاة ، ومنه المراحل الأخيرة للحرب الميدية الثانية حتى معارك « بالاتب » « وميكال » واسنيلا ، الأثينيين على مدينة سستوس^(٧) سنة ٤٧٩ ق . م .

ومن ذلك نرى أن الكتب الخمسة الأولى تتحدث عن إمبراطورية القرس ، وأن الأربعة الأخيرة هى التى تقص أساء الحروب الميدية .

وأما تقسيم الكتاب على هذا النحو وتسميته بهذه الأسماء فلستنا نعرف على وجه التحقيق سببه ، وإن يكن التقدما قد أحجروا بأن الإغريق جميعاً قد انغمروا على تسمية كل جزء باسم رة من ربات الفرجى بعد قراءة تامة للكتاب فى

Sardes (٢)

Polymeria (٤)

Calbopa (٦)

Terpsichora (١)

Craio (٣)

Urania (٥)

Sestos (٧)

أوطيتها أثناء انعقاد مسابقاتها الرياضية الشهيرة ، ولكن فوه. هذا أشبه ما يكون بالأسطورة ، وربما يكون هذا التفسير من عمل علماء الإسكندرية .

ولقد تناقش العلماء المحدثون مناقشات كثيرة في قبعة هذا الكتاب وفي وجدته وفي تاريخه وألقب أعرانه المختلفة ، وبحشوا في هل هو نام أم ناهض إلى غير ذلك من الأبحاث التي لا تزال مستمرة . والسكندرية الكني بأن تقول إن الكتاب كما هو الآن يكون وحدة متسلسلة متجانسة ؟ ولما قيمته التاريخية ليست سواء في كل أجزائه ، فالكتاب الحقة الأولى ليست في قيمته الأثرية الأخيرة ، وهذا أمر من السهل تحليله ، فالقوافل عندما يتحدث من تاريخ العرس القديم ومن مصر أو بلاد السكيت لا تكن لمعلوماته ولا لصادره من البنين ما كان لحديثه عن الحروب الميدي التي عاصرها وجمع عنها وفي ثمودها ، ومع ذلك لحق النصف الصغير من كتابه لا تزال حتى اليوم نسق منه أقدم المعلومات قاربها بل نتائج الأبحاث الأثرية مهندي إلى الكثير من الحقائق التاريخية الهائلة .

ثم إن المؤلف كان يمتنع بالكثير من الصفات التي تعللها في المؤرخين المحدثين ، فهو بعيد عن التعديب حتى لغراء يعترف للفرس بمزاياهم كما يعترف للإغريق سواء بسواء ، وهو وإن كان قد أخطأ في بعض التفاصيل فإنه كل تلك القدرة على إدراك الكليات وعرضها عرضاً شاملاً ، ثم إنه قد حرص على جمع أكبر كمية ممكنة من المعلومات التي أخذها عن السنة الرجال أو عن مشاهداته أثناء سياحاته المختلفة ، وأخيراً عن النصوص المكتوبة كسجلات التبرعات التي وردها بنصها ، وعن كتابات الوجود جراف الذين أشرنا إليهم فيما سبق .

وأما مواضع ضعفه فهي سذاجته التي حملته على الإتيان بكثير من الخرافات

تم في عدم دقته ، كما ملاحظ ذلك في وضعه للمبارك وفي النقص الواضح في نفيته من المعلومات التي تروى له .

وأعظم عيب يؤخذ على كتابه هو عدم غافله إلى معنى الحوادث التاريخية وأسبابها وعدم نمعته في فهم النفس البشرية ودوافعها ، ولهذا قلنا نعتز عنده على تحليل دقيق لمغلبة القادة والزعماء ، وهو في هذا بغير « نيوسبيد » كل المفاخرة . وإذا كانت ليهودوت فكرة جامعة عن سير التاريخ فهي سيطرة النصا على حياة البشر وغيره الآلهة من صلف الإنسان ، فكيف من مرة بفهم لبعثنا عما أزمات الآلهة بهذا الرجل أو ذاك من عذاب عندما أخذته الشرور ونطاول إلى حيث لا ينهي له .

هذا عن قيمة الكتاب التاريخية . وأما قيمته الأدبية فالإجماع منصف على توترها ، وإنك لتقرأ كتابه فلا بأخذك مثل أو تصور قط ، وذلك لأن هيرودوت يطلعت أحيانا على ساذجة ساحرة بالهو بها العقل يمسك عن أعمال البعد ، ويطلعت أحيانا أخرى على قوة في التصوير والتقصص ، فإذا بك كأنك تلمحصر الحركة الحامية فتنبغل وتستثار ، وهو يمر بك طورا بعد طور من القصص إلى الحوار إلى الخطاب في أسلوب سهل واضح قريب .

نيوسبيد :

ولد نيوسبيد سنة ٤٦٩ ق م أي بعد هيرودوت بشرين عاما فقط ، ومع ذلك بفضل إلبا عندما قرأ كتابه وبقارنه بكتاب هيرودوت أن بينهما فروقا طويلا .

اغد رأينا المؤرخ الأيوبي بقصد إلى تعجيد أعمال البطولة وتخليد ذكراها

وأما ثيوستيدس مبطل فيقول كتابه أنه لا يريد أن يبرر الناس بروائع النصص وإنما يريد أن يصل إلى الحقيقة العارية وأن يبررها في خبر تيجر . يقول : إنه يود أن يترك للإنسانية « شرعة أبدية » ، ولهذا يرغب أن يأخذ معلوماته من كل طائفة ، ويحرص على التفتت أدق حرص ، ومن ثم جاء كتابه أقرب ما يكون إلى كتب المؤرخين المحدثين من حيث تحرير الحقائق التاريخية ، وقد استطاع ذلك المؤرخ العظيم ما لم يستطع إلا القليل من كبار الكتاب في تاريخ الإنسانية كلها : استطاع أن يشق الحجب عن النفوس وأن يستخرج دواصفها الخفية ؛ وكتابه من هذه الناحية لا يعتبر كتاب تاريخ لحسب ، بل كتاباً إنسانياً يجد فيه المفكرون وعادة الشعوب بل والفلاسفة كثيراً من الحقائق الخالدة التي لا تزال حتى اليوم تبحث عنها زوايا النفوس أو تنلسها في مصون الحوادث سياسية كانت أو أخلاقية أو إنسانية .

ولد ثيوستيدس في إحدى ضواحي أثينا من أسرة غنيمة ثرية ، وهم يمدوننا أنه قد استمع وهو طفل ليهودوت يقرأ جزءاً من تلميذه فضاقت دموعه إعجاباً . وأن يهودوت قد دعا أباه بأن لا ولما مولوا بالمعرفة ذلك الولع للنوى . والدعاء برجعهم أنه قد نلتذ للوسطاني أثنفون^(١) معلم الخطابة الشهير ، كما نلتذ للفيلسوف أنكساغوراس الذي صممه مفاصروه في شيء من السخرية « بالروح » . والذي لاشك فيه أن أثر الوسطانية في ثيوستيدس واضح ، ونحن لا نشك بذلك إلى أقصى الرذول من الوسطانية وهو التصدرة على قلب الحق باطلاً وإنما قصد إلى مقدرتهم القوية على الحاجة والنصرف في مفردات التفكير والإيمان في إدراك الفارقات الدقيقة ، وكذلك الأمر في تأثره بأنكساغوراس

ثيوسديد بكاد يكون دكا، خالصا، وإليك لتقرأ كتابه ملائم باحساس مؤلفه
الخاص بسر عن وجهه وإنما هو كما قلنا دكا. خالص يجمع الواقع وبهرتها
ويستخرج دلالاتها مما يشبه البرود التام، فإذا انقضت — وأنت لابد منفصل —
جاء ذلك من من ثيوسديد الرائع في ترتيب القصص أو سباقها انقلب على نحو
بحرك الفأري، وجرى مشاعره.

كتاب ثيوسديد عنوانه « حرب البليرونيزيا » وهي تلك الحرب التي قامت
بين أثينا واسبرطة وحلفاء كل منهما بعد انتهاء الحرب الديدية بما يقرب من نصف
قرن، وسبب فهاها كانت الفيرة التي استقرتها اسبرطة وغيرها من مدن اليونان
نحو أثينا التي تمكنت بعمل جهودها الرامية في الحرب ضد الهرس من أن تترجم
مدن اليونان كافة وأن تصرب عليها نودها. ولقد دامت تلك الحرب للدمرة
ما يقرب من ست وعشرين عاما (من ٤٣١ إلى ٤٠٤ ق م) وانتهت بهزيمة
أثينا، بل بنحطهم بلاد اليونان كلها مما مهد السبيل إلى استيلاء المقدونيين في القرن
الثاني على مدن اليونان كافة والفضاء على ما كان لها من حرية ومجد.

والظاهر أن ثيوسديد قد أخذ منذ بدء تلك الحرب في جمع الوثائق
واللحومات، ونحن نعلم أنه قد عين (قائدا) في سنة ٤٢٤ ق م وكلف أن
يحمي اللطامنة الساحلية المجاورة لمدينة امفيبوليس^(١) في تراقيا، ولكنه
أسوء الحظ لم يستطع أن يمنع الاسبرطيين من الاستيلاء على تلك المدينة الهامة،
فانهم بالثغابة وحكم عليه بالنفي، عاش عشرين عاما في تراقيا حيث كانت له مناجم
معدنية يستغلها، وفي تراقيا أخذ يعد كتابه؛ ولقد قام بعده رحلات وصل بها إلى
إيطاليا وصقلية ليجمع الوثائق وليتحرى للحومات. وفي سنة ٤٠٤ ق م استندى

العودة إلى وطنه ضد حيث كتب جزءاً من كتابه ، ومات فيها بين سنة ١٠٠٠
وسنة ٣٩٥ ق م دون أن ينتهي من كتابة تاريخ تلك الحرب ، إذ بنف مؤلفه
عند حوادث سنة ٤١١ ق م .

كتاب ثيوسديد بنقسم إلى ثمانية كتب ، ولكن هذا التقسيم لا يرجع إلى
المؤلف نفسه ، ولقد قسمه القدماء أحياناً إلى ثمانية كتب وأحياناً إلى تسعة وأحياناً
إلى ثلاثة عشر ، وإن يكن التقسيم للمستقر اليوم هو التقسيم الثماني .

وبالنظر في الكتاب يبدو لنا أن مؤلفه كان قد قسمه إلى قسمين :

(١) القسم الأول : من الكتاب الأول إلى الفصل الخامس والعشرين من
الكتاب الخامس ، وبه مقدمة الكتاب ثم أخبار الحرب حتى معاهدة نيكياس
سنة ٤٢١ ق م . (٢) القسم الثاني : يبدأ من الفصل السادس والعشرين من
الكتاب الخامس ويستمر إلى آخر الكتاب الثامن ، وبه مقدمة أخرى ثم
حوادث الحرب من معاهدة نيكياس حتى آخر سنة ٤١١ ق م . وهناك أدلة
كثيرة ترجع أن الجزء الأول كان قد نشر منفرداً .

وخطة ثيوسديد في تأليف كتابه هي متابعة الزمن ، وهو ينقسم كل عام إلى
صيف وشتاء ، ويتتبع الحوادث تتبعاً تاريخياً حتى يشبه كتابه اليوميات ، وهو
في هذا يغاير المؤرخين المحدثين الذين يقسمون كتبهم إلى موضوعات فيعالجون كل
موضوع في فصل خاص ! ومن مجموع تلك الفصول نخرج بفكرة جامعة عن
المصر الذي يتحدثون عنه من نواحيه المختلفة : السياسية والحربية والاجتماعية
والثقافية . وإنما أمل على ثيوسديد خطته طبيعة الموضوع الذي كتب فيه ، فهو
يريد أن يبين بعض أنباء حرب البليوبونيزيا كما نص هيرودوت من قبل أخبار
الحروب الميديدية .

وليس معنى هذا أن ثيوسديد لم يحدثنا إلا عن العارك التي حدثت ، فكتابه أعرق وأهم بكثير مما يدل عليه عنوانه ، وما يدل عليه خطته ، ولعل مصدر غناه يأتيه من أنه ليس قصصاً غلب بل فصصاً وخطباً ؛ ففي الكتاب ما يفرح من أربعين حكمة طويلة تمتد من أتمن ما خلقت الميمنية اليونانية ، وهذه الخطب ينسبها المؤلف إلى القادة والزعماء ، وهو يخبرنا أنها لم تقل بجرها ، وذلك لأنه قد حاول أن يوردها غفلا عن سمعها ، ومن الواضح أنه ليس من السهل أن تروى حطب الغير غفلا عن سماعها ، ولهذا لم يكن يدلف المؤلف من أن يستعين بما روى له منها مجرد استمائه في كتابته تلك الخطب التي هي في الواقع من أسلوه الخاص ، واسكتها مع ذلك لا نفقد شيئاً من قيمتها ، بل لهاها قد اكتسبت من القيمة التاريخية والإنسانية أكثر مما كان لها ، وذلك لعظم ذكاء المؤلف الذي عرف كيف يلخص الواقع ويكشف عن الدوافع ويناقش الأهواء ويستعرض النظر في تلك الخطب الرائعة .

وثيوسديد ملكة قوية في إدراك مهم الأشياء ، مما زعم من أنه قد كتب حوادث عاصرها بغيره من جميع النواحي إلا أنه قد استطاع أن ينظر إليها وكأن بينه وبينها أحوالاً بل فروناً ، فبذل الأهم من المهم ، ووضع كل حادثة في مكانها وأعطاهما أهميتها بلا إفراط ولا نقص ، وتلك ملكة لم يرمها إلا القليل .

وثيوسديد مؤرخ ثبت دقيق يعرف كيف ينقد مصادره ، وهو براض النسل بمخوارق الأمور فلا يقبل من الخرافات ما قبل هيرودوت ، وهو لا ينف عند الحوادث ليعلق على ما توحى به من طرفة أخلاصة رحيمة عن قناعة الحياة أو يؤسها ونعيمها كما فعل هيرودوت . ثيوسديد مؤرخ جاف حزين التفكير مركز الأسلوب ، وهو أحرص على هم النفوس منه على دروس الأخلاق للبهنة .

والمستطاعة الفاروق أن يعود إلى فراءة خطبة بركليس في تأبين جند أثينا
الذين ضلوا في السنة الأولى من الحرب ليرى الكثير من اللواهب التي غير بها
مؤرخنا ، فالخطبة لاشك من تحرير المؤلف نفسه ، وإن يكن من الراجح أن يكون
بركليس قد قال من المعاني ما يقرب مما ورد بها .

يبدأ الخطيب بالحديث عن نظم أثينا الديمقراطية ، تلك النظم التي عنها صدر
مجد المدينة وبصلها أحب المواطنين مدينتهم فكانوا في سبيلها حتى نزل منهم
من قتل ، وأخيراً يصل إلى التأبين ، وهنا يظهر ذكاء الخطيب أو على الأصح
ذكاء المؤرخ ، هو يدرك « أنه من الشاق أن يدعو الآباء إلى التعزى بالحد عن
فقد أبنائهم وأمامهم فرح النير بسلامة أبنائهم يذكرهم بما كانوا فيه من فرح م
أيضاً بأبنائهم » ، وللكلم يعلم « أننا لا نألم للحرمان من شيء لم نألفه قدر ما نألم
لفقد ما اعتدنا للثمة به » ، ولهذا يدعوهم « إلى الشجاعة والتزود بالأمل في أن
يكون — لمن يستطيع منهم — خلف جديد يموض من قُدد وأما من لم تعد
السن تسمح له بخلف جديد عليه أن يذكر أن معظم حياته قد تقضى سعيداً ، وأن
ما بقي هو الأمل ، وأنه سوف يجد في ذكرى أبنائه الحبيدة ما يخفف من آلامه » .
هذا حديثه إلى الآباء ومعه تحس ما أشرنا إليه من مهم عبق فانفس البشرية ،
هو لا يتجاهل حقائق تلك النفس وإنما يعلم بها نعم يلتمس لها علاجاً ، وإنه لمن
الحق ألا يسلم لئلا نألم بأسباب ألمه ظانين في ذلك ما يصرفه عنه ، وإنما السبيل هو
أن نجاري إحساسه وأن نعلم له بمشروعية ذلك الإحساس ، ثم نحاول سد ذلك
أن تخفف عنه حمله . وفي حديثه لإحياة وأبناء الموق حقائق نفسية أخرى يعترف
بها الخطيب في قوة خلقية وإنسانية تقف أمامها حيازى . انظر إليه بمحاطبهم :
« وأما أنتم ، أبناء هؤلاء الأبطال وإخوتهم ! فأمامكم صراع صعب ، وأنه لحبيب

إلى كل من أن تمدح ما تمضى ، ولهذا أرجو لكم أن تصلوا إلى ما وصل إليه هؤلاء الأبطال أو على الأصح إلى ما يداينهم ، وذلك لأن الحسد ينال دائماً من فصل الأحياء ، حتى إذا ذهب الموت بما يُقنون على معاصريهم من خلال تنفهم بظلمتها نزل فصلهم من كل القلوب بمنزلة التقديس . أليس في هذه الصراحة النفسية ما يرفع من قدر قائمها وهو يعترف بأن الحسد نوع طبعي في النفوس ، وأنه من الخير أن يوطئ كل فرد نفسه على قبوله من الخير مدركاً أنه ليس من السهل على النفوس أن تقبل « الغلبة » التي يلقها عليها « ظل النهر » ، وأنه ليس للأحياء أن يروا الناس محبين على ضلهم ، هذا إن يكون إلا بسد موانعهم ؟ تلك حقيقة فيها أكبر العزاء لبطولة الأحياء ، كما فيها أكبر داع إلى الإندام وطرح ما يمكن أن يسبب النفوس الخيرة من بأس يوحى ما يهولها من عدم الاعتراف بما لها من فصل .

وأما النساء فكل ما بطله إليهن هو « أن يلتمسن الجذب في ألا يظهرن من حصف غير ما تقضى به فطرتهن ، وأن يتنافسن في أن يكون تأثيرهن في الرجال أقل ما يكون سواء أكلن هذا التأثير في الخيرة أم الشر » .

هذا هو الذكاء الخارق الذي تحدثنا عنه ، الذكاء الذي يدرك حقائق النفوس ويلم تلك الحقائق ، وعلى هذا الأساس يصوغ أموره و يصيغ خططه . ومقدرة نيوميديد القوة لا تظهر في الخطب المحسب بل وفي التميم والوصف ، وباستطاعة الناري أن يعود إلى حديث^(١) للؤلفه عن الطاعون الذي نغشى بأثينا في ذلك المين يرى مقدرة الكاتب الخارقة على الوصف وصفا قاصداً مثيراً ، وكأننا نرى الومى « يتجرون أجسامهم على الأرض جراً ليقروا بأنفسهم إلى الآبار لعلها

تلقى النار التي ترى أجوانهم ... الخ » مما تحشر له الأبدان .

هذا هو ثيوسديد الكاتب القوي والورع الثبت . رجل عبقري من كبار المفكرين اليونانية بل المفكرين الإنسانية على الإطلاق ، وهو بعد مؤلف ليست فراءته أمراً سهلاً لا في أصله اليوناني ولا في ترجمته المختلفة ، وذلك لسبق تفكيره عمقا يشبه النعوض ، وإن لم يكن من النعوض في شيء ، لأنك بالصبر وإيمان النظر تستطيع دائماً أن تدرك ما يريد قوله ، وإنما يكون النعوض عندما يعجز عقل الكاتب عن أن يدرك وضوح ما بنفسه من أفكار ثم يتجمل صباغها ، وثيوسديد أبعد الناس عن هذا المعجز ، وذلك لأن عقله كان من القوة بحيث استطاع دائماً أن يسيطر سيطرة مهيمنة على كل ما تحدث عنه .

أكسيفورس :

لم يظهر في القرنين التاليين لوفاء ثيوسديد أي مؤرخ كبير ، ومؤلفات من كتب في التاريخ خلال هذين القرنين قد ضاع معظمها إن لم يكن كلها ، ومع ذلك فمن الواجب أن نستثنى أكسينوفون الكاتب المعروف في تاريخ الفلاسفة ، وذلك لأن أكسينوفون قد كان مؤرخاً كما كان فيلسوفاً ، وإن لم يصل في التاريخ إلى ما يبدى من قرب أو بعيد ثيوسديد ، كما لم يصل في الفلاسفة إلى ما يدنو من مستوى أفلاطون مع أن كليهما قد تنفذ لسفراط وكتب عنه في صيغة الحوار . ومع هذا فلا كتبوفون أهمية في تاريخ التاريخ عند الإغريق ، وذلك لأنه قد كتب فيه بعض الكتب التي نخص بالذكر منها « التهنير إلى البحر »^(١) . ولمسه خير كنبه ، كما كتب كتاباً عن « حكومة إسبرطة » وفيه بصف نظم

تلك المدينة كما وصف أرسطو « نظم الحكم عند الاثنين » ، وأخيراً كتابه المسمى « المليونيات » الذى يقص فيه تاريخ ملاد الإغريق منذ سنة ٤١١ ق. م . وهو السنة التى يقف عندها تاريخ ثيوسيديد إلى سنة ٣٦٢ ق. م . وهو تاريخ معركة مانتينيه الشهيرة .

ولد أكسينوفون بها برجح سنة ٤٣٠ ق. م ومات سنة ٣٥٥ نقر بها . ولد فى إحدى ضواحي أثينا لأسرة أوستقراطية غنية وتتلذ لسفراط ، وفى سنة ٤٠١ ق. م سحب الحملة التى وجهها الإغريق إلى آسيا الصغرى لحاربة الفرس وأتباع الفرس ، ولم يكن أكسينوفون فى تلك الحملة « جندياً ولا ضابطاً ولا قائداً » كما يقول ، بل مجرد هاو ، وكان ما كان من هزيمة الحملة بعد فشل فوادها غدرا ، وهنا يقول أكسينوفون رباة الجند وبتفهم بهم إلى البحر ، وهو يصف لنا ذلك التفهم وما اعترضه من عقبات ، وكتابه أشبه ما يكون بالذكراى ، ومع ذلك ، فله كثير من الملاحظات الهامة عن الأراضى التى صرنا بها وعن فنون القتال ، كما أن فمسه لا يخلو من بسرو جمال .

عاد أكسينوفون إلى أثينا موجد أن سفراط قد حكم عليه بالموت وفقد الحكم فيه وإذا به هو الأخير بقضى عليه النفى إما لأنه كان نديداً لسفراط وإما لما كان مروجاً عنه من ميله إلى اسبرطة التى كان يمجى بنظمها وحياتها القائمة على الارستقراطية ، وبالتل نجد أكسينوفون فى اسبرطة ونظم تاريخها أنه قد صاحب ملكها أجيلاس^(١) فى حركته على آسيا الصغرى سنة ٣٩٦ ق. م ثم فى حروبه ضد طيبة الإغريقية ، بل وجد أثينا نفسها مسقط رأس أكسينوفون وذلك فى سنة ٣٩٤ ق. م .

بعد ذلك التاريخ استقر أكسبنون في ضبعة اشقراها بإحدى مقاطعات
البلبونيزيا حتى سنة ٣٧١ ق . م إذ ضرب المنهوت ضبعته ، وهنا ينقل إلى
كورنثة بقم مها حتى تمرد أثينا عن قراره ونسحب له بالعودة إلى وطنه حيث مات .
لأكسبنون أربعة عشر كتاباً من بينها الثلاثة التي ذكرناها ، وأما غيرها
فهي ما يتعلق بترية الخيل وركوبها والحرب على ظهورها ، ومنها ما يتعلق بالصيد
ومنها ما يتعلق بالاقتصاد وإدارة الأموال ، كما أن منها المكعب الفلسفية .
تقد كان أكسبنون رجلاً أرسطوياً مولماً بالخيل والصيد ، رجلاً مهل
الطبع ، راضياً عن الحياة ، ولكنه سطحي ، وكل هذه الصفات واضحة في
أسلوبه وفي كتاباته

برليبوس :

وجاء بعد برليبوس مؤرخ متأخر عاش من سنة ٢٠١ ق . م إلى سنة ١٢٠ ق . م
ولكنه مؤرخ كبير يكاد يكون ثاني مؤرخي الإغريق بعد ثوسيديد ، فهو من
ناحية الدقة التاريخية وهم الحوادث وتحليلها وشرح أسبابها لا يقل عن مؤرخ
حرب البلبونيزيا إن لم يفقه ، وأما من الناحية الأدبية ومن الناحية الإنسانية
فهو ينحط عن ثوسيديد بمسافات بعيدة .

ولد برليبوس بمقاطعة أركاديا في البلبونيزيا من أسرة أرسطائية وكان
حديفاً لزملة الحرب والسياسة في ذلك العهد ، وقد تعلم من أبيه فن الحرب
واشتراك في الحياة السياسية والحربية ، وفي سنة ١٦٨ ق . م وقع أسيراً في يد الرومان
الذين قادوه إلى روما حيث ظل حتى سنة ١٥٩ ق . م . واقتطع أن يصليق
كبار زعماء روما ، وبفضل تلك الصداقة لم يصجر في إحدى مدن إيطاليا كما حجز

غيره من الأسرى ، بل ترك طليقا بروما حيث استطاع أن يبحث في محفوظات الدولة وأن يدرس التاريخ الرومانى .

وفى أثناء إقامته الطويلة ب تلك السلاسل أنجب بمخلق الرومانيين ، ذلك الشعب الحكيم الصبور الجاد إذا قيس بانغريق ذلك العهد الخفاف الأحلام المنقلى الأهواء . وفى سنة ١٥٠ ق . م سمح له بالمودة إلى بلاد الإغريق وإن كان مدعاد إلى روما غير مرسى ، إذ أصبحت تلك المدينة بمثابة وطن ثان له ، واند صاحب اسكييون القائد الرومانى الشهير فى حملاته ضد القرطاجيين وشهد استيلائه على قرطاجنة عاصمة ملكهم . ولقد حاول أن يمنع ثورة الإغريق الأخيرة ولكنه لم يستطع ، وكان أن أخضع الرومان بلاد الإغريق كلها بعد استيلائهم على كورثه ، وبذلك أصبحت اليونان مقاطعة رومانية سنة ١٤٦ ق . م ، ولم تبق لها بعد ذلك قائمة . وأما پوليبوس فقد استخدم نفوذه عند أصدقائه الرومانيين ليخفف من قسوة الشروط التى أملاها على مواطنيه . ولقد قام پوليبوس مدة سياحات فى سبيل القدس ، وزار ليبيا وإسبانيا وبلاد الغال ، ومات وهو فى الثانية والثمانين من عمره ، إذ سقط من فوق حصان

وكتاب پوليبوس عنوانه « التاريخ العام » ^(١) ، تاريخ بلاد الإغريق وبلاد الشرق وبلاد قرطاجنة مجتمعة حول روما . ولقد كان كتابه مؤلفا من أربعين كتابا ، ولكن لم يبق منها سوى خمسة الأولى ، ثم فترات من خمسة والثلاثين كتابا الأخرى . ومهجه فى التأليف سهج على ، هو يريد أن يفسر الوقائع ليضع بكتابه رجال الدولة ، وذلك بتعليقه للحوادث وأسبابها تحليلا دقيقا ، وهو حريص بنوع خاص على أن يظهر كيف أصبحت روما سيدة

العالم ، ولذلك يدرس دستورها ويقارن حكومتها بالحكومات الأخرى ، وعلى الخصوص بحكومة قرطاجنة ، وهو — حرصه على الدقة — قد حذف من كتابه كل الخطب التي حرم غيره من المؤرخين السابقين له واللاحقين أن يوردوها ؛ وهو بفعل ذلك مكثفياً بأن يلخص الأقوال التي قيلت فعلاً إن لم يستطع أن يوردها بنفسها ، وهو بفضل إذا كان يجعلها ألا يختصرها .

فكتاباه من الناحية التاريخية عظيم الأهمية ، وذلك لاعتداده على محرمات الدولة كما ذكرنا وعلى كل كتب سابقه ، ثم على أقوال من شهدوا الوقائع التي يتحدث عنها ، وأخيراً لأنه قد رأى كثيراً من الحوادث التي وردت في كتابه ؛ وهو بعد ذلك يملك القدرة على مناقشة مصادره وإعطاء كل منها ما يستحق من أهميته ، كما أنه قد خلا من كل تحيز ؛ وهو في كتابه يتشبع خطى الزمن ولسكنه كثير الاستطراد إلى مسائل تتعلق باشتقاق الأسماء والألفاظ وبتدقيق التواريخ وبالمسائل الفلسفية ، ثم إنه كثيراً ما يقف ليحتاج سابقه محاجات طويلة .

وأما عن قيمة كتابه الأدبية فمسيغة كما قلنا ، وذلك لبرودة قصصه وخلوه من كل نظير ، ثم لثقل أسلوبه وتمثره ونحوه لكثرة الاصطلاحات الفنية والألفاظ المجردة ، وليس هذا لعدم حرصه على فن الكتابة — فأسلوبه لا يخلو من حناية متكلمة — بل لأنه لم يكن يملك حبة الأسلوب ذاتها .

بلوتارك :

وبعضى قربان آخران قبل أن يظهر بلوتارك الذي يستبر آخر مؤرخ أغريق كبير .

ولد بلوتارك في مقاطعة بيوشيا سنة ٤٦ بعد الميلاد وعاش حتى سنة ١٢٠

بعد الميلاد ، وهو لم يكتب في التاريخ حسب ، بل وفي الفلسفة التي كتب فيها عدة كتب .

تربى بلوتارك في أسرته حيث أشرف أبوه وجده على تعليمه ، ثم قام بعدة رحلات إلى أثينا وروما ، وألقى بالمدينيتين عدة محاضرات عامة باليونانية واللاتينية غلق نجاحا عظيما ، وأخيرا عاد إلى مسقط رأسه حيث مضى الجانب الأكبر من حياته موزع الجهد بين حياته الخاصة كرجل أسرة ، وبين مهامه كأديب ومؤرخ وفيلسوف بل وعدة لمدينته .

لقد كان بلوتارك رجلا شريفاً وديماً هادئاً سمح الخلق ، شديد العلق بدينه الإغريقي ، وبخاصة بعبادة أبولون الذي حيث كان يقوم ببعض أعمال الكهنوت ؛ وكان إلى جانب هذا رجلا متفتح النفس للسرعة والبحث عن الحقائق ، مدرس كافة العلوم التي كانت معروفة في عصره ، وبخاصة التاريخ والفلسفة الأخلاقية . ولقد ألف بلوتارك في الفلسفة الأخلاقية عدة كتب نذكر منها : « مهلة القضاء الإلهي » وفيه يعالج مشكلة القدر ، و « كتاب الحب » وهو دفاع عن الحب الشرعي ، و « هناء لزوجته عند وفاة بنتها » ، و « كيف قرأ الشعراء » ، و « التطهر » ، و « الزواج » ، و « النيل » ، و « صمت المرات » ، و « إزبس وأوزيريس » وفيه يتحدث عن الشيولوجيا برجه عام ، و « كيف ننم » ، و « كيف نميز الصديق الحق من المتعلق » ، و « كيف نخدع أنفسنا دون أن نجرح غيرها » ، و « عن كثرة الأصناف » ، و « عن فائدة الأعناء » ، و « عن الصحة » ، و « عن الثروة » ، و « عن شيطان سقراط » ، و « عن الموسيقى » ، و « أحاديث للمائدة » ... الخ .

وهو يعلى عن أخذهم بذهب أعلامون ، ولكنه في الحقيقة قد أخذ عن

جميع للفذهب ، كما حلل أن يرق بين الشيوعيا وماسنة أعلامون ؛ وهو يقول
بوجود إله واحد مسطر ومن دونه آلهة ثانوية تقوم على أمور البشر ، وهي آلهة
جبرية وشريرة ، نهش حنة قرون ، وقشرف على التطير والرامة .

فلسفة بلوتارك في الواقع ضعيفة الأصالة ، وهي ليست سبب محدد ، وإعما
اشهر بلوتارك وظل يُقرأ طوال القرون الماضية حتى يومنا هذا من حيث هو
مؤرخ كتب كتابا كان له ولا يزال أكبر الأثر في الكتاب في مختلف
الأجيال ، ونعني بذلك كتابه المسمى « الحَيَوَاتِ التَّنَوَازِيَةِ » ، وفيه يورد أربعا
وأربعين حياة كل حياة لشخص من كبراء الإغريق مقارنة بكبير من كبراء
الرومان ؛ هيوميستكليس وكاميل ، ليسانديروس وسولا ، الإسكندر وبولبوس
نهر ، أميسيلاس وبومبوس ، ديموسنيث وشيشرون ، ألسيلاس
وكورولانوس . . الخ .

كناه — إنن — من حياة السلاطنة اليونان والرومان ، وقد آتى وفارن
في كل فصل بين اثنين من هؤلاء السلاطنة : قائد مع قائد ، وحطوب مع حطوب ،
وإمبراطور مع إمبراطور ، وهكذا . ولقد قرأ بلوتارك الكثير من الكتب التي
ألفها ساقوه ، ولهذا جاء كتابه غنيا بالمعلومات التاريخية العامة ؛ ولكنه كان
رجلا يجمع حظه من النقد قليل ، وأثر السرعة وعدم التمهّل واضح في كتابه ،
وهو أقل حرصا على الجفينة الداربه منه على مغزى الوقائع ودروسها الأخلاقية ،
ومن ثم نراه يسوق الكثير من القصص مجرد جمالها . وهو — وإن حاول ألا
ينحيز — لا يخلو من ميل إلى الإغريق .

لقد حرص بلوتارك على أن يصور الشخصيات أكثر من حرصه على أن
يفص الوقائع ، ومن ثم لم يكتب تاريخا سياسيا كما فعل ثيوسديد أو بولبوس

ولكنه قد نجح فيها أراد مجاها رائعا ، وشخصياته حبة واضحة العالم ، وكتابه من هذه الناحية مر بد في نابه .

بلوتارك كاتب جذاب له حس صادق بعناصر الإنارة في الإنسان ، وهذا سر مجده وإقبال الناس على قراءته ؛ وأما أسلوبه فلا روعة فيه ولا جمال ، ولهذا كل من الكتائب القلائل الذين تزاد قهمة كتبهم إذا ترجمت ؛ بل فرنسا مثلا لا شك أن ترجمه « أمبر »^(١) التي ترجع إلى عمر النهضة ، خير بكثير من أصلها ، ولقد عملت تلك الترجمة في شهرة بلوتارك بفرنسا أكثر مما يستحق الأصل ، هي رائحة الأسلوب .

ولقد كان بلوتارك تأثير قوي على الكثيرين من الكتائب وبخاصة شيكسبير الذي صدر عنه في تصويره لكوريلانوس وبوليوس نبصر وغيرهما .
وهناك مثلا من كتابه :

ديموسثينيس وشبشرون

« حسبنا أن نرى ما بين الرجلين من تشابه في الليل لنعلم أن الطبيعة قد أنشأت هذين العظيمين منذ البداية في صورة واحدة ؛ فكلاما بطمخ لسانه حينها ، وكلاما بحب الحرية ، وكلاما جبان في انزعج ومواقف انطرد ؛ كذلك تشابهت السيرة عند الرجلين ، فكلاما نشأ من أصل مضمون وشق طريقه إلى مناصب النفوذ والسلطان ، وكلاما عارض الفلك والطنانة ، وكلاما تقي من أرض الوطن ثم عاد عود السكريم ثم اضطر أن يلوذ بالفرار ، ثم وقع في أيدي الأعداء ؛ وذهبت بذهاب كل من الرجلين حرية بلاده .

فلما كان ديموسثينيس في سومة المطعولة باسا في السابعة نفذ أباه و قد نرونة .

أو صياؤه الذين لم يكونوا بالوصاية جديرين ؛ لكن طموح القى قد اشتغل في
سنه اللياقة حين سمع « كايستراس »^(١) الخطيب ينفذ بخطابته إلى قلوب
سامية ، وحين أدرك ما عسى أن يسود به فن الخطابة على الخطيب الموفق من
أسباب الشرف ؛ لم يلبث أن خصص جهده لممارسة هذا الفن مدرس البلاغة
على « إزاوس »^(٢) حتى إذا ما بلغ أشده ظهر في ساحة القضاء بنهم أو صباه
بانتهاج تروته .

وعلى الرغم من نجاح ديموستينيس في دعواه تلك ، كان عليه أن يواصل
الدرس ليتم تكملاً كبيراً ، إذ كانت أولى خطابه تثير في سامية الصحن ، فقد
كان أسلوبه عتيقاً ومضطرباً ، وصوته خافتاً مثلثاً وإلقاؤه متطويع الألفاس ؛
لكن هذه الأخطاء أصلحت كلها بالمران الطويل الشاق الذي قام به في جيب
أشياء لنفسه تحت الأرض ، كان يقرب فيه شهرين أو ثلاثة دهنًا واحدة ، وقد
أرسل من لسانه اللثة بالتحدث والحصول فيه ، وزاد من قوة صوته بالجرى
صامداً فوق سطح الجبل يصيح وهو يلهث ، وكان يطول النظر إلى وقفه
بوحركانه في المرأة .

ولم يلق ديموستينيس الخطاب ارتجالاً إلا نادراً ، فقد كان الناس يصيحون
به في الجامع ليعطهم لكنه كان يظل صامتاً ، إلا إن كان قد أعد ما يلقيه
وكانت عادته أن يكتب التشر الأعظم من خطابه إن لم يكتبه بأجمه — قبل
أن يلقيه ، ولذا كان يُقَرَّض عليه بأن الحجج في خطبه تنوح رائحة
للصباح ؛ ولكنه مع ذلك قد خطب في حالات قليلة بنير إعداد لغات خطابه
عندئذ وكأنها تنطق من معين خارق لقدرة البشر .

وكان حقوداً بطبيعته ، بعلوم ما استطاع ، ولم يجاز عصره قط فحلاً ولا عملاً ،
إنما استمسك حتى النهاية برؤية نظره السياسية التي اعتنقها منذ البداية ، ومطعمه
الأول هو الدفاع عن قضية اليونان ضد مذهب^(١) . ومطعمه الثاني بما فيها هذه
« الفلبيايات »^(٢) كتبها على مبدأ أن اللحظة القوية الجديدة بأن تتجسّد يجب أن
تُفكّر دون سواها من أجل خضتها لا لتأنيدها ، فهو لا يتحدث على وطنه
إلى أداء ماضٍ ملائم ويسهر ويضع ، ولكنه يدعوهم إلى ما يؤدّي بهم إلى مواضع
الشرف ، فهو كان الله قد حباه ديوسينيس فوق مطعمه التبيل وسمو مبدئه في
خطابته ، شجاعة في الحرب ، ولو كان طوقاً يديه من دنس الرشوة ، لسكان
جذبوا أن يوضع في منزلة واحدة مع « سسون »^(٣) و « ثيوسيدد » و « بركليز »
كذلك لمحت عبرة شهبورون العظيمة في أوهام دراسته ، ضد كانت له
القذرة كما كان له الليل إلى نعلم القنوع كلها ، وإن يكن أُنْصَبَ إلى الشر منه
إلى غيره ، من الدمار ، وجاء برمّ عرقته فيه روما أجمد الثمراء وأعظم الخطايا في
أنه ما ؛ بعد دراسة القانون وتدريبه في أعمال الحرب ، أوى إلى حياة العزلة
يُدرس الفلسفة .

ولكنه اضطر أن يظهر في ساحة القضاء ليدافع عن « روسكيوس »^(٤)
الذي اتهم ظالماً بقتل أبيه ؛ فصرعان ما ذاعت شهرته في الخطابة .

وكان شهبورون محلّ المصحة لا يستطيع أن يأكل إلا طعاماً قليلاً ، ولا
يكون ذلك إلا في آخر النهار ؛ وكان صوته أنشِبَ جالياً مرذولة النغم ، لكنه
كسلفه ديوسينيس استطاع بجران ظوبل أن يهذب من نغمة صوته ، حتى

Philippica (٧)

Seneca (٤)

Philip (١)

Cicero (٢)

أصبحت مليئة منقحة حلوة الرنين ، ودراسته على حقول اللامعة فوّمت من فصاحته .

وإن ما عرف عنه من مثابة وعدل واعتدال قد تجلى في مسلكه في المناصب السياسية ؛ ففي همة على مؤامرة « كاتلين »^(١) بين كيف يمكن للبلاغة أن تضيق إلى الحق سحراً ، وأن العدالة لا تهزم إن وجدت من يؤيدها على وجه صحيح . إن ديموسثينس قد ركز كل قوته في فن الخطابة وحده ، فبات لا يشق له غبار في قوة فصاحته وجراتها ودتها ؛ أما شيشرون فقد كان أوسع مدى في دراسته ، فلم يجاهد أن يكون خطيباً نابهاً وكفى ، ولكنه أراد أن يكون كذلك فيلسوفاً وعالمياً . واختلاف الخطيبين في الزاج متبين في اختلافهما في الأسلوب ، فديموسثينس في خطابه دائماً صارمٌ جادٌ بنشد الفكرة الجافة ؛ أما شيشرون فيحب الفكاهة ، وقد يبلغ به الزاح في الحديث أحياناً حد اللهارة . ولم يكن الخطيب اليوناني يمدح نفسه في خطبه إلا إن قصد بذلك هدفاً سامياً ، وحتى إن فعل في تواضع وفي غير اعتداد ؛ أما الخطيب الروماني فلا يحاول أن يخفي غروره بنفسه إلى حد الإسراف ، مما جعله محفوناً عند كثير من معاصريه .

وكان قرجلين جيماً مقدرة سياسية ممتازة ، لكن بينا نجد ديموسثينس لا يشغل منصباً سياسياً قط ، ويشتك في أنه أحياناً كان يبيع موهبته لمن يجزل له العطاء — نرى شيشرون يحكم إيطاليا في عصر كان المجتمع فيه قد بلغ أقصى درجاته ، ولكنه لم يهرف عنه إلا اللطف الإنساني وازدراء المال حتى لو رفض الهدايا البريئة .



إلى هنا غنتى من استعراض المؤرخين الإغريق ، وعلمى مما رأينا بأن من كتابة التاريخ عند اليونان وإن يكن قد وصل أحياناً من العمق فى التعمق إلى أسد الراحل ، إلا أنه لم يصل فى الواقع إلى ما وصل إليه المؤرخون الحديثون ، وذلك لأنه ظل جريئاً ، يتحدث عن ناحية خاصة من نواحي الأمم ويهمل ما عداها ، فهم لم يكتبوا مثلاً تاريخ عصر من العصور يفصلون فيه القول عن الحياة السياسية والحياة العقلية والحياة الحربية والحياة الاجتماعية ، بحيث يفرج القارئ بصورة تامة لذلك العصر . ولكننا عندما نذكر أن هذا النهج الشامل فى كتابة التاريخ لم يهتد إليه المؤرخون إلا فى القرن التاسع عشر ، نستطيع أن نتصور أنه لم يكن من الممكن أن يقفز الإغريق إلى الكمال .

ومع ذلك فقد امتاز المؤرخون الإغريق بصفة عامة هى عدم التحيز ، وكانت لهم فوق ذلك قدرة هجينة على فهم النفس البشرية وإيضاح دوافعها ، ولى هذا ما يضمن لسكتبهم الخلود ، لا من حيث هى مصادر لتاريخ لحسب ، بل ومن حيث هى كتب أدب إنسانى خلى بأن ينحصب النفس ويشهد الإدراك .

(ب) الفلسفة والحكمة :

الفلسفة :

أغرم العقل اليونانى — بعد أن قطع مرحلة الأساطير والإيمان فى الخيال — بإطالة التفكير والتأمل فيما يصادف من ظواهر ، فيحاول نمطليها وتعمق أسبابها ؟ وإنك لتقرأ عن اليونان وفلسفتهم فتحسب القوم ينفسون الفلسفة مع الهواء . وما ظنك بجهاة تتاقش موضوعات الفلسفة إذا التفتوا فى الأسواق ، أو صادف بعضهم بعضاً فى مرضى الطريق ؟ ! وحسبك أن تقرأ

ما كتبه أفلاطون وأرسطو ، وما بلغت إليه الفلسفة في العصر الحديث ، لتعلم أن الإنسانية لم تنكد تحظر — في الفلسفة — إلى الأمام بعد اليونان خطوات ، بل لتعلم أن الإنسان الحديث في ركضه السريع يوشك أن يتخلف عما أدركه اليونان من حكمة في بعض النواحي . ولتتمنى مسرعين على هامات القرون ، محققين وراثة فلاسفة اليونان الأولين ، فأولئك على عظم قدرهم لا ينسح لهم مقام كتابنا .

ولتقف عند القرن الخامس قبل الميلاد ، حيث سوهوكليس وبوريبوس يعرضان على المسرح آياتهم ، لتنتقل إلى هذا الفيلسوف الذي بذل شواوح أينما وبشئ أسوأها ، بنافس وبماور في منطق سليم وأسلوب أجاد ، لتنتقل إلى سقراط جالماً ومن حوله معارضوه ومؤيدوه ؟ فما يزال يُبلى هنا سؤالاً وهناك سؤالاً ، ويتلقى من هذا جواباً ومن ذلك جواباً حتى يستقيم له الموضوع الذي بنافسه ، ويبلى التنبية التي يريد ، منهكاً ساحراً بمن زعموا لأناسهم العلم وهم جاهلون ، مستحقاً للشباب أن يفكروا لأنفسهم ليدركوا الحق بأنفسهم مطلقاً أنه لا يدري شيئاً ، وأنه إنما ينشد الحكمة عند الآخرين شيئاً في ذلك كله بصوت باطنى لعله أن يكون وحياً من الآلهة ؟ ولقد أحب سقراط من ضموه ، وسخط عليه من كانت لهم في نفوس الناس مكانة عليمة فزّلها سقراط وعرضهم لسخرية الآخرين ؟ فرجع ثلاثة من هؤلاء أمر سقراط إلى القضاء بتهمة إفساد عقول الشباب ، وإنكار الآلهة ، وسجادة الدولة ونظامها ؟ وكاست المحاكمة وكلن الحكم ، فإذا هو أن يجرع سقراط كأساً من السم لموت ، ولم يظهر من شخصية سقراط عندئذ إلا جانب التبليدوف ، ونفى آخر أيامه في السجن بجلود تلاميذه في الفس وثلودها ! وهل ترى أثر سخرية في تاريخ

الإنسانية كله من هذه الحقبة المرة : وهي أنها تقتل من أبنائها من يعلو وينفخ .
 وإن أردت أن نقرأ ما نطق به سقراط في محاوراته مع الناس ، فارجع في ذلك إلى تلميذه الأكبر « أفلاطون » الذي كان كأستاذة محاوراً — ولكن بالقلم لا باللسان ؛ فأخذ يكتب « المحاورات » يديرها بين التلاميذ من أهل أثينا ، وينخذ من سقراط شخصية رئيسية ليُجري على لسانه ما يريد لنفسه من أفكار ؛ فبات معذوراً أن يميز بين آراء سقراط وآراء تلميذه التي أُجراها على لسان أستاذه ، ولكن هل جنى ذلك شيئاً عند من ينشد حكمة اليونان ؟ كلا ! فاقروا المحاورات الأفلاطونية تقرأ حكمة يونانية ، وحسبك ذلك ، وسترى في تلك المحاورات أسلوباً فنياً رائعاً يبعث أفلاطون في الصف الأول بين الأدباء : فيها أخذ ورد ، وسؤال وجواب ، ومواقفة واعتراض ، مما جعلها نقطة حبة بين آداب الأدب ؛ وينفخ هذه المحاورات في عودها ما يقرب من عشرين ، نكاد لا نستقي شيئاً من جواب الفكر الإنساني إلا منقطة مسارة رفيعة أو عميقة ، حتى قبل : إن بذور الفكر الإنساني كله غديمه وحديثه نراها منشورة مبذورة في محاورات أفلاطون ، لا نستقي من ذلك عقائد المسيحية نفسها ؛ هذا ما يقوله عنها أروع مترجميها إلى اللغة الإنجليزية وهو « بنجامين جوفت »^(١) ، الذي أصبحت ترجمته لها لغة في نفسها قطعة من الأدب ، ومقدماته لتخليها آية في اللغة ؛ وترجم إلى اللغة العربية قيس منها^(٢) . ولا بد لك — إن أردت أن نعلم ما قاله أفلاطون — من قراءته ، وحسبنا في هذا الموضوع أن نشير إلى مكرنين أساسيين : الأول

Benjamin Jowett (١)

(٢) ترجم الجمهورية الأستاذ جلال ، وترجم بعض المحاورات ذكي نجيب محمود .

فكرة سقراط في الفضيلة بأنها العلم والرفيلة بأنها الجهل ، أى أن الإنسان لا يسمى السلوك إلا من جهل ، ولو عرف لاهتدى ، وهذا رأى له قيمته ونصيبه من الصواب . وقد عبر سقراط عن ذلك حين ذكرنا قوله ساعة موهبة ، فقال : « ما محروم إنهم لا يعرفون ما يطلبون » . والفكرة الرئيسية الثانية في « المحاورات » ، هى رأى أفلاطون بأن عالم الأشياء الذى يحيط بنا إنما يُصوّر عالمًا آخر قوامه أفكار عقلية ، فكل شئ هنا شبح لفكرة هناك ، فإذا ما أحببت إنسانًا جميلًا أو زهرة جميلة فأنت إنما تحب في حقيقة الأمر فكرة الجمال التى تمثل في الإنسان والزهرة ، لا هذا الإنسان الشخص بعينه ، ولا تلك الزهرة بذاتها ، وهذه خلاصة موجزة « للحب الأفلاطوني » ، الذى أخذت تلكه الألسنة في غير معناه حتى أمسده ؛ ولعل أجمل ما يمتنع القارئ الذى لا يريد أن يثوص في الفلسفة الصيقة بمحاورة « الجمهورية » ومحاورة « الدفاع » ومحاورة « اللأدبة » ؛ ففى « الجمهورية » وصف للدولة المثلى التى يجب أن يكون على رأسها فيلسوف مفكر يسيطر عليها كما يسيطر الفيل على شؤون الجسد ؛ وفى « الدفاع » رواية جميلة لحاكمة سقراط ودفاعه عن نفسه أمام قضاة ؛ وفى « اللأدبة » شرح مفصل للحب الأفلاطوني صيغ في أسلوب هو أجود ما حرت به براعة الفيلسوف في جمال التعبير . وفيما يلى مثال لنثر أفلاطون ، وهى قطعة خشتت بها محاورة ميدون ، ومبها بصور موت سقراط :

« ... نهض ودخل غرفة الحمام ، بسحبه أقر بطون ، الذى أشار إلينا بأن ننظر ؛ فانتظرنا نتحدث ونفكر في أمر الحوار وفى هول المصائب ، لقد كنا كمن نسل أماء ، وأوشكنا أن نخصى ما بقى من ألباس كالآبثام ؛ فلما تم اغتسله حى له بأبنائه (وكانوا طفلين صغيرين وإنا) ، كما وفدت نساء

أسرته ، فحادثهن وأوصاهن ببعض نصحه ، على مسمع من أفريطون ، ثم صرهن وعاد إلينا .

ها قد دنت ساعة الغروب ، قد نضى داخل الحمام وقتاً طويلاً ، وعاد بعد اغتساله غلس إلينا ، ولكننا لم نَقْعُ في الحديث ؛ وما هي إلا أن جاء السجان وهو خادم الأحد حشر ، ووقف إلى جانبه وقال : لست أنهلك يا سقراط بما عهدته في غيرك من الناس من سورة التضب ، قد كانوا يشورون وبصيحون في وجهي حينما أسرهم بنجرع السم ، ولم أكن إلا صادعاً بأسر أولي الأمر . أما أنت ، فقد رأيتك أنبل وأرق وأفضل ممن جاءوا قتلك إلى هذا المكان ، فلبس بخمارني شك أنك لن تنقم علي ، طيس الذنب ذنبى ، كما نلتم ، إنما هي جريرة سواى ... وبعد ، فوفاً ، وحاول أن نصل راضياً ما لبس من وفوعه بد ، وإنك لتعلم بهم قدوى إليك . ثم استدار فخرج متعجراً بالكاء . فنظر إليه سقراط وقال : لك منى جميل بجميل ، فأصدم بما أمرتني به ؛ ثم التفت إلينا وقال : يا له من فائق ! إنه ما أهلك بزرورى في السجن ، وكان يحدثني الحب بعد الحين ، وبما ملنى بالحسن ما وسعته ... أنظر إليه الآن ، كيف بدنه سهل أن يحزن من أجل ؟ فزائم علينا ، يا أفريطون ، أن نضل ما بربد . ثم أخذاً أن يجي . بالتدح إن كان قد تم إعداد السم ، وإلا نقل للخادم أن يهيئ شيئاً منه ؛ فقال أفريطون : ولكن الشمس لا تزال ساطعة فوق الدلاغ ، وكثير ممن سبقوك لم يجرعوا السم إلا في ساعة متأخرة بعد أن كانوا يأكلون ويشربون وينفسون في لقائهم الحس ، فلا نتعجل إذن إذ لا يزال في الوقت متسع !

فقال سقراط : نعم يا أفريطون ، لقد أصاب من حدثتلى عنهم فيها ضلوا ،

لأنهم يحسدون أن وراء الحابل ضياءً يصوته ، ولأن كذالك لعلى حق فى ألا أصل كما صلوا ، لأننى لا أعلن أى منتفع من تأخير شراب السم ساعة فصوره ! إننى بذلك إنما أحفظ وأبقى على حياة قد اغشى أجلكم ضللا ، إنى لو ضلت ذلك سمرت من نفسى ؛ أرجو إذن أن تفعل ما أشرت به ولا تهمل أمرى ! فلما سمع أفر بطون هذا ، أشار إلى الخيل فدخل ، ولم يلبث إلا قليلا حتى عاد بصحبه السجان يحمل قدح للسم ؛ فقال سقراط : أى صديق العزيز ! إنك قد مرنت على هذا الأمر ، فلرشدنى كيف أبدأ ؟ فأجاب الرجل : لا عليك إلا أن تجهل حتى تتقدم سائلك ، ثم تزد مصرى للسم ؛ وهنا تناول سقراط القدح ، لحقنى فى الرجل بكل عينيه ، يا أشكراتس ، وأخذ القدح جريئاً ودبها لم يرفع ولم يتنقع لون وجهه ؛ هكذا تناول القدح وقال : ما تترك إذا سكبت هذا الخدح لأحد الآلهة ؟ أنجوز هنا أم لا يجوز ؟ فأجاب الرجل : إنما لا تبدأ يا سقراط إلا بتقدير ما ظننه كلياً . قال : إنى أهم ما أقول ، ومع ذلك فيقول بل يجب على أن أصلى للآلهة أن توقفنى فى رحلتى من هذا العالم إلى العالم الآخر — فعمل الآلهة نهينى هذا ؟ فهو صلاتى لها ، ثم رمى القدح إلى شقيقه وجرح قدمه حتى التفت راجعاً إلى الجأش مفتطحاً ، وقد استطاع مضطرباً أن يكبح جراح حزنه حتى تلك الساعة ؛ أما وقد رأيتله يشرب السم ، وشهدناه يأتى على البرهة كلها ، فلم يجد قد قوس الصبر منزع ، وانهمروا فى الضحك مدبراً على الرغم منى ، فسمرت وجهى وأخفت أنهب نفسى ... حقاً ، إنى لم أكن أبكيه ، بل فبكى غيبى فيه حين أخذ مثل هذا الرقيق ؟ ولم أكن أول من صلب هذا ، بل إن أفر بطون ، وقد أتى نفسه عاجزاً عن حبس عبياته ، هبض وأجعد ، متبعه ، وهنا انهمروا فى الضحك الذى لم ينقطع بكثرة طول

الوقت في صبيعة عالية وَصَمَتْنَا جميعاً موضع الجبناء ؟ ولم يحفظ بهدونه منا
إلا سقراط . فقال : ما هذه الصرخة العجيبة ؟ ! لقد صرفت النسوة خاصة حتى
لا يُسَمَّنَ صمغاً على هذا النهر ؟ فقد خُيِّرْتُ أنه ينبغي للإنسان أن يُسَلِّمَ
الروح في هدوء ، فسكوناً وصبراً ... فلما سمعنا ذلك اعتزلنا الخجل وكفكفنا
دموعنا ؛ وأخذ سقراط يتجول حتى بلغت سافاه تتخلخلان — كما قال —
ثم استلقى على ظهره ، كما أشير له أن يفعل . وكان الرجل الذي ناوله السم ينظر
إلى قدميه وساقيه حيناً بعد حين ؟ ثم ضغط بعد حين على قدميه وسأله : هل
أحسُّ فأجاب أن لا ، ثم ضغط على ساقه ؛ وهكذا صعد ثم صعد ، مشيراً لنا
كيف أنه برد وتصلب . ثم لمس سقراط نفسه ساقيه وقال : سيكون الخناقة
حين يصل الدم إلى القلب ؟ فلما أخذت البرودة تنمشي في أجلي غلظت ككتف
من وجهه ، إذ كان قد دُفِّرَ غسه خطأ وقال (وكانت هذه آخر كلماته) :
إني يا أفریطون مدينٌ مديك لأسكليبيوس ^(١) ، هل أنت ذا كر أن قرؤ
هذا الذين ؟ فأجاب أفریطون إنه سيوفى الذين ، ثم سأله إن كانت لديه رغبة
أخرى ؟ ولم يكن لهذا السؤال من جواب ؛ وما هي إلا دقيقة أو دقيقتان حتى
سمعت حركة ؛ فكتشف عنه الخادم ، وكانت عيناه مفتوحتين فأقبل أفریطون
فيه وعينه .

هكذا يا أشكرائس نفى صديقتنا التي أدعوه بحق أخكم مَنْ قد عرفتُ
من الناس ، وأوستهم عدلاً وأكثرهم فضلاً .

ثم جاء أرسطو الذي شق للفلسفة طريقها مدى عشرين قرناً ، وقد لبث
حتى القرن السابع عشر يُتَرَفَّق بين الفلاسفة « بالنياسوف » ، ولعلت سيطرته

على عقول الناس هذا لم يمر به فيلسوف سواه ، حتى جاء رجال النهضة —
 فيكون في انجلترا ، ودبيكارث في فرنسا ، فرضوا لواء الثورة على رجل الفلسفة
 الأكبر ، وطالبوا محققهم في التفكير المستقل الذي لا يعرف الحدود والقيود .
 وما كان أرسطو نفسه لينكر على أحد هذا الفكر الحر ، لكنهم تأخروا وسُتَابعوه
 خلال القرون ثم الذين وصموه من الناس موضع اللطم الذي تجري كأنه مجرى
 الفضا الذي لا بُرْد . وكيف ينكر أرسطو على أحد حرية الفكر ، وهو ذاك
 الروح العلبي ، والمقل المتطلع ، والعالم الذي يبحث ويبحث حتى يتسنى بهينه إلى
 الحق ؟! أخذ أرسطو عن أستاذه أفلاطون ثم انشق عليه ؛ وأهم ما يفتلن فيه
 هو فكرة المثال ، أو العالم المثل الذي جزم أفلاطون بوجوده ثم وجدنا نحيه
 على نفسه الأشياء . فما كان لأفلاطون الخالم الشاعر الفنان سوى أن يمزق
 بحباله حجب المادة التي تحيط به ليرى من ورثها أنكارا مجردة هي من الأشياء
 بمثابة الأصل من الصورة ؟ أما أرسطو ذو العقل العلمي والفكر المنطقي لخصر
 نفسه في حدود ما يرى ويلمس ، فهذه الأشياء هي الحقائق ذاتها ولا شيء
 وراءها ، وليس للمعاني المجردة وجود إلا في عقل الإنسان الذي يجردها . وماذا
 يعني تاريخ الأدب من هذا الفيلسوف ؟ يعنيه أسلوبه العلمي الواضح الدقيق ،
 طلق كان أفلاطون بمثابة قصيدة من الشعر الطائر بأجحة الخيال ، فأرسطو
 قطعة من الشعر الرزين الرصين ؛ أفرا له كتاب الأخلاق^(١) ، وأفرا له كتاب
 السياسة ، ثم أفرا كتابه في « الشعر » الذي لا يزال عدة لانتقاد إلى هذا اليوم
 لمن تقرأ قرامز القدرس الصيق حتى يكون منك نافذ صائب الحكم على
 إنتاج الأدباء .

الخطابة :

وكانت الخطابة من الفنون الأدبية التي بلغت من الكمال حدا بعيدا في أثينا ؛ والخطابة إنما تكون أدبا حين تحفظ الألفاظ المنطوقة بقوة فصاحتها إذا ما خُطبت على الورق لتُقرأ ، فما أكثر ما نفى خطب الخطباء مع الهواء كما نفى ألحان المُنشدين وأصوات الممثلين . والخطب ثلاثة أنواع : خُطب تُسمع ولا تُقرأ ، وخُطب تُقرأ ولا تسمع ، وثالثة تشمل بتأثيرها العيون والآذان ؛ هنا هو ذا « غلادستون »^(١) مثلا حَرَّكَ النفوس بحُطبه ، ولسكنها حين صُتبت في أحرف المطابع بردت ناراها ؛ وذلك هو « إدْمُنْدُ يَرْك »^(٢) لم يكن له من القدرة الخطابية ما يفتح أعصاب البرلمان الإنجليزى ، ومع ذلك غلبه — مكتوبة — ساهرة فائقة ، وهى تحتل مكانة رفيعة في الأدب الخالد ؛ وأما خطباء اليونان فقد بلغوا بهذا الفن — كما قلنا — حدا بعيدا من الكمال . وذلك لأن حفاوة لهم السياسية كانت تتركز — إلى حد بعيد — على قدرتهم الخطابية ، وذلك طبيعى في عصر لم يعرف الصحف اليومية التى تشيع بين الناس فتجمل إلى أعينهم مشرات من المقالات ، وهى خُطب يلقيها رجال السياسة من أسنة الأفلام ؛ وأول من نذكره من خطباء اليونان حطيب صامت ! حطيب لم يكن من أهل أثينا فى عُرُف القانون ، فلم يكن له حق الكلام فى ساحات القضاء أو الخطابة أمام جموع الشعب ؛ ذلك هو « لِسْتِيَس »^(٣) الذى أخذ يكتب الخطب بقلمه ليقرأها غيره بلسانه ؛ ولم يحطب « لِسْتِيَس » فى الناس إلا مرة واحدة ، حين دبر أحد الطغاة نيل أخيه . وعاصر « لِسْتِيَس » حطيب آخر يكتب حطبه

ولا بقيةا ، ذلك هو « إسفراط »^(١) الذي أخذ يستحث دوللات اليونان أن
تخشعوا للحسام ضد القبرس ، ووجه دعوته إلى مقدونيا ؛ فلما أن رأى مقدونيا
تستغل ما غلبته من حروب القبرس في تدبير جيش يجمع أثينا نفسها ندم
« إسفراط » على دعوته إليها وكفّر عن سيئته بأن حرم على نفسه الطعام
حتى مات ، وأهم خطبة له « الثناء على أثينا » ؛ وأما أعظم خطباء اليونان جميعا
فهو « ديموستينس »^(٢) ؛ وقد بلغت قدرته على الخطابة مبلغا أعزى الرواة أن
بأسجوا حولها الأساطير ؛ فقالوا مثلا — إنه فرّم لسانه بوضع الحسام في فيه ،
والصياح بذلك ألم المملوء على شاطئ البحر ؛ وبها يكن من أسره فقد كانت
بلاغته تقنن سامعه ؛ وخطبه البانيات نطع من الشر المستأز ؛ وكان مذهبه
السياسي أن يكون الحكم لصالح اليونان كلها بقيادة أثينا ، لا أن يكون الحكم
موجها لصالح أثينا وحدها أو أي بلد آخر ، لذلك خاصم فيليب المقدوني أبا
الإسكندر ، إذ كان يرى أن يحكم حكما مقدونيا معنا . وكانت أشهر خطب
« ديموستينس » ما وجهه إلى أهل أثينا لحرصهم على فيليب المقدوني الذي
كانت جيوشه تفتاح مدائن اليونان ، مهددة لابنه الإسكندر أن يفتح دعامته
ملكه ، ومن أجل هذه المحجمات القوية العنيفة التي وجهها « ديموستينس »
إلى « فيليب » ، سمى هذا اللون من الخطابة — مكتوبا كان أو متلوفا — :
« بالخطابة الفيليبية »^(٣) . وتفصل ذلك أوف أثينا حين أُنشئت في عهد
« بركليس » ألقابا الشكار ، فقد الأثينيون ما كان هم من نشاط ، وكرهوا

Isocrates (١)

Demosthenes (٢)

Philippic (٣)

أن يساهموا في تغلبات الدولة ، بعد أن كانت واجبات الأتيني تنفي أن يشارك الأغنياء في إعداد الجيش وبناء الأسطول ؛ وكان فيليب التامع إذ ذلك يجهز جيشه للتو ، فقام ديموستينيس رجلاً الخطاب إلى قومه : « يجب أن نمدوا أنفسكم متصدوا بأنفسكم إلى العدو في سفائلكم » ، بعد كان الأتينيون يلقون بأعداء الحروب على حوائق الجند للأجيرة والصيد لينصروا في مدبتهم الفسبة بالأمن والسامية ، ولكن حطهم لم يجد بدأ — إذا أرادت أثينا أن تظهر بالهسر — من أن ينهض الأتينيون أنفسهم إلى الدفاع ، بعد أن أصبح خطر الغزو داهياً ، واجتاح فيليب بعض للدائن : « لا نلتوا أن قوة فيليب الحاضرة حادثة له أهد الدهر كأنه إله من الآلهة : كلا ! إنه مكره مخوف محسود ، حتى من أنصاره الذين يظهرون له اليوم فلوباً مخلصة » . لكن الأتينيون لم يحركهم أول الأمر هذه الحط ، وسد عنهم الثغرة الكاذبة ، وظلوا على عقبتهم أن القندونيين جماعة منذرارة لا تستحق أن يخشى لها بأس ؛ واكتفوا بأن يرسلوا إلى فيليب الرسل ؛ فأفسد عليهم فيليب سفراءهم بما أجزل لهم من الهداء ، حتى كرم له من هؤلاء الرسل أنفسهم حزياً قوياً في أثينا بظواهره وبناصره ، وعلى رأس هذا الحزب « إيسكينيز »^(١) الذي أوصاه من رشوة فيليب نصب الأسد ؛ وكان إيسكينيز هذا حطياً معقماً ، لا يهذه إلا ديموستينيس الذي مازال بالناس بخطيبهم حتى ألتحق في أن يبعث الأتينيون جيشاً صغيراً يحاصر النزاة في شعاب الجبل ، ويحج في صده عن البلاد ، فاقترح « تصيفون » أن نصنع الدولة ناهجاً ذهبياً ليكون إكليلاً يُجَلَّلُ هامة ديموستينيس منقذ الوطن ؛ فصاره « إيسكينيز » في خطبة رنانة بارعة ، نسي « خطبة التاج » ، بزعم للناس أن

«فسيون» يريد أن يجعل من ديموستنيس حاكماً بآخره ، مرد ديموستنيس بخطبة هي خطبة من الطراز الأول وتسمى أيضاً «خطبة للتاج» ؛ وقد كان لها من الأثر في نفوس الناس أن «إيسكتيز» لم تطب له الأقامة في أثينا بعد ، فمر بها إلى رودس ، ويقال إنه ألقى هناك من مدرسة متبحراً ليعلم الشبان أصول البلاغة . واستأنف ديموستنيس خطبة «القياسية» ، ولكن ماذا نجدى الألقاظ أمام الرواح ؟ لقد غلبت أثينا على أمرها وأصبحت جزءاً من امبراطورية القناصم الفارسي ؛ وحدث بعد موت الإسكندر أن طلب حاكم مقدونية إلى أثينا أن يهادنها وبالمها إذا دعت له ديموستنيس تمناً ، ولكن خطبنا سارع إلى أحد المعاهد وحرع السم وأسلم الروح سنة ٣٢٢ ق م ؛ وأهم ما تمتاز به خطبته بالقياس إلى منافسيه أنها لم تكن كثيراً بزخرف اللفظ وزروق العبارة ، إنما وجهت عنايتها إلى الحجج الدواعي فسوفها حجة في إثر حجة ، حتى إذا ما بلغ الخطاب ختامه كان دفنعا مفعيا

غلبت اليونان على أمرها أمام المقدونيين الغزاة ، ثم غلبت على أمرها مرة أخرى أمام الرومان ، ولكن للظوب في كلتا الحالتين ظل يحفظ له بالسيادة العقلية على الطالب ، وظلت أثينا في كلتا الحالتين حاكمة في دولة الفكر ، فكان الروماني المتقف ينكلم اليونانية ويكتبها ليدل على ثقافته ، ولكن هذه السيادة لم تدوم ، فاجاء القرن الرابع لليلادي حتى اتسع سلطان الرومان وسادت الكنبسة الرومانية ، فانصحت اليونانية مكانها للغة اللاتينية وبقيت اليونانية مشويرة فرونا عشرة ، حتى بقيت من مراقدها حركة النهضة الأوروبية التي كانت لثقافة أوروبا بمثابة الميلاد الجديد . ولا نستطيع أن نطوى صفحات اليونان الأخيرة قبل أن نذكر لم كاتباً ساعراً هو لوسيان^(١) ، الذي كان لعصره

في القكاعة الساحرة ما كان « شرف »^(١) و « مولير »^(٢) و « مارك توين »^(٣) زمانيهم ؛ وكتابه : « التاريخ الصحيح » يصف رحلة إلى القمر ، وضعه في هذا الكتاب — مما نسب بين أهل الشمس وأهل القمر من قتال — قطعة من الأدب الساخر ، لماها أوحى إلى شعرة شبتاً في كتابه « رحلات جيلفر »^(٤) . وقد عاش « لوسيان » في عصر من الشك ، فجاء شكاً لا يؤمن بشئ ، بطن في آلهة اليونان وفلاسفة اليونان ، ولم يحترم منهم سوى ثلاثة : سقراط ، وأملاطون ، وأرسطو ؛ فالبين عند لوسيان خرافة هزيلة ، والفلسفة سفسطة فارغة .

الفصل السادس

الأدب الرومانى

(١) تاريخ الرومان ومؤرخوهم

رجل الكلام ليس دائماً — بل ليس غالباً — رجل العمل ، فصاحب القلم الذى يسجل أحداث التاريخ ويصور جوانب الحياة كثيراً ما نراه حينئذ كفا على نفسه لا مجرد أن يقرء كتيبةً إلى حومة الوغى ، أو بقود فى السهامة حزبا من المعارضين ، واسكن أين — فى الأدب أو فى الحياة — تلك القاعدة التى تخلو من شذوذ ؟ فقد يحدث أحيانا أن يكون حاملُ القلم صاحب العمل ؛ وإن أردت من رجال التاريخ أمثلة نلتقى فيها مصاحبة القول وعظم العمل وجدت فى مقدمة هذه الأمثلة « بوليوس تبصر »^(١) الذى صنع التاريخ بحروبه ، ودَوَّنَ التاريخ بقله ؛ فكتبابه « تليفات » كتبه عن حروب الغال والحرب الأهلية بينه وبين « بومبي »^(٢) فى أسلوب الفصحة الواضحة المستقيمة ، مما يشهد له بالبراعة فى دولة الأدب ؛ وإنما كتب قيصر هذا الكتاب ليدافع عن نفسه أمام الرومان ، ولكنه كان سياسياً قديراً وفناناً بارعاً ، فعرف كيف يعتدل فى حديثه فيبسط للناس قضبه لا يرائى ولا يفاخر ولا يشوه الحقائق ، فهو يدون مذكراته ويصف مفاصله فى خضم الحوادث التى أحاطت به ، والتى كان هو نفسه مصورها وباربها إلى حدٍّ ما ، ولكن حوادث الزمان كانت أقوى من مُصَوِّرها وخالقها ،

« مصرعته على بدي « بروقتى »^(١١) وعُتِبَتْهُ ، ممن أكل الحُفْدُ قلوبهم ، لحاء مصرعه عبرة من عبر الزمان نوحى للشراء بالشر ؛ فأوحى إلى شيكسبير هذه المأساة إلى تصور قيصر ؛ كيف بُدِّله في السلطان وكيف قصعه الموت .

تقرأ كتاب « تطليقات » فترى كيف استطاع قيصر أن يعم أنوف الأشتات في عبارة مطروحة ؛ هذه أنوف الحوادث ، وهذه حلافة كبيرة من حلالته الحربية ، وهذه دسائس ومؤامرات يحولها حول الأعداء والأعداء ، وغير هذه من ألوان الحديث في شئ المسائل نظرد كلها في نسيج محروك ، إنه أَعْمَلُ فُذْرًا وهناك مثالا من كتابه « تطليقات على حروب النبال » :

« ننتقم العال إلى ثلاثة أقسام ، فنقسم البلجيين^(١٢) ، ونقسم الأكويزيين^(١٣) وثالث لن بسُونْ في لغتهم بالككتيين^(١٤) وفي لغتنا بالقالبين^(١٥) ، وهذه الأقسام الثلاثة يختاب بعضها عن بعض في اللغة والمعادات والنواوين ١ والمناظرة ون^(١٦) طائفة من القالبين تختار عن سائر الطوائف بيأسها لأسيا في فندل متصل مع الألمان ، وفي العهد الذي كان فيه « مسالا »^(١٧) « ويزو »^(١٨) قنصايف ، دبر « أوزجبنوركس »^(١٩) — وهو بين الملقبتين في الطلبة — مؤامرة من الأشراف ، وأثنى في روعهم أنه من البسير عليهم أن يكونوا سادة القالبين جميعاً ماداموا أشدم بأساً ، وماهى إلا أن أَعِدَّتْ المدَّة لذلك ، لولا أن باغشت للنبه « أوزجبنوركس » وكان من الطيبى أن بَشَّكْ بأنه انتصر . ومع ذلك فلقد حاول الغلفانيون بعد موته أن يخرجوا عن نطاق أرضهم ؛ فلما أنهى قيصر أنهم

Aquitans (٣)	Belgae (٢)	Brabos (١١)
Helvetii (٦)	Gauls (٥)	Celts (٤)
Anglores (٩)	Frisi (٨)	Messala (٧)

يحاولون أن يشفوا لأنفسهم طريقاً في أرضنا ، جمع كل قوة استطاع جمعها ، وصار بها مدججة ببلالها حتى بلغ جنواً ؛ فأرسل الملقثيون سفراءهم إلى فيصر بالتصون الإذن باحتراق الإقليم الروماني ، لكن فيصر رفض أن يجيبهم إلى ما طلبوا لأنه ذكر أن القنصل « لوسيوس كاسيوس »^(١) قد اغتاله الملقثيون الذين مزقوا جثته وأخضعوه تحت نيرهم ؛ فلما خاب رجاء الهاتيين حاولوا أن يشفوا طريقهم بالقوة عبر الزّون ، لكنهم سرعان ما كفوا عن السير إذ وأوا مقاومة الجند الرومان ؛ فلما انتهت حرب الملقثيين جاء السفراء من معظم أجزاء الغال ومثلوا بين يدي فيصر بهشونه وبطنون أن انتصاره لا ينفع بلاد الغال أقل مما ينفع الشعب الروماني ؛ لأن الملقثيين قد غادروا أرضهم معززين إخضاع الغال كلها ؛ ولما انفضّ اجتماع السفراء بقى منهم وؤماء « إيدوي »^(٢) و« سكواني »^(٣) يرضون سكانهم إلى قبر بأن ملك الألمان « أربوستوس »^(٤) قد حل بمجده في بلادهم وانتزع ثلث أراضيهم وهو خير مكان في الغال كلها ، ثم أمرهم أن يخلوا له ثلثاً ثانياً ، فأرسل فيصر سفراءه يطلبون من « أربوستوس » أن يحدد مكاناً مؤثماً بنقده ؛ لكن « أربوستوس » رد السفراء بجواب جاف ، وأعاد الجواب نفسه في عرض آخر ؛ فلما بلغ فيصر أن ملك الألمان كان يندبر باحتلال « فيسوانسيو »^(٥) عاصمة إقليم « سكواني » صارع بجيشه واحتلها ، فأكاد « أربوستوس » يعلم هذا النبأ حتى غيّر موقفه وأرسل الرسل لتبني فيصر أنه لا يمانع في لفاته مادام قد اقترب أحدهما من الآخر وأصبح اللقاء ميسوراً بغير التعرض للخطر ؛ وأسند المؤتمر ولكه لم يُبرّد إلى نهاية موقفه ، لأن

« أريوستوس » طالب الرومان بالانسحاب من بلاد الغال ؛ ثم سلك نحو الرومان سلوكاً بنى من عداء شديد انتهى آخر الأمر بالقتال ، ووضعت بين الفريقين وقعة على بعد خمسين ميلاً من الرين ، غدت القوسى فى صفوف الألمان وفروا نحو النهر هاربين ؛ صبر منهم من عبر ، وقتل الباقون أثناء الفرار ؛ وهكذا أنجح لقبصر أن يفرغ فى حملة واحدة من حرتين كانتا من أهم حروبه ، فعاد الجيش بعدئذ إلى مرابض الشتاء أسر فيصر أن يبنى من السفن أكبر عدد يمكن بناؤه أثناء الشتاء ، وأن يفتح من السفن الموجودة قديمها ؛ عينت ستمائة من الناقلات وستون سفينة حربية . وبعد أن مضى فيصر ما كان بين رؤساء الغال من نزاع ، فصل إلى ميناء « إنبوس »^(٢٦) يصحبه جنوده ، واستصحب عددًا كبيراً من أعظم رؤساء الداليين ليكنونوا فى قبضته رهينة ، وليحفظ بهم أثناء حياته المنبلة على بريطانيا ، خشية أن يهربوا فى عينته اضطراباً فى بلاد الغال ؛ ولما عبر فيصر إلى الشاطئ البريطانى وأنزل جنوده فى مكان ملائم ، تقدم نحو اثنى عشر ميلاً ، ورد كل جهة عام بها فرسان الدوورا أكبر المجلات ؛ ثم سار على رأس جيشه نحو نهر التيمز مخفياً خلف « كاسيفلونس »^(٢٧) ؛ وكان التيمز لا يشطاع خوضه إلا من مكان واحد ، وهنا حدثت مناوشات انتهت بمقتالته اثنى بريطانيين . وقد أرسل « كاسيفلونس » رسلاً إلى أربعة الملوك الذين كانوا يحكمون « كيث »^(٢٨) والأقاليم الناحية للبحر بأمرهم أن يجشدوا كل قوتهم ليجسوا على المسكر البحرى ؛ وانصرف الرومان فى الموقعة التى نشبت بعدئذ ، فلما سمع « كاسيفلونس » نبأ الكارثة ، أرسل سفراءه إلى فيصريفاوضوه فى أمر التسليم ؛ ولما كان فيصر قد اعتزم أن يقضى الشتاء فى أوروبا للتورات المفاجئة التى اشتملت فى بلاد

النغال ، طلب عدداً من الزهائن ، وحدد جزيرة يدعيها البريطانيون كل عام للشعب الروماني

وكان بحاصر فيصر ويناصره مؤرخ آخر . لكنه أول من أدرخ نارومان في حداد ، ينظر إلى الحوادث نظرة موضوعية ، وهو « سالت »^(١) الذي أنرا . أن كان حاكماً على « نوسيديا »^(٢) وهي إقليم في أفريقيا تابع لروما ؛ طاعته فيصر عام ٤٤ في . م اعتزل « سالت » منصبه وأوى إلى داره في أرض الوطن حيث عاش عيش العلماء في هديه البحث ؛ وهو مؤرخ صائب الحكم ، استخدم أعوانه بفرسون له الوثائق وبقاروناً مبنئ حكمه على دراستهم ، وكان موفٍ ذلك كانها منانا يعرف كيف يصوغ نصته في أسلوب شائق ، وقد حق لنا من مؤلفاته كتابان كاملان هما « مؤامرة كاتلين »^(٣) و « تاريخ الحرب بين الرومانيين وملك نوميديا » ، فكأنما تتعاون كسب فيصر وسالت على تصوير روما ؛ كيف نشرت سلطانها ؛ فقصر برؤى كيف امتدت سيادتها في الشمال ، وسالت بقصر علينا كيف انتصرت رومة في الجنوب . وهما على مثال من كتاب « كاتلين » الذي يصف فيه وصفا ضامها مؤامرة دبرها كاتلين سنة ٦٣ في . م لقلب الحكم في روما . « إني أصعب اللواهب العظيمة للإنسان في مرة أعلى من الخنافس الجذبة » وقد استهزئني عمل المؤرخ لأنه يستخذم مواهب السكائب إلى أقصى الحدود ؛ وكانت العظائم المنحصرة قد اجتذبتني بأدى الأمر إلى خوض المترك السياسي ، لكن جو السياسة بما يملؤه من ضعة وصادكلين ينشأ مع طبعي ، فاعزمت اعتزاله ، لأعصم عسى لإخراج سلسلة في البحوث التاريخية التي وجدت نفسي أشد ملازمة لها ، إذ تخرجت من المؤلفات التي تلوّج وجهه من المنحرب السياسي ،

وفد اخذت مؤامرة كاتلين لتكون أول حلقة من مباحثي .

كان « لوسيو كاتيلينا »^(١) [وهو معروف باسم كاتلين] شريف النسب موهرها ، ذا بسطة في العلم والجسم على حير ما يوجب الإنسان ، ولكنه كان عاليا في جوره قوى الاحمال إلى درجة الشذوذ مستهزا . ما كرا متعدد الجوانب ، أسادا في فنون الدواع ، مقرا ومسرعا في آن معا ، ذا عاطفة محدودة لا تشكها التشكك ، حاضر الهدية لكنه لم يره من البصيرة الناعمة إلا قليلا ؛ وكان متطريا في مقامه حتى لا سبيل إلى إشباعه ، يتحرق شوقا أن يبسط سلطاناه على الدولة ، بعد أن انقضت سيادة « ساللا »^(٢) ، لا يعبأ بالرسائل بلويع غايته ؛ ولما كان بطبعه شديد المراس فقد شجعه على الضى في سبيله شهوة المال وإحساسه بما يفترق من آثام ، والانحلال الخلقي في مجتمع ساده الترف والشره جنبها إلى جنب ؛ وسرعان ما اجتذب كاتلين إلى عصبته أشرس الناس وأشدم استهزاء وأكثرم إسرافا ، وأمعنهم في الإجرام ، فمن لم يكن من هؤلاء قد بلغ منه الفساد أقصاه فذل هذه المصيبة كانت حلقة أن تفسده بتأثير زعيمها المضلل المشوم ؛ نال هذا الرجل لم يتورع في سبيل معاصده أن يقتل ابنه ، ولم يتردد أن يستحث أتباعه إلى اقتراف الجرائم بكافة صنوها ؛ ويقتل هؤلاء الأصدقاء ، وبمساعدة جيش « ساللا » للزحل الذي كانت تحشد جوعه في إيطاليا ، طمع كاتلين في قلب الدولة الرومانية بيدما كانت جيوشها مغتربة في القتال تحت قيادة « لوسيو »^(٣) ؛ وكانت خطوته الأولى أن يصمن انتخابه قنصلا ، وقد فشلت إحدى مؤامراته لأنه هو نفسه قد تحرك للعمل ذل سنوح القرصنة اللاتعة ، لكن التأسرين لم ياحتهم أدى ؛ وكانت عصابة كاتلين عندئذ قد ضمت أعصا ، من أعرق الأسر

ومن مربية الفرسان ، بل إن « كراسوس »^(١) نفسه — فبا بطن — قد ساهم في المؤامرة لا يئنه وبين « ومبيوس » من ناس ؛ وألقى « كاتلين » في جمعية المتآمرين خطابا يحرك كوامن الضمينة في النفوس ، غث هؤلاء الذين يندم المجتمع أن يوردوا إلى البلوتقراطية^(٢) المتكبرة ، التي أفتتنها رزوة جئت من أسوأ السبل ، والتي كان السامعين حق فيها لا يقل عن حق معاصمها ، ووعدهم أن يلقى الديون كلها ، وأن يخفض الأثرياء لأحكام القانون من نفي وإعدام ، وأن يعم تطبيق القاعدة القائلة بأن « من قتل قتيلا لله سآئته » ، وذكرم بأن له أصدقاء في سركر القيادة من حيوش أسبانيا ومور بقاتيا^(٣) ، وأمه لو وثق انطونيوس^(٤) في انتخابه فصلا ثانيا معه لضمان تعاونه .

ذلك هو ملخص خطابه ، ولكنني لأصدقى انطرافه الناشئة بأن المتآمرين قد تعاهدوا في إثناء من خرا ممزوجا بالدماء . لكن أنباء المؤامرة أخذت تنسرب على لسان امرأة تدعى « فولبيا »^(٥) كانت حليقة « ليكيونئوس كيو ربو »^(٦) الذي كان قد طرد من مجلس الشيوخ لما ارتكبه من ألوان السف ، وربما كان ذلك حافزا لكثير من الأشراف أن يؤيدوا شبشرون لمصب القنصلية مع أنهم لولا ذلك لعارضوا شبشرون من الوجهة الدينية لما حُرف عنه من حرية الرأي ؛ ونتيجة هذا أت منلت مساعي كاتلين من أجل القنصلية ، وأن تم انتخاب شبشرون فصلا وإلى جانبه انطونيوس فصلا ثانيا ؛ ولما رأى شبشرون آخر الأمر أن بذور الثورة تنشر في كل مكان إلى حد لا تكفي لكبحها القوايين العادبة ، فقد ظفر من مجلس الشيوخ بسلطة استثنائية بحكم بها الأمة كما تحكم

في حالة الطوارئ للقاجنة ، وكان للجلس حق دستوري في أن يمنحه مثل هذه السلطة ، فلما جاءت الأنباء بأن « مانليوس »^(١) وهو من أتباع كانثين ، قد شق عصا الطاعة في « إروربا »^(٢) على رأس قوة مسلحة ، اتخذ على الفور تدبيراً إدارياً ، وبعت بقوات حربية كانية إلى أرجاء البلاد جميعاً ؛ أما كانثين نفسه فلم يفعل شيئاً في القتال ، وحضر إلى مجلس الشيوخ فواجه شبشرون على الملأ ؛ فلما أجابه بالفاظ السباب فوطع بصيحات مستنكرة ، فاندفع خارج المجلس وهو يصيح : « ما دمت محاطاً بالأعداء منبذاً ، فإن للدار التي أشعلتموها حولي أن بنطني لها إلا بدمائكم » ، وأدرك أن التلكؤ قد يفضي عليه ضربه من فوره إلى معسكر « مانليوس » تاركاً وراءه « شبشجوس »^(٣) و « لينتيوس »^(٤) بشلان القسنة في روما ؛ وأرسل خطابات إلى كتله من دوى للنائب العليا يعلن فيها أنه سيعتزل في مرسيليا ، ولكنه يمت برسالة تختلف وما ورد في الخطابات ؛ إلى رجل ظن خاطئاً أنه موضع ثقته هو « كاتاليس »^(٥) الذي يلدو إلى نلاوة الرسالة في مجلس الشيوخ ؛ ثم علم فيها بعد أن كانثين قد اتخذ لنفسه حقوق اقتنصل وانصل بمانليوس ، وعندئذ أعلن أنه خائن مارق على أمنه ؛ وفرضت ضريبة على الشعب ، وعين أنطونيوس قائداً في حومة القتال ، وبين شبشرون في العاصمة لتصرف الأمور ...

في جبل واحد شهدت روما من كُتِّب التفر قبصر وشبشرون وسالت ؛ وفي الجبل الذي تلاه ، دخلت المسيحية روما وأصبحت الإمبراطورية الرومانية هي العالم يحكمها تياسرة ذوو نغامة وجلال ، وأول هؤلاء « أوغسطس »^(٦) حتى

Cethegus (٣)

Etruria (٢)

Manlius (١)

Augustus (٦)

Catilina (٥)

Leulabur (٤)

سمى العصر الأدنى عندئذ بالعصر الأوسط، كما يسمى العصر الذي شهد شيكسبير في إنجلترا بعصر ألبيسات ، في ذلك العصر الأوسط الزاهر كان في طلبه المؤرخين ، وعلى رأس كتب اللاتينية التأثيرين « ليفي »^(٢٢) الذي حاول أن يهون نسخة روما كاملة منذ نشأت حتى عصره في مؤام عوانه « كتب في التاريخ منذ أسست المدينة » ، ولكن لم يبق من كتابته سوى رسما ؛ مكان هذا المثال الثاني كمبلا وحده أن يسمه في الصف الأول من رواة التاريخ ، وذلك بإجماع الآراء من مؤرخي العصر الحديث ؛ هو لربما كاتب ملخصها التريفة السكبرى كما كان « فرجيل » كاتب ملخصها شعرا ، وإن لثمة خفة فوبة من الشعر ؛ فروما في العصر السابق للسيح لا تحبها على صدحات التاريخ إلا في هذه الصورة التي رسمها « ليفي » ، مكأما هو خالفها ؛ وعلى الأصح هو باعها ونشرها من كتب المؤرخين السابقين . كان « ليفي » ينظر إلى عصره نظرة القشائم ، شأنه في ذلك شأن كثير من الفلاسفة والمؤرخين ، فنقلت إلى الوراء يروى إلى تاريخ أمته في مجدها للناسي بين ملوها الحسرة على سؤدد نديم بنهم ؛ وليس ذلك بهجيب من رجل وله مؤرخا ، فن لم يفتنه ماضي أمته لم تهبطه العاطية أن يكون مؤرخا لها ؛ وهكذا كان « ليفي » مؤرخا موهوبا مثل من سبقه من المؤرخين ، ووضع الأساس لكل من جاء بعده برجد أن يؤرخ لروما .

وفي النصف الثاني من القرن الأول بعد ميلاد المسيح ، وفي أوائل القرن الثاني ، جاء « ناسيت »^(٢٣) ثالث الأعلام من مؤرخي اللاتين وكتابه « حرمانيا » أول رواية نفسها مؤرخ عن النيون الأوائل الذين عاشوا منذ ألفي عام ؛ فقد أعجب « ناسيت » — كما أعجب قيصر — بهؤلاء القوم الذين كانوا في نظر اللغفين من

الرومان عسكاً بُدائياً من تلميح التوحش ، ولكن كان من عوامل سبادة الرومان أنهم على ما أظهرنا من قسوة و بطش شيرهم من الشعوب والقبائل ، كانت لا تُعيدهم إلا ثانية عما لحسا من حسرات ومرورها عيذاب فيه شيء من العدل والإنصاف . ولعل « ناسيت » حين أشاد بضائل تلك القبائل الجرمانية في بساطتهم وشهائمهم أراد بذلك أن يلقى درساً على جماعة الرومان الذين أقدموا التزلف والإسراف ؛ أفرأله هذه القطعة الوصفية تقتبسها من كتاب « جرمانيا » يمرض بها على بني وطنه صورة من الحباذ بين القبائل الآرية تفعل ما أرقوه : « إن وابط الزوجية بينهم صارم وشديد ، وليس في أخلاقهم ما هو أجدر منه بالثناء ؛ بأنهم يكادون ينفردون بين البرابرة بالأكففاء بزوجة واحدة مع استثناء نظر قابل مهم يُتفادون الزوجات ، لاعتن إغراق في الشهوة ، ولكن بقصد التحالف الذي يطلب إليهم أن ينفدوه ، لما لهم في قومهم من مكانة ممتازة ؛ ولا تُؤبر الزوجية زوجها بل يهر الزوج زوجته ويجمع الآباء والأقرباء لبيدوا علامتهم الرضا بما قدّم للزوجة من هدايا — وإسها لهدايا لا يُختار لتشييع أذواني النساء أو تستخدم في زينة العروس ، ولكنها تزيّنة وحبول مطهمة ودرع وحراب وسيوف ، فذلك هي الوسائل لخطبة الزوجة التي تُقدّم أيضا الهدايا إلى زوجها مؤلفة من صنوف السلاح ؛ وذلك في رأيهم أدوم ما يربط بين الزوجين ، وفيه كل أسرار التفديس وشعائر الدين ؛ ولكي لا نطن أن الزوجة معمة بما ترضه جهود الشدة من جهود ، أو مستندة من أخطار الحروب ، فإنها تُقيم يوم الاحتفال بزواجها أنها إنما جاءت إلى زوجها لتشاوكه كدح السل وأهوال الخطر ، ونفاسته العمة والنفس في السلم والحرب . . . هكذا تحيا وهكذا تموت ، فقد ورثت ما لا يد أن نورته أبناها مصوناً كريماً . . .

وكذلك دون « نايبت » تاريخ عصره وعلى لنا من كتابه هذا جزء كبير هو أساس علمنا بالقياسرة الأولين . وإن عبقرية « نايبت » تبدو على أوضحها وأجلها في قدرته على تصوير الأشخاص وفي أسلوبه الذي يتميز بالإيجاز المحكم ، وهو فيما كتب أخلاق صادم ، يرض لقضائه آلام الأباطرة لا ينفي منها شيئاً ، ولكنه رغم ذلك يؤمن بالإمبراطورية الرومانية ويمجد الخلق الروماني لأن الفضيلة قلته وصحبه ، تناسبت — كسائر المؤرخين القدماء — كاتب أخلاق وطني فنان ؛ وتلك روح لا تزال تنسها في المؤرخين المحدثين حتى أولئك الذين يحررون على أن تكون دراسة التاريخ موضوعية محابدة تعتمد على الوثائق وحدها ، وعلى البحث عن الحق وحده ؛ طبع للمؤرخ — بما يبدو — بدءاً من أن يكون كذلك . على أن قراء هذا العصر لا يطالعون تاريخ روما في تلك الأصول اللاتينية التي ذكرناها ؛ بل يطالعونها فيما كتب للمؤرخون المحدثون الذين درسوا هذه الأصول واعتصروها في اللغات الحديثة ؛ وأولاًم بالذكر هو « إدوارد جيبون »^(١) الذي جد كتابه « ندهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » آية في الأدب الإنجليزي

(ب) شعر المهرم في العيونية

كان مطلع الأدباء الرومان أن يفتشوا أدبا يولزي في عظمته ما أنشأه اليونان ، وذلك ما أملاه عليهم الطموح في الفن وأوحاه إليهم حب الوطن . وإن غاتهم أن يحفظوا هذا الأمل في الروايات المسرحية ، فقد أوشكوا أن يحفظوه في الشعر على يدي شاعر اللاتين الأكبر « فرجيل » (٧٠ — ١٩ ق م) الذي ظل

الأوريون فروناً يطلقون عليه اسم « الشاعر » كما كانوا يطلقون على أرسطو اسم « الفيلسوف » . وما أسرع ما أحاطه الأوريون في القرون الوسطى بهالة من النفوس ، كأنما هو رسول من رسل المسيحية ، وظنوا به السحر وأنفوا حوله الأساطير ؛ واتخذ « دانتى » في القرن الثالث عشر مرشداً وهادياً ودليلاً ؛ هو شاعر الرومان غير متنازع ، وواحد من أئمة الشعر في العالم لو عددت منهم خمسة أو ستة نضمهم من قافلة الشعر في الطبيعة ومكان القيادة . وأول ما أنشده فرجيل من خالده الشعر « أناشيد الرعاة » وعددها عشر ، يصعب بها حياة الرعاة في الريف وما يدور بينهم من أساطير ، يحاكي بها شعر ثيوفريطس في اليونانية ، ولكنها مترعة بحب مرجيل للطبيعة ، وملوثة بتضحيات الحقول في شمال إيطاليا حيث أقام الشاعر ؛ وإن هذه « الأشعار الريفية » لسكافية وحدها أن تجعل من فرجيل شاعراً قومياً لإيطاليا القديمة وإيطاليا الحديثة على السواء ، وهل تغيرت مناظر الريف في إيطاليا أو تغير بها الربيع ؟ ولقد أحسن فرجيل بحمال الريف في الربيع على نحو لم يتوافر لشاعر إيطالي سواه ، هني كسب الشاعر هذه الأناشيد ؟ كتبها في صدر الشباب ، وكانت الناية التي جعلها أبوه أول ما شهدت عيناه ؟ فما شب وغشى روما ، ذهب إلى المحكمة بدافع عن قضية أمام القضاء فالتفت عليه النول ونهت من اللسان ، صرف أنه لم يخلق لذاك ؛ ثم أراد أن يكتب تاريخاً لروما ، ولكنه وجد نفسه جاهلاً بروما وناربخها ، فأدرك أنه لم يخلق لهذا أبناً ، فأدار عينيه نحو الريف الذي نشأ بين أعشابه وأشجاره ورعاه ، فكان أن أخرج هذه المجموعة من الأناشيد ؛ وكان الإمبراطور قد أخذ بنفس الحقول والزراع بين أتباعه ، عوقبت مزرعة فرجيل التي ورثها عن أبيه نصيباً لصابط من غليظ ؛ ولكن رجلاً من حاشية الإمبراطور كان قد قرأ « أناشيد

الرعاة ، وطرب لها ، فنوسل إلى الأمر لطور أن يرد الشاعر أرضه للزراعة ؛
وهنا تنقرأ لفرجيل شعراً جميلاً يصف كيف دار الخوار بين الصابط وبين من
ذهب لبسطه الزرعة

— صاح الصابط في ضمة جافية

عنى أيها الأوغاد فارحلوا

فأجلب لبسدا^(١) صديق الشاعر

— اللهم رحك ! كيف أباح الفسبُ المانحُ

لائِ إله الحرب في سوره أن ينزل من إلهة الشعر ؟

من ذا إذن يفتى عرائس الجن ، ومن ذا ينشر الظلال الأخضر من
ينابيع المياه ؟

وإن قصة لُروى عن نشيد من هذه « الأناشيد الريفية » ، وهي ثمانية في
ظاهرها ، ولكنها هامة في تاريخ الأدب لأنها تمثل هذا الإكبار الذي قوبل
به فرجيل عند رجال الكنيسة في المصور الوسطى ؛ فقد روى الشاعر في هذا
النشيد رواية غامضة عن طبل يولد ينشر السلام في الأرض ؛ ففسرها المسيحيون
بأنها نبوءة لقدوم المسيح على أن الأشعار الريفية مهما بلغت من حلاوة وطلاوة ،
لم تكن سوى تدرب أدبي يهد الشاعر نفسه به لمجموعة أشعاره الثانية وهي :
« أشعار الخمول »^(٢) — وتقع في أربعة كتب — هذه الأراجيز هي شعر
الطبيعة بكل صفاته وخصائصه ، هي أنشودة الملاح حين يبحر في الأرض ، وبنافح
الزراع ويرعى للماشية ؛ ولعل « ميسناس »^(٣) ويرر أغسطس وحامي الأدب
ومشجعه — هو الذي أراد أن يحمل على الذين هجروا الريف إلى المدينة ،

اتفق مع الشاعر أن ينشئ هذه المجموعة من الشعر تدور كلها حول الزراعة ،
حتى لقد كتبها نادراً في أصول الزراعة ، زراعة السكر والزيتون وأشجار
الفاكهة ؛ ولقد ترجمها الشاعر الإنجليزى العظيم « دزبدين »^(١) إلى الإنجليزية
شعراً جميلاً هو خير عوض لمن لم يفتقر للأصل في لامينته . وهناك مثالا من
هذه القصائد :

جاء الربيعُ عزَّيْنُ القنابِ وجَدَّةُ الورقِ
ونهجت أرحامُ الأرضِ تستقبلُ النذورِ
« ط عندئذٍ كبير الآله من عليائه ليدقق
في عروبته الفتيّة ردأوا مشعراً
وغالطت أعضائه أعضاءها

نظم صغار البتِّ عَصيراً كَرَبَماً ، وازدهرت في رعاية الله أعشاب منزاحة
وأخذت الأظفار للرحمة تؤم القاب للنعول
وأخذَ الحَبْرانُ — وقد فسَّته الطبيعة — بعيد ألوان الحب والفول
و بعد « أشعار الحفول » أنشد الشاعر ملحمة السكرى « الإلياذة »^(٢) .

وهي تقع في اثني عشر كتاباً ، أنشئت السنة الأولى منها على مثال الأوديسة
لهوميروس ، وفيها يقص الشاعر مغامرات بطله إينيس بعد أن دمر الإغريق
مدينته طروادة ؛ وقد مر إينيس في أسفاره على فرطاجنة ، وكان ما كان من حب
بينه وبين موليكتيا « ديدو » مما سبق في ذكره . وزار الملوك السلي لباتي
بروح أبه أنسبز في حنة الخلد . أما السنة السكتب الأخرى من اللحنة فقد
جاءت على غرار الإلياذة في أنها تدور كلها - حول الخروب التي منها إينيس ليدسط

سلطانه على مملكة أراد له الآلهة أن يكون حاكمها — وهي إيطاليا — وقد أراد فرجيل بالإنابة أن تكون واجبة يؤديه نحو وطنه العزيز ، وأن يعبد بها إمبراطوره أوغسطس ؛ أليس أوغسطس يبدأ عن مستوى الشر قريباً من سرنية الآلهة ؟ إذن لا بد أن يكون سليل أسرة إلهية مقدسة ، وما دام أوغسطس على هذا الجلال العائى في نكوبته وخلقه ، فمن ذا عسى أن يكون حده الأكبر وأصله الأول ؟ لا بد أن يكون الأمير سليل « فينوس » إلهة الجمال ، وفيينوس كانت قد أبدت طروادة ضد « أثينا » التى ناصرت اليونان فى ذلك القتال القديم الذى نشب بين الشعبين ، وإذن فلا ريب أن أهل طروادة هم أسلاف الرومان ؛ هذا هو الأساس الذى أقام عليه فرجيل ملاحته « الإنابة » ، ولكن كيف نم لهؤلاء الطرواديين القدامى أن يظفروا أرضهم إلى روما فينسلفوا أبناءهم الرومان ؟ إن « أنثيز »^(٢١) — وهو من أسرة طروادة عريضة قد اتصل بإن شابه وجهه بفينوس ، فأمر الاتصال بينهما « إينياس »^(٢٢) ، وهو الذى رحل إلى روما مع أنباغ وأتباعه ، نساكن هذا الأمير الإلهى الجليل جداً أكبر لأوغسطس العظيم . وتخطى^(٢٣) فى حق الشاعر لو صوّرت لنفسك الإنابة نصيدة مدح تقدم بها إلى الإمبراطور ليلقى منه جزاء حسناً على ما أنتد ، لأن فرجيل كان عندئذ قد ضحكت نرونة وفوى تأثيره على الإمبراطور ؛ وإنما أنتد ها فرجيل شراً بسيطاً جبلاً بشيد فيه بجعد الرومان ، وجمع قارنه لا أكثر ولا أقل . والعجيب فى الأمر أنه حين عرج من فرض ملحسته أخذ الحياء والحجل ، أو قل كان من الشك فى فيه شعره بحيث لبت أعواماً لا يعرض فصيدته على أوغسطس ؛ وأخذ الإمبراطور يرجو ثم يرجو ثم أخذ يعد ثم يتوعد ، حتى أطلقه الشاعر على

ما أنشد . ومن لطيف ما يروى أن فرجيل وهو يقرأ للملكة أمام الأمبراطور وزوجته الأمبراطورة أوكتافيا^(١) عند أثر في قلب الأمبراطورة حين ورد في القصيدة ذكر ابنها ، فسقطت في إغماء لم يُفَق منه إلا بعد عشرين ومشفة ؛ ولقد قال في الإنيادة إذ ذاك شاعر :

أذعنوا يا كُتَّابَ الرومان ، وأمسكوا أيها اليونان !

إن هذا الرجل لينطنى بشر أبن منه شر هوميروس

اسكن « فرجيل » أحسن في فصيدنه قصصاً شديداً ، وثأر تأثيره نقد النقاد بأنه سارقٌ سطا على هوميروس . مصمم أن يهجر روما إلى أرض اليونان وآسيا الصغرى حيث بقيم ثلاث سنوات يَمْتَلِئُ أشعاره ويزيل عنها كل أثر لسلطه الضرب ؛ لكنه وهو في طريقه تامل أوغسطس في أثينا ، وألحَّ أوغسطس أن يرافقه الشاعر في سفره ؛ وصلاصحه إلى ميفارا^(٢) ، وهناك لَفَحَتْهُ حرارة الشمس فأصابته الحمى ومات في عامه الثالث والخمسين //

لبس الشعر . إلا بشراً ؛ ولكن لو صدق حيال الإنسان مبهم وكان لم وَخِي وإلهام ، لما وجدنا عبارة نصف بها فرجيل خيراً من عبارة أخرها في ملصحته على لسان « ديدو »^(٣) نفوطاً لحبيبا « إنياس » : « إني أؤمن أن دماء الآلهة تجري في عروقه » . وهناك خلاصة لهذا الأثر الأدبي الجليل

١ — كتب وفر إنياس « الطرواى على فرطاجنة :

فرطاجنة ، تلك المدينة القديمة التي بناها المهاجرون الدارحون من صور^(٤)

(١) Octavia (٢) Megara (٣) Dido

(٤) Tyre صور وميدا مدينة الفينيقيين يدعى الشام . ومن مدينة صور هاجر بعض الفينيقيين إلى جوار تونس الحالية حيث بنوا فرطاجنة

تواجه إيطاليا ومصبّ النّيجر
على مَهْدَتِهِ ، عَبْرَ العباب ؛ تلك الدّينة الغنية بهما ،
المُفْدَاتَةُ في حومات فتالها
قد وصلتها « جورو »^(١) على سائر البلدان
ودسمت لها خُطَّةً — إن شاء القدر —

أن تجعل منها سِدَّةَ العالمين ؛
ولكن هلمت « جورو » أن فيبلا من أنسال طروادة
كُتِبَ له أن يَذُلَّ من أرض « صور » فلاعها ،
وينشر موت الأرض ساعدا ، ثم يعطو في ازدها ، الظافرين
وورد أرض ليبيا حَتَفَها ودمارها ؛ بهذا جرى حَكْمُ القدر ؛
فارتامت لذلك جرنو ، واستعادت ما مضى من قتال
حتى وطئته عند طروادة من أجل اليونان — وهم أحيائها

... ..

فجاءت الإلهة أن تكون في الطريق إلى أرض اللانين سَدًّا مديبا
فنهول دون أولئك الطرواديين الذين سَلَّتْ جلودهم من سيف الإغريق
ومن عُقْبِ أخيل ، عَصَرَتْهُمُ لأهوال البحار
وهكذا لبث الطرواديون أعواماً وأعواماً
بحوسن خلال البحار هَمَّين في مه القدر ؛
ميا له من جهد كابدوه لينشئوا شِيبَ الرومان ؛
لم يَكُنْ هؤلاء الطرواديون الهاربون — إينيس وأبانه — يقاتلون بدفهم

من صقلية بعد تحوال طويل ، حتى أصرَّتْ جِوَرُو أن تمسى فى عتادها وأن
نصب عليهم قسما ؛ ذهبت من فورها إلى « أبولس » ^(١) ملك الرياح ، والتفت
به فى جيبه الخفيف الوحش ، ونوَّسَتْ إليه أن يثير عاصفه هوجاء بذهب بأولئك
للتاكيد إلى أغوار الماء .

فسدَّ ربحه وضرب به جفَّ الجبل
فأوغل ، وابثنتْ رياحٌ كأنها القرسانُ إلى أرض الوحى
اندهست . خرجت من مكان الطمن نجتاح الأرض اجتياحا
واقصت على اليم منفتت إلى أعمق الأعماق
ترجما بريح من شرف ودرج من جنوب ،
وأخذت الأمواج الخفيفة بحو الشد زحفها ،
فلا ألو صياح الرجال وصرير الحبال
وسرعان ما حجب الغمام من أعين الناظرين
ورفة السماء وضوء النهار ؟

وجنم على صدر البحر ليلٌ قاتم محزون ؟
ثم انتشت السماء من لحات من البرق خاطفات
لمست ضوئها وألمرت رُود البحر بموت قريب
وبلغنى بعض الراجلين حشوحهم فى تلك السواصف الهوجاء ، ولكن
« نبتون » ^(٢) لا يلبث أن يُشكِت الريح ، وينحو باللائحة على تلك الرياح إلى
عصفت بالمحور دون أن يأذن لها وهو رب البحار . وكانت سعية إنباس قد
رست فيها رسا على شاطئ ليبيا بنجوة من الحطير ؛ وهنا نثفل اللحمة بأحداثها

إلى أجواز الأثير؛ حيث الإلهة حامية إيفياس — وهي فينوس — قد أوت
نسكب من عينها الدمع الغزير حزناً على ابنها؛ وتصب الشكاة ضحاً في مسامع
أبيها «جوينر»^(١) مما قسّت به «جوينر» على إيفياس ورجاله من أهوال وحطوب:

رباه يا منْ بحكم سلطانه الأبدى

الأناسى والأرباب بقواصف وعده الخفيف،

مِم أنْصَبَك صاحي إيفياس؟

وما الذى جنّاه أهل طروادة حتى أوصدتْ

— بعدما عانوه من فوادم الكروب —

في وجوههم — هذه الدنيا العريضة بما وسعت،

لحِيل بينهم وبين إيطاليا لا يَبْلُغُونَهَا؟

إلى لَأَعْلَمُ علم البقن أن قضاءك قد جرى بأنه في مجرى السنين

ستعجب تلك المشبرة ذلك الزعم الرومانى

الذى سَفَنَهْهُ دماء أسلافه الأجداد

بمحكم البحر والبر حكما غير محدود

فبُستَرعى جوينر عن فينوس حزنها بأن يكشف لها عما نَصَبَ به في عالم

الغيب، ويؤكد لها أن قضاءه لم يتغير «إنها إيفياس سبشتى» ملكة في أرض

الكلانين وسيفلعه من بعده ابنه «أسكانيوس»^(٢) مبطو مجده وينقل من ملكة

من حاضرة أبيه «لافيوم»^(٣) إلى مكان جديد هو «ألبانونجا»^(٤)، ثم تنفى

ثلاثة فزون على ألبا لونجا قبل أن ينفى «رومبوس»^(٥) — سليل الطراوديين

مدينة روما ، قال جوينر :

وسيطاً بين روميلوس اسمه على عشيرة الرومان

ولن أضع أسلطانهم قيوداً أو حدوداً

فاني وأهليهم ملكاً لا تحدهم الأطراف ،

وسدخشام جونوالتي تسبذ اليوم بأرجاء الأرض والسما ،

مذبذباً لشعورها ، ونقف إلى جانب « جوف »

من دون الرومان حارسه نصيبهم وهم سادة البشر

وبعض جوينر فينبأ بالنصر بحرزه الرومان على اليونان ، ويختم حديثه

بعبارة عن غدوم الفباصرة من أصلاب الرومان ؛ ثم تعود القصة إلى إينيلس

نروي أنباء رحلته ، صاهوذا بحبب الأرض على مغربة من شاطئ ، إيريقية

ميلنق بأمة الإلهة ، وقد ذكرت في هيئة فتاة صائدة وتنبه أنه إنما بحبب في أرض

تلكها ملكة « صور » ، واسمها « ديدو » ، وقد هجرت وطنها في فنيقية بعد

أن مكر أخوها « بيباليون » ^(١) بزوجها « سيخاوس » قتلته ، وهي الآن

نبنى حاضرة جديدة لتلكها ، وهي فرطاجنة ؛ ثم تشير فينبس على منها أن

بأخذ سمته نحو فصر الملكة ، وتزعم له أن بها من تدره الكشف من الفيب

ما ينبأ أن سفنا أخرى غير سفينة إينيلس قد بلغت الشاطئ ماملة من العطب

ثم استدارت ، فاهتز على جديها ضياء من لون الورود

وفاحت خائل شعرها بصير كاه أريج من القردوس

وفاضت على الأرض حواشي رداها

فكشفت عن الألهة الفاتنة بمحني طلعتها ،

إليها أمه ! فقل إليها راجعا بصيحه بها هاتفا :

« إلهي ما أفساك ! هم حيرة ابنك

رُبكِته بهذا التكرُّر المجيب ؟ ولم لا نسمع بالأیدی

نسمع بعضنا من بعض ونجيب بعضنا بعضا بكلام صريح ؟ »

فكان جوابها على قول أنها ذلك أن رَمَلَتْهُ خِامةٌ عجبةٌ تُخَفِّيه عن الأبصار ،

فدما هو وصاحبه الوقُّ « أشاتس » ^(١) — منتفعا بنامته — من مدينة الملكة

وصوبَ إليها البصر من نَشْرِ كان يرضيه ، لم يسمعه أن يبط أهل فرطاجية على

هذه الحركة الدائبة هم يقدون وروحون ، في شغل بشيدون ، كأنهم النحل

في حلبته ؛ ولما دنا « إيشباس » من مسجد أنيم بين عرائش الأشجار ، أدهشه

أن يرى حروب طراودة قد صُوِّرت على الجدران ميلفت إلى زميله

أشاتس ويقول :

هـ نجد — أي أشاتس — من الأرض مومنا أو مومعا

لا يزوج بأنباء طراودة الخزينة ؟

ذلك هو « بريام » — انظر ! هاهنا كذلك قد أقيمت الشجرة جزاها

إن العالم لتضمره الدموع : ألا إن خطوب الإنسان تنهز غلب الإنسان »

٢ — الملكة دبرو وبهرطيا

بينما كان كل شيء يبدو عجيباً للأمير إيشباس

إذ وصف سهونا في دهشة عبقة

عددت جزت إلى الحرم مليكة فناة الجلال

هي « ديدو » تحوطها حاشية من البوابل الشجران
وأخذت اللسكة وهي مربعة على عرشها تصرف شئون ملكها ؛ وإينياس
وصاحبه أثناس برقيانها وهما في رداثها بختيان ، وكما بلغت معها الدهشة حين
أمصرا بفريق من أصحابها في الرحلة بذنوان من مجلس اللسكة ، وكانا قد بلسا
من وجودهم بين الأحياء ؛ وهما ذان بسمان أولئك الرفاق الذين تحطمت بهم
السفن بصرعون إلى اللسكة « ديدو » أن نُكْرِمَ لقاءهم وهم رجال إينياس ،
فجوب ديدو على ضرائعهم جوابا كريما :

ألا أزعجوا عن نفوسكم الخوف وانقضوا المملا نورا !
فن الذي لا بدري ما طروادة ، وما عشيرة إينياس ؟
من الذي لا يعرف الرجال وأعمال الرجال واشتعال القتال ؟
كلا ، إن غورنا نحن القينيين لم نبلغ من البلاده هذا الحد البعيد ،
إن هذه المدينة — التي أنفها — مدينكمه فهاوا إلى البر
سفيتكم ، إلى أهل طروادة وأهل صور
سبحدون في ديدو ما يكم لا تعرف القوى ؟
أواه ! ودقت لو دمت الرمح التي دقت فلككم
أميركم إينياس ، إذن لكان أزد أن به بلاطى !
وكانت ديدو على وشك أن تُغِدَّ رُسُها ليعثوا عن إينياس ، مكشف
البطل عن نومه بخروجه من تلك القامة المحببة التي كانت تلغ له لتخذه
وهكذا وجّه اللسكة الخطاب ، وطاجا الحضور
محدثه فوجت السامون : ، انظري هانذا —
أنا الرجل الذي منه تبعين — هانذا إينياس مائل بين يديك ،

أنا سليل طروادة الذى سلم من أمواج لبيبة ؟
مولاي ! أنت يا من أحسست وحدك الرحمة نحو طروادة
ماشفقت عليها فى الحنة القاسية ؟
وهأنذا ذى نفاسمينما البلدا والدارا ،
أبنا للسلطنة ديدوا لأن تجزيبك على مصك الجزاء الوفاق فذلك فوق
مقدورنا ، بل فوق مقدور قبيلة « داردانوس » فى أنحاء العالم أجمع ،
فإن كان هناك بين الأرماب من يرقب الخير ،
وإن كان ميزان العدل قائما ، وإن كان للشعور بالحق وجود صحيح ،
إذن مايجزلك الآلهة عما نلت خير الجزاء .
أى عصر سعيد قد أثبتت ؟ حدثنى
من أولئك الأسلاف الذين تسئلوك رائحة الجلال ؟
ما دامت جداول الماء نحو البحر دائمة ، وما دامت ظلال الجبال نحو الوهاد
منحدرة ، وما دامت السماء ترحى أملاكها ؛
فسيظل ظلي نابضا بذكر ديدوا مادحا ومسكر ما
أبنا كشت فى طول البلاد وعرضها
مدهشت ديدوا بادى الأمر أن ترى
ذاك الأمر ، ثم مكرت كم لافى من حطوب
« أنت يا من ولدتك الإلهة ، أى حظ منكود افتنأك
فى مفاسرائك الخنوفة بالخطر ؟ أى قوة
دهشت بك إلى هذا الشاطئ اللوحش ؟
أنت هو بعبته إبنياس داك الذى ولدتته فينوس

وكان أشعر الفاردي له أباً ؟

وتروى الملكة ما كانت قد سمعته من الطرواديين من صديق قديم لأبيها ،
ثم نسط بدعا بالسقاء الكريم والفاء الحسن لابنيس ورفاهه
وحدث أن أقامت الملكة مأدبة فاخرة ، وبينما الحفل قائم نهضت ديدو
بين تلك الأروار الزاهية الساحلة ، وطلبت إلى ضيفها أن يقص قصة الكارثة
الأخيرة التي نزلت بطروادة ، وأن يروي عن نحوه الذي أشق به سبع سنين

٣ - سقوط طروادة :

حُزِنُ بِطَرَسُ اللسان ؛ ذلك - أي ملكتي -

ما أترتني أن أجده - نطلين أن أروى

كذب ذلك الإغريق من طروادة سلطانها ،

وتلك المشاهد الأليمة ما وصفتها ،

وكان لي أن ألب بها دَوْرًا عظيمًا ؛ أفى قصة كهذه

يسطيع حندي من « الهميديين »^(١) أو من « الهولونيين »^(٢) ؛ بل هل

يسطيع أحد من رجال « يوليسيس » القاسي القلب أن يمسك من صنع الدموع ؟

ها هو ذا الليل الرطيب يسارع إلى السماء يَنشأها ،

والأنهم الزواهر تدير بإطباق الجفون ؛

ولكن إن كنت بأحرارنا مشغولة

وأردت خلاصة لآخر ما حل بطروادة من خطوب ،

(١) Myrmidons — جد أخيل

(٢) Dolopians — فرقة من جد الإغريق

مرغم ما ترتج به النفس من أليم الذكرى
ورغم ما يذيب النفس من الأسى ،
سأروى لك ما نطلين »

وبأخذ إينياس في شرح خدعة الحصار الخس الذي انتقل في جوفه
الحاربون الإغريق إلى مدينة طروادة التي كسب عليها الدمار ؛ وروى عن
سلك الدماء واشتعال النيران في الليلة الأخيرة التي بشت الرعب في النفوس ،
وبتذكر إينياس وهو يروى كيف هصر من نعاسه فرعا على أثر حلم مخيف شهد
به أخاه هيكتور جثة تنقلب في دماها وتصرخ في الرغام حين أخذ أخيل يجري
سها مشدودة إلى مربته

أنهضت نفس من نعلس ، وعلوت
من الدار سطحا ، وأرغفت أذنى ثنثتان ،
سكا نقتش النار عاصفة جنوبية هوجاء ،
نقلتهم الحصاد التهاما ، وترك الحقل بلقما ؛
أو كما ينحط سيل دفاق اللاء من أهل الجبل
تغير في الحقل إغراقا ، ثم يفرق الزرع البهيج
الذي كدحت الثيرة في إعداده كدحا ،
ثم ينساب فيقتلع الغاب ويكنسه —
كما يحدث هذا فيهب الراعى غير عالم بما حدث
يهب وتد جمع قرصة على مبهدة

فيقف مشدوها على رأس صخرة عالية ؛
هكذا كفت وزلت التلال ، وانضحت خدعة الإغريق ،

مها هنا دارٌ تقوّضتْ بلعيبها
وانعكس وهج الدار على أموال « سجيوم »^(١)
وصاح الرجال ونفخت الأتواق
فجئن جسونى واستثقت حسامى فما أحرها شهوة
أن نجمع حفنة من الرجال وأن نخف مع الرقائى إلى الفلاح ..
واستدحت عنى نورة السخط وتس الجنون
وحدثنى النعس أنه حبل أن يموت تحت السلاح .
لكن كل جهدى مقاومة الأعداء كان عبثاً لا يلقى عن المدبنة شيئاً .
وجاء رسول بفي* إبنيلس أن قد صاع كل نبي .

ولفت « داردانبا »^(٢) يوم حفنها ،
ولك ساعة رغبة هبات أن يجدى فى دنها كفاح الإنسان !
وذقت رجحنا نحن الطرواديين ! ونصى الأمر فى « اليوم »^(٣)
ومجدنا ذاك العظيم
قد نحول كله — يعمل جوف الجبار - إلى قبضة الأخرى !
ومدبنتنا — وهى بالهيب تسمر — مات الإغريق سادتها
وهكذا انتصر الإغريق على طروادة نصراً حاسماً ! فأمرت الأميرة
« كاساندرا »^(٤) وفنل الملك الشيخ « پريام » ، وتظهر « فينوس » لناس إبنيلس

(١) Sigeum — اسم وألى غرب الهردنيل

(٢) Dardanis أى بلاد دردانوس مؤسس طروادة الثانى . (٣) Heim

Cassandra (٤)

والفرار ! مبهمل إينياس أباه السكهل على عاتقه ليخرجه من أسوار المدينة ! ويتبعه
ابنه « بولس »^(١) ، لكن روجنه « كرورا »^(٢) تصل في اللدنة للمضربة
ملا ناحي به ، حتى إذا ما عاد إينياس بفتقدتها ألقاها جثة هامدة

٤ — مفاسرات إينياس :

بنى على إينياس أن يردى للسكف وسائر الحضور فضة مفاسراته وهو في
طريقه إلى بلد أراد له القدر أن يكون موطنه ! فقد ابني لنفسه أسطولا وأبحر
به حتى بلغ ترافيا ، لكن روح « بوليدورس »^(٣) للفنول رمرت حوله منذرة
إياه أن يسرع بمفادر « تلك الأرض القاسية » هاربا ! وواصل هو وصحبه السمر
حتى أدركوا « ديلوس »^(٤) فأشارت عليهم رابعة أبولو أن يرحلوا للبحث عن
« أمهم الأولى » ، فأخطأوا عنها الفهم وفضدوا إلى كريت ، وهناك أنى إينياس
في رؤياه أن غابهم للشودة تقع ناحية الغرب ، وهي بلد يسمى إيطاليا ، فأطلع
إينياس من الشاطئ الغربي لبلاد اليونان ، وأرسى سفينة في « اكسيوم »^(٥) .
حيث أقام حفلا للألعاب ، ثم أطلع ليرسو في « بورتونوم » حيث التقى بأرملة
« هكتور » — أندرومال — التي كانت قد تزوجت من « هلبوس »^(٦) الذي
أنبا إينياس أن وطنه المقصود هو الشاطئ الغربي من إيطاليا ، هكذا أراد له
القدر ، وإلى هناك يجب أن يشد الرحال :

وأخذنا في السير فنشرنا أجنحة القلاع ،

هنا نحن أولا ، فد طلع علينا الفجر أحمر فانيا

(١) Iulus (٢) Creusa (٣) Polydorus أحد أبناء بربام .
(٤) Delos إحدى جزر بحر إيجه . (٥) Actium (٦) Buthrotum
(٧) Helenus

وعدت أنجم السماء إلى القرار ؛
 مرأبنا على بعد ناللا يكسوها الضباب ،
 إذ رأينا الساحل الإيطالي الوطني ،
 فسكان « أنشاس » أول من صاح « إيطاليا » !
 . مردد صيحته « إيطاليا » وجلى في مروح هبج ،
 . ثم جاء أرى « أنشيز » بكأس عظيمة وبالإكليل توحه ،
 . وملاء بصفى الحر ونادى بالآلهة
 من موقفه في مؤخرة السفينة العالية : أبها الآلهة !
 يا سادة البحر والبحر في الصحو والماصة
 عودوا لنا السبيل ولنصاحبنا أقاسكم
 وهكذا انطلقت بهم السفن سراعا فحاه صفلية ، وعبروا للمصبى الخطر ، هنالك
 مروا سالمين بركان إئنث الذي يتوهج منه اللهب كأنه الجحيم ، لكن لم يلبث في
 هذا الموضع من الرحلة أن قضى « أنشيز » ، وهو خير سند لإيفياس تعلقه لسلسلة
 من المناء الصى والشفاء المميت ، وهنا سكنت إيفياس عن رواية قصته ، وما بين
 من رحلته

• — مأساة دمرو :

اشتملت نار الحب في قلب ديلو ، ولم نستطع كتمانها عن أختها « أنا »^(١) .
 انفضت لها بعض ما يضطرم في مؤاذاها من عاطفة ملهبة ، فرأت لها أختها أن
 تمتد أواصر الخلف بين فرطاجنة والطرواديين ، وهنا بضاف إلى النفسه تنصر

جديده ، فإن جوتو التي ما رحلت نغوى إينياس وأتباعه ونحول دون بلوغهم الوطن الجديد قد شرعت الآن تنسج أحولة لعدوها إينياس حتى يفتنى عن غايته المشوذة من رحلته ، وهي إيطاليا التي اختارها الله لتكون وطناً جديداً له ولأحفاده من بعده ؛ ففرجت اللسكة يديها وإينياس ، وبعض الخاشية والأنواع في رحلة لاصيد ، لكن السماء لم تلبث أن تحمهم وجهها ، واسودت بالسحاب أدبها ، ولم يرها ونصف رعدا ، فانقطع باللسكة وحبوبها إينياس الطر بن عن سائر الزفان وأوها إلى محباً بمحنيين به ؛ وهالك في ذلك السكان البعيد المنعزل أغضى الحبيب إلى حبيبته عما أصى ، وقدت ديدو نفسها منذ ذلك الحين عروساً لابطال الطروادي إينياس ؛ في ذاع في الناس هذا الحب الجديد حتى ثارت الغيرة في قلب « آيارباس » وهو أمير لبي أحب ديدو ، وأراد زواجها ، فرمى أكف الصراعة إلى ربه جوتو يدعوه القوت في محنته ، فاستجاب لدعائه جوتو وبث عطارده رسولاً بأمر إينياس أن يشد رحاله إلى إيطاليا وطنه الموعود ؛ فلم يملك إينياس أن يني ديدو رحيله ، ودبر مع ملاحيه أن تقلع بهم الثقل في طي السكبان لكن هل يمكن للحبيب أن يبتعد ، لقد أحست ديدو بالسكيدة فخرى من وراء ستار ، وجاءتها الأنباء عن سفن تُعد وحطط توضع ، فخن جنونها والهب بالفرقة قلبها ، واندمت على وجهها هائمة نحوس خلال اللذينة حتى فاجأت إينياس :

هكذا رجوت يا خائن أن تسدل على حبيبتك الستار
وأن تقطع عن بلادى في صمت وكنيان ،
هلاً أُنناك عن السفر نى . ؟ — علا الحب أُنناك ،

ولا عهد الأمل ، ولا رحةً يديرو من فضائها المحنوم ؟
أمنى نلؤد بالقرار يا إينياس ؟ نَشْدُكَ هاتيك الدموع ،
نشدتك يميناً عاهدتني بها — لم يبقَ منك لديدو النكوة
غير يمينك والدموع — ثم نشدتك عناق الحب ،
نشدتك شعائر الزواج وقد بدأناها ،

نشدتك ما أبدت بحوك من حسن اللقاء ،
هل نشدتك ما مترك من جمالي ، أن نشعني على داري من حرايها
فإن بي لنداء منفع فهأنذا أؤسل أن تُبدل ما اعتزمت ؟
إنه من أجلك بات يفتني عشائر ليبيا وشيوخها
وامتلات فوبُ المور بين بئسا ونفورا ؟
حدثني لمن — أيتها الضيف أنت تاركى حين أموت ؟
« فالضيف » لا « بالزوج » اليوم أدعوك

٦ — إينياس في العالم السفلي ثم في إيطاليا :

لكن ضراعة الحبيبة لحيدها أن يقهرى بلادها ذهبت أدراج الرياح ، نطامت
ديدو نفسها بسيف حبيبها

وبشأن إينياس رحلته نحو البلد النشود ، وجرسو على الشاطئ القري
لإيطاليا ويسارع إلى كهف « سبيل »^(١) حيث « نبي » الكاهنة أنه يرهد
الرحلة إلى العالم السفلي ليرى هالك آباء انهبر ، منصوبه المكاهنة نهديه
السبيل ويهبطان معاً إلى منازل الموتى وقد امتلات أرواحا وأشباحا

ولم يكدا يبلغان ذلك العالم السفلى حتى عبرا نهر « ستيكس »^(١)
وَبُشِروا على عبورها « شارون »^(٢) التوتى الكشيب ، ثم غضى الكاهنة
بتيهما إينياس خلال عالم كله يأس وقنوط ، تروح فيه وتتدو صنوف من أشباح
الموتى ؛ وهالك بلقى إينياس بكثيرين من أبطال طروادة ويغادل الملكة
دهدو ، فيرى عينيها تقدسان الشرر مفتا وغيظا ؛ ثم يبلغان « اليزيوم »^(٣) حيث
يجد إينياس أباه نينيه أبوه بما قد كنف لسلالته من مجد ونجار .

٧ - مروب إينياس إلى بلبانيا :

وكان بين النساء التى تنبأت بها « سيبيل » لإينياس قتالٌ عنيف ترائى
فيه الدماء ، وعروسٌ من أجلها بلاق الطرواديين أمدح الأخطار ؛ لما بلغ إينياس
نهر النبير آسنا ، وقع ذلك موقع الرضا من ملك ذلك الإقليم « لاندوش »^(٤)
الذى وعد إينياس أن يروجه ابنته الأميرة « لاقينيا »^(٥) ؛ لكن ملكا
آخر هو « تورنوس »^(٦) كان بمنبر « لاقينيا » عروسه للرغبة ، فأثار نفسه
ذلك الوعد الذى قطعه أبوها أن يروجه إينياس . أضف إلى ذلك أن الالهة
« جونو » — وهى التى تناصب إينياس العداء — فصبت لهذا الحظ السعيد
بصادف إينياس ، وأسرعت منادات من العالم السفلى شيطان الاستقام ليشمل
نار القتال وينفر الملكة الوالدة من هذا الزواج الوعود حتى نفث حائلا دونه ؛
وهكذا فاهب أهل إيطاليا القديمة لصراع وشيك الرفوع
وفى هذا الموقف الخليل أشار إليه النهر « تير »^(٧) على إينياس أن يحمر

Latina (١)

Elysium (٣)

Charon (٢)

Styx (١)

Tiber (٧)

Tarnos (٦)

Lavinus (٥)

على ظهره حتى موطن اللئك « إياندر »^(١) ميحافه على عدوه ، وكانت عاصمه
ملكه — مدينة « بلاثيوم »^(٢) — قائمة في اللوضع الذي أنشئت عليه روما
بها بدأ ؛ وحافه ذلك اللئك وأنبياعه وأصدقائه ، كما صنع له « قللكان »^(٣)
— إله النار والحدادين — عدة حربية أوصته بهنما « قينوس »

وانتهز « توروس » — عدو إينياس ومنافسه — فرصة غيابه — غيابه
إينياس — عن معسكره وحاصر جنوده الطرواديين ؛ وأخيراً عاد إينياس وفي
صحبه « بالاس »^(٤) — وهو ابن حليفه إياندر — لكن القتال لم يكبد يبدأ
حتى فلك نوردوس بالاس هذا ، ونار إينياس ثورة جبارة انتقاماً لصدقه
الصريع ، قتل من صفوف أعدائه عدداً من الأبطال ؛ وكان من مؤيدي
« توروس » امرأة فارسة تدعى « كاملا »^(٥) كان أوتها قد وهبا قرباناً للإلهة
الصيد « ديانا »^(٦) ، نشأت في الغابات نشأة حطت منها بحاربة ماهرة شديدة
القتل بمدوها ؛ فأبدت هذه الحارسة وأتباعها محاربة في القتال تدنوف الأبطال
لكها أصيبت آخر الأمر بضربة فائقة

ولم يكبد ببلغ توروس نبأ موت هذه الفارسة حتى خارت عزيمته وبدأ
الحظ يسم لإينياس ، والنقى هو وعدوه توروس في مبارزة حامية ؛ وبينما هما
في حر القتال إذا بتوروس تنشأ موجة هجينة من النوم تذهب منه البفظة والوعي
ويعجز عن فذف المسخرة الصخمة التي رقصها ليعرب بها عدوه ؛ وهكذا أورد له
الهند ووضع فريسة بلردة لإينياس الذي أعمل فيه الريح مأهواء على الأرض طربحاً ،
وتم له النصر . وأنشأ إينياس لنفسه مدينة ذهبت ذكرها الأساطير وهي مدينة
« روما » وحول تلك المدينة نشأت الأساطير التي تروى عن نشأته فيها بعد .

Vulcan (٣)

Diana (٦)

Pallanteum (٢)

Camilla (٥)

Evander (١)

Pallas (٤)

ج - الشعر المسرحي والفلسفي والغنائي عند الرومان

أخذ الرومان عن اليونان كل صور الأدب على اختلاف ألوانها ، ولكنهم كانوا في المسرحية أشد اعتماداً على اليونان وأكثر تقليداً ، بحيث جاءت الروايات اللاتينية وكأنها هي روايات يونانية فيها شيء من التمديل والتبديل ؛ وبما يصحوق النظر في تاريخ الأدب أن كتاب الرواية المسرحية — ولا نستثنى من ذلك أعلامهم النوايح — كانوا أكثر من سائر الكتاب استعارة من إسماع السابطين ، كأنما أبيعحت السرفة الأدبية في هذا النوع من الأدب ؛ ههذان مولير وشيكسبير ومعايرهما قد استعاروا من الأقدمين شيئاً كثيراً ، وهؤلاء كتاب المسرحية في الأمم الحديثة ينقل بعضهم عن بعض ، معتقنين بهذا النقل تارة ومكررين له طوراً

وأول من نذكر من كتاب المسرحية اللاتينية ، اثنان من أصحاب اللهاة (الكوميديا) هما : « پلوتس »^(١) و « ترنس »^(٢) . ولو أنه من المسير علينا أن نفرز كم بلغت اللهاة القديمة — يونانية كانت أو رومانية — من التوفيق في إثارة الضحك عند النظارة ، وكم كانت صادقة في تصوير الحياة عندئذ ؛ لأن الفكاهة — وبخاصة حين تصطبغ بلون محلي معين — أكثر أبي سرعان ما ينفى ؛ فلا نحسب القاري الحديث — مهما بلغت دراسته للآداب القديمة من دقة وعمق — بقادر على أن يستعري فكاهة « پلوتس » و « ترنس » حتى تهتز لها حواشي . أخذ « پلوتس » كثيراً من آرائه من اللهاة الجوبانية ، ومن ملاحى « ميتاندر » على وجه أخص ، وكان كثير من هذه اللهاى قد بددت له بد الزمن ، فجاء « پلوتس »

وأظهرنا بما كتب وما استعار على شيء منها ! ولما كان كتاب المسرحية الأوروبيون فيها بعد - القرفسيون منهم والإيطاليون والإنجليز - أخذوا فقصهم من هذا الكتاب اللاتيني ، فقد اكتسب شهرة لم يكن ليضفر بها من آكامه الأدبية وحدها .

ثم جاء بعده « ترانس » فكان أفضل منه أسلوباً ، وأقرب إلى اليونان روحاً ؛ ولكنه استعبد نفسه لسانه اليوناني ، فتقدم ولم يخف ، والتفايد العائلي في الأدب نذر الموت ؛ وفي الحق إننا لا ندرى لماذا هجر الرومان عن الإبداع في أدب المسرح ؛ فلئن فعلوا مسرح اليونان ، فقد فعلوا كذلك سائر ألوان الأدب اليوناني ، ولكنهم كتموا في هذه عن عبقريته وأصالته ؛ وربما كان هجرهم في أدب المسرح راجعاً إلى اشتغال الناس بمهمات الصراعة والبلادة وما إليها ، حتى لم يعد متسع كبير من الزمن يخلطون فيه إلى المسرح ، ففتت ومات أدبها ، كما نقول اليوم عن السينما واشتغال الناس بها إنها تهتد للمسرح تهتيداً خفيفاً — أما المأساة « التراجيكية » فكانها عند الرومان هو « سيكا » ، لكن مأساته أبعد ما تكون المأساة عن الجودة ؛ فلا يعرف التاريخ « سيكا » فكانته المسرحية ندر ما يذكره فيلسوفاً يعتنق المذهب الرواق ، وأستاذاً مريباً لطاغية الرومان « نيرن »

كان العقل الروماني يبرع إلى الفلسفة مهتدياً بهنري اليونان ، وكان عقل « لوكريشس »^(١) هو الماشق الذي تزوجت عنده الفلسفة والشعر ، فأنجج ازدواجهما فصادة فلسفية أدبية هي « في طبائع الأشياء » ، وإنها الفصيدة نعمة نفوس في خضم الحياة إلى أعمق الأعماق ؛ لوكريشس في فسفته هذه من

الشعراء القلائل الذين أطعروا في إلباس الفلسفة ثوباً من الشعر ، وليست قصيدته من قبيل النثر المنظوم ، بل إن فيها روحاً من الشعر الصحيح ؛ وقد بقيت لنا هذه القصيدة كاملة ، وهي من حيث الجزالة والبلاغة مثالاً للشعر اللاتيني الممتاز لا يفوقها إلا شعر فرجيل ؛ لكن « لو كريسس » لم يعدم من النقاد من يخرجونه من طائفة الشعراء القهول ، فلا موضوعه عند هؤلاء بصالح للشعر ، ولا ألفاظه ولا أوزانه وقوافيه من الجمال بحيث تبرر أن يوضع في صف أولئك الشعراء ؛ كما قال مثل ذلك القول بعض غناد العرب في زوميات أبي العلاء المعري . أما موضوعه في قصيدة « في طيات الأشياء » فهو بسيط لفلسفة الأبيقوريين في قالب منظوم ، وهناك بعض نقول تصيدته لتتحكم مع هؤلاء النقاد أنها لا تصلح موضوعاً للشعر : « الشيء لا يخرج من لا شيء » ، والتشبيه يحدث عن شبيهه « السكون مؤلف من ذرات وخلاء » « المادة لا تفسد » ، وهكذا يأخذ الشاعر في شرح القدرات وحركاتها وتكوين الأجسام ومصادها ؛ وإن شاء فارتنا أن يكون بنفسه رأياً في « لو كريسس » فلهذا ترجمته الإنجليزية للشاعر الأخر بكي « ليونارد » وهناك مثالا من شعره :

قال مخاطباً أبيقور :

أنتَ بـأول من رضع في الظلام الدامس

شعلةً تدير بها الطريق إلى السعادة !

أنت يا حُرّ اليونان ! أنا تاجيك

وسأنتقي خطاك خطوة خطوة ،

لا أبأريك ولكن أحاكبك

وهل ينافس الشئ طائرَ الهم الجميل ؟

وقال في حصة الأرض عند نشأتها ؛
أخرجت الأرض منذ نشأتها صنوف العشب أشكالا
باعتشبت باصم مجادها ووهدها
وازدانت حقول الزهر بسندس أخضر
وألمها الشجر أن يساق في الناء بعمقه بعضا ؛
واكدى الطير والحيوان بالريش والشعر والعرا ؛
فالأرض النظرة قد أنبتت كلاًها وشجرها
ثم أخرجت من جوفها الحيوان يرعاه
وانكاز الحيوان بعدئذ أشكالا وألوانا
فالأرض — لهذا — « أمّا » لا شك في أمومتها
فما جهات الأحياء طرا

وعاصر « نوكر يشن » شاعر شاب هو « كاتلس »^(١) الذي نصدّه المادون
في سن الثلاثين ؛ ولم يكن « كاتلس » كزيميله مشغولاً « بطباع الأشياء »
ولكنه عنى بطبيعة نفسه ، فأدار شعره حول عواطفه ، ليعبر به عن حبه
وكرهه ، فاجتمعت في شعره زواجات القلب وقواعد الفن ؛ هذا هو مخاطب حبيته
« لزييا »^(٢) « بلها آنا ويشتل بها آنا ؛ فهو صادق الشعور صادق التعبير ،
ينشد القصد منحبته إنسانا بصيح صيحة الطبيعة من الأعماق ، ولسكنها صيحة
شدّت أطرافها وصبّت في أوزان الشعر وقوافيه . وهذا مثال من شعره :

قال في قصيدة عنوانها « طيش الحب » :

نعالي نعرش يا لزييا حبيبي

وَلْتَقِيمِ الْأَذَانِ مِنْ لَوْمِ الْكَهُولِ الْمَازِلِينَ
 لَتَذْهَبِ الشَّمْسُ فِي خَدْرِهَا غَارَةً وَلَتُخْرِجَ الشَّمْسُ مَشْرِفَةً
 فَسَتَضْمَضُ عَنْ ضَوْئِهَا الْعَالَى الْعَبُونَ
 وَمَطْلٌ عَلَى مَخْدُوعٍ وَاحِدٍ فِي حَوْمٍ عَمِيقٍ
 فَضَبْهُ لَهْلَاءِ سِرْمَدِيَا لَا يَمُرُّ الْإِصْبَاحُ
 دَعِي أَنْبَلَكَ أَلْفَ قَبْلَةٍ — بَلْ أُرِيدُ أَكْثَرَ !
 سَأَضْرِبُ مِائَةً إِلَى الْأَلْفِ — سَأَضْرِبُ إِلَى الْأَلْفِ أَلْفًا
 وَعَدَهَا مِائَةً — بَلْ أُرِيدُ أَلْفًا أُخْرَى وَمِائَةً أُخْرَى
 دَعِي أَنْبَلَكَ أَلْفًا وَأَلْفًا

وَأَسْطَلَى* فِي عِدَدِ الْفِلَالِ عَامِدِينَ
 لَهَا أَنْسَكِدَ الطَّالِمُ لَوْ عَرَفْنَا كَيْمَ حِدْدِهَا
 يَا أَيُّهَا عَرَفَ الْخَاسِدُونَ كَيْمَ قَهْلَتُكَ يَا لُزِيَا
 أَصَابَنَذَا بِشَرِّهَا أَهْبَنُ الْخَاسِدِينَ
 وَقَالَ فِي فَصْدَةٍ أُخْرَى عَمَوْنَهَا « إِلَى لُزِيَا أَلَيْ لَمْ تُثَبِّقْ عَلَى الْعَمَدِ » :

كَذَّبْتَ يَا لُزِيَا أَلَيْامَ حَبْنًا نَزَعِينِ
 أَنْ فَذَلِكَ كُلُّهُ لِي بِمَلِكِ الْعَبِينِ
 وَكَذَّبْتَ يَا لُزِيَا لَتُخَدَعِي لَا تَهْجُرِينِ
 حَتَّى إِنْ دَعَوْكَ إِلَى جَوْفٍ تَشَارِكِينِ
 فَمَا كَالِ أَخْلَاصٍ عِنْدَكَ عِبَادَتِي إِلَيْكَ
 لَمْ نَسْكُنْ مِلَّ قَتَايَ عِلْمَةً وَلَا فَاحِرَةً

كأني رُوحها الجبال في المصدر الخاوية
لكني أحبك يا زينا كما يحب الأطفال آهوج

هذا الحلم الخادع وأسماء قد زال
قد عرفتك الآن — بل رأيت عيني
ما تزالان نمد جانك كما كانتا قملان
فاعلى أفي حتى عند النظر إليك مزدر بك

سم ، أيتها الساحرة — وقد يبدو ذلك سراً من الجنون
إنك لتصبين مصنعة السحر جلالاً إلى جمالك
قد أفدرك وقد أردريك ، ولكني أحبك
فأنا لك مقدسٌ ومحترٌ معاً

وجاء بعد « كائنس » في القرن السابق لميلاد المسيح ، وهو العصر
الأوغسطيني الزاهر من عصور الأدب اللاتيني — « هوراس »^(١) أعد أديباً
اللاتين صوتاً ، وأمرهم بين القراء سيورة ، وأكثرهم عند المحدثين إغراء
بالفرجة والانتباس

ولد « هوراس » من أب عتيق اشترى مجابة العرائب ، جمع من ذلك
مالاً قليلاً ، ثم جاء أباه إلى روما ، ليفنى ما جمع على تسليم ابنة ، لا يدر
لنفسه شيئاً ؛ فلا يحب أن تطالع في معنى أناشيد الشاعر لونا من حرافان الجليل
لأنه لم يبلغ مدى حودنه إلا قليل من الثمراء ؛ فلم يكفِ الوالد المعلوم أن
يصحى بماله في تربية ابنة ، بل كان يصحبه إلى المدرسة في الصباح ، ويصحبه

من المدرسة في الماء ، حرصاً عليه ؛ فلما بلغ « هوراس » عامه التاسع عشر ،
 بعث به أبوه إلى اليونان يتعلم ما لليونان من فلسفة وشعر ؛ ولما نشب القتال
 بين رومس وقبصر ، وقف الشاعر دراسته حيناً لينتصر برونس ، وحارب إلى
 جانبه في معركة « فيلبي » ، فسا هو إلا أن تنفض رومس عن نفسها غبار المعركة
 حتى يرى الشاعر نفسه في خطر مدفع ؛ عند ذلك أتته « أوبه » وصر لأوغسطس
 ميراث الشاعر عن أبيه ؛ فظل « هوراس » يعمل ليكسب قوته ، ويفرض
 الشعر في أوقات الفراغ ؛ فاستوف شعره الحبل مظهر « فرجيل » الذي قدّمه إلى
 « ميسناس »^(١) ، ولم يكن « ميسناس » هذا صديقاً حياً لأوغسطس فحسب ،
 بل كان يشجع الصغار على السكتير ، حتى أصبح اسمه بظان مجازاً على كل من يسط
 كفه بالمطاة لأصحاب القنون ؛ فلما كان « هوراس » في عامه الثاني والثلاثين ،
 منحه ميسناس مزرعة أفاضت له أن يتفق بقبه العمر في عيش رغيد ، فامصرف
 بمجهوده إلى التزهد

وأول آثاره الأدبية كتابان اسمهما « سخریات » ، ولكن دعك من
 هذا العنوان ، فالشاعر في هذين الكتابين يقبل على الدنيا راضياً ، فلا تؤدبه
 ظروف الحياة كما هي ، بل يبتئها عما يشتهر بها سوانح القمص قبل أن تفلت
 من يديه ، كأنه عمر الخيام :

لقد عاش في أمن وفي دعة

من يقول : « هذا اليومُ غدٌ عشتُه »

وغدٌ ملجئه الله سموّاً أو مطيراً

فلن بسلبني بهذا سروراً ملككته

إن ما قد كان هيات لقوة أن تصده

ولكنه في هذين الكتابين لا يهوت أن يسخر سخر به حقيقة من المظالم
في ملوكهم ، وأن يسوق من حياة عصره أمثلة تبهت على الضحك لأنها تصور
قائص الإنسان

ثم كتب في سن السادسة والثلاثين « الأناشيد » وهي حافلة وسطى بين
« السخرات » و « الأغاني » ، وإن هذه الأخيرة لموضع شهرته وشبوته ؛ فلم
تسكد نفث السكتب الثلاثة الأولى من أغانيه حتى صعد من موره إلى الصف
الأول بين شعراء عصره ، لا بل إلى الطليعة من شعراء العالمين ؛ فهذا حق
لا ينكره عليه فاندأو برتاب في صدغه مرتاب ، هوراس — منذ أن نشر أغانيه —
رحبت به زمرة الشعراء القحول فوقف بينهم على سفوح أولمب ؛ ولم ذلك ؟
لأنه يشيع جانباً من جوانب القلب الإنساني ؛ ألا زهد أن تصطب في
شذوائك وروحائك إنساناً ينسكك فتنسك ، وينسكك أمامك حبيبته مبنسط
منك الجبين ؟ أأنت تلتمس إذا ما ضاقت بك أمور المعيش من يربك الحياة
وضاحة مشرفة ، ويسمك ألقاً تظهر لك من دنياك وجهها المشرق وتنفى
عنك وجهها النكبي ؟ ذلك هو هوراس في أغانيه ؛ إن من يصيب السعادة في
الحياة قلما يحس الحاجة للتصوير عن نفسه ؛ ولهذا كان من نوادر الصادقة وشولرد
الانفاق أن نجد شاعراً سعيداً ، وهوراس هو هذه الصادقة النادرة والانفاق
الشارد ، لأن السعيد والشاعر قد سكنا منه إهاباً واحداً ؛ إن هوراس في
أغانيه يملك أن الإنسان يكبو لينهض ، وينهزم ليقنحم ؛ إنه يملك أن الحياة
سعيدة بهيجة ، لا تشوبها من دواهي ألم إلا توافه ، إذ هو ينص لك قصة
حياته بأذا هي هذه ، فنقول ؛ إن استطاعها هوراس ، فلم لا استطاعها ، ولم

لا يستطيعها أنوف الأتوف من البشر ! بل إن هوراس يزعم لك أن المدينة
الفاضلة التي تشدها هي بجوار دارك إن صح منك الزعم ولم يصب فيك مذهب
الخير ! استمع إليه في أغنية « عيد الميلاد »

« عندى فذر من جيد الديذ عتقته ما جربو على نسع سنوات ، وى
حذقتى مات البغدونس أنسج منه الأكاليل ؛ وفيها لبلاب إن عفت «
شمر رأسك أبهى لك جبينك وضاحا ؛ إن الدار لتطلع بالأوائى القضية ،
وإن اللدج - نكالة أوراق الشجر الفدسة - ليرب فى شوق أن تنسكب على
ظهره دماء الأضاحى ؛ هام أولاء أهل الدار يسرعون هنا وهناك ، ويندفع فى
حشد مختلط أيفاءهم والياضات ؛ وإن ألسنة النار اتروص حين تطوى المدخان
الأسود فتعلو به حريرات حريرات كأنها الأكاليل ... »

وحى حين يندثر صدقه « پوسقيومس » بدنو الشبخوخة فالوت ، نراه
بنقى فى هدوء ورابعة جاش ، مع أن موضوع الأغنية كفى أن يثير الفزع
فى نفس قائله .

« وأأسفاه پوسقيومس »^(١) ، أى پوسقيومس . إن السنين لتقضى مسرعات
كأنها من الأشر هاربات

وإن تفتى فضائك بأسرها أن تؤثر عن وجهك غشوته إن حل موعدها ،
أو تحول دون شيخوخة قادمة وموت لا مفر منه ؛ إنك قد تستعطف الموت
لبطلى ، ولكنه لا يتوانى فى أداء قضائه المعلوم ؛ طمئن من جبايرة الملوك
أو نفراء الزارعين ، فلا مناص لمن أتمدت جسومهم فاكهة الأرض من
عبور بحرى الموت السكتيب غير مبطنين

لن يفتى عنك شيئا أن تنجو من حرب زبون ! لن يفتى عنك شيئا أن
تفر من أمواج البحر في الأدرياتيك الصخبات ! ولن يفتى عنك شيئا أن ينعى
الخراب دون أن تنالك غواصها رياح السيروكو الهوجاء ! فلا بد آخر
الأمر أن تواجه سهر الموت في نياره الواسع ، فتشاهد من مرعهم المنون
بقضائها الممنوم

لا بد يوماً أن يزول عن وجه الأرض ! لا بد أن يمارى يوماً هذا الشجر
الذي عهدنا ، فوق السقوف ، وأن تغادر زوجاننا ذوات الصدر الحنون ! لن
نصطحب مما أعتناه من شجر إلا سروراً حزينة تظلل القبور
لكن أبناءنا من بعدنا — وبأخيرهم أبناء — سيحتسون بيضاء الخرون
مهما تكن دونه الأفتال ، وسيكبون على أوض الدار المزخرفة غداً
فشهد حلاوته موائد الأحبار

ذلك هو « هوراس » الشاعر ، ولكنه لم يقرض الشعر وكفى ! بل كان
أستاذاً في من الشعر النظري ، فألف كتاباً عنوانه « من الشعر » وهو على
نصره عميق الأثر في الأدب الحديث ، فآثر في إيطاليا بفضل الشاعر « فبدا » ،
وآثر في فرنسا بفضل الشاعر النائد « بوالو » ، وآثر في إنجلترا بفضل « برب »
إن هوراس الرجل لا يقل عظمتاً عن هوراس الفنان ، مشدته التي فطع
خلال أشعاره طريفة ممتعة ، لها وقارها ولها غرورها في آن واحد

وكان يناصر هوراس في آخر بات صفيه — قبيل ميلاد المسيح — جماعة
من شعراء الرائي (الاليجيا) ! ولما قصد بالرائي بكاء على ميت ، وإتمامي —
كما ذكرنا قبل — كلمة يلقونها لبدأ بها على صياغة القصيدة وبنائها

وأوزانها ، لا على موضوعها ومعناها ؛ فأول شعراء الرائي عند الرومان هو « جالُس » ^(١) وهو الذى أجهد نفسه لنقل هذا القالب الشعرى من اليونانية إلى اللاتينية ، وكانت معظم « مرثياته » تدور حول الحب ، ولما وفق فى صياغة شعره فى هذا الوزن الجديد ، أصبح قالب « لارتية » يذاع بصطنته الشعراء . وأكبر شعراء الرائي ثلاثة : « بروبرتيوس » ^(٢) و « تيبُلُس » ^(٣) و « أوفيد » ^(٤) ؛ أما « بروبرتيوس » ، فقد أجاد الشعر وهو يافع ، وأتقن دراسة التقادج اليونانية إتقاناً جعله فى سن العشرين شاعراً مُجيداً أحواله واستكافه ؛ وكان الحب موضوع شعره ، وأصبحت « سَفْتَا » حبيسته إحدى عوانى الشعر الخالدات ؛ ولقد أفسد حُبُّه لهذه المرأة حياته حتى نصى وهو فى سن باكورة ؛ فقد كانت الحبيبة امرأة متشككة ، فاستحال عليه زواجها ، ولكنها على لجورها ما زالت تستولى على قلبه لمواهبها الفنية فى الغناء والرقص وقرض الشعر مصلحاً عن جماعها الفتان . استمع إليه فى وصف أمسية فى إحدى « مرثياته » :

ما دامت سِنْتَا ^(٥) قد خانت مرثى مراراً ، فقد صممت أن أبذل محبى وأقيم روائى فى مكان آخر ، هناك امرأة أعرجها اسمها « نِيلِس » . لا تُمتنى وهى صاحبة ، أما إن شربت فعلى السحر القاتل ؛ وهناك امرأة أخرى اسمها « تِيَا » . جبلة ولكنها إن سكرت فلا يكفها من الرجال حبيب واحد . صممت أن أدعو هاتين المرأتين لأنفسى معهما الليلة ، لعلى أسرى عن النفس بعض حزنهما
لقد كانتا نَفْثَاى ، ولكنى كنت عن غناهما فى صمم ؛ ولأننا نكشعنان لى عن الأبداء ، ولكنى كنت عن ذلك فى عى

انظر ! لقد خافنا قوائم الباب بصير حين استدبار المصراع على مركزه ،
وسمنا صوتاً خائفاً عند مدح الدار ، وأدمنت « سنبها » وسربت خلفها بمصارع
الباب المطربة ؛ ها هي « سنبها » متعوشة الشمر جميلة في سورنها ؛ فارتفعت
أصابعي وسقط السكاس ، وارتدت شمئى الخموونان إلى شحوب ؛ قدلمت
عيوها بالشرر ، وثارت فافرنها بكل ماوسع المرأة من غضب ؛ ... ودعت أظافرها
للليفة في وجه « فليس » ، فصاحت « نيا » فازعة حتى دوى السكان بصياحا ،
واسنفظ النوم على سرّج رافعة بنورها ، وركن للطربى كله بمجون النساء ؛
أما القناتان فأسرعا ناهار بين في ثياب ملهلة وشعر ممزق ، ولاذنا بأول حانة
صادقتهما في الطربى »

لقد استند « پرورنيوس » أصول فنه من الإغريق ، ولكنه كان في أده
صدى لببته وحياته ، يرى « بجل » ولئن كان رفاؤه صعبة سوء ، وكانت
حببته « جرة » ، إلا أنه أخرج من هذه الحياة شمرأ جيلا خالداً ، لجرس ألقاه
ورنين أوزانه ونوافه . وهالك من تصويره مثالا آخر .

« لو تمثت حبيبتي أن تذرّع البحر طولاً وعرضاً بين مناها ؛ سيدعنا
موق الله نسيم واحد حبيبين قعئين ، واستلقى قراحة فوق شاطئ واحد حين
بأخذنا النحاس ؛ سنطأنا شجرة واحدة ، وستبقى ينبوعاً واحداً ؛ سيقطع الحببان
أصوبهما مخدعا فله من لوح حشيد واحد ، وسواء لدى أقيم الدمرير من السفينة
عند دفتها أو حيزومها ؛ سأحتمل كل العاصب لا أنالى إن دعت الرياح الشرفية
الموجاء سعبنا ، أو عبأت الرياح الجنوبية الباردة شراعنا إلى حيث لا ندرى ...
فلو ضمنت ألا نقيب حبيبتي عن ناظري ، فليشعل الله في السفينة نارا ، إذ
جسدا ما العاربان عندئذ سيقذف بهما اليه ، ما إلى شاطئ واحد ؛ لا ، بل

ليقدح الموج بحسدى وحده ، لو وجد جسمك يا حبيبى فى الترى حدى
بولاريه « ولكن « پروبرتيوس » على ما فى شعره من قوة وجمال ، قد كلل
فيها يظهر معيياً بعض الشيء فى مته ؛ فإن النقاد الرومان بعد أن مارسوا أصول
الآداب الإغريقية وتواعدوا ، تبعوا فى شعره شعراً لعله يرجع إلى سرعة الإنشاء
وصف عاطفة الشباب ؛ وليس فى وسع رجال النقد الحديث أن يحكموا له أو
عليه ، لأن ما بقى لنا من شعره شذرات ناقصة

ولعل هؤلاء النقاد الرومان قد آثروا شاعراً آخر من شعراء المراتى ،
هو « تيبلس » إذ وجدوا أن رثائه أسلمه ووضوح عبارته بلائحان رقة معانيه
وجامها ، فلبس فى شعر « تيبلس » نصف القوة التى تحسب فى « پروبرتيوس » ،
ولكن ما غناه القوة فى شعر غنائى ؟
كانت « تيبلس » شاعراً يحب دتانه « ديليا »^(١) التى نشت عليه حتى
أدهمت عينيه :

هل لى أن تبصر عيناى حين تدور ساعتي ؟
هل لى أن أضلك مذراعى الراحنتين ؟
ابكى يا « ديليا » إذا حان الأجل ، وإذا ما أسجبت
على السرير الذى سرعان ما تلتهمه التيران
تيلينى وتيلينى ، واسرحى قبلك بسمات حزينات
ابكى ، فليس قلبك فى صندوق من صلب الحديد ،
كلا ، ولا قلبك هذا الخنون يحترق صغراً ؛
فلن يعود شاب ولا شابة بعد جناتى
لا تفرق فى عنيه أو عينها المموج

وما أحسبك مسببة إلى روحى بنيايك عن ذلك الخلق
واسكن لا نكون عسفة على شعرك الملول ، أو خذك الناعم .

هكذا كان شعر « تيفلس » حلوا في سذاجته ولونه الرقيق ؛ قد أغنى معظم
حياته في مرزعه ، كمنعه أن يزرع ويحرق بيديه ، ويزدى حياء القرف الذى
فُتِلَ للزراع إلى الميول ملحنها ثم لا تستمتع بمجال الربف .

لسكن أحب شعرا ، المرائى إلى فراء العصر الحديث هو « أوفد » وهو من
أسرة رومية ، وكان ممن أحاطوا بالإمبراطور أوغسطس ، وظل في حاشيته حتى
غضب عابه الإمبراطور لسبب لا ندر به فأمر به أن ينفى من مدينته ره ما ؛
وقد قيل في تعليق غصبة الأمير عليه أنه نمر من قصيدته « من الحب » التى
لم ينورع منها الشاعر ؛ ولكننا نشك في أن تكون هذه القصيدة الجيدة الممتعة
سببا في نشر بد الشاعر ، مع أنها صورة صحيحة لمصره ؛ إن « أوفد » في قصيدته
« فن الحب » لم ينظر إلى الحب من جانب الروح والخيال ، ولكنه كان فيها
أمنيا صادقا ، ومن أجل هذه الأمانة في الثمور والتعبير استحق مكانته العالية
التي يشغلها بين الشعراء .

على أن حياله « أوفد » يبلغ أوجه في قصيدة « فترات » التى جمع فيها
كثيرا من أساطير اليونان والرومان ؛ فكان تعبنا لشعراء الخديين يستنون
منه ، فعنه أخذ أدباء الطالين في عصر النهضة ، ومنه استمد شكسبير ومعاصروه
وشعراء الإنجليز في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ؛ ولو عرف « أوفد » في
مقوله ما قد يصيب أدبه من نجاح ونوميق سعد موته ، شاعر عنه آلام الذى ؛
هذه كان أدبه ذاتا أثر عميق بالغ في آداب الأمم الحديثة كلها ، لا يوازيه في ذلك
شاعر آخر ، ولا نستثنى عن هذا الحكم فرجيل .

الأسطر الآتية مثال من قصيدته المشهورة « تغيرات » :

كان مادي الأسر عصر ذهبي^١ ظم على الإخلاص والحن يحنس إرادته ،
لا يجره قانون ولا يحزمه انتقام ؛
لم يكن بعد خوف أو عقاب
ولم يهدد الناس قانون^٢ منقوش على أنفاس النحاس ،
كلا ، ولم تروعهم حدة ولا سيف ؛ بل عاش في أمن السلام ؛
وهكذا انقضت على القوم أعوام سعيدة لا يعرفون الأعداء ،
وأخرجت الأرض كل شيء دون أن يشعها محراث ،
واكتفى الناس بما أنعمه الأرض من غير فئس^٣ ولا إكراه

• • •

وكان الزمان ربهما كله . رعيًا بفسيمه اللبل ،
ونهب النعام^٤ فنزهر^٥ الأزهار لم ينلها بذور ؛
وسرعان ما آنت الأرض أكلها بنير محراث ،
وابض وجهها بالتمح^٦ الغزير ، ولم يشق^٧ حومها سلاح

..... ثم نلاه على مر الزمان عصر مني^٨

هو أدنى من سابغه الذهبي وأسطع من لاحنه النحاسي ؛
حدثت فصر^٩ الإله من أمد الربيع ، وقد كان قبل دائما موصولا ،
وأنعم^{١٠} الحول بأن فسه فصولا فصولا ؛
فتجهت بزاد^{١١} الهواء وقد لفتها حرارة^{١٢} ظمئة ،
وعلفت أوائل ذرات الثلج وقد جدتها الريح ،

وانخذ الإنسان دُوراً مأوى إلى السكوب
أو انخذ سباحاً من شجر أو غلب مجدول :
ثم مُدّت بذور الزرع لأول مرة في قنوات الحقول ، حيث لُثت طويلاً ،
وغارت الثَّيْرَةُ تحت نيران المحاربت

وثالث المراحل للصالحات عصر نحاسي ،
ازدادت فيه الروح اقتراساً واشتدت للقتال اشتياهاً ؛
اسكن الجربجة لم تلطّح وجهه بعد ؛
وأخيراً جاء عصر الحديد ، فانبثق من صوره خديساً دنيئاً ، كله سوء ؛
ملاذت بالفرار صفات « الحياء » و « الحق » و « الإخلاص » وحل محلها
السكيدُ والتلداع
والعنفُ وشهوةُ السكسبِ المحرمة ؛

ونشر الرجال فلاحهم لريح لم يعرضها للملاحون من قبل ؛ وأنغذَ الشجرُ
— وقد كان بأسفاً على قمم الجبال — حيازيمَ قشقش بها الفُفُكُ مياها لم تسكن
من قبل تهرنها ؛

وطالب الإنسان القربةَ الخصبَةَ أن تنتج أكثر من محصولها ؛ بل شق
أعماء الأرض شفاً ،

واحضرها ليبلغ كنوزها الدمية في ظلال الجحيم ،
وهي هناك تفرى الإنسان العصف والجور

ثم جاء عصر الصُّلْبِ القتاك ، ثم الذهب وهو أشد فسكاً .
فانخذت الحرب من المَدِينِين سلاخاً ،

وأخذت تهز سلاحها المدركى بيد ناطقها الدماء ،
وأصبحت الضائمت للعيش موردا ؛ فلا الصيف من مضيقه ولا الفرب
من فربه بات آمناً .

إلى هنا ينتهى العصر الأوغسطى الزاهر الزاهى ، ويأخذ الشعر اللاتينى فى
التدهور والهبوط ؛ ولكن طريقته إلى التدهور لا يجرّد ؛ فالأدب لا يسير فى
هذه الخطوات المنطقية ، سارداً فى صعوده وهبوطه ، كلا ولا الحباله نفسها —
وهى حلة الأدب وسداه — تسير فى هذه الخطوط المستقيمة صعوداً أو هبوطاً ؛
«لا يدم فى حركة الصعود شاعراً ضعيفاً ، ولا تغطى فى طريق الهبوط شاعراً
قوياً ؛ وهكذا كان تدهور الشعر اللاتينى — كتدهور الإمبراطور به نفسها —
يمتدداً على فرون طوال تستطیع أن تشهد فيها أدبا سليماً إن فانه أن يكون أدبا
عظيماً ؛ مبین شعراء القرن الأول بعد الميلاد «لوكان»^(١) ، وهو خطيب ماهر بالإرضاء
إلى شاعر به ؛ وهو معروف بكنائه «فارساتيا»^(٢) الذى نظم فيه بعض حوادث
التاريخ شعراً ، وشاع بين فراء عصره والمصور الوسطى . وإن لوكان لأثراً فى
الأدب الفرنسى بفضل ماقله عنه «كوزي»^(٣) كما أنه معروف مؤلف لقراء
الأدب الإنجليزى لأن «مارلو»^(٤) ترجم له الجزء الأول من «فارساتيا» ترجمة
بلغت غاية الإبداع

وفى العصر الغضى اللاتينى — الذى أعقب عصر أوغسطس — شاعران
أجادا شعر المخربة إحادة جملتهما فى هذا الفن إمامين ، وهما : «مارشال»
و«جوفال» ؛ وإن هذا الأدب الساحر لمن طبيعة العقل الرومانى ، بل هو الذى

ابتكر هذا اللون من الشعر ابتكاراً ، فاصطنعه « هوراس » في رفة ولطف ، ثم زاده « مارشال »^(٢٦) و « جوفنتال »^(٢٧) قوة وعنفاً ، وأعانهما على ذلك ما ساد العصر من صنوف الفساد وانحلال الخلق ؛ نعم إن في كل زمان ومكان ميمناً لا ينسب للشاعر السخر ، لكن السخرية من لا بقوى على أدائه كل شاعر ؛ وجدير بنا في هذا الصدد أن نذكر ما لأدباء الإنجليز من إنتاج خصب في أدب السخرية ، لكنهم كانوا في ذلك مذهبين لجوفنتال إلى حد كبير

ومن شعر جوفنتال فريدة عنونها « عبث الشهوات الإنسانية » يسطر فيها من الترواه التي يقتل الناس من أجلها ، وعلى رأسها اللذ ، ومنها :

جئنا بيمررك في العالم للأهول ، وانظر كم من الناس يعرف موضع التلذذ ؛ وإن عرته فلعل فكم منهم يقصد إليه ؟

• • •

إن حب المال أختبأته الاتفاقة محمدمة الشيطان ،
فترى السكروز يكدها السكازون في شغل واتهماك ،
فسم من قنديل في العمود السود — إذا ما أشار نيرون —
سل من أجل المال سيفه البتار ،
أما الدور التي خلا من المال وفاضها
فأفل ما يشاها من يؤيده السلطان من مطاع الرقاب ،
إن السائر الذي يمشى متفلاً بثرائه
ليقتل في سواد الليل ، وبسطل في الطريق مخدناً ،
ثم نراه دغماً هذا يخشى وقع السيف والمراوة ،

وبزعه ظل الحلفاء في ضوء القمر ،
أما السائل فيمضي في الطريق خلى القواد ،
يُفتق أناسيده في أوتجه القصوى .

وللإشارة كتاب في « الأمثال » لم يجهّ الشاعر به صناعته ، ولكنه
— مع ذلك — صور به الحياة الرومانية كما رآها في صدى وإخلاص . هذه
خاتمة شعراء اللاتين ، فقد مات الشعر بعدئذ ، أما النثر اللاتيني فقد لبث قائماً
بضعة قرون .

(٥) النثر اللاتيني

عاش شيشرون في النصف الأول من القرن السابق للمسيح ، وكان كاتباً
وحطيباً حتى أصبح إمام النثر اللاتيني في عصره ، وفي عدة قرون تالية ؛
لحديثك أن تعلم عن نثره أنه ظل مثلاً يحتذى الكتاب مدى ستة عشر قرناً ،
ونسكاد لا نجد في تاريخ الآداب رجلاً يعادل شيشرون في فرض أسلوبه على
كل كاتب أوروبي حمل القلم من بعده ليكتب نثرأخيراً ؛ تعلم في روما القانون
والبلاغة والفلسفة اليونانية والآداب اليوناني ، وقضى صنفين في آسيا وبلاد
اليونان نغمق فيهما دراسة الفلسفة ، وعاد إلى روما فأنشأ في السياسة وبلغ
أسمى المناصب السياسية وألف حزباله أنصاره وخصومه .

وبعد وفاة قيصر وأجولة السلطة إلى أنتوني وأوكتافيوس وليبيدس كانت
خطب شيشرون ضد أنتوني سبباً في قتلان حياته ، فقد حكم عليه بالإعدام وهم
بالقرار ، ولكنه فض عليه وقتل وعلق رأسه فوق المنبر الذي كان يخطب
من فوقه . ولم يكن شيشرون كاتباً وحطيباً وكفى ، بل كان إلى جانب ذلك سياسياً
ومؤرخاً وفيلسوفاً وناقدًا ومحامياً ، فكان لسانه أداة فننك بأعدائه فنكاً ؛

ولا يجب حينئذ أن نضدم إلى جبهاته زوجة « مارك أنتوني » مقتنعة لرؤيته من مشابك شفرها في أساءة إسمائنا منها في إسكات ذاك اللسان ، ولم نذكر أنه سيظل على مدى الأيام حياً ناطقاً .

نحن نسوق مثالا لقوة سبشرون الخطابية ، هذه الخاتمة التي اختم بها خطابه الذي هاجم به « مارك أنتوني » حين دخل روما ظاهراً ؛ والذي لم يكده يسمه أنطوني حتى أفسم ليشتم من الخطيب ؛ وإني هي إلا أيام فلانل حتى قُتل شيشرون وأرسل قائله رأس المقتول ويديه إلى سيده أنتوني ؛ فأخذها هذا وتجرها على منبر كان شيشرون قد ألقى منه كثيراً من خطبه :

قال شيشرون : « أفيجوز أن نقر نك إلى فيمصر بأي وجه من الوجوه ؟ لقد كان لفيمصر قدرة موهوبة وسفل راجح وذاكرة وعلم وبصيرة وأمل وروح ؛ إن أعماله الطريفة — وإن جاءت على أمته دماراً — فقد كانت لشخصه نفاذاً ؛ لقد اختلط لنفسه كيف يظفر بالسلطان أمداً طويلاً بما أنى من جهاد يحمل عن الوصف ؛ وما حاطر من أخطار عموق الحصر ، ثم عرف كيف ينم ما شرع ؛ فيها لهدايا والجمال والناجح واللاهي أنام السونة البهلاء ، وبالطعام الكريم اكتسب نفوس الأصدقاء ؛ وبالظواهر بالرحمة كسر شررة الأعداء ؛ وسفوة القول أنه استطاع بإلقاء الرعب حيناً وبالصر حيناً أن يجعل الاستعباد شيئاً سائناً في دولة حرة .

ثم إنني لأعترف لك أن شهوة السلطان كانت لكما صفة نشتر كان مها ، ولكنتك لن تستطيع أن تزعم سواها للمقارنة بينك وبينه ؛ إن السكوارث التي حببها فبصر على رأس أمته قد أنتجت خيراً ، وذلك أن أهل روما قد نطقوا منها إلى أي حد تميز اللغة بقول إنسان كائناً من كان ؛ لقد عرفوا بأي الرجال

بؤسهم وأى الرجال يحذرون ، ولكن مالك أنت ولهذا ؟ بل إنك لا تدري
ماذا عسى أن يصنع البواسل حين تُدفعهم الأحداث أن العنفس بالطاغية شيء
حبيب إلى النفس في ذاته ، سائق في نتيجته ، عظيم في روايته ؛ فإذا حُجَّ الناس
من بهل كنيصر ؟ تراهم يحتملون رجلا كأنوني ؟

عندئذى إن القوم ستدفعهم الحاسة بعدُ إلى مثل هذا البطش ، كلا ، ولن
يعاوا انتظاراً للرسعة سائمة ؛ أى أنتوني ! ألقى بقرين مُبصرَةٍ آخر الأمر إلى
وطئك ، لا تفكر ميمى نعش بينهم ، بل فسكر في أسلاك الدين انحدرت
منهم ؛ وكيفما تصنع فى مانا مُوصيتك أن تؤمن بين عسك وبين أمتك ،
وإنك بهذا ظهير خبر ؛ ولستكنى سألن هاعنا شيئاً واحداً ؛ لقد دامت من
وطى فى شبابى ، فإن أهر وطى فى كهوتى ؛ لقد ازدريت سيف « كاتلين » ،
مان أخشى لك سيناً ، وإنى لأفدّم — راضياً — غسى عدا لركان دى بُعيد
لروما حريتها من مورعا ، ويزيح من أهل روما ذلك الصب الكفيل الذى رزحوا
نحته هذا الأمد العاوبل »

وليس العجيب أن يؤثر شبشرون فى كتاب اللانجية من بعده ، ولكن
أعجب من ذلك أن يبلغ سلطانه هذا البالغ البعيد على كتاب الإنجليزبة - فى
القرن الثامن عشر ، قد كان كثير من كتاب هذه الفئة يحاكونه فى حسن
الصياغة ورشاقة الأسلوب ؛ وكان شيشرون - فضلا عن خطابه - من أعظم
كتاب الرسائل ، ولا زال رسائله تجمع قُرأها ونصوير بتفصيلاتها حياة ذلك
العصر تسوراً دقيقاً ؛ وقد اتفق آراء فى هذا الفن كتاب الرسائل من
الإنجليز فى القرن الثامن عشر حين كانت كتابة الرسائل مأجلاً .

ثم انحط النثر بيد شيشرون وذهبت عنه معظم قوته ؛ ولكن الشفق للنثر

بغية الشمس لا يخلو من ألوان جميلة ؛ فهذا « *پترونيوس* » ^(١) الذي كان صديقا للإمبراطور نيرون ، يتمتع عنه في « مزيج » ويقدمُ فيه صورة للحياة الرومانية في عصره ، ولم نلق لنا بدلا من هذا الأثر إلا جزءا ، وهو كل ثراث الأدب اللاتيني فيها يشبه القصة الحديثة ، وهو صورة ساخرة أمينة للجمع أو لجزء منه ؛ ولما كان الخنوع الروماني إذ ذاك منجلا في أخلاقه فقد جاءت صورته التي رسمها ريشة « *پترونيوس* » مما نفادى له أسمع للزمتين في الأخلاق ، ولكن دعنا نثبت في هذا الموضع أساسا من الأسس التي أقيم عليها هذا اللوح في تاريخ الآداب ، وهو أن الفارس « *الدكي* » مسيح الأمن له أن يقرأ كل مكتوب دون أن يغشى على حياته الأخلاق هداما أو نصدا ، أما أولئك الذين ننقصهم روح الحكمة كإسورم الذكاء ، فهو كذلك في ما من من أمثال هذه الآثار الأدبية التي تصور أخلاق المجتمع على حقيقتها ، لأنهم لن يقرأوا أدبا ، وإن قرأوه لم يفهموه ومعنى فن بعد « *پترونيوس* » ، ثم ظهر كاتب آخر هو « *أبيونانوس* » ^(٢) .

كاتب « *الحمار الذهبي* » الذي نُصِفَ به قصة « *كويديوس نيكا* » وهي من مشهور الأساطير اليونانية ، وقد خصناها في موضعها من الكتاب . وإن « *أبيونانوس* » نجابه الزائع وإشراقه البهيج ليمدو كالجربزة الساطعة في سحر كتيب ، ذلك لأن الأثر اللاتيني لم يعد أداة فنية ، بل أصبح لغة رسمية بسلطان رجال المكتبة والعلامة المدرسية في المصور الوسطى لمرص ما يكتبونه في الدين والفلسفة .

فلئن كانت الكنيسة قد غزت روما بدعاتها ، فإن روما قد بسطت على الكنيسة سباحتها بلطفها ، فاللاتينية لا تزال حتى هذا اليوم لغة المكتبة الكلاسيكية ، بل لغت اللاتينية فروقا طويلا لغة العلماء والحكام ، لا بعدد التعلم متعلما بدوسيا .

الفصل الأول

الأدب الإنجليزي في العصور الوسطى

العصور الوسطى في رأى التاريخ عهد طوله ألف عام ، يمتد من منتصف القرن الخامس إلى منتصف القرن الخامس عشر ، وعندئذ هبط في أوروبا رجال الفكر ، وتلفتوا إلى الوراء ليستخرجوا كنوز القدماء ؛ واشتدت بهم الحماسة نحو ثقافة اليونان والرومان حتى تملقوا بأذيالهم ، ونظروا إلى العهد الطويل الذى وصل بينهم وبين أولئك الأسلاف باعتباره «صرا » و«سيطا » بين الأصول والقرع ، وشتتوه بالجذب والإفلام ، ولعنهم لم يكونوا فى ذلك متصفين ؛ فلئن كانت تلك العصور يشوبها شئ من غلام ، فإن بها للمحات من صباه .

وأخضب جوانب الأدب الوسيط من حيث القصة الفنية هو الشعر ؛ أما النثر لم يكن قد بلغ من الرقى حدا يجعله أدلة فنية للتعبير الأدبى ونستطيع أن نقسم الأدب فى العصور الوسطى — على أساس الجنس واللغة — إلى أدب جرمانى (وهو يشمل الأدب الاسكندنافى والأدب الإنجليزي فى ذلك العهد) ، ثم الآداب الكلتية والفرنسية والأسبانية والإيطالية ؛ ولو أن هذه الأقسام المختلفة منشأ بكة ، قد أخذ بعضها عن بعض بحيث لا نستطيع أن نجزم — إلا بعد درس طويل عميق — أين بدأ هذا الأثر الأدبى أو ذاك ، وكيف نما وأضيف إليه ؛ لذلك كان من حقك حين تستعرض هذه الآداب الأوروبية فى العصر الأوسط أن تبدأ بأياها شت ؛ «ولكنك تحسن صنعا أن تذكر قبل البدء أنها تشترك

جميعاً في خصائصه وسماته ؛ فالسكينة الغالبة من القصص ولللاح والأساطير والأغاني من الآداب الأوروبية في المصور الوسطى تدور حول بطولة الفرسان في الحرب والحب معا ؛ وإنها لتجتمع كلها حول ملك حفيق أو حيالي ، بحسب نيتكون منها مجموعات ؛ فمجموعة محورها الإسكندر الأكبر ، وثانية مدله فيسر ، وثالثة حاتها شلمان ، ورابعة أرتور ، وهكذا ؛ وإن أزلنا البطولة في تلك الآثار الأدبية جميعا لنشاهد وتكرر ؛ ومن أكثرها شيوعاً أن يبدؤ البطل الأضواء فيفتله ، وأن يصادف الشوائب في كرب وضييق فيمده لمن يد المودة والنجاة ، وأن يتطب أصحاب السوء بالعقاب لينفذ الخصال الشريفة أن يصيبها الفساد والأذى ؛ ومبادئ الأخلاق التي يتصدى الفارس البطل لبدرا عنها السوء إما هي مجموعة من التواضع الخلقية أوجب العرف عندئذ أن يتحل بها الفرسان ، وقد أمكن تطبيق بعضها ونمو تطبيق سائرها فظلت مثلاً أعلى يحلم به الشعراء ، ولم تتحقق كلها إلا في عر قاييل من رجال الموضة ، تألدهم تاريخ الأدب على أنهم نماذج حية تمثل فيهم تلك الصفات ، وعلى رأس هؤلاء اثنان هما « بيار »^(١) الفارس الفرنسي و « السير نليب سيدني »^(٢) الإنجليزي

أما وقد بسطنا لك بعض الخصائص التي شاعت في المصو للوسطى حسدد لك بعد ذلك بالأدب الإنجليزي من عرض أهم ما دار حوله من أساطير .

وأول تلك الأساطير قصة « أرتور »^(٣) التي نقلت إلى الأدب الإنجليزي . ما أن نمت وتكاملت في الأدب الفرنسي ، وقد تجم أطراف القصة وأحدها « السير نوتس ماثوري »^(٤) في النصف الثاني من القرن الخامس عشر في كتاب

« موت آرثر » الذى أوحى إلى كثير من شعراء الصور الحديثة وكتبها ماعدوا
كتابة القصة ، ولعل أوسعها شهرة فى الشعر الانجليزى الحديث قصيدة
« نيسن »^(١) وعنوانها : « أناشيد الملك » « *Idylls of the king* » ، وبها
يصنع الشاعر آرثر بصفة إنجليزية خالصة ، وإنها لقصيدة من عبود
الشعر الإنجليزى .

أما كتاب « السير مالمورى » الذى أسلفنا الإشارة إليه فمجموعة من
القصص تروى عن « آرثر » و « لانيلوت »^(٢) و « جالاد »^(٣) و « بريغفال »^(٤)
و « ترسترام »^(٥) ، وغيرهم من الأبطال ذوى المناصير فى الحب والحرب ؛
ويضم هذا الكتاب إلى واحد وعشرين جزءاً ، يقص أولها مولد آرثر ونشأته
أيام طفولته : فقد ظهرت فجأة ذات يوم صخرة ضخمة فى مناء كنيسة باجتلرا
وإلى جانبها سيف دس فى سندان ، وعلى الصخرة نقش هذه العبارة بأحرف
من ذهب : « إن من يجذب هذا السيف من هذه الصخرة والسندان ملك
شرعى أحبته إيجلترا مأجماً ليحكم » ، وحدث أن قصد آرثر ذات عام — بعد
مبارلة فى العروسة — إلى داره ليحضر سيف أخيه الأكبر ، فعكر فى أن
يكفى نفسه مؤونة السفر الطويل إلى بلده طلباً لسيف أخيه ، وبرز على فناء
الكنيسة لبستل من الصخرة ذلك السيف الطمور ، وبجذب جذوة باذا السيف
بنسل فى يده ، غنى له إذن أن يسلى عرش بلاده ؛ ولكن ذلك لم يكن هبنا
يسيراً ، فقد نازل مقاتل من أجل الملك ، مكان وزانه وقتله يبعث على
الحجب والإعجاب .

وتزوج آرثر من « جوييتير »^(١) العاتية ، وعاش في مدينته بويلز عيش
الآبهة والجلال ، فحوله مئات العرسان وفاتنات الفواني ؛ كلهم مثل أعلى
للجمال وطيب النشأة ورشاقة الحركات ؛ ومن أشجع هؤلاء العرسان وصوتهم
الحنارة أخذ آرثر عطائه التي كانت تجالسه حول « اللادة للسندرية » ؛ وقد
كان يتعرف عرسان آرثر ليجوبوا البلاد يشهدون للمفامرة : « يحسون النساء ،
ويعلمون العفاهة ، ويطوفون من فيدم سحر الساحرين ، ويستمدون لردة
والأفرام . وأنت إذ نقرأ نصي هؤلاء الأبطال باعاً نقرأ أجل غرام نصادمه عند
الخبين ، ونجوس معهم خلال الدائن ذات الأراج حيث نتخطف أحلام الشعراء
في بطولة الفرسان . . . ونقرأ في قصة آرثر كعب خانته زوجته وأختيت سواء ،
وكيف فنى آرثر محبه بدائية .

ومن القصص الواردة في كتاب « موت آرثر » للسير مالورى قصة « الوعاء
القدس » the Holy Grail ، وهي مثال جميل لامتزاج الأساطير المسيحية بالنص
القديم التي سفت عهد المسيحية ، أو التي لم يكن يصلها بالمسيحية سبب من
الأسباب ؛ فهذا « الوعاء المقدس » هو الإله الذي صُب فيه دم المسيح ، وهو
رمز للكمال ، ولا يجوز لغير النارس الطاهر النخلق بأخلاق المسيح أن ينظر إليه ؛
ونرى القصة أن « لاأيلت »^(٢) الذي ظم الفضيلة بشين سلوكه أراد أن يمس الوعاء
فخانت فواء ، ولم يستطع ذلك غير أعاصل العرسان « جاوين »^(٣) و « جالاد »^(٤)
و « برثيفال »^(٥) .

وهناك غير هذه قصص مما يتصل بأرثر وأبطاله وعرساه ، وكلها مستند من

أصول مرسية أو كلتيغ ؟ سكن الأدب الإنجليزي الوسيط لم يكن مديناً كله لتلك الأصول الكلتية والفرنسية ، بل إنه ليسيف إليها جرمانيا فاصماً جاءه من آباءه السكسون ؟ فلي الرغم من ضعف الغيلال عند الإنجليز السكسون إذاً فليس بالجهل عند جيرانهم من الكلتيين والفرنسيين — ذلك الضعف الذي أدى إلى تأخر العمون عندهم — قد استطاعت اللغة الإنجليزية السكسونية أن تثبتت وتستقيم أداة فنية في ذلك العهد ، الذي اتخذ اللاتينية لغة للعلم والقرنية أداة للتفاهم بين السادة . وليس الأدب الذي بقى لنا من الإنجليزية السكسونية أدباً خصباً عزيزاً ، ولكنه مع ذلك جدير منا بالذكر والنسج بيل .

وخير مثال نسوقه للشعر الإنجليزي السكسوني قصة « بيوولف Beowulf » وهي انفع في مصالين ؟ في الفصل الأول يأخذ بيوولف تمتتة نحو الدمارك ، لأنه سمع أن أهل تلك البلاد بشككون من عدوان غول مطيع اسمه « جرنزل » ، وبعد صراع عنيف ينفذ بيوولف على ذلك الوحش الخفيف الذي طالما أنزل الغزع في نفوس الناس كلما أغار عليهم في ظلام الليل ؟ لكن أم القول لا تدع انها يقضى بحبه من غير أن ننضم ، منفي في الليلة التالية ونتمتلك بشر ينف من أثراف الدمارك ، فلما أصبح الصباح انتفى بيوولف أثر أم القول إلى عربنها تحت البحر وصارعها صراعاً عنيفاً حتى صارعها ، وهكذا تخلص الدمارك كيون من ذلك القزع المروع ؟ وبقى بيوولف جراً ما صنع ، ميمود مثقلاً بالهدايا متشجراً بالشرف كسبه نفسه ولأمة .

وفي الفصل الثاني من القصيدة يحدثنا الشاعر أن بيوولف أصبح ملكاً على نومه في شيخوخته ، وقد مزعت إليه أمته لينفذها من أموان مغترس بذلك بالناس فسكا ذرباً ، ميلاق بيوولف ذلك الأموان في قتال شديد ينتصر فيه ،

السكن الأموان بثلت في البطل سموه يردية غتيلا ؛ وتنبى القصيدة ببناء مفيدة
عالية لذلك البطل للحوار فوق الصخور المرتفعة على الشاطئ ، براها الملاحون من
بعد تشبه بهم سموراً بالجد والمطلة .

وعلى الرغم مما في هذه القصيدة من شرود في الخيال ، إلا أنها تصور بدقيق
صحيح للحياة الواقعة في عصرها ؛ فمختصة بيوتات تصور برحى للأمر الفاضل في
العصر القديم ، بل إن القول وأثنى في الجزء الأول من القصيدة ، ثم الأصوان
في الجزء الثاني . لسور هذا المزمع الشديد الذي يساور النفوس من كائنات
مخوفة تهب في الأرض فساداً إذا ما جئ الليل ، ولا فرق بين أن يسهب الناس
ببطل كيبولوف ليقدم من القول وشرو ، وبين أن يلجأ الناس — فيها نرى —
إلى رجل من رجال الدين يقرأ العرائم ويكتب التماس ليعاير الأرض من
الحين الخفية

ومن رجال الأدب الإنجباري في المصور الرسولي شاعران ديتيان هما
« كاذمن » و « سابنوف » ولو أننا لا ندرى على وجه الدقة في أي
فرق عاشا ؛ أما كاذمن — الذي يرجع أن قد عاش في القرن الثامن —
فقد نظم شعراً قصة « النكوي » وقصة « المروج » وهما ميثران في العهد
القديم ؛ وأما « سابنوف » فلا شك في أنه مؤلف ثلاث قصائد من
« القصائد القديمة » التي حُملت بعنوان « المسيح » ، وقد ذكر اسمه في قصائده
ذلك ، وأغلب الظن أنه كتب تراجم لأربعة من القديسين ، في بعض مواضعها
دقة السور وقوة الفصاحة .

كان الشعر — كما رأيت — أول أداة منية اتخذها اللغة الإنجبارية لله .

الأدبي) وذلك لأن الشر — وهو لغة العاطفة — أسبق ظهوراً من النثر وهو لغة العقل والمنطق كما أسلفنا. ومع ذلك فقد شهدت المصور الواسع إلى جانب الشر إنتاجاً في النثر لا بأس به قدرأً ، مقداراً ؛ ولعل أجدره بالذكر ما كتبه الملك « ألفريد الأعظم » الذي حكم إنجلترا في الثلث الثالث من القرن التاسع ، وجاهد أن يشق شعبه فملئهم القانون وصغرهم بشئون الفن ومسائل الفلسفة ؛ والأرجح أن يكون قد ساهم في كتابة « كتاب التاريخ » Chronicle وهو أهم وثيقة نثرية في الأدب الإنجليزي السكسوني ، ومصدر كثير مما تعلمه عن إنجلترا من منتصف القرن الثامن إلى منتصف القرن التاسع ؛ ولقد تُرجم هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية الحديثة لقيمه في التاريخ وفي الأدب على السواء .

الفصل الثاني

الأدب الفرنسي في العصور الوسطى

ونبذة عن الأدب في أسبانيا

كانت فرنسا في العصور الوسطى تنقسم من حيث اللغة والأدب — كما كانت تنقسم من حيث طبيعة الأرض والسياسة — قسمين بفصلهما خط يمتد من شرقها إلى غربها ، وهو يقع بحيث يقسمها ثلثين إلى الشمال وثلثاً إلى الجنوب ؛ شطرها الجنوبي أصيب من شطرها الشمالي مساحة وأضعف أدباً ، وقد سادت أخيراً لغة الشمال وأدبه وتدهورت لغة الجنوب ، مع أن تلك اللغة الجنوبية ازدهرت في العصور الوسطى ازدهاراً جعل ذلك الإقليم الجنوبي من فرنسا خلال القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر زهرة اللدنية الأوروبية وموضع سحرها

« وشراء هذا الإقليم الجنوبي — إقليم بروغانس — هم « الشعراء الطوافون » أو « التروبادور Troubadours » ، الذين يعدّون طليعة الأدب الرومانسيكي — أدب الخيال والمأخوذة — في أوروبا الحديثة ؛ وكان هؤلاء « اتروبادور » يكونون طبقة ممتازة منها السادة والفرسان والأشراف بل والملوك ؛ فلك انجلترا « ريتشارد قلب الأسد » بمتبر أحدهم ، وقد كتب شعراً باللاتينية القرنين الثاني عشر والثالث — لغة الشمال ولغة الجنوب — وحلف لنا قصيدة ذات جمال فني ممتاز ، كتبها حين كان سجين فوق الحجر الذي زجه في السجن وهو في

طريقه إلى إنجلترا عائداً من الحروب الصليبية .

لم تكن تلك الطائفة من الشعراء تُدخل في زمرة شاعرها إلا من ظهرت له موهبة في إنشاد الشعر ، لا فرق في ذلك بين شاعر نخبه الطبقات الدنيا ، أو شاعر يظهر بين الأسماء والنبلاء ؛ ولا بد من التمييز بين هؤلاء الشعراء وبين جماعة من « الندماء » كثروا عندئذ في حاشيات القصور ، لم يكونوا منشئين مبدعين ، واسكنهم مهروا في الفناء والإلقاء : بلقون القصائد والفصوص في وضع جميل .

وشعر طائفة « التروبادور » يدور حول الحب ، وهو في وزنه وبناؤه من الشعر الفصيح ، وإن أغلظهم — التي لا يزال كثير منها باقياً — لتماز بالباسطة ونحريك العاطفة ونوحيها من الأغاني الشعبية ؛ وإن يكن بعضهم منخرف اللفظ عميق المعنى . ولعلت جدت شعر « التروبادور » آتية من ناحية موضوعه ، ولكيها آتية من ناحية الطريقة التي اتبعت في صوغ هذا الموضوع ، وذلك العشق الخفيف الذي كان يبرر عنه هذا الشعر تعبيراً غنياً بالصور الخيالية تمازاً بالعقل والنعيم — لم يكن من نوع ذلك العشق الذي كانت نسيجه من الأغاني الشعبية الساذجة ، وإنما كان هذا العشق (التروبادوري) مذهباً عاطفياً أو بدعي رومانتيكية . . . ولم يكن يجد ذلك العشق مثله الأعلى في الفناء ، وإنما كان يجمعه في الزوجة ؛ وقد ذهب كثير من المستشرقين إلى أن شعر التروبادور ظهر في الجزء الجنوبي من فرنسا أخذاً عن الشعر العربي في الأندلس من حيث موضوعه وأوزانه^(١) .

وإذا قبس ما وعاه التاريخ من أرجال ابن فرنانس الأندلسي لنوفى سنة

«... بأشار الغروبادور تبين أن الثانية مأخوذة من الأولى ؛ وكان أحد شعراءهم وإليه دى برانييه^(١) ينظم أحياناً في أوزان ابن فرمان ، وأحياناً في أوزان تقاربا جيداً ؛ بل رد بعض الباحثين كلمات من اصطلاحات هذا الشعر إلى كلمات عربية^(٢) .

أما أدب الشمال في فرنسا — شعراً كان أو نثراً — فقد أتت له حياة أطول من أدب الجنوب ؛ فأدب الشمال هو الأدب الفرنسي الذي كتبته السيادة على أوروبا فروعاً متواليات ، والذي لا تزال نقاليده هائلة إلى يومنا هذا ؛ وقد كان الشاعر في الشمال — وكانت تطلق عليه لفظة تروثير *trouvère* تقابل تروبادور اشاعر الجنوب — بحرف الشعر على حين كان شاعر الجنوب يتخذ هواء ، وكذلك كان شاعر الشمال أكثر من زميله في الجنوب ميلاً إلى رواية الفضة والنفاس في الحياة ، وكان شاعر الجنوب أسبل إلى الفناء والنم الموصى ؛ فنتج عن ذلك أن أصبح الجنوب أرض الفناء ، وأنهى الشمال موطن القصة ؛ وذلك بالطبع لا يعني أن أدب الشمال لم يزهر فيه القصة الفنائية ؛ وأن النشدين في أنظم بروكانس لم يرووا أروع القصص ، إنما تروبد الخيال العالي والاتجاه بوجه عام .

وجاء أكبر الشعر الفرنسي يطلق عليها اسم « أأنسود : الزمجرة *Chanson de geste* » ، وكان موضوع الشعر عندئذ بطارقة العرسن و حياة الأبطال من الملوك أو بطانهم ؛ وهو من نوع التلاحم في روحه ومادته ، وكثيراً ما يحو مدحى قومياً وطنياً صريحاً ؛ (أأنسود : الزمجرة) بمعناها الصحيح إنما تصالج

^١ William de Poitiers (١١)

(٢) من مقال الدكتور عبد الوهاب عزيم مجلة اللغة عدد ١٩٩

تاريخ فرنسا وما فيه من صفحات مجد وفتار ؛ ولستكنك ترى إلى جانب ذلك قصصاً تدور حول عمالقة الماضي من أمثال إسكندر الأكبر ، ونصصاً أخرى تقوم على أبطال الأساطير من دكرم هومر وفرجيل ، وطائفة نائلة تروى قصة « آرثر » ومرساته ؛ وهذه الأناشيد والقصص الموضوع في فوالب الشعر كانت تكفي لإشباع الرغبة الطبيعية عند الناس في القصة ؛ وإن يكن هذا القصص الوسيط لا يصادف عند القارى الحديث فهو لا ، بل إنه نيبث على المال ، ولا يثير الاهتمام إلا عند العلماء الذين يصفبون كل ما خلفت الأسلاف . ومهما يكن من أمر هذه الأناشيد — التي يبلغ ما بين اثنا مائة مائة — معها عدة قليل من الآيات الروائع ، ومن هذه أنشودة رولان *Chanson de Roland* فقد كان رولان هذا شخصاً حقيقياً من أشخاص التاريخ ، وهو فارس من فرسان شرلمان ، فتل وهو بتفهم مزموماً في شعاب جبال البرانس الممتدة شمالي أسيانيا أمام جيش المسلمين في الأندلس ؛ وشاعر هذه الأنشودة — وهو مجهول عاش في القرن الحادى عشر — يروى قصة عراك عنيف بنشب بين الصنائين في ممر من جبال البرانس ، حيث انخدع شرلمان بحيلة من أعدائه ، فترجع عبر الجبال إلى جنوبي فرنسا ، تاركاً رولان يحمى له الأؤخرة من هجمات الأعداء ، وهناك نُزِلَ البطل وفى من حوله من الفرسان . ولم تستكتف أنشودة رولان إلا منذ مائة عام ، ولستكنها طبعت في هذه الفترة مراراً ، وترجمت إلى الفرنسية الحديثة وإلى الإنجليزية ؛ وقد كان قصة رولان هذه شيع في إيطاليا بإبان النهضة واتخذ منها أريوسنو^(١) الشاعر الإيطالى موضوعاً لغير كتبه أورلاندو^(٢) ولستكنها فيها يظهر لم تكن لها عندئذ مكانة ملحوظة في إنجلترا ، لأن القصص

في المحلزا وفي فرنسا في ذلك الحين لم يبدؤا حول أخبار شرملة ، إنما كان مداره أرتور ، وما يروى عنه من أساطير .

ومن الشعراء الفرنسيين الذين ساهموا بنيتوهم في إنشاء تلك المجموعة من القصص الثمانية جديران بالذكر ، وهما ماري دي فرانس^(٢) و كريتيان دي نروا^(٣) .

أما ماري دي فرانس ، فقد أخذت للشعر الأعظم من حياتها في المحلزا ، وربما كانت هنالك من حاشية البلاط الملكي في عهد هنري الثاني ، حيث سادت الثقافة الفرنسية ، وكانت للشكبة الياقوت أميرة من إقليم بروفانس ؛ وماري شاعرة مجيدة تروي قصصها في مدق وسلامة في غير تكلف أو عناء ، وقد ترجم مشرح كتابها « الأشعار » Leis ، ويستطيع القارئ الحديث أن يقرأها في اللغات الحديثة .

وأما كريتيان دي نروا فشايع عظيم له أثر قوي في بناء قصة أرتور ، وقد عاش في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ؛ وبعد قصصه الآتية زهرة الشعر الفصيح الفرنسي المأكر وأساساً لقصص النثرية التي ظهرت بعد في كتاب مالتوري الذي تقدم ذكره ، وقصصه هي : فارس اللب ، وإريك و إيند ، وفارس العرب ، ويزيشتان ، وپريستال . وسنرى في الفصل التالي أن قد كان لسكريتيان أثر عبق في الأدب الألماني .

وهناك إلى جانب تلك القصص التي تروي حوادث أرتور وغيره من الأبطال ضروب ثلاثة من الشعراء تشدها اللشدون في العصور الوسطى ، ولا تخلو في بعض أجزائها من روعة خيال . أما أولها فهو الخرافة التي تخص عن الحيوان ، وهو

ضرب من الخيال تذليله فيما قبلُ يُدسب لليوناني^(٢) بقصته الخرافية الشهيرة، فأصبح منذ عهد لوتيا مطروقا من ألوان القصص. وثابت لنا من هذه الخرافات التي تتحدث عن الحيوان مجموعة مفسكة الأجراء تسمى «نصف الثعلب وبنار». وأعلم ندمي لأخرافة في الأدب الفرنسي مما بعد المصور الرساى هو لا وذهبن^(٣) ، الذي لم يستد خياله من أسلامه الفرنسيين في تلك المصور الوسطى - فهو لا. لم يفسكف أدبهم إلا في القرن التاسع عشر - بل استفاد من منابع كلا-هيكه ومن خياله الحاد الذي طبع على السخرية ؛ ولم تكن الخرافة القديمة سوى قصة ساخنة عن الحيوان لم يرد بها الراوى أن تكون صورة للمجتمع ، وإن لم تخل عادة من لحنت فككة تخر من انطلق الإنسان وثاني تلك الضروب الثلاثة من الشعر التي ظهرت في المصور الرساى ، هو القصيدة الرزمة التي يقصد بها أن تكون درسا حلقيا تهذبا ، والأشخص في مثل هذه القصيدة إنما تكون قصائل أو ذائل مجردة مثل : «الحسد» و«البغض» و«الحسد» وما إلى ذلك ؛ وأشهر مثل للقصيدة الرزمة «نعة الورد» ، وهي فسدة طويلا موضوعها فن الحب ، وهي ترض ما في هذا الفن من شهامة ونحو غرضا تشبع فيه سخرية جميلة . ولا شك أن أهل المصور الوسطى على ما هم من رزاة القروسية وصرامة الأخلاق لم يأنهم أن يضحكوا من نقائص الإنسان ، «نقص الورد» في رزاتها ووقارها . ثم في سحربتها وفكاهتها تصور رماها تصورا أمينيا جعلها أثرأ أدبيا من الطراز الأول في أهميته ؛ ولعلها أن تكون القصيدة الوحيدة للتناككة التي كتبها شاعر ، لا من طريق التماون ولكن في تنابع . إذ أنهم الثاني منها ما تركه الأول حتى اكتمل

بناء القصيدة ؛ أما الجزء الأول عند كتيبه « وليم لوريس »^(١) في النصف الأول من القرن الثالث عشر ، وكتب الجزء الثاني من القصيدة « جان دي مويج »^(٢) بعد ذلك بنصف قرن تقريبا ؛ وكان هذا الأخير شاعرا موهوبا ، ولم تقتصر عادة القصيدة على « الحب » ، إنما غطت الجزء الأكبر من الآراء الاجتماعية التي سادت في العصور الوسطى ، فليس تمت من يرثى في قبورها التاريخية ؛ أما هل تنهى القصيدة لتأريخها ممتة أو لا تنهى فذلك موضوع آخر ، فالتقارير الحديثة لا يسليخ كسله في العصور الوسطى قصيدة رمزية طويلة تقصد إلى التمثيل الخافي ، حتى وإن خفف من حديثها فكاهة لطيفة كما في هذه القصيدة ، أو تمت شاعر بها كما في قصيدة سبنسر « الملكة الحيلة » التي سيأتي ذكرها بعد في تاريخ الأدب الإنجليزي في عصر النهضة .

والعرب الثالث من شعر العصور الوسطى هو الشعر الثنائي الذي أتيح وأزدهر وتكاثر ألوانه ، أصحاب هذا الشعر الفخاف لم يتجههم طبقة في المجتمع دون أخرى ، بل ساهمت في إخراجهم طبقات الناس جميعا ، فمنهم العامة الذي مزج أعلاه لغائه بلفه ، وحاول أن يكسب اللغة الأدبية وقار العلم وأسلوبه ، ومنهم النبيل الذي شجع الفن وعارسه ، بل منهم الملوك ؛ فحين من أنشد ونقح من أصحاب الروش « نيبولت الرابع ملك شبنانيا »^(٣) و « ريتشارد الأول ملك إنجلترا » (وهو ريتشارد قلب الأسد طال الحروب الصليبية) ، وحين من الأول ملك اسكتلندة ، وألفونسو العاشر ملك اسبانيا ، ولكن القاصد الفخاف التي أنشدها شعراء من طبقات الشعب الدنيا كانت خيرا مما قاله هؤلاء السادة ، ونسعى

هذه الأخيرة « بالأغاني الشعبية » وهي أنصق من تلك بالحياة ، كما هي الحال في الأغاني الشعبية عند الأمم جميعا .

وفد ظهر في القرن الرابع عشر كذاب عظيم نستطيع أن نسلكه في نصص القروسية التي سلف ذكرها ، وذلك هو كتاب « أخبار التاريخ » *Chronicles* ومؤلفه « مرويسار » ^(١) ، هذا الكتاب الذي بنى تاريخ فرنسا وإبجلها واسكنندة وأسانها فرما كاملا نغريبا بنثر خيال القارئ أكثر مما فعل القصة الخيالية ، وهو صيرة عظيمة لمصره ؟ فقد كان « مرويسار » رحالة لا ينفطع عن الرحلة ، وينظر إلى العالم بنظر الشخوف الذي لا يمل ، ويسجل ما يراه وما يسمعه ، وإن لأشروه جلدة وملاوة وحياة ، وفي إثباته للأخبار أمانة ظاهرة لا تخفى على القارئ ، مما وصفه في الصف الأول من المؤرخين ، حتى لبطلن عليه أحيانا « هيرودوت العصور الوسطى » ، وذلك فضلا عن مكانته في فن القصة ؛ وقد كان « مرويسار » إلى جانب ذلك شاعرا ، وإن لم يكن شاعرا مجتازا ، لأنه عاش في قرن سادت فيه كذابة النثر ، ضد صحتت فبشارة الشعر خلال القرن الرابع عشر في فرنسا ، ولم تعد إلى أعقابها الساحرة إلا في القرن الخامس عشر ؛ وكان لكتاب « مرويسار » أثر بليغ في النثر الفرنسي ، فقد أنجه به نحو الوصوح الذي لبث قرونا طويلا طابع النثر في فرنسا .

وبنصل الأدب الأسباني بالأدب الفرنسي في العصور الوسطى ، وبخاصة أدب الإقليم الجنوبي — إقليم بروفانس — اندالا شديدا ؛ فالقصيدة الأسبانية التي تقابل قصيدة « أنشودة رولان » في فرنسا هي « قصيدة السبد

Poem of the Cid : وقد كان « السيد » رجلاً حقيقياً قاتل السليخين في الأندلس مثال الأبطال ، وسمه « راي ديار دى سيفار »^(١) وبلغ « بالسيد » ؛ وقد أصبح « السيد » موضوعاً لمحاكاة حوله الأساطير التي تروى ضروب النسالة والبطولة ؛ ولم تؤثر شخصية « السيد » في الأدب الأسباني وحده ، بل تجاوزته إلى سائر الآداب الأوروبية ، « فاعتزها » كورني^(٢) الروائي الفرنسي العظيم موضوعاً لإحدى مآسبه ، وقد ترجمت هذه الأخيرة إلى اللغة العربية .

ومن أدياء أسبانيا في القرن الثالث عشر ملكها « ألفونسو » وبلغ « بالعالم » الذي أمسك السيف بإحدى يديه محارباً وحل القلم بالأخرى كاتباً ؛ فقد أنتد شعراً وكتب ثراً ، وأشرف على مؤلفات وضعت في مختلف الفنون والعلوم ، واستفد إلى بلاطه أصحاب الفن ورجال الفناء من فرنسا ، وبخاصة « الغروبادور » الذين كانوا عندئذ لا يطمثون إلى الحياة في إقليم « بروغانس » — وهو وطنهم — لما شهدوا من انقلاب سياسي في ذلك العهد ؛ ولم يزدوا الثمر الغنائي للغروبادور في أسبانيا ازدهاره في فرنسا ، ولكنهم مع ذلك أنتجوا مقداراً عظيماً من الأغاني والأناشيد نبعث عن الحالات النفسية على اختلاف ألوانها ، وهي تتفاوت في الجودة من النظم الركيك إلى الشعر الجيد المنثور .

وسنجد في الأدب الأسباني في عصر النهضة أدباء زاهياً زاهراً موضوعه فصل آخر .

الفصل الثالث

الأدب الألماني في العصور الوسطى

لعل الشعراء لم يجدوا من التكريم في بلد ما وجدوه في البلاد الألمانية ، وفي أجزائها الجنوبية بصفة خاصة : في بافاريا والنمسا ؛ وهذا نشأ بتأثير الشعراء « القروبادور » تقليد بين الشعراء أن يقرضوا « أنشودة الحب » فينزلوا بالحبوب على تقاليد دقيقة معقدة تقوم بين الشعراء مقام القانون الذي لا يجوز لأحد أن يحدو قيوده وحدوده ؛ غير أن الشاعر الفَرِّل في ألمانيا كان أكثر من زميله القروبادور في فرنسا جداً وصرامة ، وأقل منه زخرفة ومهرجة ؛ فقد تناول منه في جد لا يعرف المزَل ، واستطاع في قرنين — هما الثاني عشر والثالث عشر — أن يفتح مقداراً كبيراً من الشعر الغنائي الذي يشف عن عذوبة قوية في نرض الشعر ، فكانت تلك القصائد الغنائية بالإضافة إلى الأغاني الشعبية الساذجة أساساً « للأغاني » الألمانية التي امتازت بالفاظها وأنغامها معاً ؛ وكان الشاعر الفَرِّل في ألمانيا — عادة — فارساً من الصفوف الدنيا ، وموضوع « أغنية الحب » إعجاب الشاعر بل تقديره لاسراً: من طبقة اجتماعية تفوق طبقة الشاعر بحيث يستحيل عليه أن يظفر بها ؛ وقد تكون هذه المحبوبة أحياناً من مثله بالفعل في زوجة سيده ، وقد تكون أحياناً أخرى وليدة حياله ؛ وإن هذا اللون من الحب يحسه شاعر شاب نحو مشوفة مرق مناله إيشيخ في كثير من شعر العصور الوسطى وعصر النهضة ؛ ولئن كان هذا الحب مصطنعاً أحياناً فإنه في معظم الأحيان صادر عن عاطفة قوية سليمة تمكن الشاعر أن يعبر عنه تعبيراً جميلاً .

وأعظم « شعراء الغزل » في ألمانيا هو « وولفر فون إيرفنجهايم »^(١) الذي يروع في من الترييض ، وكان ذا أثر عميق في الهوى بالشعر الفنى ، وكان لا يشكك الغزل بل يصدر في غنائه عن شعور صادق ، وإن العاطفة الهادية في شعره لتصلح بسبغة هي أقرب إلى موسنا من شعر كثير من المعاصرين ، وأصيده الشهيرة هي « نحت خلال الزرعون » ، وليست مشوفته فيها سيده من طبقة رهبنة ، بل مناة ساذجة من غار الشعب .

وفد حدث في مستهل القرن الثالث عشر أن النلى « وولفر فون إيرفنجهايم » زميله الشاعر « ولغرام فون إيشينباخ »^(٢) في بلاط أحد الأمراء . فكان لقاء بين شاعرين هما أقوى شعراء الألمان عاطفة وعبارة وأشدُّهم خلقاً وابتكاراً . وتاريخ الأدب يعرف « ولغرام » بشعره الغزلى ، كما يعرف له أنه الشاعر الذى تناول قصة « بارسمال »^(٣) مصاغها وشواها . وهى أجل قصة تروى أسطورة « الوعاء المقدس » التى تقدم ذكرها ، وقد جاءته القصة من فرنسا عن شاعرها « كيرتيان دى تروا » وغيره من مصادر الأساطير ؛ ولكن « ولغرام » كان أصعب عبدا من سله القرضى « كيرتيان » وأدق منه إحساسا من نفسه ، وإن يكن « ولغرام » في بعض مواضع قصته يمتنع ويشتد ، وذلك لأن القصة الألمانية لم تكن بلغت في أدائها لقصة ما خلفته من التهذيب والسو في أدائها للفناء .

وبعاصر الشاعرين « ولغرام » وزميله « وولفر » شاعر ثالث بعث بكون معهما ثالثاً أدبيا في الشعر الألماني الوسيط وهو « جوتفريد فون شتراسبورج »^(٤)

Wolfram von Eschenbach (١) Walther von der Vogelweide (١)

Gottfried von Strassburg (٤) Perzival (٣)

الذى كتب أروع ملاحم البطولة فى ألمانيا ، بل فى أوروبا بأسرها ؛ فضنته « نيرستان » مستمدة من أصول فرنسية ، ولكنها فى قوة التعبير وصدق التصوير ووحدة الفكرة لا ينافيها شئ . من الإنتاج الفرنسى ؛ وقصة « جوتفريد » هذه عن « نرستان » اتخذت مما بعد أصلا يفس عليه مما كتبت من قصص فى هذا الموضوع ؛ وقصة « نرستان » فرع من قصص « آرثر » التى شاعت فى الأدب الوسطى .

على أن « إلهافه » الألمان فى العصور الوسطى هى « بيلكين ليه »^(١) ومعناها « أغلى أهل الظلام » ؛ وهى كنز نخب لمصب هبط عليه « فجنز » بها بعد فاستمد منه قصصاً لمراحلاته الفنائية .

وكاتب هذه القصيدة العظمى شاعر ألماني مجهول عاش فى القرن الثالث عشر ؛ وقد جمع أساطير الأبطال الأولين الذين ظهروا فى شعوب الشمال ، تلك الأساطير القديمة التى لا بد أن قد نفى بها أصحابها الأوائل جماعات جماعات حول الدافى ؛ فهل أن يجتزع من الكتابة والتدوين ؛ كما جمع هوسر ، قبل ذلك بفرون أساطير الإغريق القدمين فكتبها شعرا فى ملاحمه ؛ وأطلق الشاعر المجهول على مجموعة الأساطير التى أجراها فى شعره « أغلى أهل الظلام » ، التى تقع من نفوس الألمان ما وضعت « الإلهافه » و « الأوفيسية » من هوسر الإغريق . وكما اتخذت القصص الموسومة موضوعاً للمأسى الإهريقية الكبرى ، كذلك اتخذت « أغلى أهل الظلام » تبعاً استحس منه العن فى الصور الحديثة ، فأخذ عنها « فجنز » — مثلاً — ممرحاته الفنائية .

وقصة « أغلى أهل الظلام » برويها الراوى فى تسع وثلاثين مغامرة ، ونبدأ

بقدم البطل سيغفريد^(١) ، وهو ابن سيغموند^(٢) ملك الأراضى الواسطة ، إلى مدينة ورمر^(٣) ليحفظ بنته لا تصارعها في حبسها فتاة ، وهى كرىمهيلد^(٤) أخت جودتر^(٥) ملك برجنديا

وقد كان سيغموند هذا مغامرات مجيبة في شبابه حين كان يتلقى تدريبه عند صانع الفايو ، فقد قتل أموانا واغتسل بدمائه ، فأصبح بعدئذ في مأمر من الجراح إلا في موضع واحد من جسده ، وهو موضع يقع بين كفيه حيث أصقت به ورقة من شجر الزوفون حين اغتسل بدماء الأضوان ، فشكل هذا الموضع من سيغفريد ما كان العقب من أنجيل في قصة الإلياذة ؛ وهو في هذه الحصة التى اكتسبها سيغفريد كان قد حل سبقا علوا زوى عن أعاجيبه الأساطير ، وظهر ثوب الإخفاء إذا ما تمنع به اختفى عن نظر العميون ، وقد أكرمه هذا الثوب فوق ذلك قوة تعدل قوة اثني عشر رجلا متأزرين ؛ وكان له صولجان سحرى أكرمه سلطانا على الآخرين ، وموق ذلك كله اجتمعت له كنوز أهل مملكة الظلام ، وهى تحوى دها وأحجارا كريهة لا تنفع نحت الحصر ، وأسلت له دولة الأفرام زعمائها وقيادها

فلما أراد الملك جودتر أن يرحل إلى أيسنلند^(٦) لبسط — إن استطاع — للملكة زمهيلد^(٧) ، وهى بارعة الحلال ولكها جريرة فاسدة ، اتفق مع سيغفريد أن يصحبه مستكرا في هيئة عبد من نواجه ، فإن علوه سيغفريد في قضاء مطلبه — ودون ذلك أهوال — أباح له جودتر الزواج بأخته كرىمهيلد التى

Worms (٢)

Siegfried (٣)

Siegfried (١)

Verland (٤)

Günther (٥)

Kriemhild (٦)

Brünhild (٧)

جاء بخطها ؛ لكن أين هما من الظفر برنهلده وهى تلك المرأة الشمس التى نصح نفسها فى طليعة المئتانين ؟ إنها فى أهدأ حالاتها لا تهب نفسها زوجاً إلا لمن يعرفها فى رماية الرمح والنفز وتذف الأحجار

نفع سيغفريد بشربه السحري ، فاختل وزدادت فوه أضعافاً مضاعفة ، ونازل للسلكة الخملوبة برنهلده ولم يكن على جونتر الخاطب إلا أن يهرجده ويطوح يده كأمه يقوم هو بالنزال ؛ وانتهى الأمر بهريثة برنهلده فكان زاماً عابها أن تنقل مع عطيتها إلى بلده ورميزاً حيث أقيمت حفلات العرس الخاطبين جميعاً ؛ جونتر بزف إلى برنهلده ، وسيغفريد إلى كريهلده ؛ وكانت الحفلات نفيس روعة وجلالا ؛ لكن برنهلده — تلك للسلكة السحرة — قد استخدمت بغيره سحرها فى إيلة الزفاف ، فأصكت بخطيتها جونتر وشدت وثاقه شداً شديداً وعافته على مسير فى الخائط ؛ فهض سيغفريد مرة أخرى معين زوبله جونتر على تلك المرأة للروعة الفادرة . وما هو إلا أن فُضت بكارتها حتى دهب عنها كل قوتها ، وأسست القياد لزوجها ، وكان جزاء سيغفريد — لما فندهم من عون — أن أخذ من برنهلده خاتمها ومنطقتها ومهما من فوه السحر ما بهما ، ثم أهداهما إلى زوجته كريهلده . وتغشى أعوام يتقلب بها سيغفريد وزوجه فى نعيم زاهر بفضل كنوزه الربعة التى آلت إليه من مملكة الظلام ، ولا يشوب سعادته تلك سوى شائبة واحدة . وهى أن للسلكة برنهلده لم نزل تشير إلى سيغفريد بأنه عبد رفيق لجونتر ، وأنها لذلك سيدة زوجته كريهلده

وحدث يوماً أن جاء سيغفريد إلى محل أقيم فى ورس ، وصحبته زوجته وأبوه وعدد من الأتباع لا يكاد يحصهم العدد ، وصارت الأمور خلال الحفل على خير ما يرجى ، ثم اشتبكت الألمان — برنهلده وكريهلده — فى نقاش حاد

تَزَّانَ مَعَهُ فَنَدَرَ رُوحَهُمَا ، وَبَلَغَ الْتِرَاعَ أَشَدَّهُ حِينَ نَهَضَتْ كَرِيْمُهُ وَخَلَفَهَا
حَاضِيَةُ عَظِيمَةُ ، وَذَهَبَتْ تَحَوُّ الْبَابِ تُرِيدُ الْخُرُوجَ ، فَالْحَقَّتْ سَهَابُ بَرْنَهْلَهْ الَّتِي
لَمْ يَكُنْ لَهَا مِنْ جَلَالِ الْحَاضِيَةِ مَا لِنَظِّكَ ، وَعَنَتَهَا قَائِلَةٌ : « لَنْ نَتَقَدَّمَ زَوْجَةَ الْعَبْدِ
فِي الْخُرُوجِ عَلَى زَوْجَةِ الْمَلِكِ » . وَهَذَا ذِئَاعُ السَّرَّالِ الْمُسْكُونِ حِينَ انْفَجَرَتْ كَرِيْمُهُ
قَائِلَةٌ وَهِيَ مُغْضِبَةٌ حَاضِيَةَ :

هَلَا أَسْتَكْتَرِي يَا هَدْيَ عَنِ الْحَدِيثِ ؟

فَنَدَّكَانَ الصَّمْتُ خَيْرًا لَكَ وَأَفْضَلَ

أَلَمْ تَحْمِلِي بِالْعَارِ جَسَدَكَ هَذَا الْحَبْلَ ؟

مَسْكُوتٌ اسْتَعْلَمَتْ عَامِرَةٌ أَنَّ تَكُونُ زَوْجَةَ لَيْلِكَ ؟

ثُمَّ أَبْرَزَتْ لَهَا الْحَافِمُ وَالْمُنْطَفَةُ اللَّذَيْنِ انْتَزَعَا مِنْهَا انْتِزَاعًا حِينَ انْفَرَقَتْ زَوْجَتُهَا فَدَمَّرَا
فَانْفَجَرَتْ بَرْنَهْلَهْ بِأَكْبَرِ ، ثُمَّ أَحْدَثَتْ نَفْسُكَرَ وَنَدَبَرَ كَرَفَ يَكُنْ لَهَا أَنْ تَتَنَبَّهَ لِمَا
أَصَابَ كَبِيرِيَامَهَا مِنْ جَرَحٍ بَانِيغٍ ؟

وَأُنَابَتْ بَرْنَهْلَهْ عَنْهَا فِي الْإِبْتِغَاعِ بِأَعْدَائِهَا عَارِجًا غَضِيغًا هُوَ هَبِجْنُ ^(١) ، فَمَا
زَالَ هَذَا بِكَرِيْمُهُ يُصَادِمُهَا حَتَّى أَفْضَتْ لَهُ بِسَرِّ سَبِجْفَرِ بِدْ أَنْ فِي جَسَدِهِ مَوْضِعًا
وَاحِدًا يَكُنْ جَرَحُهُ فِيهِ ، وَذَلِكَ بَيْنَ كَنْفَيْهِ ، فَلَمْ يَلْتَمِمْ هَبِجْنُ أَنْ يَأْتِغِ الدَّهْلَ
سَبِجْفَرِ بِدْ ، فَأَرَادَهُ فَنِيْلًا وَهُوَ بِتَقَبِّ صَيْدِهِ ؛ وَلَسَكِنْ بَرْنَهْلَهْ لَمْ يَكْهَلْ هَذَا ،
فَلَا بِدْ أَنْ أَسْتَدِلَّ غَوِيْمَتَهَا كَرِيْمُهُ بِسَدِّ قَتْلِ زَوْجَتِهَا ، فَصَلَّ هَبِجْنُ عَلَى اسْتِغْلَابِ
كَدِيُوْزَهَا ، وَبَقِيَتْ السَّكْبَةُ ثَلَاثَةَ عَشَرَ عَامًا فِي فَرْدٍ مَدْنَعٍ وَحَزْنٍ شَدِيدٍ ، حَتَّى
أُرْسِلَ فِي حَبْلِهَا مَلِكٌ مِنْ أَفْصَى الْأَرْضِ هُوَ الْمَلِكُ إِيْرَازُ ^(٢) ، فَفُضِلَتْ الزَّوْجُوجُ
مِنْهُ لِمَا لِقَرَصَةِ نَوْدٍ وَمَسْخَعٍ لَهَا انْتَقَمَ مِنْ عَدُوِّهَا الْاُدُودِ بَرْنَهْلَهْ

ومضت أعوام ، ثم أرسلت كريمهله تدعو جونتر و بطله هيچن إلى قهر
زوجها ، فأدرك هيچن ما قصدت إليه الداعية من سوء ، وحاول أن يصرف
عنها سيده ، واسكن جونتر لم يأبه له ، وذهب في حاشيته وأتباعه ؛ ولم يكن
إنزل زوج كريمهله يعلم عن مكيدة زوجته شيئاً ، فأخذ يستقبل الأضياف في
حفاوة وإكرام ؛ وما إن اكتمل الحفل حتى أخرجت النفوس مكنون الضمائر
فَسَلَّتْ سيوف ، ورميت قسي^٢ ، وطاحت رموس ، وسالت دماء ، ولقى الأعداء
من القرى قتل حتوفهم ، ولم يبق حياً سوى إنزل وبعض رجاله

الفصل الرابع

الأدب الإيطالي في المصور الوسطى

دانتى

كان مولد دانتى في القرن الثالث عشر ، وقد أوغل بحياته في القرن الرابع عشر ؛ فجاء قبيل الوعد الذى حددته للورخون لانهضة في أوروبا ، لكن دانتى كان في ذاته نهضة كبرى ؛ وقد ولد دانتى في « فلورنسه » بإيطاليا ، التى كانت في عهده — بل ظلت فرنين أو ثلاثة قرون بعد زمانه — عقل الفنون والآداب ، لا بعدلها في ذلك بين مدائن العالمين إلا أثينا في عصرها الذهبي ؛ لكن شاء الله لشاعرنا العظيم ألا ينشئ آية القنية الكبرى في مدينة الفنون ، وذلك لما شهدته أيامه من صراع — يامى عنيف ، وكان هو منتسبا إلى الحزب الخامس^(١) ، فتعاضد ذوو السلطان من المدينة فاعتصم بمائة الأدب من لودو فير من الدائن الإيطالية ، وبخاصة في « فيرونا »^(٢) و « رافينا »^(٣) حيث أنشأ « الكوميديا » .

وآية دانتى الكبرى هي « الكوميديا » التى أطلق عليها « الكوميديا الإلهية » — ولم يكن دانتى هو الذى أطلق عليها هذا العنوان الثانى — وهى رحلة خيالية في الجحيم وفي الأعراف ، وفي الفردوس ؛ وقد بلغ بها الشاعر من

(١) كان دانتى من حزب البيض (Branchy) الذى كان يدافع عن حقوق فلورنسا السياسية ضد التدخل البابوي ، وكان هذا الحزب سارما لحزب السود Neri الذى كان يميل إلى البابا .
Ravenna (٢) Verona (٣)

الجودة الفنية حدود السكال ؛ و «الكوميديا» نخط خاص من الأدب ، فلا هي تنحدر في سلك اللام ولا هي تندرج تحت ضرب من ضروب الشر للمرونة المألوفة ، فلم يأت مثلها في الصياغة والتأليف سابق أو لاحق ، إنما خلفها ذاتي خلفا وأنشأها إنشاء ، غامت في عالم الشر ولبدأ جديدا مادة وصورة وعبار (١) .

ومع هذا فقد جمع في -طورها حكمة عصرها- فإنه حين برهمل ليشهد الوقي ، تراء يحمل في جعبته حقائق التاريخ وتراجم الأعلام والأبطال ، ثم يبدى أشعاره فصص الآتين ليدور لم ما يستحقون من أنون العقاب ، كما ينص أنباء الحسين وما واهم الله به من نعم مفهم ؛ والرواية عن هؤلاء وأولئك هي مصدر ما يصاده القارى في الفصيدة من منعة وجمال ، وبخاصة ما رواه الشاعر عن الجحيم وما كنبه ، لأن النصبة إذا روت عن محرم آثم كانت أمتع من التمسبة تُروى من مثبث قدس . إن ذاتي ليدرك هذه الخبئة الإنسانية في وضوح ، ويستشرها ما أسعفه الفن والديوغ ، فتراه ينزل بأصحاب الجحيم عذابا ألما بهز التعوس مرأ عنيقا ، وبنوع العذاب جيد . تارة على الجسم وطورا على الروح ، ومع ذلك لا نحس وأنت نقرؤه أنه عذاب صدر عن حقد وضمينة ، بل بسوده الرحمة والعطف الجليل ؛ ويحتم الشاعر رحلته برؤية الله ، وعندئذ نطمس الإرادة الإنسانية في « الحب الذي يحرك الشمس ومائر الأملالك » - عندئذ يتحد الإنسان والله .

(١) عند كثير من الباحثين وجوها من الشبه بين الكوميديا الألمانية لهانز ورسالة المتران لأن السلام المرى واستسر الحدل إلى الآن ، هل أنشد ذاتي من القدي أولاد الروايات مغاريل في الموضوع وإن امتثلتا في الشكل وأما ما كان فن الكتاب أن الأنسكار الإسلامية والأدب العربية كانت متغير في إيطاليا وحوير فرنسا واسطه على الأنسكار وكان لهذا أثر واضح في أدب هينز الأديبين .

وإنما أراد دانتى بهذا أن يهين "لأبصارنا هذه الرؤية ليفتح أمام بصائرنا
آفاق الأمل الفسيح ، فيخرجنا من إحساس بالشقاء إلى رجاء في النعيم .
جاءت « الكوميديا » فصيصة رائعة بارعة ، لسكتها حوت مُمَيَّنَات في
الفلسفة والتلاهوت أخذ البحث العلمي في سنة قرون ثالثة بمجاهد في سبيل حلها
ونوضحها ثم أعلن إبلاسه ؟ ولكن في هذا الصناء كله في حل المشكلات
والفصوص إلى الأعمى إن كلن السطوح فانتنا حللنا ؟ فلتستمع بهذا النغفوف
الهادية إن كان ما وراء ذلك موفى للسطوع .

ولا تفت عبقرية الشاعر عند حد الفكرة ، بل نعدوها إلى الصورة التي
ألبسها إياها ؟ مبناء القصيدة عنده معجزة من معجزات التأليف والإنشاء ،
والكوميديا تتألف من ثلاثة أقسام : الجحيم ، والتملُّه (أو الاعراف) والمردوس ،
وفي كل قسم منها ثلاثة وثلاثون مقطعاً ، وإذا أضفت إليها مقطعا زلذا أخذت
الشاعر مانحة للجحيم ، كان لك بذلك مائة مقطع تكون القصيدة ؟ وللفناطع
نكاد نقاسي كلها في عدد أبياتها ، فكل منها مائة وأربعون سطر أو ما يدور
من ذلك ، فتركب من وحدات مثلك القافية ؟ فالوحدة قوامها ثلاثة أسطر يتناسخ
أوساطها مع السطرين الأول والثالث من الوحدة التي تليها . ولم تسكن هذه
الصورة الشعرية التي ابتكرها دانتى قصيدته دليلا على براعته في الأوزان
وكفى ، لسكتها موفى ذلك رحان على سلامة مظهره وقوة سابقته ، لأن هذه
الوحدات الثلاثة القافية خير ما يصلح للتصير عن موضوعه ، وقد نهذت ألوانه
ونابئت في هذه الفكرة ، وفيه النفس ، وفيه الوصف المستفيض والحكمة الموحدة ،
بحرث جاءت كلها فسيحا واحدا متأسك الدباجة موصول الأطراف والأجزاء ؟
ومما هو حدير بالذكر أن هذا الوزن للبتكر قد حاوله من بعد دانتى كثيرون

فلم يكن في أيديهم طليحا متسقا كما كان عند صاحبه ، لذلك ظل خاصا به لا يشاركه به شاعر سواه .

نعم ماذا ؟ ثم لا يقطع هذا النبوغ الخارق بالمكرة السامة ينشئها وبالصورة الفنية في بناء النصيدة بخلقها ، لكنه تجاوز ذلك إلى الألفاظ نفسها ، فاصطنع لغة لم يصطنعها الشعراء من قبله ؛ ففي ذلك العصر الذي كانت اللاتينية فيه أداة الكتابة بين العلماء ، لا يمتازوا في ذلك منذازع ، اتخذ دانتى من اللهجة العامية في إنجليزية « تسكانا » لغة أدبية يستخدمها لغة ، ثم أدخل عليها ما أدخل من نهذب وانحذيب حتى أصبحت أداة التعبير التي تجري بها أفلام الأدباء في إيطاليا ، وهي ما نسميها اليوم « بالإيطالية القديمة » . لقد كان في إيطاليا — ولا يزال بها — لهجات كثيرات ، وبعضها أدب جميل ، ولكن اللهجة النيسكانية — وهي لهجة الحديث في فلورنسه وما يجاورها — امتازت من دونها جميعا ، واتخذت مقبلا للتعبير الصحيح الخالق طوائف النشئين ، وذلك بفضل شاعرها دانتى .

و اتخذ دانتى من سلفه فرجيل دليلا يهتدي به في رحلة الجحيم ، كما عا أراد بذلك أن يعترف بالجميل لأستاذة في « جمال الأسلوب » ، فليس من شك في أن فرجيل أثر عميقا في دانتى ، بل في شعراء أوروبا الوسطى والحديثة على السواء .



لما بلغ دانتى التاسعة من عمره شامت له الصادقة أن بانق بفتاة في مثل سنه هي « بيكاترنشي »^(١) التي اليانسان ولم يتبادلا حديثا ، لكن الشاعر فيها بعد بقرر أنه « منذ ذلك اليوم قد تمسكن سلطان الحب من نفسي » . وابتدت

« بيترنشى » ، حتى حتام حياته ملئت حواطره ومشاعره ! ما هوذا يستعبد في أواخر سنه ذكريات ماضيه ، مذكر كيف شهد الطبيعة يوما يعدّه أسعد الأيام وهي ترتدى ثوبا « أبدع ما تكون الثياب لوفاً ، ثوباً قرمزيا جميلا تطوق وازدان على محور أنم ما يكون تناسباً مع بقاعة سنها » ؛ ومضت بعد هذا اللقاء أعرام أسعة ، ثم قابل الشاعر « بيترنشى » مرة ثانية ، وكانت ترتدى ثوبا أبيض ، ونسرى في شوارع طورسه في محبة سيدتين فكبراتها ؛ ولم يبادل الحبيبان حديثاً في هذه المرة أيضاً ، لكن الفتاة « أدبرت عينها إلى حيث وفقت يعلو الخيل الشديد ، ثم هبطت في ظرف يمز على التعبير ، وعلى نحو من الجلال حيل إلى في موتى ذلك أنى أشهد جنة النعم » ؛ ثم لم تقع عيناه على حبيبته بعد ذلك إلا مرة ثالثة ، نياها من سحر به لاقدّر أن نطفت « بيترنشى » هذه العاطفة العميقة في أكبر ناب ضمّه صدر إنسان ، ثم تمضى بها الأيام غير طالفة بما نقت من سحر وإلهام ! لكن الأقدار تعود فتصلح ما أفسدت ، نهى هذه العاطفة القوية التي بهتها « بيترنشى » في قلب دانتى أن تغرد في إحدى روائع الأدب الإنسانى ، إذ خلدها دانتى في كوميدياه .

وتزوجت « بيترنشى » وماتت وهي في الخامسة والثلاثين من عمرها ، فكسب عنها دانتى بعد موتها يقول : « ما إن هددت أول مباحج غسى حتى هربانى حزن تغفل في قلبى ، فلم يعد أى متاع يجدى شيئاً » . ويتص دانتى قصة حبه هذا في أول كتاب له كتبه بالإيطالية وهو « الحياة الجديدة » ! والكاتب رسالة فلسفية تنخلها مقطوعات شريفة ، هالك إحداها يملأ فيها الشاعر موت حبيبته في سن باكورة :

صعد هذا الجلال القياض إلى السماء .

ما يفظ الدهشة في وب الحفود

حتى شاع في نفسه شوق لتقيّد

إلى ذلك الجدل الباهر

فقضى الله أن تكون الفتاة نحو الله طامعة

إذ رأى هذه الأرض مزرعة بالشر والنعاء

فليست خلقة مخلوقة كهذى تبعض حلالا

وبعد أن أتم دانتى كتابه « الحياة الجديدة » - شرع يُقيّد « الكومبديا الإلهية » لتكون فرأيا يقدمه إلى المرأة التى أحبها ، عند كتب دانتى الكومبديا لوتجه بها إلى « بيانترنى » بعد موتها ؛ فهو يقول في آخر فصول « الحياة الجديدة » :
« لو شاء الذى يُدبّض الحياة على السكانات جميعاً أن يحد أحلى أروماً فلأثل بأنى آمل أن أكتب عنها ما لم يُكتب مثله لاسراً ؛ فإن أتممت ذلك ، فلنقض إرادة الله رب الجلال أن يُصعد روحى إلى السماء ، بمشهد حلال محوته
إذ يرى « بيانترنى »

— أما الكومبديا الإلهية فهي - كما أسامنا - وصف للجحيم وللأعهر والردوس ، وهي تصور في ظاهرها حالة الأرواح بعد الموت ، لسكنها في حقيقة أسرها رمز أربده أن يبين حاجة الإنسان إلى الهداية وإشراق الروح ، وهما نحن أولاً ، نعرض لك موحراً وإيقاً لحذه القصيدة الخالدة :

ينظر دانتى فأبنا هو قد ضلّ طريقه في غابة ممتمة ، وإذا بفئة من الوحوش الكواسر تحول دون صعوده حبلاً كان يرتزم صعوده ؛ هاهنا بلفظ « فرجيل »
— الشاعر الرومان العظيم — ويعدّه أن بطلمه على ما في الجحيم من ألوان العذاب ، وأن يرى لمظهر سد ذلك ، فإذا ما تم ذلك صيحبته « بيانترنى »

إلى الفردوس تهديه سواء السبيل . يسير « داني » ودليله « فرجيل » حتى يأتيها باب الجحيم مقرأ هذه الكلمات المعزجة التي خُطت عليه :

أدخلوني إلى مدينة الأحرار

أدخلوني إلى ألم المذابح

أدخلوني بين مَنْ سَلُّوا إلى أبد الآبدين

إن مارني قد أقام للمذل ميزاناً

ثم شاءت قوة الله أن يقوم بنياني ،

وإن هي إلا المسكة العليا والحب الأول ،

ولم يخلف الله قبلي غير الخوالد ،

باني على وجه الدهر باقية ؟

نيابها الواردون انصروا عن أنفسكم كل رجا .

وبدخلان باباً بالجحيم هوة - خيفة في هيئة مخروطة مغلوب ، رأسه عند مركز الأرض وجوانبه مَدْرَجَةٌ درجاتٍ مَرِاضاً ثقل حجبا كما ازدادت عمقا ، وعلى هذا اللُتْرَج حُسَيْرُ الآفَتُون : دنياها لمن ثقلت موازينه بخطاياه ، وعليها لمن خَفَت موازينه ! فلا يكاد الشاعران يدخلان أبواب الجحيم حتى يبعرا سهلا مظلما حشرت فيه أرواح الذين عاشوا لأنفسهم وأغفروا لأنفسهم - ولا يقول حياتهم لأنهما لم تكن عنده بالحياة - في تراخي وضود ، وهؤلاء كانت تلذغهم الزنايير فلا تدعهم بطمئنون إلى فرار .

وعبر الزائوان ذلك السهل حيث بلغا « نهر أشيرون » ^(١) وهو سهر الألف والأمي ، وعلى شطئه ألقيا زحاما عند مقبر « شارون » ^(٢) كل برغب العبور إلى

الشمالي الآخر ؛ وكان « شارون » هذا ينقل المتراحين في عصف وقسوة ، وعباء
ندوران في وجهه كأنهما حلققان من نار ؛ فلا يحتمل ذاتي هذا المتهدد الرهيب ،
ويستقل في إغواء لا يفيق منها إلا بعد يصف صفاء شديداً ، عبري أنهما قد
عبرا « أشيرون » ؛ وعندئذ هبط مع دليله إلى « لثبوا » ، وهي أولى حافات
الجحيم ، وها هنا وجد عدة الأوثان الذين ماتوا قبل للسيحية ، ولذا فقد حق
عليهم الحرمان من نعيم الفردوس على الرغم من حياة العصفلة التي عاشوها فوق
الأرض . وفي هذه الحلقة الأولى يلتقي ذاتي بأسلانه « هومر » و « هوراس »
و « أوغد » فيلقاه هؤلاء لقاء حسناً ؛ ويهيئان إلى الحلقة الثانية من الجحيم ، فإذا
بدانتي ببصر عند مدخلها « مينوس »^(١) — وهو قاضي الجحيم — فيراه كأنها
عظيما له وجه إنسان ؛ فلا يلبث « مينوس » أن ينذر ذاتي أن يكون على حذر
في دخوله تلك الأصناف ؛ وها هنا يشهد ذاتي عقاب من استسلموا في شهوات
أجسادهم فأجرموا في الحب ، وإذا بهؤلاء قد عصفت بهم ريح شديدة فأخذتهم
الرافجة كأنهم السكراك في العاصفة :

هاند بدأت أسمع صبيحت الحزن والألمى ،
هاند أنبت إلى حيث الأمات الشاكيات
تقرع أذنى فتؤذيها ، إذ أنبت إلى مكان
خفت فيه الضوء ، وهالك زجمرت رياح عواصف
كأنه البحر مزفته العاصفة برياحها الموح ،
إذ هبت في جنبات الجحيم رياح عابئة
أخذت في سورة القضب تسوق أمامها الأرواح

تدور بها حتى الدوار ، وتدفعها دفعا عنيفا موجعا ،
حتى إذا ما ملكت بها عند الجائحة المانكة
سمعت صرعات ، وسمعت أنات وعويلا ،
وسمعت الامعات تسب قوة الخير في السماء .

وهناك أبصر الشاعران « بيسراميس » و « كلبو بطرة » :

وهناك لحت « هيلن » التي في ربيلها

ثم الهلا ، حينما من الزمان طويلا ؛

وأبصرت ثم « أحييل » العظيم الذي قاتل مدموعا بالحب حتى النهاية ،

ورأيت « بارس » ورأيت « ترستان »

وغير هؤلاء ألقا أرائي — مشورا إليهم ومُسَمِّيا —

من أفقدتهم لومة الحب علم الحياة

ومررت هؤلاء وأولئك رأيت داني « فرانسكا »^(١) وحبيلها « باؤلور »^(٢) ،

ونفسي « فرانسكا » عليه نصتها ، فتبلغ القصة من الشاعر مواقع المطف

والإشفاق - وهل يحنل هذا القلب الرقيق أن يستمع إلى امرأة تروي كيف

برغبت مع حبيلها ، وكيف هلك بالحييين زوجها « بوجنا الأهرج »^(٣) ؛ تسقط

الشاعرة في إغماءة حتى إذا ما أفاق ألقى نفسه في الحلقة الثالثة من حلقات الجحيم .

في هذه الحلقة الثالثة أعد عقابُ اللههم ، فهناك شوهد الذين شغلهم في

الدنيا بطولهم ، يتمرغون في سحابة من العطين تحت وابل من الطر والثلج والصفيع ؛

بينما أحد « سير بروس Cerbrus » — وهو كلب عملاق — ينببح ويعوى

ويزق جلودهم تمزيقا .

إن « سير بروس » — ذلك الوحش المليط الكاسر المعجيب —

أخذ ينسج نباح الكلاب من حلق عريض ، له ثنايا ثلاث
في جمع محشد

وعينه أرجوانيتان تلمعان ، وعليته رخوة سوداء .

قد ضخمت منه المعدة ، أما يدها فخطبان

بهما يهشم الأرواح وينهشها ويمزق الأعضاء
شواشوا

ثم يدخل الشاعران حلقة الجحيم الرابعة فيبصران عند مدخلها « يوتس »^(١)
إله اللال يراقب هناك من بسطوا أكفهم بالإسراف ، ومن غلوا أبذهم إلى
أعدائهم لا ينفقون ، هؤلاء وأولئك قضى عليهم أنت يدخر جوا جلاميد صخر
عائيات في اتجاهاين متقابلين ، فلا تلبث جلاميدهم أن يصدم بعضها بعضاً ،
ميتدحج الأشقياء — وقد نال منهم الإعياء — باللعنات يصبها فريق منهم
على فريق .

وجذئذ يردُّ الزحلاق إلى الحافة الخامسة حيث التضايب الساعطون
يتقابلون في عذاب أليم في بحيرة « سقيجيان » ، يثير « فرجيل » زويله قائلاً :
أرايت يا بني ؟

أرايت أرواح من غلثتهم في الحمية سورة النضب ؟

فاطم عن هؤلاء كذلك علم اليقين أن تحت

للماء تسكن منهم جوع ؟ يقتهدون

متفتح هدى الفتاح التي يعلو بطنها صدر الماء ؟

انظر تشهد هذا أبنا وجهت البصر ؟
 وإنهم وقد لصفوا بالوحل يقولون : « كنا ذات يوم حيزاً »
 كنا في الهواء الخلو تهبجة الشمس
 نعمل في أجفاننا نمرساً مظللة وضباباً تقبلاً ،
 فقد حق علينا الحزن في هذا للكان القاتم ؟
 هذه النضة الحزينة كانوا بضمون
 لكتهم بالآلماظ واسمة لا بفصحون

ويمتدح وصل الشاعران إلى برج شاعق تسمى من فته شعلتان ، وشهدا
 « فلبجاس »^(١) القائم على السور في بحيرة « سنجيان » فادما إليهما في سرعة
 الملووف ليحصلهما عبر البحيرة ؟ فأبهرنا خلال الصاب الكثيف القائم مذبذبة
 « ديس » وهي مدينة الشيطان ، شهدوا أبراجها وضبابها متوهجة بألمنة الذهب .
 وكانت طائفة من الجن قائمة على حراسة أبوابها ؟ ولم يكذ الراحلان بدوان من
 مدينة الشيطان حتى شهدا أرواح الشياطين على رؤوس المنازل تحرق شعورها
 التي كالأشاعى من النبط والنصب ، ونصيح بقوة المصير لتنع الراحلين ، فوجدوا ؟
 لكن مَلَكاً باني إليهما صرعا غيّر البحيرة دون أن تبذل أندامه عائها ،
 مبترد أرواح الشياطين ويمسح للشاعرين الطريق ، سيدخل الراحلان المدينة
 وببصران سهلاً مسيحاً مألوفاً أجدات مكشوفة لا تخفيها غطاء ، نتأجج في كل
 منها نار نلهم روحاً كان صاحبه قد ضل عن دبه . وبلغ الراحلان حدود الخلقة
 السابعة فهبطاها خلال شق من صخور مرفقة الجواب حتى انتهيا إلى نهر من
 دماء وفت في جبهه الطغاة ، بينما أخذت مصيلة من الجن وعلى رأسها « شيرون »

يجرى على الشاطئ وتلهب بسهامها الحديد حشوم أولئك العلقاة الذين اعتدوا على
جيرانهم سلباً ونهباً . وتقدم إلى الشاعرين واحدٌ من تلك العصيلة وقال
مشيراً إلى جماعة الآتين العرق في نهر الدماء :

هذى أرواح الطعنة الذين استقرحوا
في سدك الدماء وسلب الأبرياء ؛ انظروا إليهم يولولون
جزاء ما اقترعوا من إثم غليظ ؛ ها هنا موطن الإسكندر
وها هنا هوى ديونيسيوس الذي سام صفية
ألوان العذاب أعراساً ملوالياً

انظروا إلى هدالة المياه الصارمة تهوى بالعقاب
على « أنيل » الذي كان في الأرض سوط عذاب

ولا يزال الشاعران في الحلقة السابقة ، يمدحان جزءها الثاني وهو غابة
كثيفة موحشة تسكونت من أرواح الذين أزهقوا أنفسهم بأيديهم ، فاندلت
نفسهم في هذه القابة أشجاراً جافة فصورة ، تنقل منها ثمار سامة ببش عليها
ضرب من الطير القذرة وجوه النساء ، وكان كلما انكسر فرع من شجرة
تدفق الدم كأنه ينصب من جسم محروح ؛ وبعض الأرواح التي حشرت في
تلك القابة كان غذاها أن تقتنيه كلاب خوية سوداء نهش حشومهم نهشاً ؛
والعائلة السابقة تسم ثالث حشر فيه الذين اقترعوا الإثم نحو الله أو الطبيعة
أو الفن ، فلهؤلاء أعد سبل ينطيه رمل ملتهب جاف تتساقط عليه نطع النار ،
ثم تهب عليها الريح فتصهلها في بلاء إلى أنوار من الجلابد .

وواصل الزاحلان السير على شاطئ نهر الدماء ، التي يجري خلال هانبلته

الرمال اللينة ، حتى بلغ من الطريق مكانا تشدمن فيه دماء النهر سائقة إلى
 مهبوى سحيق : فأخذ « فرجيل » ينطأه ربه « داتى » وألقى بها فى الهاوية ،
 فلما لبثا بعد إذ أن شاهدا حيوانا صغيرا خفيفا يعلو من القاع ماعها فى أحواز الهواء
 للظلم القائم حتى وصل إلى حيث يقعدن ، فامتطياه إلى الخلقة الثامنة من خلقات
 الجحيم وهى تنقسم عشر فجوات أعدت كلها للخداع بكل سروره ؛ ففى أولها
 حشر الناسفون تنطعمهم ثمة من الشياطين ذوى القرون ؛ وهى الثانية ألقى بالمرائبين
 يتمرضون فى الوحل ؛ والفجوة الثالثة للمتاجر بن الدّين ، مهؤلاء عُلقت أجسامهم
 فى ثغرات صلبة عذبة ، ووروسهم مُدلاة إلى أسفل ، وأقدامهم تشتعل كأنها
 الأشاعل فوق الصخور ؛ وكانت الفجوة الرابعة لطاعة النفسين لُوبت أعناقهم
 بحيث أطلت الوجوه إلى الظهور ؛ وبنو ذلك حفرة ملئت غارٍ بئلى أعدت
 للناسيلين يغمسون بها ، ترغمهم جماعة من الشياطين ذوى أجنحة سود وسناني
 حديد . وَوصف داتى لهذا المنظر من أروع ما ورد فى « الجحيم » ، وهو يعمل
 على هذه الطاعة من الحراس الشياطين رئيسا يسميه « بارباريتشا »^(١) ويساعد
 على تنفيذ أوامره عر منهم بسمهم بأسمائهم ، فهم « جرافيكاني »^(٢)
 و « فازفارلوا »^(٣) وغيرها :

... وإياه لحدث الصيفة بعد الصبغة

أن يلو الأكم بظلمه فوق سطح القار من لدع الألم

نم يخفى فى سرعة أبين منها لطف البرق الخاطف ؛

فكما تقف الصفائح من بركة الماء

عند حافتها ، لا يبدو فوق الماء غير حياتيسها

أما الأقدام والخرطوم منحت للآء خادمة ،
 كذلك وقف الآتون في لجة القار ؛
 ولكن سرعان ما يكون « بار بار بقشا » على مقربة
 فبقوص البجالة تحت اللوح ؛ فلقد شهدت —
 وقلبي يخفق بين صلوى — شهدت أحدهم يطفو
 كما قد يحدث اضغدة أن تغل موق للآء طافية
 بها تسرع أختها واثبة فتضيق ، وكان « جرافيكافى »
 إذ داك أقرب الشياطين إلى ذاك المسكين ،
 فأمسك بخصلات شعره المكتشفة يجذبها جذبا شديدا ،
 وألقى به في عنق طريقا
 حتى بدا لي كأنه كلب من كلاب للآء .

ويبقى الشاهران في طربفهما إلى سائر الفجوات ، عيشدان للنافقين
 وفد أنفقهم فلسوات من الرصاص زُخرف بها الذهب ؛ ثم برىان المصوص
 كيب ينفذون حيات محتملين في ذلك النحول عناه ألما ، ثم كيف برندون
 إلى صورة الآدميين ؛ وبعدئذ يمران بمن استنصحو فأشاروا بفعل السوء ، كل
 فرد منهم قد تحول إلى لسان من الذهب يتدفع هنا وهناك ، حتى لسكانهم في
 ذاك الجلب الظلم براعات (ذباب مص) نروح ونجى ؛ ثم برى الشاهران فربق
 الثلاثين وفد مرقت الجراح أجسادهم غزيبا ، وقد تقدم من بينهم « برىان »^(١)
 الذى أعلن عصيانه على هنرى الثانى ملك المحلقا ، وقد أمسك وأمه للذلولع
 من شعره وأخذ يتحدث إلى دافى

و بعد ذلك أخذ الشاعران طريقهما إلى الحلقة التاسعة من حلقات الجحيم ،
التي لم يكادا يبلغانها حتى أوشكت آذانهما أن تسمع بصوت موق كان يفصف
كالرعد ؛ ثم ما لبثا أن رأيا ثلاثة مرءة تقف عند الحافة من قاع الجحيم الأسفل ؛
أما أحدهم « أنتيوس »^(١) سينزل سببا إلى قاع الجحيم ، وإذا به يخر نفضيه
ثلوج لا تذوب ، وهناك تبدو أشباح المذنبين ، كأنها هي ذباب يضطرب في
وعاء من البلور ؛ وقد شهد الشاعران من تلك الأشباح اثنين في جعر واحد
يقترض أحدهما حجة الآخر كما يفعل كلب بالعضام ؛ ولم يكد هذا الفارض يدرك
الزائرين حتى رمع أستاذاه العاربه بنفسه ، وإذا بالمتحدث هو أوجوليئو^(٢)
الذي كان قد أتى به مع ابنه في « برج الخجاعة » ولبثوا على الطوى يتضورون
حتى أهلكهم الجوع ، فكانت قصة موت ابنه أشد ما سمع الشاعران إثارة
للعذاب والإشفاف ؛ وأما زميله في الجعر للثلوج فهو « رودجرى »^(٣) رئيس
الأسانفة الذي كان قد قفى على الرحل وابنيه بهذا المقاب

... .. فلما فرغ من الحديث

عام فأزل على الجحمة للنكودة أستاذاه

وتهدتها في عضها كما يفعل السكاب السكمر بأنيابه ،

لا نزع ولا نتحول

وأخيراً ... انتهى بهما للطف إلى آخر مشهد من مشاهد الجحيم ، حيث
يقف إلى الأبد أكبر العمدة ، وهو الشيطان ، يجمع أنياب غاضبة ثلاثة آتئين
في أنواعه الثلاثة ، وهو يصرب بأجنحته الخفاشية العمدة ، فيرسل رياحاً
باردة تجتد ماء البحر

... .. قال دانيال : « انظر — إذن —

إن كنت تستطيع النظر » فرأيت ما أراه

حينما يتفجر السحاب الثقيل الكثيف ، أوحينا

برخي الليل على الأرض سدوله السود ، فلي مبعدة

بدا الشيطان كأنه العاذلون الموائى تدسه الريح الشديدة دمعاً مريراً ،

هذلك ما صوّرت في خيالي أنى أراه ،

ولسكني أنفى تلك الريح العاتية عدت مسرعاً

حيث احتجبت خلف دانيال ، طيس لي سواء من مأوى ،

وسرنا إلى حيث الأرواح كلها محشورة في أسفل الجحيم

... ..

نهبها مطروح وبعضها قائم : هذا ينف على قدميه ،

وذاك يرتكز على رأسه ، وثالث وجهه إلى وجليه

بعض ظهره كأنه القوس ، ثم بلغنا موضعاً

عنده أراد دليلي أن يشير لي إلى مخلوق

كان ذات يوم بارع الجلال ،

نظما الدليل أعمى وأمرني بالوقوف وصاح بي :

« انظر ! انظر إلى مريض الشيطان

وزود قلبك بقوة على قوة »

وهناك برز أمامنا ذلك العاهل صاحب السلطان

في مملكة الأحزان ، والتلج يفره إلى نصف صدره ،

فكم أدعش عيني أن ترى

ثلاثة وحوه ركبت في رأسه : وجه منها إلى أمام
 ولونه نمرزي ، والوجهان الآخران يتصلان
 بذلك امتداداً من نصف الكتف إلى قمة الرأس ؛
 الأيمن منهما في صرة الشحوب ، وإن شهدت الأيسر
 ألقيته كمن يقدون من منحرج الثيل عند الأراضى الواقعة ،
 وفي كل وجه عند أسفله جناحان عائبان ، يصلحان لأضخم العاير ؛
 ولم أشهد قط في لجة البحر العريض كهذى الأجنحة قلاماً منشورة ،
 وهى عاربه من الريش تشبه أجنحة الخفافيش ؛
 وأخذ يضرب بأجنحته تلك في الهواء فانبعثت
 مهارياح هنا ورياح هناك ، نحت منها البحر إلى قاعه ؛
 ثم شرع يبكي بكاءً مبرحاً
 فانسكبت على ثلاثة خدوده مبرات
 امتزجت قطراتها بزبد من دماء ؛
 وفي كل ثم أخذت أنياها نهض على أنيم ،
 فتحطمه كما يتحطم الجسم بأثقة ثقيلة ؛
 وعلى هذا النحو رأينا ثلاثة يتعذبون ،
 ولم يكن ما يعانيه أمامهم من الفرض شيئاً
 إلى جانب ما يُلَبَّثُ أحد الآخرين من تمزيق
 مخوف ينزع عن الظهر جلده نزعاً فظيلاً
 وقال دليل : « أما ذاك الروح في أعلى ،
 الذى ينال من العقاب أقصاه ، فهو يهودا

فانظر إلى رأسه كيف تُذِفَ إلى داخل
 وإلى قدميه كيف طوبتا إلى خارج ؟
 أما الآخرين اللذان يطلى منهما الرأسان ،
 فمن نراه منهما عالقاً في ذلك العك الأسود
 فهو « روتس » ، انظر إليه كيف بنوى ولا يتكلم
 لكن الأبل السدول قد أخذ عندئذ بزول ،
 وحان لنا حين الرحيل ، فقد شهدت كل شيء
 وبعد الإعلان عن مكان الشيطان ، وأخذنا بصعدان في شق عبق
 شديد المنحدر

... .. خلال هذا الطريق المستور
 دخلتُ مع دليل ، قائلين
 إلى العالم الجلي ، ولم نعد لراحة
 بل مضينا في الصعود ، هو ينود وأنا أفنق أنره
 حتى أشرفت على نواظرنا أضواء السماء الخلابية
 من فذعة مستديرة عند مدخل الكهف ،
 ومنها خرجنا فشهدنا أنهم السماء من جديد
 هذان هما قد خلقا الظلام والآلام ، وانتهى سهما اللطاف نخرجنا إلى سمع
 « جبل الطور » تحت ضوء النجوم الخافتات ! فوجداه يتحلق بحلقات سمع ، فقابل
 سمع الخطايا التي نالت بها كنيسة الصدور الوسطى ؛ في ثلاثها السفلى فكفروا
 الروح عن خطيئتها ، وفي راسها يتم التكبير عن حطيئة الكسل والنراخي ،
 وهي خاطئة ارتكبت في امترامها الجسم والروح معاً ؛ وأما في ثلاث الخلقات العليا

ميكفر عن ذنوب لجسد وحدها ؛ وكان الشاعران يصادقان عند مدخل كل حلقة من هاتيك الحلقات المبع أمثلة لفنصيلة التي هي ضد الرذيلة التي يكفر عنها في تلك الحلقة ؛ ثم يشاهدان عند ختام كل حلقة ملكاً وانساً بشخص تلك القصة ويحمدها ؛ وهكذا يمضي الراعلان خلال حلقات التطهير حتى يدخلوا في « الفردوس الأرضي » حيث يرى « دانتى » حفلاً عظيماً يسير على صورة مركب رائع يمثل « السكبسة » وهي ماضية في طريقها فدعماً إلى النصر ؛ وفي نهاية ذلك المركب الحافل تظهر « بياترنشي » — معشوقة دنتى — في مركبة تحب بها اللاتسكة يشدون الأغاني ويبتزون الأرهاار ؛ وكانت « بياترنشي » ترندى ثوباً يزدان بالألوان السحرية الثلاثة : الأحمر والأبيض والأخضر ، وبكلل هامتها تاج من أوراق الزيتون ، وهي رمز الحكمة والسلام . وبسندل على وجهها نقاب ماصع البياض ؛ فإت بدت « بياترنشي » حتى أسرع « فرجيل » فدواى لبفعل راجعاً إلى محبته السكبب الذي كان قد خرج منه ليرامى زميله في رحلته

ونأخذ « بياترنشي » في هدابة الشاعر خلال سماوات تسع ، وكلها بدور حول الأرض ، فإذا ما جاوزت به ذلك كله لفتت منه آخر سما ، وهي ثابتة في مكانها لا تتحرك ، بلوها بحر هادى ساكن من الحب الإلهى حيث ببارك الله ملائكته وفدبيه

الفصل الخامس

الأدب العربي في العصور الوسطى

(١) الشعر

ينطبق على الأدب العربي ما قلنا من أن الفن الأدبي أول ما ظهر كان شعراً ولكن — مع الأسف — لم يصلنا هذا الشعر الأول الذي كان محاولات أولية بسبب حبنا ويخطئ أحياناً ، في الوزن وللوضوع ؛ وذلك أنهم كانوا أو أغلبهم بدؤوا لا بقيدون شعرهم في كتاب أو قش ، فإذا تقدم الزمن ضاع ما نطق به شعراؤهم ، وخاصة إذا كان جديدهم خيراً من قديمهم ، وأنسب لثقتهم وأذنه وأكثر ملاءمة لحباتهم .

وأندم شعر وصل إلينا كان الشعر الذي قيل في حرب البسوس أو قبل ذلك قليلاً ، وكان ذلك قبل الهجرة بنحو قرن ونصف . وقد وصلت إلينا من ذلك فصائد كاملة ، محال أن تكون أول محاولة ، بل لا بد أن تكون قد سبقها محاولات كثيرة دخلتها تحسينات كثيرة حتى وصلت إلى ما وصلت إليه ؛ فهذا الوزن الكامل ، وامتلاك ناصية اللغة ، والقدرة على إجادة التصوير ، لا يمكن أن تنشأ ابتداء ، ولا بد أن تكون خضعت لقانون التشو والارتقاء ، ولا بد أن يسبق ذلك وزن مخلف قبل أن يبتدوا إلى البحور الستة عشر ، ولا بد أن يمر شعرهم بطور التعبير المهمل والأبيات القصيرة تغال في للناسيات المفاجئة ، وأخيراً يصل إلى ما وصل إليه في شعر امرئ القيس وأمثاله : من نظم منسجم ، ونفس طويلاً ، وتعبير محكم ،

ووحدة في القافية ؛ ولابد أن يكون الشعر قد بدأ في وزنه بالرجز مناعمة لسير الإبل ووقع أقدامها ذو نحو ذلك ، ثم تدرج بعد في أوزانه من البسيط إلى المركب ، وهكذا .

ومما بلغت النظر أن أكثر من بهوا في الشعر كانوا يسكنون شمالي الجزائر العربية ، أعني الحجاز وما إليه ، فهم من كان من أصل بني رحل إلى الشمال كاسرى النفس من كندة ، وهي قبيلة بمنية الأصل ، وحاتم الطائي من طيء كذلك ، أو من أصل عدنان إمام قبيلة ربيعة كالمهلهل وطرفة والأعشى ، وإمام من مضر كالنابغة وروهر ولبيد .

وعلى الجملة فالشعر الجاهلي الذي وصل إلينا مرحلة سبقتها مراحل ، وقد قالوا إن المهلهل أول من فشد القصائد ، وأمسأ التيس أول من أطاعها ونفن في موضوعاتها .



وكانت العرب وخاصة في هذا القسم الذي كثر فيه الشعر وهو الحجاز تعيش حياة بدوية ، ينقسمون إلى فبائل ، كل قبيلة تعتمد أنها من دم واحد ، لها ملجئها ونسبها ، ولها رئيس هو سيدها ، ولكنه لا يمتاز عن أفرادها كثيراً في النفى ولا السلطة ، ويطنى على أفرادها الشعور بالقبيلة أكثر من شعور الفرد بنفسه ؛ مكان الفرد بنصب لقبيلته ويرى أن خيرها خيره وشرها شره ، يصادق من نصادق ، وبعادى من تبادى — يعبشون على للرعى ويففلون من مكان إلى مكان ، ويحملون ببوتهم — أعنى خياسهم — على جهلم ، ومن حسنت حاله بعض التى قسم الخيمة قسمين بينهما سثار ، مقدمها للرجال ومؤخرها للنساء ، يخرجون بإبلهم وشاهم لرى الكلال وارياد للرعى ، وأكثر ما يكون ذلك في

الربيع ، فإذا اشتد القيظ وجف الزرع عادوا إلى أَمَا كَهْم . ونشأ بين القبائل خصومات قد يكون سببها ناعماً كعبت أحد مجمل رجل من قبيلة أخرى بفنله أو بنيه — أو أن يتناغم رئيس القبيلة فيتخذ له حى مجرم قر به فإذا فر به أحد فنله ، وإذا فرت منه ماشية قتلت — أو نحو ذلك ، فيثور الشر بين القبائل وبنوآل ، وتتفلم من أجل ذلك الحرب ، ويكثر السلب والهب .

كان هؤلاء القوم عواطف كاللى لسكل النفس ، وهذه العواطف تشكون بالديقة وتتشكل بشكل العيشة ، وكان لسكل قبيلة شاعرها أو شراؤها ، م من أكثرهم شعوراً ، وأحذم عاطفة ، وأقدرهم على تصوير عواطفهم القومية وعواطفهم الشخصية ، وكانوا كذلك من أعلم قومهم بما تتطلبه هذه العيشة من معرفة بالأنساب ، ومثالب القبيلة ومساثلها ونحو ذلك .

وفى كل ما يجول بنفسهم وما يحدث لهم والقبيلتهم ، قالوا ذمهم ، مشفقاً من بينهم ، وتنوع الشعر بنوع العواطف .

يبكى لمرأى حبيبته إذا بعد عنها فيقول :

فَجَرَّتْ أَذَانَهُ هَرّاً طَوْبَلاً وَحَمَلَتْ النَّأْيَ عَيْشاً ثَابِلاً
وَحَمَلَتْ مِنْهَا عَلَى نَأْبِهِمَا خَيْلاً بُوَانِي وَنَيْلاً قَلِيلَ
وَنَظَرَةً ذَى شَجَنِ وَامِقٍ إِذَا مَا الرُّكَائِبُ جَاوَزْنَ مَيْلَا

وما أكثر ما لعبت قفاً سواطفهم ، لكثرة زراغهم وانصال حياتهم بحياة النساء يشاركنهم فى الحزن والفرح ، فإذا رسل وحده فلا يندم فى الطربى حياء بصبره ، يرى فيه نساء ، ويحدثن ويحدثنه متعيج عواطفه بالحلم والله كرى ، ويكثر من الزواج ما أمكنته الأسباب — كل ذلك ونحوه ملا حياتهم بالمرأة ،

بشعرها إذا حلّ منها ، و بشعرها المأفراها . و يستمتع بدكرها القصيدة ،
ولو لم تكن موضوعها ، بل وتخطر في ذهنه في أخرج موافق الفناء ،
كقول عنزة :

ولقد ذكرتكِ والراح براهل^١ منى وبيض الهند تقطر من دى
وددت نفييل السيوف لأنها لعنت كداري نمر ك المقسم

و يذكرها إذا همت الريح من جاسها ، و يذكرها إذا ناحت حمامة بحابه ، فكل
شيء يذكرها بها ويقول في ذلك شعره ، فإن عزم النظر فتح بكل ما يذكرها بها :
أرى كل أرض دنتها — وإن مصت لها يجعج — بزاد طيباً ترابها
وأقسم أنى نوأرى نساً لها ذلت الفلاحيت إلى ذئابها
ثم أكثر الشعراء من وصفها ووصف ملاحها وحالها حلة وتمصلاً ، وحين
أحاديثها وألف معانيها ، وحلقوا قصيدتها كما حللوا نفوسهم وآمالهم وآلامهم ،
و في كل ذلك قالوا شعراً كثيراً

هذه ناحية من ناحية عواطفهم ؛ وناحية أخرى : ناحية المصالح المحسوس
والمحسوس فيياتهم ودمعهم إلى الحياء ، و ذكر معاني المحسوس :

لعمري وما عمرى على بهين لقد ساء طووزين في الشعر حاتم^(١)
أبطلان في بطلنا وهشنا وأنت عن العروق والبر نائم ؟

كأنه يشد إن سداً كثيرة ولا نغ من سدر وه ولا نصرا

بروحك من سدير عروجوها وترعد بها حين تغفلها خبرا
وهو في نظير ذلك بمجر بنامه وقومه :

إما نيف ولا رُبُّ حليم وتكفُّ شح نفوسنا في الطمع
وبن — بأمن ما لنا — أحساننا ونجزي الهيجا الرماح وندعى
ونحوض عمة كل يوم كربة نودي القوس وغنمها للأشجع
ونهم في دار الحفظ سوننا زمنا وبعثنا غيرنا للأمرع

إذا ما أننى يهاني لم أألها ولم نذر خالاني الدموع وعنى
وإنى خلوت إن أوبدت حلاوتى ومر إذا نفس القزوف امتعرت
أنى لما آبى ، سريع مهابى إلى كل نفس نلتجى في مصرى
وبن موفى الخطيب لقبيله بمحبها فقال وهدمها للأخذ بالثار :

فأنلى الفسوم بأخراع ولا بدخلكم من قتالهم فمثل
الفسوم أمثالكم لهم شاعر في الرأس لا ينشرون إن فتلوا

أقول للحياني وقد صغرت لم وطاي وبرى ضيق الحجر مغور
هما حطنا إما إسار ومنه وإما دم والتقتل ماخر أجدر
ونشأه الحوادث في أهله وولده فيرى :

نبتت أن النار بعدك أوفدت واستبى بعدك بأكلب الخلس
وتسكلوا في أمر كل عظمة لو كنت شاهدكم بها لم ينسوا
وإذا نشأ رأيت وجهك وانحما وفراع بأكية عليها برس

تبكى عليك ولستُ لائمُ حرة تأسى عليك نسمة وتفس



ولما كانت صحراؤهم محدودة الناظر ، قد كُفوا مشاغل المدينة وتنوع
مناظرها ، وفدروا القدرة على البیان وتدقق القول ، وجها فصاحتهم إلى
أشياءهم المحدودة ، فأكثروا من وصف حيوانهم ، وخاصة الجمل ، إذ هو
صديقهم ورجلهم ، ومادتهم في مأكلهم ومشربهم وملبسهم ، فأكثروا القول
فيه من كل نواحيه .

وكان فطرته بتجميع كثرها ملاء بين فواصي الأنساع^(١)
وإذا تماوزت الحصى أحفانها دوى نواده بفاهم النساع^(٢)
وكان غاربها رابوة تحريم وتذني جسد لها يشرع^(٣)
وإذا أظفت بها أظفت بكاسك نبيض العرائس تحفر الأضلاع^(٤)
مرحت بداها للنجاء كأنما تكرو بكفى لاصب في صاع^(٥)
فصل السربة بأذرت جدها قبل النساء تهم بالإسراع^(٦)

-
- (١) كور الرجل جنبه وأذناه : شبه جنبها بأذنها بالقطرة ، ثم وصف الثالثة
بأنها ملاء ، والأنساع : جمع نسع ، وهو السر يند به الرجل . وموعته : دخوله في الحميم
(٢) تماوزت : تناوبت . ودوى الحصى : ما أسرع منه وتقدم .
(٣) الغارب : ما بين المنام واليقظ . والحرم : أعقب الجبل ، ورابوة : مسطحة
والجديل : تزلزل . ولبة : ما اتقى منه . أي قد حديها بنش طويل كالفرع .
(٤) أظفت : درت حولها ؟ والكاسك : الصغر وبش العرائس ؟ شديد الحركة ،
ومع الأضلاع : واسمها .
(٥) النجاء : السرعة ؟ وتكرو : تلب .
(٦) الجدها ؟ ما بقي من خبوط التوبة ، شبهها في سرعة سرحا بإمرأة تموك نوبها
تسرع إلى إقامته .

وكما وصعوا الجبل وصفوا النخيل وحمر الوحش والظباء وغيرها من حيواناتها ،
ووصفوا الصحراء والجبال والخضر .

وعلى الحفلة كان شعرهم صورة صادقة لحياتهم ومنظرهم وعواطفهم ،
فقد جاء شكوبن القصيدة والإشارة في الشعر مرحلة ثانية لمرحلة للفتوحات
القصيرة ، ونحن إذا استعرضنا قصائد الجاهلية — كالمعلقات ونحوها — رأيناها
تبدئ عادة بالتشبيب للمرأة ، وقد يصف رجلها عن مكانها فيقف على أطلالها ،
ويبكي دمعها ، ويصف جمالها ، ولوعته من حبها ؛ ثم ينتقل إلى وصف فرسه
أو ناقته التي برحل عابها ، وسرعتها ، وسومة سيرها ، وقد يشبهها بما يعرف من
حيوانات وحشية ؛ من عمل وظبي ونحوها ، ويحترع في ذلك تشبيهات تدل على
سعة علمه بطيائرها ، وعاداتها في معيشتها ، وقد يصف ما مرّ عليه في طريقه من
حبال ورهاد وسهل وحزن ؛ ثم ينتقل إلى عراضه من القصيدة فجاءه من غير
تكلف في الوسط غالباً . . . من غير تقييده أو جفاء للقبيلة المأدبة ، أو وصف وفاءه
أو دعوة للصالح ، أو تحذير للقبيلة أو إنسان من أن يخذله معه بالتعدي على
قومه — ثم ينتهي في قصيدته من غير تكلف أيضاً في الزخرف .

والمرئي قوى للملاحظة ، حاد الذكاء ، قوى الملاحظة ، ووجدته في الصحراء
القصيدة ذات النغمة الواحدة تقريباً جعلته يشعر بوحده وعزله هيلعت إلى
التعكير في نفسه ورحشته من عزله ، وحنينه إلى زوجته وحبيبته ، وملاحظة
ما يطرأ على الطبيعة — التي تجري على نمط واحد تقريباً — من التغير ،
مباعت نظره الرعد إذا رعد ، والبرق إذا لمع ، والفرار إذا ظهر ، وبسجل ذلك
كله في شعره

حياة الشاعر بدوية ، وجوّه القوي يصبح فيه بدوي أيضاً ، وشعره بدوي

في موضوعه وصيغته ، وساطعة وصفه ، وبساطة منه .

ومما يستوقف للنظر كثرة ما صدر عن الشعراء في هذه الحنفية القصيرة ، فكيف ما روى لنا من الشعر الجاهلي الكثير هو نتاج أقل من قرن ونصف — من نقل كليب إلى مهبت النوى — كما يستوقف النظر وحدة اللغة واللهجة والأسلوب والوزن في الشعر الذي صدر من قبائل مختلفة في اللهجة ، وهل هذا يرجع إلى ما فُرض بينهم الخلع إلى مكة ، واجتماعهم بسوق عكاظ ، أو اتخاذ الشعراء عامة لهجة خاصة وأسلوباً خاصاً في الشعر غير أسلوبهم في حديثهم اليومي للأولاد ؟ فذلك يكون ذلك ، وقد يكون غير ذلك .

على أن الشعر — في هذا كله — لم يكن كله نتاج بدويين ، بل منهم من كان يخاطب المدينة الفارسية في الحيرة والعراق ، ومن يخاطب المدينة الرومانية في الشام ، فبرزت الشعراء إلى اللندرة الباطنية تحت نفوذ الفرس ، وانتماسة تحت نفوذ الروم ، وقد تأثر شعر الشعراء ببعض التأثيرات من الحضارتين .

كما كان من شعراء العرب — غير الحميرة المظني من البتنيين — شعراء من اليهود وشعراء من النصارى نحتن شعرهم ببعض النون والديانين .

وأعظم ما خلفه لنا ذلك العصر المملكات السبع ، وهيها ، وصدق ما ذكرنا في الشعر الجاهلي .

فامرؤ القيس ، صاحب المعلقة الأولى ، كان شاعراً لاهياً ، وكان أبوه خُجَرٌ مثل أبي أسد ، فشأ امرؤ القيس يحب الهوى ويشب بالفناء — وفي عهد شبابه قال مملته ، وموضوعها التزل في سنت عمه عتبة ، بيكي أطلالها ، وبذكر أيام هوى مع أحبته ! وهو في غزله فاجر داعر ، لا يتصف من وصف ، ولا يكتفى بإيماء ، وبجيد في أثناء ذلك وصف الليل ، ووصف الوادي المقفر تعوى فيه الذئاب ،

ووصف فرسه وسرعة عدوه ، ووصف صيده لبفر الوحش ، ووصف البرق ،
ووصف المطر ، وبخمنها بأن الطيور لما رأت الخصب بعد المطر فرحت وغنت
كأنها سكارى . وبعد أمرؤ القيس إعدام الشعراء ، فتح لهم الطريق ، وساروا على
أثره في غزله ، وإطالة وصفه ، وجودة تشبيهاته

والعلقة الثانية مصفة طرفة ، وكان هو وفييلته بكر بن وائل يعبشون في
البحرين (على الخليج الفارسي) حيث الماء والأمواج والسمن والملاح ، فكانت
تشبيهاته مشددة من يشته ، هو يشبه الجمل بالسفينة ، ويشبه مير الإبل بمير
السفن « يحور بها للألاح طوراً ويبتدى »

وموضوع معافته ، شرح نفسه — وقد أنفق ماله في اللهو وعاد إلى قومه
صعد اليدبن — وحالته ونظرته إلى الحياة

بصف رفاهة لغزلة ، و بصف ناقةها ومافته ، وبفخر نفسه وصدته ونظرته
إلى الحياة ، هو في الغتيان ، لا يبتخل بالمطاء ، وبأجأ إليه في المشورة ، ودون سب
رفيع — ينهك في اللهو والشراب ، ويتلف ماله حتى تنجماءه شيرته ، وتفردة
إفراد البعير الأجرب ، ثم يرث على من عتفه في سلوكه بأن الحياة فانية
والخلود محال

ثم ينتقل إلى غناب ابن عمه لأنه لم ينفه على استرداد إبل أخيه ، وقد
سلبت منه ، وبشكو من ظلم قومه ، وبناته الحزن إذا ذكر ذلك ، وبعود نورع
رأسه وبفخر بنفسه ، وبخمنها بأبيات من الحكمة

وميزة هذه المعلقة أنها نصف طيفة من شباب العرب نصيح أمواليها في اللهو
والشراب ، ولا تنهأ بالحياة — نطلب الخلد من طريق السكر وبذل المال في

الحروب ، وإيكن بعدئذا يكون ، فما الحيلة ؟ إن اللوث ليسوى بين الغنى والعفوة ،
والكره والسخط .

ثم أتى إلى مملكة عمرو بن كلثوم وهو من قبيلة تغلب ، ومن بيت الشرف
فيها ، أمة كلثوم سيد قبيلته ، وأمه ليلي أمة امرأة في قومه ، لأن أباها مكحولاً . بد
ربيعه ، وعمرها كليب وأهل أمة العرب ، وكان بين قبيلتي تغلب وبكر حصومة
حادة ، تتنازعان المخر والشرف وتتجاسران في ذلك ، وقد قتل عمرو بن كلثوم
ملك الحيرة عمرو بن هند لأن أمة الثاني أرادت أن تستذل أمة الأول ، وفي هذا
الجو كله قال عمرو بن كلثوم معانته بمص الحرة وينزل ، و يذخر بنفسه وقومه ،
ويجكي ففله عمرو بن هند وبذكر أسباب ذلك .

والمعلقة مملوءة نظراً صادراً خوياً صدر عن نفس نعتة بقوتها وفوزة فمباتها ،
وتنتفى بضامها ومعال قومها ، وظلت هذه المعلقة أغنية بني تغلب ودفترتها في
الجاهلية والإسلام .

وإذا كان عمرو بن كلثوم شاعر تغلب فالحارث بن جازة شاعر بكر عدوئها
يشهد بذلك ، وبعدد صامها ، وينقض في مملته قول عمرو بن كلثوم في مملته .
ويظهر أن الحارث قال مملته وهو متقدم في السن ، فثان كان عمرو بن كلثوم
نزعاً خفيفاً ، فالحارث وفور رزين ، يرد في أمة وهدوء ولكنه هدوء لازم ،
بعدد قوله ، وبعدد مواقف قومه ، ويحتمل تغلب تبة الحروب .

وتأتى بعدئذا إلى مملكة عنزة العنسي ، وكان يسكن هير وقومه نجداً ، وكانت
أمة أمة حشيفة سوداء ، فخرج هو أيضاً أسيد كائناراب ، فكان ذلك بمنز
في نفسه ، وبدعوه إلى أن يأتي بالأعمال العظيمة التي نمرض نفعه ، فأبى

بلار حسداً في حرب داحس والغبراء ، وأنى من السطولة في الدفاع عن قومه
ما جعله سيداً حراً

بتدح في معاقبه بالسجاعة وصفات البدو من كرم ومروءة ، وبتنقى توافقه
في الحروب — وبتفزل فيها بأبنه عمه « عتبة » ويسترضيها برقاظه ومنازله إذ
عمر أن يسترضيها بلوبه — ويصف سوعية من وقاظه في القتال والأعداء تغلب ،
والناس يلهجون بذكره ويستغنون باسمه ، ميلزلم وينال مهم كل مثال ، ويتخفى
كثيراً بمكارم الأخلاق ، وكانت شجاعته بأعماله مثاراً للإعجاب حتى استغلها
الغشاص ، وضعوا حولها الروايات والقصص

نم سلفية زهير الزجج الوقور الحكيم ، يروى في شعره « ينظم الفصيدة في
نهر ، وينفجها ويهذبها في سفة ، مبانى شعره متزنا يغلب فيه العذل ، ويجمع الكبير
من المعنى في القليل من اللفظ ، ويميل إلى قول الحكمة الدالة على كبر عقله ،
وكثرة تجاربهم ، وعلمه بأحوال الزمان — إن كان من ذكرنا قبل أمثال عمرو
ابن كلثوم والحارث بن حطمة وعنترة يؤججون نيران الحرب فهو يدعو إلى السلم ،
ويبين أحوال الحرب ومرايا الصلح — لم يسلّم في معلقته من الفحل الذي التزمه
الشعراء ، يفتزل في زوجه « أبى أوفى » ، ويصف الفطاشن والمواذج ، ثم يذبح هريم
ابن سنان والحارث بن عوف لسميما في الصلح بين عس وذبيان ، ويحتملها
الدهات ، ويدعوه ذلك إلى وصف الحرب وولائها وسرورها ، والسلم ومزاياها ،
ويذم الحشيين ابن ضمضم لإشعاله نار الحرب — ويختم ذلك بأبيات من
الحكمة في العاقبة من الجودة .

وتأنى سلفية لبيد وهو شاعر مدون ، كان سريعاً جواداً شجاعاً ، ولما جاء
الإسلام أسلم وترك الشعر .

وسلطته يظهر أنه قائم في شبابه ، يبدؤها - كالعادة - بكلمة الأطلال وفصل السبل بها ، حتى لم يبق منها أثر إلا كثر الكثرة في الحجة لا يفتننا إلا من قريب منها ؛ ثم يصف نافته وصفاً طويلاً ، فاز يشبهها بالسحابة ، ونارة بأفان وحشة ونارة بفترة وحشة ، وفي كل تشبيه من هذه التشبيهات يستغنى وصف التشبيه به حتى يصل إلى غايته — ثم يصف نفسه بالإباء والكرم ، وأنه يلعب اليمسر على الجزور ويطلعها الناس ، ويصف قومه بأنهم أهل كرم ونجدة وعقل وأمانة .

وغير أصحاب السلطات النابغة الديباني والأعشى ، وكلاهما اتصل بالملوك على الترخوم واستمداد من ذلك غنى وثروة وخبرة بالحياة الدنية ؛ فالنابغة اتصل بالذمان ملك الحيرة وبالحارث القساني في دمشق ونال منهما ثروة طائلة ، حتى ذلوا به كان يأكل في صحاف من الذهب والفضة ، وصقل ذلك من شعره وأجاد في وصف الطبيعة ؛ والأعشى اتصل بنصاري نجران وبأهل الحيرة وبشرح بن السومل اليهودي صاحب ثياب ، وسع ذلك في معارفه وأثر في شعره ، وأكثر من وصف الحُر حتى عدَّ إماماً للشعراء الحُررين من بعده .

وهناك ضرب آخر من الشعراء يطلق عليهم الصالحك لفرحهم وعيشهم على السلب والتمسك ، كالشَّعْرَى وتأبط شرأ ، فد ملئ شعرهم بوصف البيداء والسلب والانقسام ، ووصف العاصرات ، وسرعة العدو ، ومعرفة الصحراء ومساكنها ، ونحو ذلك مما تقتضيه حياة التصطك .

وفي الحق أن الشعر العربي الجاهلي نعت وحده ، مستغل في موضوعه وأوراده وأساليبه عن غيره من الشعر اليوناني والروماني ونحوهما لما هو أساس للأدب

العربي ، ذلك لأن الشعر العربي نبع من بيئة تخالف غاي الخالقة بيئة اليونان والرومان ، وطبيعة معيشة العرب تخالف معيشتهم ، ووحى إقليدسهم ونظامهم الاجتماعي بخالف وحى إقليدسهم ونظامها ، فإن بُحت فيها بشبه الشعر العربي فليبحث عنه في الآداب التي نبتت من جزيرة العرب وما حولها ، كآداب العيني والاشوري والبابلي والعبري ، لا في الأدب اليوناني والروماني .

وإذا قال كثير من السفهريين إنهم لم يتذوقوا أكثر ما ترجم من الشعر الجاهلي العربي إلى اللغات الأوروبية ، وأنهم يرونه واقعيًا لا مثليًا وماديًا لا روحانيًا فيه ؛ فلهذا ذلك أنهم لا يستطيعون تذوقه إلا إذا عاشوا بمثلهم وكثرة قراءتهم في الجوهري ، وفهموا عاداتهم وتقاليدهم وعيشتهم الاجتماعية ، فهم عرفوا كيف اشتق العرب من حياتهم هذه أدبًا وشعرًا ، وحتى هذا نغمه شرط أساسي لفهم أبناء العرب أنفسهم — من المعاصرين للتخصصين — للشعر الجاهلي . فاشبه الليل بأنه كالجلجل يتمطى بصلبه ، والبرق كصابيح راهب أمال السليط ، ونحو ذلك ، فد لا بشيئه المتخصص ، ولكنه بديع مد من عيش في بيئته ، وكذلك الشأن في الوزن الموسيقي للشعر ، والخلوات التي يتبعها الشاعر في نظم قصيدته ، وهكذا .

وسبب آخر وهو ما أشرنا إليه قبل من أن الشعر إذا ترجم ضد كثيرًا من جلاله ، مما صدقته ترجمته

وفد الفيلسوف الأوروبيون تقسم الشعر إلى شعر للاملاح ، أو الشعر الفصحي — كما أسلفنا — وينسبون به الشعر الذي قيل في الوقائع الجارية والنائب الغرامية ونحو ذلك في شكل قصص ، كاليانة هومروس ، وشاهنامه الفردوسي ؛ وشعر نمثلي وهو الشعر يصور حادثة ، ويتصور لها أشخاصًا ينطق كل منهم بما

يتفق وشخصيته وموقفه ، وشعر غنائى ، وهو الشعر الذى يميز به الشاعر عن شعوره .

وأنبعوا ذلك بنوع رابع ، وهو الشعر التعليلى ، ويمنون به سوءاً من الشعر يعلم به الشاعر طائفة من الحُكَم ونحوها .

والشعر الرسمى لا ينطبق عليه هذا التقسيم ، لأنه لم يتجه نحو التمثيل ولا اللام ، وأكثر شعرهم من النوع الذى يسميه الفرج شعراً غنائياً ، ولذلك نسموه إلى غفر وحاسة ورناء وعباء وغزل الخ ، وكلها داخلة فى الغنائى . ولم يرد من الشعر الجاهلى ملاحم إلا قصص قصيرة بدائية كالفصحة التى وردت فى شعر عمرو بن كلثوم :

أنا هند ملا تمجل علينا وأظرفنا سُدَّ بَرَكُ البقينا الخ
وقصة الحارث بن حلزة :

أيهما الشافى للبلغ عنا عند عمرو وهل لذاك اناء ؟ الخ
وقصة الأعشى فى حادثة السموأل :

كن كالسموأل إذ طاف المهلم به فى جعفل كهزيع الليل جرار الخ
ولم يبق شعر تعليلى كأبيات وهير ومن ، ومن .
لذلك كله لا يصح أن نمنع الشعر الرسمى لهذا التقسيم ، وهذا الدوق ، فقد كان العرب منحتها وذوقها .

•••
أمر الإسلام

جاء الإسلام فدعا إلى تعاليم تغاير العقيدة الجاهلية ، وترسم مثلاً للحياة غير
الثل الجاهلى .

الجاهلي يفسر بالنسب ، ويكثر بالأموال والأبناء ، ويمصر أخاه غلاماً أو مظلوماً ،
ويبدل بإتلافه المال مجلس الأحدثنة ، ويقوم أعماله للدنيا وحدها ، ويعنى في
قبيلته ، غيرة حادية ، وشرها شره ، والنفى يُرْفَى بمعاقرته الحُر ، ونسبه للبسر ، وعبته
المكسب ، وفعاله وفعال فومه ، ويمصر بأنه يحصى ماله وجاره ، ومن النجاء إليه ،
وإذا فعل فلا حق لأحد أن يسأله عما حو ، والنفير يسلب من غير قبلته ،
ويهب إن استطاع الخ

فلما جاء الإسلام دعا إلى غير ذلك : لا عر بالنسب ولا بالمال والابن ،
إنما الفخر بأصل الصالح ، والظلم يُفْتَصِرُ منه كائناً من كان ، والجانى بقاد منه
أباً كان ، والإنسان مسئول عن ماله ينتفعه في وجوه البر لا في العفاة الشخصية ،
ولا خير ولا مبسر ، بدخل حسب الآخرة ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ،
ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره — التنى والنفير سواء عند الله ، كل بحسب
بالعدل على ما أتى — وفوق ذلك كله لا لاث ولا عُزْرى ، ولا فراين
ولا صنم ولا أولئان ، ولكن لا إله إلا الله .

عظيمة جديدة حاربت العظيمة القديمة ، وانصم نحت لواء الإسلام قوم ، وأتى
آخرون ، ونحار برا بالبلاعة أولاً ، ثم بالبلاعة والسيف ثانياً .

وظهر مظهر جديد ، وهوان الخروب الجاهلية كانت بيت فيبيلا وقبيلة ،
أو مجموعة من القبائل ومجموعة مثلها . أما الآن فأساس القتال دين ودين ،
أو إسلام وكفر ، مسلمون من قبائل متعددة أمام مشركين من القبائل نفسها
أو نحو ذلك — لهذا تلون الشعر نلواناً جديداً ، فلم يكن أهم ما يدور حوله اعتراف
بشيء ، وإنما اعتراف بدين ، وإن لم ينسَ القديم تماماً ؛ فكان من شعراء المسلمين
حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة ، ومن شعراء المشركين عبد الله بن الزُبَيْر ،

والضرير الحارث ، وطهرت في الشعر الماني الجديد الدينية ، حمزة يقول يوم بدر :
وفينا جنود الله حيث يندنا بهم في غفارهم مُسْتَوْصَح المَكْر
مشد بهم جبريل نحت لواننا لدى مارقٍ ميه متلبا بهم نحري
وحسان يقول يوم أحد :

ملا بذكروا قتلى وحره فهم فبيل نوى لله وهو مطيع
إن جناب الغُلج مزالة له وأمره الذي ينفي الأمور سريع
وقتلهم في النار أصل ردهم حيم مفا في جويها وسريع
وعلى هذا حلت العصبية الدينية محل العصبية الفهانية ، أو بعبارة أدق
جاءت العصبية الدينية بجانب العصبية القبلية ، لأن العرب لم يستطيعوا أن
يتخلوا عن عصبية الورثة .

ولما انتصر الإسلام ودخل العرب ميه أوجا وقف الشعر ههنا ، ولم يكن
له من الحظ ما كان له في الجاهلية ، لأن القرآن يقول : « والشعراء يذمهم القائلون
ألم تر أنهم لي كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون » ، ولأن دواعي الشعر
الفتية لم تعد لها قيسها ، ولم تطلق ضد الدواعي الجديدة التي نعتق والإسلام ،
ولهذا كان الشعراء المحضرمون الذين عاشوا في الجاهلية والإسلام شرهم في
الجاهلية أقوى منه في الإسلام فكان من ثابت ، وأمية من أبي الشثب ؛ حتى إذا
جاءت الفتوح في عهد أبي بكر وعمر وعثمان ، نشأ نوع من الشعر طريف بصح أن
لسمه شعر الفتوح والغزوات ، فيه تعزير الحرب بقوميتها ودينها وصالها ، مثل قول
قيس بن الكشوح :

جلست الخيل من صنعاء تردي بكل مدحج كالهبث مسام
إلى وادي القرى دبار كلب إلى الهذموك قاليلد النأى

وجئت القادسية بعد شهر
فأهضنا هناك جمع كشرى
فلما أن رأيتُ الحبل جالتُ
فأضربُ رأسه غوى صرياً
وفد أبى الإلهُ هناك خيراً
وفول عمرو بن زبد الخليل :

بَرَزْتُ لأهل القادسية نعلها
وأهضتُ منهم فارساً بعد فارس
ونجاني الله الأجلُ وجراني
وأبنت يومَ الذبليين أنى
فأدبتُ حتى مرّوا برماهم
محاطةً إني امرؤ ذو حظيصة
وما كلُّ من بَشَى الكربةُ بغلماً
وما كلُّ من بَلَغى العولسَ يَسْلَمُ
وسبُّ لأطراف المزاربِ يَحْذَمُ
مضى بصرف وجهي إلى الفومِ هُزَمُوا
قبلي وحقى بكى أخمعي التَّمُ
إذا لم أجد مسأخراً أغدُمُ الخ

أثر الزمزم

ودوى السلحون بالقرآن دوى النحل ، وتذوقوه في موضوعه وأسلوبه ،
ونشروا روحه ، واتخذوه إماماً في الأدب ، وتلاوة في الصلاة ، وقانوناً بحكم نبي
بمرض لم من أحداث ، ومادة لنة ، وشاهداً على صحة التفسير وجودة الأسلوب ،
فكان أثره في الثقافة الإسلامية بجميع نواحيها ، وسدد فروغها لا يندر ! ومن
الناحية الأدبية كان تأثيره في اللغة والأسلوب في جميع الأنظار الإسلامية فوجاً
واضحاً إلى اليوم ، وكان أثره في الشعر أكثر من في النثر ، فالنثر اتخذ إمامه
القرآن ، والشعر اتخذ إمامه الشعر الجاهلي ، وإن لم يحل الشعر الإسلامي من أثر
القرآن ، أحياناً بلفظه وأحياناً بموضوعه ، فاستملحوا أحياناً ألفاظاً قرآنية ، كلّموا من

والكافر ، والصلاة والصوم والزكاة ، وأحيانا موضوعات قرآنية ، كقول القطامي
بصف سفينة نوح وبذكر قصته مع قومه وبذكر العلوان :

ونادى صاحب الثَّنُورُ نوحٌ وصَبَّ عليهمُ منه التَّيَّارُ
وصَجَّوا عند جَبَّتِهِ وفَرَّوا ولا يُنَجِّي من الفَدْرِ الخِيارُ
وجلس للنَّاء منهراً إليهم كأنَّ غَتَّاءَهُ خِرْقٌ نَّارُ
وعلمت وهي قاصدةٌ بأذن ولولا الله جازَ بها الجَوَّارُ
إلى الجُودَى حتى صارَ حِجْرًا وحانَ لتلكَ النَّفْسِ انْحِارُ
هَذَا فِيهِ مَوْعِظَةٌ وَحَكْمٌ وَلَكِنِّي اسْرُؤْ فِي انْفِخَارُ

وقد انجبه المسلمون إلى الفُتُوح فتحصوا فارس والعراق والشام ومصر والمغرب ،
وندمق العرب من الجُزْيرة إلى هذه البلاد التي عرفت بالمدينة والحضارة ، فاستفادوا
كثيرا من هذه الدنيات ، ووسعوا أنفسهم في الحياة ، وظل أكثرهم أول الأمر
محافظا على جذبه وبدويته ، وأقام بعضهم في المدن ، ثم أخذوا جميعا يقتربون
الحضارة شيئا فشيئا ؛ فنشأ تميير عظيم في الحياة الأجنبية ، فالتال ندمق في مدن
الحجاز — وخاصة مكة — بما قال القاتمين من نصبهم في الفُتُوح ، وكثرت فيها
الوالي من رجال وإماء من القرس والروم وغيرها ، فأصبح الحجاز مصدرا لحياتين
مختلفتين تمام التناقض ، حياة الدين والعلم الديني من قرآن وتفسير وحديث
ونشرع ، ولا سجا للدين ، يرسل الناس أبناءهم إليها لدراسة هذه العلوم ؛ وحياة
ترف ونعم بهشت على تقدم التناء بفعل الإماء الفارسيات والروميات ولا سجا مكة ؛
وزاد ذلك وضوحا عندما استولى الأمويون على الخلافة وحصروها في أديهم ،
ونحوا غيرهم من القرشيين والأصار من مشاركتهم في الحكم ، فكانت الحجاز
— وأعني مكة والدينة — نصفاً للإماء الفُتُوح والشبان الفُتُوح حتى للندن

المحفرة كدمشق والبصرة والكوفة . وتبع رفق من الفناء رفق الشر ، وخاصة من النزل بما أنفق من الشر للفناء ، وما احتير من القديم له ، ولئلا لم يرتق من الشر في العصر الإسلامي رفيا واضحا إلا القول ؛ وكثير من العرب سكنوا الأمصار المفتوحة ، ولم يعودوا إلى الجزيرة تصف شأنها إلا للدينين السكبريين مكة والمدينة — ولهذا كان غول الشعراء الذين اتبعوا عود الشر الجاهلي عرافين مسكنا ، كجرير ، والفرزدق ، والأحطل ، وهم راضون بالشر القديم ، والجارون على سننه في تكوين الفوائد واختيار موضوعاته .

وزاد رجوع الشر إلى العهد القديم قوة أن استولى الأمويون على الخلافة وجعلوا عاصمتهم دمشق ، حيث كان أسلافهم من القساسة ، وأعادوا استقبال الشعراء في بلاطهم ، وأنسحوا لهم صدورهم ، وأجرلوا لهم المطامير ، وحرضوا على القول في موضوعات العجز والهجاء كالذي كان بين القبائل أيام الجاهلية ، وبذلك حمى الشر الجاهلي ونما — وكان لحياته سبب آخر ديني ، وهو أن مفسري القرآن كابن عباس استخدم الشر الجاهلي في ألفاظه وتراكيبه للاعتناء به على تفسير ألفاظ القرآن وألفاظه ، وجرى الناس في ذلك على أثره .

وغاية الأمر أن العجز والهجاء في العصر الأموي لم يقتصر على المحسومة بين قبيلة وفبيلة ، بل كان — كذلك — بين أمويين وهاشميين وأمويين وأنصار ، وقبائل موالية للأمويين ، وقبائل معادية ، فلما ظهرت الأحزاب من أمويين وزبيريين (أتباع عبد الله بن الزبير) وعلميين (أتباع علي بن أبي طالب ودر بته) وحوارج ، كان لكل مذهب شعراؤه يشيدون بذكره ، وبمحروون بدماله ، وبهجون خصومه .

وكان أهم جديد في هذا العصر — كما أشرنا قبل — رفق شر النزل ، ونشج

شعرائه أبولم لم يفتحها الشعر الجاهل لكثرة السلايا الجيلات ، ولما ضلته الحضارة
والنسيم في صف الذوق ، ولتوسيع الأمويين صدرهم للفرز والتشبيب ، ولإندام
بعض سادة فريش على الخوض في هذا الباب محتثيا بعصبته ومنزله ، ولتحرر
بعض القبائل العربية من قيود الحجاب والتقاليد ، وللفراغ مع النقى .

فظهر جميل بن مَعمر المعاصر لمعد اللثك بن مروان ، وأكثر من القول في
حببته بُشْبَنَة ، وكان في غزله « أمام الحبين » ؛ كقوله :

أَلَا لَبْتَ رَبْعَانَ السَّهَابِ جَدِيدٍ	وَدَهْرًا تَوَلَّى يَا بُشْبَنَ يَعُودُ
فَنَفَى كَمَا كُنَّا نَكُورُ وَأَنَّهُ	قَرِيبٌ وَإِذْ مَا نَبْذَلِينَ رَهِيدُ
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَيْتَنَ لَبَّةُ	بِرَادَى النَّوْرى إِي إِذَا لَسَعِيدُ
وَهَلْ أَلْقَيْنَ فِرْدًا بُشْبَنَ سَرَّةُ	نَجُودَ لَنَا مِنْ وَدَّاهَا وَنَجُودُ
عَلَّقْتُ الْهَوَى مِنْهَا وَلَيْدًا ظِلِّ رِجْلِ	إِلَى الْيَوْمِ يَسَى حَشَا وَزَيْدُ
وَأَنْبَيْتَ عَمْرِي بِالنَّظَارَى وَعَدَّاهَا	وَأَبْلَيْتُ مِمَّا تَعَدُّهُ وَهُوَ حَمِيدُ
مَلَا أَنَا مَرْدُودٌ بِمَا حَشْتُ طَالِبًا	وَلَا حَشَا مِمَّا يَبِيدُ يَبِيدُ
ثَا أَنَسَ مِلْ أَشْيَاءَ لَا أَنَسَ قَوْلَهَا	وَقَدْ قَرَّمْتُ بِشَوَى أَمْعَرَ تَرِيدُ
وَلَا قَوْلَهَا لَوْلَا الْعِيُونَ الَّتِي تَرَى	لَزُرْتُكَ عَاكِدُ رُفَى مَدَتْكَ جُدُودُ
خَلِيلِي مَا أَتَقَى مِنَ الْوَجْدِ قَائِلِي	وَدَمِي بِمَا قُلْتُ الْفَدَاءَ شَهِيدُ
بِقَوْلُونِ جَاهِدًا بِجَمِيلُ عَمْرُوهُ	وَأَيُّ مَهَادٍ غَيْرُهُنَّ أَرِيدُ
لِكُلِّ حَمْدَةٍ يَبِينُ بِشَائِئِهِ	وَكُلِّ قَتِيلٍ عِنْدَهُنَّ شَهِيدُ
إِذَا قُلْتُ مَا بِي يَا بُشْبَنُ ظَالِي	مِنْ الْحُبِّ قَالَتْ ثَابِتُ وَزَيْدُ
وَإِنْ قُلْتُ رُدِّي بِبَعْضِ عَقْلِ أَعْسَ بِهِ	مَعَ النَّاسِ قَالَتْ : ذَلِكَ مِنْكَ بَعِيدُ
أَلَا عَدَّ أَرَى وَاللَّهِ أَنَّ رَبَّ حَبِيرَةٍ	إِذَا الْفَارِ شَطَّتْ مَيْنَنَا سَرْوُدُ

إذا فسكرت قالت قد أذكرك وهذه وما عراني بحلى ، مكيف أجود
فلو كسفت الاحشاء سودت تحتها لبثت حب طارف وتلد
كذكر بها كل ربح مريضة لها بالتلاع الصاويات ونيد
وقد تلتني الأشتات بعد فترق وقد تدرك الحاجات وهي بتميد
وظهر مجنون ليلى ، وقد آخذ الناس من سيره وشعره وحه منها لفصص
والروايات الغرامية كما سلوا في عترة وشجاعة ؛ كقولها :

جرى السيل فاستبكا في السيل إذ جرى وماضت له من فلق غروب
وما ذاك إلا حين أبشت أنه يكون بواو أنت منه قريب
عيا ساكني أكناف مخلة كلنكم إلى القلب من أجل الحبيب حبيب
أغل غريب الدار في أرض عامر إلى كل مهجور هناك غريب
وإن السكيب الفرد من أهن المي إلى وإب لم آت طبيب
ولا خير في الدنيا إذا أنت لم ترز حبيباً ولم بطرق إليك حبيب
وكثير منها ؛ كقولها :

يزهدي في حب عزة معشر قلوبهم فيها عذبة ناي
قلقت دعوها قلبي وما اختار ولترضى بالقلب لا بالعين بعصر ذو المبة
وما تبهر القينان في موضع الموى ولا فصح الآذان إلا من القلب
وكل هؤلاء اقتصروا على محبوبة واحدة قالوا فيها شرم ، وإن سموها أحبانا
أسماء متعددة ؛ أما عمر بن أبي وبيعة فقد تشب بالتساء ، ولم يقتصر على واحدة
وتبع العشن أنى كان ، وكان قرشياً من بيت شرف ، جليلاً لا هيا ، فاستطاع أن
يتعرض لأشهر نساء العرب وأجلهن ، حتى تقاطعت بنت عبد الملك بن مروان ،
وإن لم يذكر اسمها ؛ وكان كثير من النساء يعجبهن تشبيههن ، وبرين في

شعره نسجبالا لجامهن وإعلانا بين الناس لحسنهن ؛ وقصر شعره الكثير على النساء والتشبيب ، وابتدع في شعره القصص القصيرة ، ورواية أحاديث النساء ، وما يجرول بخاطرهن ، وأكثر من وصفه لكل ما يتصل بهن من ملص ومداعبة وتلاوم وملافة ، وزارنه هن في المنازل ، ومقابلتهن في مناسك الحج ، كقوله :

عَلَّانٌ لَيْلَى وَتَعْنَى الطَّرَبِ واعترافى طُلُوكَ نَمٍّ وَنَعَمٍ
أُرْسَلَتْ أَسْمَاءُ فِي مَتْنَفٍ فَتَبَّيْنَا وَهِيَ أَحْلَى مِنْ عَقَبِ
أَنْ أَلَى مِنْهَا رَسُولُ مُوَهِنَا وَجَدَ الْحَيَّ نَبِيًّا فَأَقْلَبِ
ضَرَبَ الْبَابَ ظَمَّ يَشْعُرُ بِهِ أَحَدٌ يَنْصَحُ بَابًا إِذْ ضَرَبِ
قَالَ أَبَانًا وَلَكِنْ حَاجَةٌ عَرَضَتْ نُسُكُكُمْ بَيْنَا فَاغْتَجِبِ
وَأَسْدَأَ رَذَى ، فَاجْتَهَدَتْ بَيْنِي حَدَثَ عِنْدَ النَّصَبِ
يَشْهَدُ الرَّحْمُ لَا يَجْعُنَا سَفْهُ يَسْوَ رَجَبًا بَعْدَ رَجَبِ
فَلْتُ حِلًّا فَأَقْبَلِي مَعْدِزِي مَا كَذَا يَجْزِي مُجِبًا مَنْ أَحَبِ
إِنْ كُنْتُ لَكَ رَهْنٌ بِالرِّضَا فَأَقْبَلِي بَاعِدًا قَالَتْ : فَدَوَّحِبِ

وظهر في هذا المعسر الخليفة الأموي الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وكان ماجئا بفرط في الشراب وبهم بالنساء ، وقد أكثر كذاك من شعر النزل الرفين ومن شعر الحر حتى بد في ذلك إلهاما لأبي نواس ، كقوله :

عَلَانِي واسقياني مِنْ شَرَابِ أَصْبَهَانِي
مَنْ شَرَابِ الشَّيْخِ كَسْرِي أَوْ شَرَابِ الْهَرَمَزَانِي
إِنْ فِي الْكَأْسِ لِمَسَا أَوْ يَكْفِي مَنْ سَفَانِي
إِنَّمَا الْكَأْسُ وَبِيعَ يُصَالِحِي بِالْبَنَانِ
وَحِينَا الْكَأْسُ دَبَّتْ بَيْنَ رَجُلٍ وَلَسَانِي

حتى إذا جاء العصر العباسي رأينا أن الدولة العباسية قامت على أكتاف
 الفرس والعرب الناهضين للدولة الأموية ممن بناصرون الماسيين (علوبين
 وهبسين) ، فأصبح قوذ القرس عظميا ، وصبنوا الدولة بصيتهم بعد أن كان
 الأمويون يصمونها بالصيغة العربية الخالصة ؛ فأصبحتا تسمى من القرس قواد
 جبهوش ووزراء وحجابا وولاية وكتابا . وكان من مظهر هذا النفوذ نقل عاصمة
 الخلافة إلى العراق وإنشاء مدينة بئداد ببحوار مدائن كسرى ، وظهرت حركة
 الشعوبية تدعو إلى المساواة وهدم سيادة العرب — ونزع ذلك اللاداة بمذهب
 الذخير — أى تغير حير ما فى الحضارات القديمة وتوسيع الصدر لها والعمل بها .
 فسقوا الدواوين وأساليب الحرب ونظم الحكم والحياة الاجتماعية الثانية
 من ملابس ومسكن وماكل ومشرب وأعباد على تقلم القرس ، واقتبسوا كثيرا من
 عاداتهم — وأخذ الخلفاء العباسيون بشجعون الحركة العلمية فى شتى نواحيها ،
 وبعادونها بمسلم وجاههم ، على عكس الدولة الأموية ، إذ كانت لا تشجع إلا
 الحركة الأدبية وما إليها من موسيقى وغناء ، وذلك لشدة تأثر العباسيين
 بالحضارات القديمة ، ولأن التقدم فى الدنيا يخلو بالتدريج خطوات : خطأ
 الأولى منها الأمويون ، وخطا الخطوات الأخرى العباسيون ؛ ولأنهم حكموا شعوبا
 مختلفة متعددة لكل منها مييزات ، فرأوا من حسن السياسة اختبار حير ما عند
 كل منهم ، فأخذوا من القرس ما أشرنا إليه قبل ؛ وكان اليونان قد بذروا مذور
 علومهم وآدابهم فى الشرق من عهد فتح الإسكندر ، فنشروا فيه فلسفتهم وطبهم
 وفلكهم ، ووجد علماء فى الشرق يكفون عليها ويترجونها إلى اللغة السريانية
 وانتشروا فى الأديار العراقية والشامية ، ولفقوا بها النصرانية فى شمال العراق ؛
 وأسس الفسطاطة مركزا هاما حفظ الثقافة اليونانية فى جنديسابور ؛ وهناك فى

« خرمين » كانت جماعة وثنية بنوا في الدراسات اليونانية علمية وأدبية ، وكانوا يسمون « العائبة » ؛ وفي الإسكندرية كانت بيتاً لمدرسة الإسكندرية ، وهي وإن ضفت نواحيها ودراساتها ، قد كان لها أثر بان في هذا العهد — فهداه كلها ذابت في الدولة العباسية وروت أوصافها وملأت جوهاً سد أن تحولت إلى اللغة العربية — وكذلك أخذوا من المنود فلسفتهم ورياضتهم .

هذا كله إلى نحو الثقافة العربية من علوم دينية وفنوية وأدبية ، وجاء الزمن الذي نصح فيه الرأى ، حاسم برأى وأتقنوا اللغة ودراسة الدين ، فكانوا عنصراً هاماً في بناء صرح للدين العلمي ، وامتزجت هذه الثقافات امتزاجاً غربياً ، وأثر كل فرع منها في القروع الأخرى ، وأثر كل وكن من أركان الدولة في الأركان الأخرى في سرعة مجيبة .

كل هذا جعل الحركة العلمية والأدبية في العصر العباسي تبلغ أوجها ، ولكن العنصر العربي نفسه ضعف أمام هذه القوت الكبيرة ، وفضى القرس على السلطة أولاً والنزك ثانياً ، فأنحلوا وضفت مهم — مد زمن — العصبية العربية ، وتكسبوا بالزراعة ، الحرف ، سد أن كانوا أجد الدولة وفادتها وولائها وأمرائها . وما يؤسف له أن هذه الحركة العلمية والأدبية لم تستغل الأدب اليوناني — كما استغلت العلم اليوناني والفلسفة اليونانية — استفلا لا كبراً ، فلم يغفلوا ملاحمهم ولا وولائهم التثنية ولا شعرهم ولا سائر صونهم الأدبية ، وإنما غفلوا جكهم وبعض فصحهم ، ولو ضلوا لتأثر الأدب العربي تأثراً كبيراً ، ومنحت له مناح جديدة ؛ ولعل السبب في ذلك أنهم لم يغفلوا لبعده عن الذوق العربي ، ولأنه ملو بالآلهة التي تنفر منها عقيدتهم ، ولأن البيئة اليونانية الاجنابية التي أنتجت أدهم مخالفة تمام المخالفة للبيئة الإسلامية مما يجعل تذوقها عسراً ، إلى

غير ذلك من أسباب ؛ فظل تأثير الأدب الجاهلي كبيراً على الشعر العربي ، من محافظة على التزام الأوزان والقافية ، والابتداء بالتسبيب والنزل ، وذكر الفيل والاطلال والظلمات ، ووصف الناقة ، وقطع الفياض ، ووصف ما فيها من الوحش والصيد .

ومع هذا لم يخل الأدب — على العموم — من تأثير بالحضارات والثقافات والحياة العقلية والاجتماعية الجديدة .

فقد تأثر الشعر بالحضارة ، فوصف القصور والبساتين ، ومجالس الأنس ، ومسابد الطير والسمك ، وأرواح السفن .

وزاد استعماله في الجون والملاعة والتهنك — واستخدم في العصبية بين شعبة العرب وبين العباسيين ، وبين العرب والعجم ، والنزل في الذكر — ولم تكن نعره العرب — والنوم في شعر الحُر والإجادة في وصفها .

وحملتهم الحضارة على ترفيق شعرهم ، واستعمال التشبيه الذي بنى عليه مذهبهم والإكثار من الأوزان القصيرة اللطيفة .

وكان زهير هذا التجديد شاعراً أمي هُرسى اسمه بشار بن بُرْد ، فكان لسان عصره : تهتك عصره فتهتك ، ونحصر محاصر ، وترندق فنزندق ، وأجاب داعي النفوس حتى قالوا : « إنه لم يبق غزل ولا غزلة في البصرة إلا ويروى من شعر بشار ، ولا نائحة ولا مضية إلا تشكب به ، ولا ذو شرف إلا وهو يباه به ويخشى مقرة لسانه » .

دعا إلى التمتع بالحياة ما أمكن ، والجري وراء النساء ، فسرهن إلى مبصرة وترفق في النزل :

طال هذا الليلُ بل طال السهر
لم يطل حتى جفاني شادنٌ
وقد أعرفُ ليلى بالقصرِ
فكان الممّ شخصٌ مائلٌ
ناعمُ الأطرافِ فشان النظر
كلما أبصره النجوم غر

بكأها طرقي متومي بطرهما
فإن نظر القراشون صدت وأعرضت
مخبر عما في الضمير من الوجد
وإن غفلوا قالت ألتفت على التهدؤ!

وبهجو مبدع في الهجاء :

دبنارُ آكل سلبانٍ ودرهمهم
لا يوجدان ولا يلتاقا أحد
كالباليين حفا بالطاريت
كما سمعت بهاروث وماروث

وذهب على القدر يقول :

خلفت على ما في غير محير
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أريد
هوأي ولو حيرت كنت الهذبا
وأعترف عن فصدى وعلى ثائب
وينصر على أن أمل للنبيا
لصرى لقد غالبت نفسي على المعوى
فأرجع ما أعتبت إلا الصعبا
ومن حب الأباة أن اجتنابها
لنسلى فكانت شهوة النفس أغلها
رشاد وأنى لا أطبق التجنبا

ووصف للنسب فيقول :

دارت له الكأس حتى راح باطله
ربحانة القلب لو كانت تساعدنى
فطرته نائم في عين بقطان
إذا رضيت بها من كل رجحان

ويعف العناق فيقول :

بقنما لا يخلص الماء بيننا
إلى الصبح دنى حاجب وسنور الخ

وله الشعر الجزل في القصر والحكم .

وعلى الجملة فكان بشار داعياً إلى الإسراف في طلب اللذات ، وامتناع الإنسان ما استطاع بمنهج الحياة .

وجاء بعده أبو نواس ، زاد في الطنبور نفحة بل نثبات ، مكان يرى أن الحياة مبهزة ، ولا خير فيها إلا في الاستمتاع بنعيمها ، ولا بد أن ينسى مشائب الوحود والخمر ، فتفتح في الخمر أبواباً لم يفتحها من قبله ولا من بعده ، واغترس في اللهو والتشبيب بالنساء والغلمان ، فكان سرآة لطافة اللاهين والعابثين في عصره ، وكان ذا مقدرة أدبية عالية فصرحها في هذه القنون : وقد حدثت عن نفسه فقال : « لا أكاد أقول شعراً جيداً حتى تسكون دعوى طيبة ، وأكون في بستان مونت ، وعلى حال أرتضيها من صلة أو وصال أو وعد بصلة » . سار في حرياته على نهج الأمشي والأخطل والوليد بن يزيد ، ولما هم بمراحل أوحشت بها عقر بته وحضارة زمانه :

اصدع شجن الموم بالطرب	وانتم على الدهر باهتة العنب
واسبق قبل الميث في حضارته	لا تقف منه آثار مقلقب
من فهو زانها تقادما	نعي محوز نعلو على الجقب
أشهى إلى الشرب يوم جلوتها	من العناة الكريمة القس
مقد نجلت ورق جوهرها	حتى نسلت في منظر حجب
نعي بغير الزاج من شرير	وهي لدى للزج سائل الذهب

واستدع الفلز في القكور وأفرط فيه ، ولم يبلغ في غزله ما بلغه في خمره ؛ بصف في خمره الحانة والجار وامرأته وجرها المتفة ، وبصف حله الخمر إلى أصدقائه في بستان ، وكيف شربوا بين الرياحين في غفلة الزنباء وأحدث

الزمان ، ويصف ريارته للأديار ، وكيف نم بها بالحر والفتيان والفتيات ، وكل ذلك في صراحة واستنار ، لا يأتبه انقد ولا عتاب .

غددوت إلى اللذات منهتك السر وأضمت بذات السر متى إلى الجهر
وعانت على الناس ما أريده بما جئتُ هاسفتيت عن طلب العذر
رأيت اللبس إلى مرصعاتي لمدني فبادرت لنائي مبادرة الدهر
وكانت له صبيحة تجديدية في الشر تنني على الشراء سلوكمهم مسلك الأراين
في بكاء الأطلال والتزام الموصوعات القديمة بالأصاليب القديمة :

دع الممل يسي على مقله وخل عوطا يقول في جله
وتل لكثوم الفضل بالشعر يطبل الإعراس عن حيله
واعد على الفهو غير متشد عنه بهذا أو أن مقبله
أما ترى جدة الزمان وما أبدع فيها الربع من عله
فتشرب على جدة الزمان قد والى طيب المواء ومعتله
من فهوة نذكر السرور وتلحسى المم عند اعتراس مشتكله
ويدعو إلى القول في آثار الحسارة الفضة لا في الأماكن البدوية التافهة :

دع الرسم الذي دنا بقاسي الريح والمطر
وكن رجلا أضاع العلم في اللذات والخطرا
ألم ترماني بكسرى وساور لمن غرا
منازه بين دجلة والفرات أخضها الشجرا
لأرض بأعد الرحن عنها الطلح والمثرا
ولم يحصل مصادها برايعا ولا وثرا^(١)

ولكن حور غزلان تراعى بالملأ بضرا
فذاك العيش لا يسجدُ بفقرتها ولا وبرا
إذا ما كنت بالأشبا . في الأعراب معتبرا
بأنك أيما رجل وردت فلم تعد صدرا

ويقول :

دع الأطلال تسماها الجديب ونبكي عهد جدينا المملوب
وخل لراكب الوجناء أرضا تحت بها النجيمة والنجيب
ولا تأخذ عن الأعراب لموا ولا عشا معيشتهم جديب

فهذا العيش لا يعيش البوادي وهذا العيش لا البين الحليب
فأين البدوم إيوان وسرى وأين من الليادين الزروب

وكنا ننظر مع هذه الصرخة الدوابة في طلب النجدد ، والنفرة القانية
الفائقة ، أن يفتح أبوابا جديدة كثيرة مما نلهم الحضارة التي بنشدها ، وبخرج
ولو بعض الشيء من الأوزان القديمة ، والوشوشات القديمة كالمدبح والمجاء ،
ولكنه اكتفى في النجدد بتوليد سائر الحر والغزل ، وحتى عند ما عرض
المدبح والمجاء عاد عن دعونه ، فبكي الطول وركب النوف :

أقول والعيس نروى القلاء بنا صر الأعنة من مشى ووحدان
لثلاث لوث حفرة عذافة كأن نصيرها نصير بنيان
ها ناق لا تسأل أو نبلى ملكا تقبل راحته والركن سنان

وبنظر أن دعونه للنجدد بقيت مقاومة عنيفة من أدباء عصره ، بل ومن
الخليفة نفسه ، فلم يقو على الوقوف أمامهم ، ونكس على عقبه وقال :
أمر شمرك الأطلال والزل القفرا فقد طالما أروى به نبتك الحرا

دعاني إلى نعت الطلول مسأط نصيف ذراحي أن أرد له أمرا
مسمًا أمير للؤمنين وطاعة وإن كنت قد جشنتى مركبا وعرا

•••

وإن كان بشار وأبو نواس عنيا بتوليد للعاني التي أوحى بها عصرهما ،
مّم شاعر آخر كانت عنايته في تجويد اللفظ ، والإيمان في البديع ، والعناية
بالموسيقى العظيمة ، وهو « مسلم بن الوليد » اللقب صريح النواي ، كقوله في مدح
العسل بن يحيى البرمكي :

تأسط بمسناه ندّى وشماله ردى وعيون القول منطلقه الفصل
يجول إلى أن يردع الحدة ماله بعد الندى غنا إذا اغتمم البخل
له حصة تأوى إلى ظل برمك منوط بها الآمال أطنابها الشبل
وقوله :

إذا التفتنا منمتا النوم أهبنا ولا نلأثم يوما حين نعترق
أقر بالذنب منى لست أعرفه صكبا أقول كما قالت منتفق
وقوله :

وإن وإسماعيل برم وداعه لكالفد برم الروح زابله النصل
بأن أتمش يوما بعده أو أزورهم فكالوحش يدنبها من الأتس المتعل
وقوله :

موفد على مهبج في برم ذى رهج كأنه أجل يسعى إلى أمل
بسال بالرق ما بيا الرجال به كاللوت مستعجلا بأق على مهل
وقوله في الحر :

ومأخيه شربها الملك ضوة يهودية الأصهار مسلة البصل^(١)

(١) من الأصهار مأخذا وبالل شاربها .

معتقة لا تشكى بد عاصِرِ حُرورية في جوفها دمها ينهل.

• • •

ومحاسب هؤلاء، كان شاعر آخر لا ينشئ للفلوك والأمراء، ولكن ينشئ لنفسه وحبه، ويقض شعره على عزله ورفقة وعدوبة، وهو العباس بن الأندلس؛ لقد كان في الصبايين كما كان عمر بن أبي ربيعة في الأمويين، والفرق بينهما فرق الحسارة وما ندعو إليه من رقة في الاملط، وعدوبة في المي، ورفق في اللون، ونوليد في اللغائي، ميقول:

أشكو الذين أذاقوني مودتهم حتى إذا أبغضوني بالموى رقدوا

أشكبي فهل لك أنت نردى حياتي من مفاك بالفسور
أرى حبك بسمي كل يوم وحورك في الموى عدلا طوري

وأنت إذا ما وطئت التراب ب صار ثرابك للناس طيبا

حببي أغض إذا ما بدت وأملك طرفي ملا أنظر
مكيف استأري إذا ما الدهوع نطق فبحن عما أضمر

لمرى لقد كذب الزاعور ن أن النوب نجاري القلوبا
ولم كان ذلك كما يذكرو ن ما كان يشكو بحب حبيا

أنأذون لصبر في زيارتك معندكم شهوات السبع والبعر
لا بصبر السوء إن طال الخلوس عف الضمير وليكن فاسق النظار

وكل دواء من هذا الفيل

ويظهر أن دعونه إلى التجديد لم تجد مبيعا حتى في المصور بعده

• • •

ولئن كان بشار ثم أبو نواس غنياً للناس ألسان النرام والحر والاسهتار
والخون ، ودعوا إلى الاستمتاع ، وطلب اللذات حيث تكون . فشاعر آخر رد
على هذه الألسان بألحان مثلها في الزهد واحتقار الدنيا وذكر اللوت ، وهو الشاعر
الدامس لأبي نواس « أبو العنابية » .

قد جذد في الشعر الديني ما لم نجد له نظيراً قبل إلا قليلاً من شعر من بن
ساعة وأمية بن أبي الصلت ، ولكن يظهر أنه اتخذ شعره من منافع ثرية
كمواعظ الحسن البصري ، وصاغه صياغة سهلة أشبه بالدتر ، بهمه السامة
والخاصة على السواء ، فهو من ناحيته الفنية لا يصح أن يشارن بشار وأبي نواس .
وإنما شهرته أتت من ناحية موضوعه وحسن ترويذه ، وسهولة نظمه ، وجعل
وعظه ! فإن كان أبو نواس يزين الدنيا ، فهذا بظلمها ويذهب بهجتها ، وبحور
الماء بأطيايل . يذكر بالوت « أبا » ، ويذكر بالقبور ، وبصف غرور الإنسان
وأوهامه في مقامه :

ألا يا موت لم أر منك بدءاً	أبيت وما تحب وما تحبني
كأنت قد هجمت على مشيبي	كأهم الشيب على الشباب
وإنك يا زمان قد صرود	وإنك يا زمان قد انقلاب
أراك وإن طليت بكل وجه	كعالم النوم أو ظل السحاب

رجعت إلى نسي بفكري امليا تفارق ما قد خرمها وأدليا
مفلت لها يا نفس ما كنت آحداً من الأضرلو أصبحت أملك كلها
هل هي إلا شعة حد حوقة وإلا متى قد حان لي أن أسأها
أرى لك نفساً تبتنى أن تُنزعها ولست نعيم النفس حتى نذلها

تلفت بآمالٍ طوال أى آمالٍ
وأقبلت على الدنيا ملعاً نى إقبالٍ
أباهـذا تـجـرأ قـى الأهلـ وللـال
فلا يد من التـوت على حال من الحال

وهو يكثر في شعره من الأمثال والحكم، وله أرجوزة طويلة كلها أمثال،
قالوا إنها بلغت أربعة آلاف مثلاً، ولكن لم يثر عليها كلها، منها:

حسبك مما تهتفيه القوت	ما أكثر القوت لمن يموت
إن كان لا يغنيك ما يكتفيكا	فكل ما في الأرض لا يفتيك
لن يصلح الناس وأنت فاسد	هبت ما أسعد ما تكاد
لكل ما يؤدى وإن قل ألم	ما أطول الليل على من لم يم
وكل شئ، لاحق بموصفه	أصغره متصل بأكره
لكل إنسان طبيعتان	خير وشر وهما ضدان
والخير والشر إذا ما عدا	ينزما بوث بعد هذا
ما عيش من آفته بقائه	نفس عيشاً طيباً فساؤه
إن الشباب والفراغ والجده	متسدة للعقل أى منه
إن الشباب حجة التصابي	روافع الجنة في الشاب
أصح ذوى الفضل وأهل الدين	فالتره منسوب إلى القربين

• • •

وبصح بعد ذلك أن تقف وفعة عند شاعر أعقب آها نواس، وهو أبو تمام
مقد طلع على الناس بأسلوب جديد وشكل جديد لا جوهـر جديد؛ لقد بنى

نصيده على النمط القديم ، وعالج موضوعات من قبله ، ولكن أسلوبه غير أسلوبهم في شكل متغير به ؛ هو شاعى الأصل تنقل في بلدان كثيرة فزار مصر وحراسان وبستان وخراسان وأرمينيا والوصل وبغداد ، وحط رحاله في مقام الخلافة العباسية (سر من رأي) ، وهو في رحلته يوسع ثقافته ويكثر اطلاعه على الشعر القديم والحديث ، وفي إحدى هذه الأسفار جمع ديوان الحامدة .

وأسلوبه في شعره بكاد يكون خاصا به ؛ إيماني الاستعارة ، وعرف في غرض المعنى وتوليد ، وإفراط في الصفة ، وتعتمد للتدريج ، وحس شديد للإعجاب ، يشعر القارئ - وهو يقرأه - بهنكاه ، وهرق جبينه في البحث عن المعاني المناسبة وإدراجها في ذهنه ليغرب في توليدها ، وفي حياته ليلبسها ثوبا غير شفاف من الجناس والاستعارة ، كقوله :

فكأن أفئدة النوى مصدوعة حتى تصدع بالقرق مؤدى
 وإذا مضت من اليمالى مرجة حاقنها مصدونها بعباد^(١)
 ومع هذا فقد وقع في كثير من صورة الشعرية وأقواله الحكيمة ، بصف فائدة الرحلات ، وأنه لا يبلغ الأرب بقوله :

ولسكني لم أحر وقرأ مجمعا هزت به إلا بشمل مبدؤ
 ولم تمنى الأيام نوما مسكنا ألد به إلا بنوم مشرد
 وطول مقام الرء في الحى مخلق ليرباجتيه فاغترت تتجدد
 فاني رأيت الشمس زيدت محبة إلى الناس أن لبست عليهم بمرمد

(١) حمل القارئ مؤادا مصدوعا ، حتى صدع مؤاد أبي نغم ، فكلمها بحث من يخرج مما هو فيه حالت الأهم صدعت ذلك المخرج بالمد .

و وصف مملوحة فيقول :

وقد كان موت اللوت سهلاً فردّه إليه الحفّاظ الرّزّ والخافق البصر
ونفسٌ تخاف العار حتى كأعما هو الكفر يوم الزّوع أو دونه الكفر
فأثبت في مستنقع الموت رحله وقال لها من تحت أخمصك الحنجر
«هو الهيد بشار وأبي زاهر» في توليد المعاني ، ونليذ مسلم بن الوليد في
تجريد اللفظ والإمعان في البديع ، ونسيج وحده في الصياغة

• • •

ولا بد من وقفة عند شاعر روماني الأصل اسم جده « جور جيوس » ؛
عظيم الشاعرية ، غير موفق في مسالك الحياة ، قوي الخيال ، هذه صفات المغنبة
العملية ، قوى الشهوة ، فخير اليد ، فهو في شعره نائم ساحر عاث هباء وحزاف ؛
أسخطت إخواني وأحفظ مدعى فبقيت بين الدور والأبولوب
يذم الزّمان وبجيب لسكافينه العائشة وحفّه البائس ، وإنّما لا أنفاد حوله
بتعمون ويسعدون ؟

أبها الحاسدي على مصنى السرر وذمّي الزّمان والإحداوا
ليت شمرى ماذا حدثت عليه أبها القنالى إخفى عباها
أعلى أنفى ظننت وأنسى كل من كان صادبا ربنا
أم على أننى أمسى حسيرو وأرى الناس كلهم ركنا
أم على أننى تسكنت منقني وعصمت الغراء والأوطانا
من أجل هذا امتلأ شعره بالحجاء ، وصب مخطه على الناس ، وأسأله في
دلائل جرير والفرزدق و بشير ، وهو عوضهم في إجابة القصور و بإثارة العمل من
بهموم ، والإقذاع في هجائه — وقد جرى على سبيل معاصريه في اللحن وسائر

منون الشعر ، ولكنه عرف بالهجاء لأنه غيّر به - وهماؤه أكثرهما .
شحمى ، لأن هجرته أساء إليه أو منع عنه العطاء ، أو تخيل هو أنه ناله بشر أو
أضر له سوءاً ، وكثيراً ما كان يتخيل ؛ وقد انتفع أبو العلاء الأعرى بهجائه ،
ولكنه نقله إلى معنى أسى وهو هاء المجتمع في عبوه ، وهاء الإنسان في
جوحه ، والطوائف في جعلها .

وقد جدد ابن الرومي في الشعر بأملوه لثلاس ، هو يطبل ولا يعل ، و يمرض
الدمى فيولده ويخرج منه حتى لا يبقى . . لمن يأتي جسده شبتاً ، ولا يفتل
إلى معنى حتى يستوفى ما قبله استيفاء تاماً - يمدح على بن يحيى النعم في نصيدة
تجاوز الثالثة ، مبدأ وصف الشبب ودلائله عند القوافي في نحو ثلاثين
بيتاً ، ومطلعا :

شاب رأسى ولات حين مشبب ومحجب الزمان غير محجب
وهو إلى ذلك سهل النظم ، لا نحس وأنت تقرأ شعره إلا كأنك تقرأ نثراً
مفقى ، ليس فيه نغم لتقديم أو تأخير أو لعب بالألفاظ يستقيم الوزن إلا نادراً
وهو يعرض لموضوعات ليست جديدة في الأدب العربي ، ولكنه أفاض
مها ووسع معانيها كوصفه أحوال البحر ، والإحاسة في وصف الشبب والشباب ،
ووصف اللبائ والجنان . والسحاب والبرق والرياح ، والأذان والأصوات
واللغنيات والمأكولات وسوء الحظ ؛ وله نصيدة رائعة في رثاء البصرة وما أصابها
في ثورة الزنج ، ووقعها في أيديهم ، لها كانت فتحاً جديدة في الأدب العربي
في رثاء المدن وما ابتليها من حوادث معاصرة

وهو في شعره يفخر بنفسه اليوناني فيقول :

ومن بنى اليونان قوم لنا حجاً ومجد ، وعيدان صلاب للعاج

وما نغزى في الرابا وجرهنا على في صبح الا هفت السورة
وبقول :

قد نحصن الروم شعرا ما أحسنه غريب
بامتكر المحمد فبهم ألبس بهم عريب
ولكن هل كان منفا ثمانية كان لما أتر في شه ؟ ؛ ذلك ما لم يظهر
في شعره وإن ظهر في طبعه .
فن غاذج شعره .

لعمرك ما الحياة لكل حي إذا فقد الشباب سوى عذاب
فقل لنبات دهرى فلنمضى إذا ولي بأسهوا الصناب

بذكرني الشباب هوأى عنى وصعد الغائبات لدى عنانى
بذكرني الشباب سهاه حنن بصحن مغالى دون الإهاب

بها أسفاً وبأ جزعا عليه وبأ حرما إلى يوم الحساب
أنفع بالشباب ولا أقرى لقد غفل العزى عن مصابى
تفرضا على كره حبا ولم بك من قلى طول اصطحاب
وكانت أبكى لبيد اجتناء مادت سده لبيد احتطاب
وبصف الحر وحسناء تشرب :

ومدامة كحاشاة النفس أظفت عن الإدراك بالنفس
لنسبها في قلب شارها روح الرجاء وراحة اليأس
وتعد في أمل ابن نشونها حتى يؤمل مرجع الأمس

وهيهو كالت محاسنه حتى تجاوز منية النفس
أبصرته والكأس بين ثم منه وبين أأمل خسر
فكانها وكأف شاربها قر بقبل عارض الشمس
وبقول في رثاء البصرة :

ذاذ عن مفتي لبذ النمام شغلها عنه بالدموع الشمام
أى وم بعد ما حل بالبصرة ما حل من هنات عظام

• • •

لف نفس عليك يا نية الإسلام لفتا بطول منه غرامى
لف نفس لجمعك للتفانى لفت نفس لمرزك للشمام

• • •

بنينا أعلوا بأحسن حال إذ رمام عبيدم باصطلام
دخلوها كأنهم قطع الليل إذا داح مدلم الفلام
أى هول رأوا هم أى هول حن منه يشب رأس الفلام
إذا رموم نمارم من يمين ونمال من خلفهم وأمام
كم أغصوا من شارب بشراب كم أغصوا من طام بطعام
صبحوم مكائد القوم مهم طول يوم كأنه ألت عام
ما تذكرت ما أنى الزرع إلا أصرم القلب أبنا إضرام الخ
وله في المصباح :

دعنى إلى فعل مروعكم وجوه مناظرها معجبة
فاخلفتكم ما نوسحتكم وفل حيد على نيرة
وكم لمع خلتها روضة فالتيتها دمنة معيبة

ظلمتكم لا تطيب الفسرو ع إلا وأعرانها طيبة
وفي هجاء صاحب الحية :

إن نعال الحية عليك وتعرض فالحالي معروفة للحصير
عاقب الله في عذاريلك محلاً فوالحكمتها بهنير شهر
لو غدا حكمتها إلى لطارت في هب الرياح كل مطير

• • •

حية أملت فسالق وفاضت بالها تشير حكت الشير
مارأتها عين امرئ ما رآها قط إلا أهل بالتكبير
روحة تستشفه لم يرعها من رأى وجه منكر وتكبر

• • •

فائق الله ذا الجلال وغير منكر آيه ممكن الضمير
أو فطر منها غسبك منها نصف شهر علامة التذكير
لو رأى مثلها النبي لأحرى في لحى الناس سنة التقدير
ويصف طبعه فيقول :

شكرى عتيد وكذلك حذى
للخير والشر بقاء حذى
كالأرض هما استودعت تودى
أحفظ للأعداء والأود
ما استودعوا من بفضة وود
ماذا يقول القائلون بصدى

• • •

ولم في دولة الأدب الخليفة للذكور الخط ، عبد الله بن المعتز ، ما في بالنشيبات
الزينة البديعة مستمدة من عيشته للترفة ، وولد من الماني ما نوحه الحبابة
للحضرة ، كقوله :

ومفرط يسى إلى الندماء بقبلة في دوة بيضاء
والبدوي أفق السماء كدرم ملق على دبابة رغاء
وقوله :

خليلي قد طاب الشراب للورد وقد عدت بعد النك والود أحد
هانا هتارا في قيص زجاجة صباونة في دوة تسود
يصوغ عليها الماء شبك فضة له جلق يضر تحل ونقد
ونقي من نار الجحيم بنفسها وذلك من إحسانها لبس بمعد
وقوله يصف رجلا :

وجلجل رعد من بيد كاه أمير على رأس النفاع خطيب
وقوله :

انظر إلى حسن هلال بدا يهتك من أنواره الحديديا
كيجل قد صيغ من فضة يحصد من زهر الدحي رجيا
وقد أتى بن في شمر يكاد يكون مبتكرا ، فأنشأ أرجوزة في أكثر من
أربعمائة بيت عنوانها مدح الخليفة المتضد ، ولكنها في الحقيقة قصة تاريخية
شاملة ، وصف فيها معايير زمنه من مصاد حكم :

فكل يوم لك مقتول أو خائف مروع ذليل
وكل يوم شغب وغضب وأفس مقتولة وحرب
وكم تنافح رجت من منزل فصبوها غصبا في الحفل

وصف الثوار والمجاهدين على القولة : كالملوى ، وأبى دؤب ، والصغار ،
وصاحب الزنج ، وأعمالهم وحروبهم ومصادمهم

وصف التجار وسوء حالهم بما يصيبون به من مصدرة وسبب :

وتاجر ذى حومه ومال كان من الله بحسن حال
فيل له عندك السلطان ودائع عالية الأثمان
فقال لا والله ما عندى له صنيرة من ذا ولا جليله
وإعسا رعت فى التجاره ولم أكن فى المال ذا خساره
مدخنوه بدخان التبين وأوندوه بفسال البين
حتى إذا مل الحياه وضجر وقال ليت للذال جمعاً فى سفر
أعطاهم ما طلبوا فأطلقا بنصل للشي وبمضى الصفا الخ

ولا بد أن نفث وقتة عند شاعرين ممتازين فى العصر العباسى الثانى . وهما
الفتن وأبو العلاء المعرى ؛ من النثر وصل من نقيض التصيد — الذى بدأ به
أمرؤ القيس ورفى فى العصر الأموى — إلى غايته ، فقد خالط البدو وتطبع
بعبابهم ، وتذوق دوفهم ، وعاش فى الحضر محفظاً ببدوانه فى اللثة والأسلوب ،
يسب فيها معايه الحضرة ، ومحفظاً ببدوانه فى مبيشته ؛ فهو قرس ترمه
الحبل والابل والبيداء ، إلى غمة نفس وإباء ، وحبرة وتجارب كثيرة أكسبته
إياها العيشة البدوية والحضرية ، ثم لما طبع يثره عن كل ذلك فى أسلوب
حاصر به ؛ ولذلك لما طلع على الناس بشعره أقبلوا عليه فى عصره ، وكادوا
يسون غيره ، ورأوا فيه نقذة لجواظهم المختلفة : فمن هاجت عواطفه اتساده منه
وجد فى شعر النثرى بنيه ؛ ومن اعتد بعسه وأحسن فى شهابه مبل إلى العلا

والمسرح إلى الجسد ، وجد كعائنه ؛ ومن احتاج إلى إلمار الحاسة القومية ، ومنازلة
 الخصور والأعداء ، متى شره الغناء ؛ ومن تقلع ورأى أن الدنيا هباء ، وجد
 في شره غذاء ؛ ومن قُتل في حياته صكى حظه ، ومن على أولى الأمر في زمانه
 متى شره مطامه ، وهكذا ، كل ذلك في قول حزل ، ونغن في الاستعارات
 والتشبيهات ، ونمّح في الشعر من حماسته وحرارته حتى لينض بالحبّة — لقد
 قبس نفسه من أبي تمام في غوصه وإغرياه ونعتته ، وخاصة وهو في ملاط
 سيف الدولة ، حيث للنافسون كثيرون من الشعراء والعداء ؛ ونبس من فهد
 توليد المعاني ، ولكن كان نسج وحده في أسلوبه وقوته وصدق شعره ،
 فلا يتول إلا ما يحس ، ولا يصف من حوادث الحرب إلا ما يرى ؛ ثم ملا شعره
 حكمة علية هي خلاصة تجاربه الشخصية ، وهي ترفية للأمثال العربية لا تروحة
 للحكمة اليونانية .

بقول :

أبن فضلى إذا قمعت من الدهر ببشر مميّس القنكيد
 ضاق صدرى وطال في طلب الرزق نياهم وفلّ عنه نعوذى
 أبدا أقطع العياى ومحبي في نخوس وحنى في سمود
 عش عزيزاً أومت وأنت كرهه بين طعن التنا وحقق البنود
 نرهوس الرماح أذهب للفط ط وأشقى لنل صدر الحقود
 وظل في مدح سيف الدولة :

ومن تسكن الأسد الصورى جُودَه يكن ليله صحا ومطمه غصبا
 ولست أنالى بعد إدراكى الملا أكان رأنا ما تناولت أم كسبا
 مرب غلام علم الحسد معه كتملم سيف الدولة الضربا

إذا الدولة استكفّت به في مِلَّة كفاها فكان السيف والكف والقلم
وقال يمانيه :

يا أعدل الناس إلا في معاملتي ميك الحصام وأنت الحصم والحكم
أعيذها نظرات منك صادقة أن تحبب الشح فيمن شحمه ورم
وما انتاع أخى الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأموال والظلم
سهل الخلع ممن ضمّ مجلسنا بأننى حير من تدعى به قديم
أما الذى نأظر الأعمى إلى أدنى وأسمعت كلانى من به صمم
أنام مله جوفى عن شواردها ويسهر الخلق جزاءه ويختصم
وبصف المشى قوة نفسه ومضاء عنينه :

بحافزى حننى كائن حصه وتذكركنى الأعمى بمقتلها مومي
طوال الرذليات يصفها دوى ويبص السريحيات بقلمها طوى
وتنى السرى يرى الذى فرددنى أخف على المركوب من نفسى جوى
وأعتر من زرقاء حو لأنى متى نظرت عيناى ساوانها على
كأنى دحوت الأرض من حبرى بها كأنى بنى الإسكندر المذم من عرى
وبصف طموحه :

خز النفس تأخذ وسما قبل يئنها قفترق جاران دارها السر
ولا تصبى الجد زقا وقينه فبا الجد إلا السيف والفتكة البكر
ونصرب أصايق الملوك وأن ترمى لك الهبوات السود والشكر المنجبر
وتركك فى الدنيا دوننا كأنما تداول صبح المرء أنمله العشر
طما مثل ما يطمح إليه قال :

سرى بقدّ المستهام بذكره وإن كان لا يبنى متبلا ولا بجدى

وغيبط على الألبام كالتار في الحشا ولكننه غيظ الأسير على الفسء
 بمنار النفي في شعره بأنه فلسف القوة ، قوى في حيلته على الناس والزمان ،
 موى في احتقاره الذات الوضيعة ، وطلبه لمال الأمور ، نوى في نفسه لا بهاب
 الدهر ولا يكفر لأحداثه ، فوى في دعوته للناس أن يشوروا ويؤسوا — ولكنهم
 على حد السيف — يجد في شعره كل إنسان وصفا لتأخيه من نواحي نفسه ،
 وبرنامج للاستشهاد فيها بشعره .



ثم جاء أبو العلاء المعرى ففتح في الشعر بابا جديدا ، فدعج الشعر مستد
 شبا به ، فسار فيه على نهج من قبله من مدح ونظر ورثاء وعزل ، كما ينبغي
 ذلك في مجموعة شعره « سقط الأزد » ، هذا ضج عظه وشعوره أشبه حبة جديدة
 في كتابه الروميات ، وهذا التجديد يتميز بشئين : (١) فدهم للحياة الأحياء به
 التي حوله ، (٢) تغنيه في شعره بإيمانه وشككه وقينه وإلحاده وحيرته بين القول
 والقول ، وتفكيره في أمور الفرب من بحث وحساب وخلود الروح والجدة والنار ؛
 وهذان بابان جديدان في الشعر العربي — ثم فقد التفاد الحياة الأحياء به فله
 كما فعل ابن المعتز في أرجوزته التي فصصنا عليك حبرها ، وكما فعل قبله
 أبو المناهبة أحيانا ، ونحو ذلك ، ولكن كان قد قدم عارضا وفي غير شعول
 وإيمان ، أما أبو العلاء فكان نظره شاملا وأفيا متقصيا متوقفا عابه — ميفد
 للوك والأمراء :

يسوسون الأمور بغير عقل ويبتدأ أمرهم فيقال ساسه
 فأف من الحياة وأف مني ومن زمن رياسته حساسه

سُئِلَ الْقَامُ حَكْمَ أَطْشَرِ أُمَّةٍ أَمَرْتُ بِتَحْرِيرِ صَلَاحِهَا أَمْرًاؤَهَا
ظَلَمُوا الرِّعِيَّةَ وَاسْتَجَازَوْا كَيْدَهَا فَدَعَوْا مَصَالِحَهَا وَهَمَّ أُجْرَ لَوْهَا
وَيَسْقُدُ رِجَالُ الدِّينِ وَالرِّعَاطُ :

رَوَيْدُكَ فَدُ عُرُوثٍ وَأَنْتِ حُرٌّ بِصَاحِبِ حِمْلَةٍ يَحْطُ النِّسَاءُ
يَحْرُمُ فِيكُمْ الصِّبَاءُ صَبِيحًا وَيُسْرِبُهَا عَلَى عَدِيٍّ مَسَاءً
يَقُولُ لَكُمْ غُدُوثٌ بِلَا كَسَاءٍ وَفِي لِقَائِهِ رَقْنُ الْكَسَاءِ
إِذَا ضَلَّ اللَّفَى مَا عَنْهُ يُنْصَى وَنَ جَهَنَّمِ لَا حِمْلَةَ أَسَاءَ
وَيَنْفَدُ النِّسَاءُ لِلْقَدْرِ وَالْحَيَاةِ :

مَوَارِسُ حَتْفَةِ أَعْلَامٍ ضَمِيرٌ لِقَبْلِكَ بِالْأَسَاوِرِ مُفَقَّاتٍ
وَدَقْنٌ — وَالْحَوَادِثُ فَاجِئَاتٌ — لِإِحْدَاهُنَّ إِحْدَى السَّكْرَمَاتِ
ثُمَّ يَذُمُّ النَّاسُ جِلَّةً :

وَكُلُّ حَى مَوْضَا طَالَمَ وَمَا بِهَا أَظْلَمَ مِنْ نَاسِهَا

بِحَسَنِ مَرَأَى لِبْنَى آدَمَ وَكُلُّهُمْ فِي الدُّوْقِ لَا يَغْدُبُ
أَفْضَلُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ صَخْرَةٌ لَا تَنْظُمُ النَّاسَ وَلَا تَكْذِبُ

وَهَكَذَا هُوَ يَقْدِرُ النَّاسُ فِي مَرَاةٍ وَسَخَطُ ، وَتَتَفَى أَنْ لِي أَمْنَمَتِ الرِّجَالُ عَنْ
الزَّوْجِ وَالنِّسَاءِ عَنْ الْوَلَادَةِ حَتَّى يَفْتَنُوا عَنْ آخِرِهِمْ :

لَوْ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ النَّاسِ رَائِبَةٌ كَرَأَى نَفْسِي تَنَاهَتْ عَنْ خَطَايَاهَا
وَعَطَلُوا هَذِهِ الدُّنْيَا فَمَا وَهَوَا وَلَا ائْتَنَوْا وَاسْتَغْرَحُوا مِنْ رِزَائِيهَا

أَمَّا شِعْرُهُ الدِّينِي فَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ حَاطِرٌ يَمُرُّ بِهِ طَائِفٌ مِنْ إِيْمَانٍ فَيُؤْمِنُ شِعْرُهُ ،
وَيَمُرُّ بِهِ طَائِفٌ مِنْ إِخْلَادٍ فَيُخَادِعُ شِعْرُهُ ، وَتَتَنَازَعُهُ الْفِكْرَتَانِ فَيُخْتَلَفُ الشُّعْرَانِ :

ولكنه في أكثر شعره مؤمن بالله واحد ؛ حائر في التفاصيل والشعائر ، قائل
بسلطان العقل ، مرتاب في النقل الذي لا يوافق العقل ، ساخط على رجال الدين
الذين لا يفعلون

في كل ذلك قال الشعر ممزوجا بشعوره وعواطفه ، وإيمانه وكفره وحيرته ،
وسمح له الشعر عما لم يسمح به النثر ، فلم يُعطله ولم يعذب ، ولو قال نثراً
ما قاله شعراً لما نجح

كثيرا ما يرى في شعره الإيمان بالله من مثل قوله :

والله حقٌ وابنُ آدمُ جاهلٌ من شأنه التفرُّطُ والتكذيبُ
وفوله :

إذا كنتَ من فرطِ السماءِ معطلا فبأجاعدُ أشهدُ أني غيرُ جاعد
أخاف من الله العقوبةَ آجلا وأزعم أن الأخرى في يدِ واحد
ثم الشك في مثل قوله :

أنا البينُ ملا يقينٌ وإعما أنصى أجنهادي أن أظن وأحدسا
وبشك في القيامة ميقول :

أما القيامةُ فالتنازعُ شائع معها وما تخليتها إحصار
وبشك في الأدلن فيقول :

هفت الحنيفة والنصارى ما اعتدى ويهود حارت والمجوس مصلته
إنان أهلُ الأرض ذو عقلٍ بلا دين وآخر دينٌ لا عقل له

وهكذا تردَّد بين الإيمان والشك ، ولكن كما قلنا نرى الذائب عليه الإيمان

بأنه والشك فيما عدله

وبهذا كله نزع في الشعر زعنا جديدة قوامها قد الحياة الاجنماعية حوله
وتحليل شعوره الديني .

هو في اللزوميات قد تحرر من قيود الشعر القديم من حيث الموضوع ، وأما
من حيث الأوزان والقوافي ضد التزامها ، بل زاد في التزامه فالتزم ما لا يلزم .

وعن إذا دققنا النظر في الشعر المباسي كله وجدنا أنه عي — على وجه العموم —
بالنظر إلى الحياة الواقعية ونصويرها من وصف للشرب ومجالسه وغلو فيه ،
واستهزاء معانيه ، والإعجاب بأزهار والبساتين وجمال النساء والعلماء ، وبحو
ذلك من جمال الدين ، كما أولموا بوصف المباني والمصوغات ، كالكبركة والمواورة
والشمعة والأمامة . وكما انتمس الناس في الملاذ والملاهي تبهم الشعراء يغشون
بما يسرهم ويهيمهم ، حتى إذا بانوا الماية من السرف والترف ظهر شاعران وقعا
حياتهما الشعرية على المحون بأصرح لفظ وأخشنه ، وهما ابن الحجاج اللنوي
سنة ٥٣٩١ هـ ، وابن سكرة اللنوي سنة ٥٣٨٥ هـ .

وكما لا يفتولان إلا في المحون الناحش ، وقد أقبل الناس على شعرهما ، وراج
دوانهما لأهمهما بقذفان مبول الشعب في ذلك العصر .

وغلب على الشعر الصنعة والنحت والافتصار على العبارات والأجيلة الجائلة ،
هو بهج السامع والقارئ من حيث صباغته وتشبيحاته وحبله وده . وإن
كان فلان يمس مشاعره وروحه ، هذا إلى ما يؤخذ عنهم من تقدير أكرم
في الوصف الكامل . ومن غلوم الباغ في المدح ، وإمراطهم في التزل بتدوموه
بين يدي المدح .

وكان شعر العراق والشام الذي وصفنا شأنه ، وألمنا بأجملاته ، وعددا من نوابه ، هو قبلة العالم العربي كله ، يقدّر في مصر والغرب والأندلس وسائر الأقطار ، ويمدح حدوده ، ولا تنشر شعوراً نوياً بطابع إقليمي ، ولا يفنون مخترعة تفيضها بيئة الإقليم ، ولا بأوزان مبتكرة تفتح من رنات موسيقى يوحى بها الإنانيم ، بل كلهم يقدّر العراقيين في مدحهم ومنحهم ، وموضوعاتهم وأساليبهم . ومن أجل ذلك لا نرانا في حاجة إلى وثقة لوصف الشعر في الأمصار المختلفة اثنين صانعيها وميزاتها ، إلا للفن الشعري الذي اخترعه الأندلسيون وهو التوشيح .

قد كان فناً جليلاً ، فالأما إن اخترعه مقدم به معاني الفخري شاعر الأمير عبد الله بن محمد الرواني في أواخر القرن الثالث الهجري ، ونبيه ابن عبد ربه صاحب العقد المرشد ، وجري على آثارهما آخرون نمو ورقوه ؛ وكانوا ينظمون اللوحات على أساليب شتى ، أشهرها جعل الأربعة بيتين وكل دور بعدها خمسة أبيات ، وأحياناً ينهجون فيها مناهج أخرى مختلفة خالفوا بها أوزان الشعر للشهيرة ، وذلك مثل :

مدرّيم خمس ضحى خصن نقاً يسك تشم
ما أنم ما أوصا ما أورا ما أنم
لا جرّم من لئلا قد عشقاً قد حُرّم
ومثل :

يا حاجري هل إلى الوصال منك صبيلاً
أو هل ترى عن هواك سأل قلب الغليل

ومثل :

قَمًا بِالْمَوَى لَدَى حَبْرٍ - مَا لَيْلٍ لِلشُّوقِ مِنْ قَبْرِ
جَمَدَ الصَّبَحِ لَيْسَ بِقَطْرَدُ - مَا لَيْلٍ - فَيَا أَغْنِ - غَدُ
صَبَّحَ بِا لَيْلِ أَنْتَ الْأَيْدُ

أَوْ فَتَضَتْ قَوَادِمُ النَّسْرِ - فَجُومِ السَّمَاءِ لَا تَسْرِ

ومثل :

(لازمة)

جَادَكَ الْغَيْثُ إِذَا الْغَيْثُ خَمَى - بِأَرْزَامِ الْوَصْلِ بِالْأَيْدِ
لَمْ يَكُنْ وَصْلُكَ إِلَّا حَلَا - فِي السَّكْرِ أَوْ خَلَّةِ الْخَلِّ

(دور)

إِذْ يَقُودُ الدَّهْرُ أَشْتَبَتْ لَنَى - تَنْقَلُ الْخَطْوَةُ عَلَى مَا يُرْتَمُ
زُتْرًا بَيْنَ مُرَادَى وَتَنَى - مَثَلًا يَدْعُو الْوَفْدَ الْمَوْسِمُ
وَالْحَبَا قَدْ جَلَّالُ الرُّوضِ سَنَى - فَتَقُورُ الرَّهْرِ مَيْسُ تَبَسِّمُ

(لازمة)

وَرَوَى الدَّهْرُ عَنْ مَاءِ السَّمَاءِ - كَيْفَ يَرَوَى مَالِكٌ عَنْ أَنْسِ
مَسْكَاهُ الْحَسَنِ ثَوْبًا مُنْعَلًا - يَزِدُّهُ مِنْهُ بِأَيْهِ مَلْبَسِ

ومثل :

مَا الْمَيْدُ فِي حُلَّةٍ وَطَاقٍ - وَنَمَّ طَيْبٍ
وَأَمَّا الْمَيْدُ فِي التَّنَاقُوقِ - مَعَ الْحَبِيبِ

إلى كثير من أمثال ذلك ، وقد قلده الأندلسيين في هذا الفن شعراء الأقاليم
الأخرى ، وأجيب به العامة من الشعراء في الأمصار ، فتركوا فيه الإعراب
ونظموه على لحنهم العامية ، فنشأ من ذلك فن الزجل .

وبعد فلذا نحن نظربا إلى الشعر العربي في ضوء ما استمرضناه من الشعر عند اليونان والرومان ومن صار على نهجهم من الأمم الأوروبية ، وجدنا أن الشعر العربي كله أو أكثره من الشعر الذي اصططحنا على قسمته بالشعر الغنائي ، من : نحر وغزل ومحا ، ومدح وحماة ورتاء وغير ذلك ، وليس فيه ما يبرح أن نسميه شعر ملاحم ، وليس فيه شعر تخيلى .

أما الملاحم فقد رأينا كثيرا من الأمم لها ملاحمها ، فرأينا الهنود للمهابهارانا ، ولليونانيين الإلياذة والأوديسة ، ولرومان الإنياده إلى غير ذلك ؛ أما العرب فلم يكن لهم ملاحم كهده مع أن المواد الغامة للملحمة موجودة عندهم ، فالطروب الحارة بين الفهائل وامرة كثيرة ، ومها الأفعال ، صائرة لا بقل شجاعة وعاقلة من أخيل ، والتهبال العربي أضى على عاتقه . أضى اليونان على أخيل ، والعبشة ساذجة فطرية كالجاهلية اليونانية ، والسكرم ونحر الجزور كحياء حاتم ، والتذو والصدائكة كحياء نابط شرا ، كلها مادة صالحة لتغذية الملحمة ، وأيام العرب للملاحفة كحرب البسوس ، ويوم داحس والفرا ، ويوم السكلاب ، ويوم البهار كلها يبرح أن تؤلف نصولا من الملحمة ، وكلها فيلت منها أشعار ، ولبدت فطرة العرب على قول الشعر بأقل من فطرة الهنود واليونان والرومان عليه ، فما السر إذن في عدم الملحمة عند العرب ؟

هل السبب أن الهنود واليوناني والرومان قد غداهم في وضع ملاحمهم الخيال المبيد في الأساطير والآلهة ؛ فالله في السماء ، وآله لكل مظهر من مظاهر الطبيعة وعرائس البحر ، ونوزع اختصاص الآلهة والملحومة بينهم كخصومة الأفراد والقبائل ، كل هذا وسع الخيال ، وضدى للملاحم ؛ فلما لم يكن للعرب أساطير كثيرة وآله من هذا النوع ، وكانت لهم فقط أصنام حجرية جامدة لا صفة

بالأرض ليست بذات أحتجة ، لم تصلح أن تكون غذاء صالحاً للوحمة !
 أو السبب أن العربي في الجاهلية اعتاد أن ينظر إلى السائل غارة جزئية
 لا كلية ، فرأى حرب السوس ولكن لم ير الحروب متتابعة كوحدة ، وشعر في
 الوحدة الواحدة العينة ، ولكن لم يشعر في الوقائع كلها متلاحقة يأخذ بعضها
 بناصية بعض ، ونتج عن ذلك أنه قال الشعر في أجزاء ملاحم ، ولكنه لم يفته في
 ملحمة واحدة ، وأنه قصر شعره على اعتزاز بفعال قبيلته ونكاتها بالقبيلة المعادية ،
 ولم تسمح له أمته وإياؤه وعصبيته أن ينظم في فعال القبائل الأخرى غور قبيلته ؟
 أو السبب أن الشعر العربي الذي وصل إلينا تاريخه لا يتجاوز مائة وخمسين
 سنة قبل البعثة ، وهو زمن متقدم من حيث رقى العقل البشري لا يسمح بالأساطير
 المأهنة في الخيال ، والتي كان يسمح فيها العقل البشري قبل أن يلمس الواقع ،
 فلما رقى حول الأساطير إلى تاريخ ، واللحمة الشعرية إلى أثر تاريخي ، مرويت
 أيام العرب على أنها تاريخ لا أسطورة ، واختلط فيها النثر بالشعر إذ كان هذا
 مرحلة انتقال ؟

أو السبب أن الطوائف العشرية مختلفة ، وقد اختلطت بيئة كل أمة اختلافاً
 كبيراً ، سواء أكان ذلك بيئة طبيعية أم اجتماعية ، ونشأ عن هذا الاختلاف في
 البيئة اختلاف في العقلية والقدرة الفنية ونوع الفنون الناجمة ، وإذا علم اليونان
 للسلام نظم العرب المعاني مثلاً ، وتكليف الأمم كلها أن يسير فيها وأدبها على نمط
 واحد نكليف بالمستحيل ، وخاصة في عصور لم تتصل فيها الأمم بعضها ببعض
 اتصالاً وثيقاً كالذي يحدث اليوم ، وخاصة أيضاً في الأمة العربية التي أدناها ظروفها
 في الجاهلية أن يكون اتصالها بغيرها ضعيفاً نسبياً ؟

قد يكون السبب بعض ذلك ، وقد يكون كل ذلك ، وقد يكون غير ذلك .

وقرب من هذا يصح أن يقال في الشعر التثني ، فليس عند العرب شيء منه بمنزلة ؛ ويضاف إلى بعض الأسباب التي ذكرناها — مما يصح أن يقال في تمثيل ذلك — أن غلبة البدولة في العصر الجاهل لم تسمح بإقامة مسارح وتنظيم اجتماعات ، وأنهم لم يجعلوا بالشعائر الدينية حول الأصنام احتفالا عظيما كالذي كان عند الأمم الأخرى فنبع منه الشعر التثني .

ثم كانت العفة الكبرى ، وهي تقديس الخلف لآثار السلف في الأدب ، فقد سادت فسكرت أن القوالب الأولى التي صب فيها الأدب في العصر الجاهل هي وحدها التي نحتذى ، يصح أن تهذب ، ويصح أن ترقى ، ويصح أن نحمل بدل الحساسة ، ولكن لا يصح أن نخترع قوالب جديدة ، وأنماط جديدة ، فلما لم يكن في القوالب الجاهلية ملامح ولا شعر غشيل ، فكذلك لم يكن في الشعر العربي الذي كان بعد ظهور الإسلام ، إلّا أن ظهرت النهضة الحديثة ، واهس هنا موضع الحديث عنها .

(ب) الشعر

طبعي أن يكون للجاهليين شعر يتكلمون به في شؤون حياتهم ، ولكن نهرهم المعنى النظم الذي صيغ في قالب أدبي قليل عديم بالنسبة لشعرهم ؛ وطبعي ذلك ، فالنثر المعنى لا ينسج إلا بالكفاية ، ولأن الشعر وليد الخيال ، والنثر وليد العقل ، والأمة في بدء أمرها كالعقل ، خيالها أكبر من عقلها ، ولأن الشعر سهل حفظه وروايته ، والنثر يصعب فيه ذلك ،

وأكثر ما روى لنا من نثرهم :

(١) قصص تروى فيها أخبارهم وأيامهم ، وقد ورد من هذا كثير في كتاب

الأعاني ، وهذا النوع قد روى بألفاظ من العصر الإسلامي — غالباً — احتفظ
 به الرازي بالمعنى ، (٢) مواضع دينية ، كالتي رويت عن النبي (ص) خطب
 فبكت في النواصب العامة ، كالخطب بفتح الحاء عند منافرة عظيمين من قبيلتين ،
 وكخطب الرمود حين كان بعد العرب على عمال كسرى ، (٤) أمثال ، وهي من نوع
 ممتاز بمجملها بالحكمة والتجربة . وقد اختلط جاهليها بإسلامها إلا في القليل
 النادر ، (٥) سجع السكبان ، وهو أقرب ما يكون إلى الشعر لما فيه من عرض
 وسجع يشبه القافية .

ولا نطيل بذكر أمثاله في تناول قراء العربية .

القرآن

بعد القرآن كتبها أديبا ، كما أنه كتاب ديني ، فهو من الناحية الأدبية آية
 في البلاغة ، ومن ناحية الدينية معين للناس ما يلزم أن يكون عليه عقائد
 وشمائم ومعاملاتهم ؛ يقتصر قولنا هنا على ناحية الأدبية إذ هي موضوعنا .
 فالسبب في القرآن لا يجري على وزن الشعر ، ولا هو سجع بالمعنى الفني
 للسجع — وهو ، والاف الكلام على وزن واحد — ولذلك سميت أواخر آياته
 مواضع عوضا عن القافية في الشعر أو الحروف المتحددة في السجع ؛ والقرآن يراعى
 هذه القواعد فيؤثر بذلك أيضا أثرها ملها ، فثارة يعبر بهارون وموسى في المواضع
 الأنثوية ، وثارة موسى وهارون في القواعد النونية ، وهو — كما قلنا — لم يصر
 على قواعد السجع المألوفة من التزام نواحي الفقرتين ، فقد تكون إحداها قصيرة
 والأخرى طويلة ، مثل : « ن وَالْقَلَمِ وما يَسْطُرُونَ » ، وأحيانا لا تتحد الحروف
 الحنائية مثل : « وَإِنَّ لَهُمْ لَأَجْرًا غَيْرَ مَنصُونٍ » ، وإلّا لَمَلَأَ خَلْقٌ عَظِيمٌ » ، ومع هذا

غله من القوة البلاغية ما ليس للجمع العام — ومراعاة هذا التناغم واضحة في القرآن ،
 مبهذف أحبا ما به العمل مراعاة لفاصلة ، مثل : « وَالنَّجْمِ وَاللَّيْلِ عَشِيرٌ ، وَالشَّمْعِ
 وَالنَّوْزِ ، وَاللَّيْلِ إِذَا بَرَّ » أو حذف الياء مثل « وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِعَدَارٍ ، عَالِمٌ
 الْقَتَبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَقَالِ » ، أو يستغنى بالإفراد عن التثنية نحو :
 « فَلَا تَحْزَنْ جَسَكُنَا مِنْ الْجَنَّةِ فَتَشَقَّى » ، أو التردد عن الجمع مثل : « وَاجْعَلْنَا لِلنَّاسِ
 إِقَامًا » ، أو بئد الضمير على ما يفسره نحو : « فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى »
 أو حذف باء التكلم مثل : « فَكَتِفَ كَانَ عَذَابِي وَبَدْرٌ » الخ ، أو بزهد هاء
 السكت ، مثل : « فَأَنَا مَنْ أُوْنِي كِتَابَهُ يَبْيِطِيهِ ، مَبُتُّنٌ عَزُومُ الْفَرِّ ، وَكِتَابِيهِ ،
 إِنِّي ظَلَمْتُ أَنفِي مُلَانِي حِسَابِيهِ ، نَوَّ فِي حَبْشَةٍ رَاضِيَةٍ » ؛ وأغلب القواصل في
 القرآن تنهى بواو ونون أو باء ونون ، مثل : « فَلَا تَطِيعُ الْمُكَذِّبِينَ وَذُوا لَوَّ
 نَذِيرٌ مُبْدِي حُنُونٌ » ، أو ألف ودال مثل : « وَنَزَعُونَ ذِي الْأَوْنَانِ ، الَّذِينَ
 حَكَمُوا فِي الْبِلَادِ ، مَا كُنْتُمْ فِيهَا الْفَسَادَ » ، أو ألف لينة مثل : « عَلَيْهِ مَا أَمَرْنَا لَنَا
 عَلَيْكَ الْفَرْقَانِ لِيَشَقَّى ، إِلَّا تَذَكَّرَ لَتَنَ يَحْشَى » ، أو حرف مذ (من) ألف
 أو واو أو ياء (ككثير من آيات سورة الإسراء — وقد تأتي الفاصلة حرفاً
 لا بهينه مد ، وأكثر ما يكون ذلك في الآيات للكية ، مثل : « أَنْفَرَبَتْ
 الشَّامَةُ وَانْفَتَقَ الْقَمَرُ » ، « فَلَا تُنْهِمُ يَهْدَا الْبَلَى ، وَأَنْتَ حِلٌّ يَهْدَا النَّكَلِ »
 وَوَالِدٍ وَتَا وَلَدَ » ، ومحر ذلك

ورى أن القرآن أحياناً يسلك مسلكاً أدبياً خاصاً ، فيجعل «سورة آية
 تشكر» تدور حولها القواصل ، مثل سورة الرسالات إذ فنكرت جملة « وَبَلَّ بَوْنِيذ
 فَلَمْ كَذَّبْنِ » عقب كل مجموعة من القواصل ، وسورة الرحمن تتكرر بها كذلك
 « نَبَأُيْ آلَاءَ رَبِّكُنَا تُكْذَّبَانِ » ، وفي سورة القمر تتكرر « فَكُتِفَ كَلَنْ

عَذَابِي وَتُذِرَ - وكذلك في كثير من الآيات التي نغص سهر الأنبياء .



نعم إن القرآن تنوع أساليبه بين شدة ولين ، وترغيب وترهيب ، ووعيد ، انسجام مع السيرة النبوية ، وموافقة لحال المسلمين ولشركيين في أوقات نزول الآيات ؛ وملاحظ ذلك تمام الملاحظة إذا نحن أمعنا النظر في القرآن حسب ما روى من ترتيب النزول ، وهو يختلف عما رتب به في المصحف ، فهناك الآيات التي نزلت بمكة ، والآيات التي نزلت بالمدينة ، ثم الآيات التي نزلت بمكة ثم نزلت بالمدينة ، وفي أزمان مختلفة ونف بها للناهضون للدعوة موافق مختلفة ، وكذلك الآيات المدنية .

على الآيات السكية نراها تصبح أنجاساً قويا نحو الدعوة إلى عبادة إله واحد هو رب العالمين ، ويده ملكوت كل شيء ، وإلى الدعوة إلى الإيمان بيوم آخر فيه البعث والحساب ، والكمالة على الخير بخير ، والشر بشر - والاستدلال على الله بآثاره في العالم « أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى الْمَاءِ كَيْفَ رُفِئَتْ ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِيتْ ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِّيَتْ » ، وتقر بأن الأصنام عاجزة كل عاجز عن أن تعمل علا في الكون ؛ ثم صور فرائسها لما أعد في الجنة للمؤمنين ، وفي النار للكافرين .

والآيات الأولى آيات نصيرة لها رنين قوي ، تدعو إلى الله ، وتُشَمُّ بالليل والنهار ، والسما والأرض ، والشمس والقمر ، والأماكن المقدسة ، والوالد وما ولد ، والنفس وما سواها ، إشعاراً بظلمة الله في خلقه .

وفد سالم للشركون محمداً (ص) أول الأمر ، ثم ناصبوه السدا ورموه بالكذب والجنون ، نزلت آيات القرآن شديدة على الكافرين ، مقوعدة أشد

الوعيد ، مصورة لسكراتهم سورة هزؤ وسخر به : « ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ، وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ، وَبَيْنَ شُهُودًا ، وَشَهِدْتُ لَهُ تَشْهيدًا ، ثُمَّ بَلَغْتُ أَنْ أُوْزِدَ كَلًّا إِنَّهُ كَانَ لَا يَتَيْنَا عِينًا » ، « قِيلَ لِكُلِّ هَمْزَةٍ لُزْزَةً ، الَّذِي سَمِعَ مَالًا وَوَعْدَةً ، بِحَسَبِ أَنْ مَالَهُ أَخَذَهُ ، كَلًّا لِكَيْتَبَدَّنَ فِي الْخَطِيئَةِ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْمُطْمَئِنَّةُ ، فَأَوْ اللَّهُ الْمُؤَمَّدَةُ ، الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأُمِّيَّةِ ، إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُؤَمَّدَةٌ فِي عَمْدٍ مُتَمَدَّةٍ » ، « نَبَتْ بَدَأَ أَيْ لَهِيَ وَتَبَّ ، مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ »
السورة : وبهاجم الذين يفتنون عالم وجاههم ونسبهم ، وبمسد الله النبي منصرته وإتمام نمته : « وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ وَبِكَ مَقْرَمِي » ، « فَهَلْ مَعَ الْمُشْرِ يُشْرًا ، إِنْ مَعَ الْمُشْرِ يُشْرًا » ، « وَيَذَكَّرُ قَوْمَهُ بِقِصَّةِ نُوحٍ ، إِذْ خَالَوْا بِهِمْ وَقَتْلَوْهُ » كَذَبَتْ نُوحٌ طِفْلُهَا ، إِذْ انْبَسَتْ أَشْقَاهَا ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ، فَكَذَّبُوهُ فَعَقُّوْهَا ، فَذَمَّتْهُمْ عَلَيْهِمْ وَبُغِمَ بِذُنُوبِهِمْ فَثَوَّاهَا ، وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا » وهي أول ما جاء في الميرة «الأم السابقة ، وموقفهم من أبيائهم .
ويجفل في هذه الميرة — رسول الله — ببعض الأغنياء ، ويعبس في وجه الفقراء ،
مبعاتبه الله على ذلك قوله : « عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ يَنْجَاهُ الْأَعْمَى » مبيدًا أن لا عبرة لأبى والجاه ؛ ويشد الله أزر المؤمنين وبشيمهم ، وبمحتم على المنسك بدينهم عما يفسر من أمثال المؤمنين في الأمم قبلهم : « قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ، النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ، وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْأَوْمِينَ شُهُودٌ ، وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْإِزْزِ الْجَلِيلِ » ؛ وهو إلى ذلك بوضح في قوة ماسباله الكافرون من عذاب أليم ، ولعل أوضح مثل لهذا سورة القارعة ؛ وما سبيله المؤمنين من صبر مقم : « وَأَوَلَيْتَ الْجَنَّةَ لِلْمُتَنِينَ غَيْرَ عَمِيدٍ ، هَذَا مَا تَدْعُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ، مَنْ خَشِيَ الزَّكَاةَ فَغَلَبَ بِهِ الْغَلَبُ ، إِذْ تُلَوِّهُ إِسْلَامٌ ، ذَلِكَ تَرْؤُا الْخُلُودِ »

لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝ ثم يدعو إلى الصلاة والزكاة فيقول : « إِلَّا الْمُشَافِقِينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ ذَاهِتُونَ ، وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مِمَّا لِقَوْمِهِمْ لِلسَّائِلِ وَالْمَغْرُومِ » .

ولبت القرآن في العهد المكي بعد المدة الأولى بمباح الخالفين ، وبفحص العبرة من سيرة الأواين من قوم نوح وعاد ونمrod ، وقوم لوط وآل فرعون ، في فواصل أطول وأسلوب أهدأ ، وبندد به القسم كما في الفترة الأولى ، ويكثر به المخطاب بياها الناس .

وفي القرآن في هذا العهد المكي قصة الإسراء ، وكثير من قصص الأنبياء كقصة إبراهيم — وبشير في أكثر من موضع إلى أن إبراهيم أو العرب ومنبع الإسلام ومصدر شعائر الحج — وقصص بني إسرائيل كقصة يوسف وموسى ، كما أن فيه قصة سرهم وعيسى ويحيى ، وقصصاً عبرانية كقصة أهل الكهف ، والأسلوب فيها فصيح جميل ، لا يتعرض للجريئات والتفاصيل ، ولا بكثير من ذكر الأشخاص وذكر التاريخ كما يعمل الكتاب المقدس ، وإعماً يمتق أكثر ما يدنى موضع العبرة ؛ ولكن في هذا العهد لم يجادل القرآن اليهود ولا النصارى إلا قليلاً لانه اليهود الذين كانوا بمكة ومسألة النصارى .

ولما هاجر النبي إلى المدينة كان الشأن فيها غير الشأن في مكة ، فأكثر سكان المدينة من الأوس والخزرج مشاهير الإسلام ، وآمنوا به إيماناً صادقاً على العكس من أهل مكة الذين لم يسلم منهم إلا القليل . وأسلم المسلمون من الأنصار والمهاجر بن أسرم إلى رسول الله بقودم في دينهم ودينهم كما يشاء الله ، واستراح الأنصار — من الأوس والخزرج — مما كان بينهم من حروب وإحن . واستراح المهاجرون مما كان يؤذيهم به صناديد قريش في دارهم ؛ وكان المذنبون

أكثر ثقافة بالسكتب النحلة السابعة لليهود الذين يسكنون بينهم والنصارى على حدودهم ، وكان هذا من الأساليب التي دعيتهم أن يتقبلوا دعوة الله ، ويفهموا النبوة وصرايحها أكثر مما فهمت قريش — ولكن كان بجانب هؤلاء المسلمين من الأنصار والمهاجرين مثل يهودية ، خرمزايا العرب في الحروب والقتل والكمهم كشأن اليهود عامة — شديدو المحافظة على تقاليدهم وأوضاعهم وشعائرهم ؛ وأبوا أن يتركوا شيئا من ذلك ، وأبوا إلا الإصرار على دينهم وشعائرهم ، وناصروا النبي العداء ، وأخذ الخلفاء يشدد بينهم وبين المسلمين كلما تقدم الزمان وحدثت الأحداث

وبجانب هؤلاء ، هؤلاء قوم من الأوس والخزرج — حتى من رؤسائهم — حنفوا على الإسلام ، إما لأن الإسلام أتتهم رياستهم الدينية وإما لأنهم أتباع هؤلاء ، أو نحو ذلك ، ولم يستطعوا أن يجبروا بالضرورة لفظة عددهم ، ولأن النصارى العام هو نصارى المسلمين فأسلموا ظاهريا وانطوا على الكفر باطنا ، وثموا « المنافقين » .

في هذا الحواليد نزلت الآيات المدنية تجعل على اليهود حجة شواء ، هم بدرور له الدساس ، وهم بطريقه بالأمثلة للصنعة ، فبأنونه عن الروح وعن الأهلية وعن الساعة وعن ذى القرنين ، ويشيرون عدم تصديقه بها ينزل عليه ، فجاء القرآن بكذبهم ، وبذكر سلسلة أعمالهم التاريخية ، وخصومتهم لأنبيائهم « مَدِينًا كَذَّبُوا وَمَرْيَمًا يَتَكَلَّمُونَ » .

وكذلك للناسون كانوا بدسون وبمكروا ، وبحاولوا أن يفسدوا الخطط ، فكان القرآن ينزل مبينا مكايدهم ، متريعا لهم سوء أعمالهم من غير ذكر أعمالهم تعلمهم يهدون ؛ كذلك يجادل النصارى في عقيدة الثلبت والوهبة السبع .

والى جانب هذه الآيات فى الجدال والتمغية وتغرض للواضحات كانت الآيات الأخرى لمخاطبة المؤمنين • مبينة لهم شعائرهم ، راسمة لهم طريق حياتهم الدينية والدينية — وفى هذا العهد كان يخاطب المؤمنون بآياتها الذين آمنوا — واضحة لهم القوانين ، منسمة لهم ما مبدى به فى مكة من الشرائع والشعائر ، ولذلك نرى أن الخطاب والإخبار كثيراً ما يتجه إلى هذه العلوائف الثلاث ، مسعياً لهم بطوائفهم : « يا بني إسرائيل » ، « يا أيها الذين آمنوا » ، « وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض » . وفى هذا العهد الذى يأتى التشريع للعائلة من زواج وطلاق ووصية وتوريث ، و يرضع نظام المعاملات والعقوبات .

ولما كان القتال بين المسلمين فى المدينة والمشركون فى مكة ، وبين المسلمين فى المدينة واليهود فيها ، كانت الآيات الدينية مبينة لقوانين الجهاد ، مسجلة لأحداث الغزوات ! فآيات فى غزوة بدر ، وآيات فى غزوة أحد ، وسورة فى غزوة الأحزاب وهكذا ، وهى قوية قوة الحرب ، حتى إذا تم فتح مكة نزلت سورة الفتح ، وأخيراً نزلت « إذا جاء نصر الله والفتح وَزَايَتْ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا » .

ويطلب على الأسلوب فى الآيات الدينية الطول مع التزام العوازل التى أشرنا إليها قبل • ومع المدود الذى يفسج والتشريع ، ولجست الآيات وحدها هى التى تطول • بل السور كذلك ، ولعلقت سميت بعض السور « السبع الطوال » .



وفى القرآن صور أدبية رائعة منسجدة من جبال تشبيه كقولها : « والذين كفروا أعمالهم كسرابٍ بقيعةٍ يحسبه الظان ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً » ، « إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَتْرَكْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَخُطِلَتْ بِهِ تَبَاتِ الْأَرْضُ رِثًا »

يَا كُلُّ النَّاسِ وَالْأَسْلَامُ ، حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَهَّتْ وَطَنَّ أَهْلُهَا
أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَنَامَا أَمْرُنَا كَيْلًا أَوْ نَهَارًا ، فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَمْ
بِالْأَفْسِ ، « مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْفَتَكَسَّيْتِ
اتَّخَذَتْ بَيْتًا ، وَإِنْ أَرَادَهُنَّ النَّبِيُّاتُ لَبِيتُ الْفَتَكَسَّيْتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ »
— وحسن استعارة مثل = « بَلْ مَقْدُفٌ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَقْطَعُهُ نَهْذَا هُوَ
زَائِعٌ » ، « وَوَدِدْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبًا مَسْخُورًا » ، « وَلَا
تَجْعَلْ بِذَلِكَ مَقُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ نَاقُوسًا عَسُورًا »
« وَالشَّيْخُ إِذَا تَدَنَّسَ » ، « تَضَرَّبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ » ، « فَذُو دُعَاءٍ قَرِيبٍ » ،
« وَآبَةُ لَمْ يَلِدْ نَسْلُخَ مِنْهُ النَّهَارَ » ، « أُولَئِكَ الَّذِينَ اسْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ
فَمَا رَجِعَتْ بُجَابُ لَهُمْ » .

والأمثال الطليفة : « مَاذَا الرُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ
فِي الْأَرْضِ » ، « وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ » ، « مَنْ يَقْتُلْ سُوءًا يَجْزَ بِهِ » .
« وَلَا يَحِيقُ الْكَرُّ السُّيَّ إِلَّا بِأَهْلِهِ » ، « حَلَّ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ »
« كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ » ، « نَحْنُ سَمْعُهُمْ جَبِينًا وَتَلَوْنَهُمْ شَقًى » ، « حَلَّ
يَسْتَوِي الْغَلِيْبُ وَالطَّيِّبُ » ، « وَلَا يُنَبِّطُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » ، « فُلٌ كُلٌّ لَا يَقْتُلُ
عَلَى شَأْنِكَلَيْتَهُ » ، « قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أذى » .

ومن أمثلة الحجاج : « مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ » ، « وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا
لَمَّحَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَقَلَّابَهُمْ عَلَى بَيْتِهِ » ، « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ
إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » ، « وَفِي الرُّعْدِ وَالتَّهْدِيدِ » ، « وَتَرَى الطَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ
يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ » ، « وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غَائِبِينَ مِنَ الثَّلْجِ
يَنْفَخُونَ مِنَ طَرْفٍ خَفٍ » ، « وَفِي الْفَرَقِيبِ » ، « وَفِيهَا مَا تَشْتَهِي الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّهُ »

الْأَعْيُنَ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ، ونجد في بعض المواضع استعمال محسنات مدنية لم نذكر قسماً مثل : « وَجُودٌ بَوَسِيذٌ نَاصِرَةٌ إِلَى رَحْمَتِهَا نَاطِرَةٌ » ، « وَحَنَى الْجَمْعَتَيْنِ دَانٍ » ، « نَزْوَحٌ وَزَرْحَانٌ » ، « عَلَى شَمَا جَرْفٍ هَابٍ مَاهَكَ بِهِ » ، « لِيَرْبَهُ كَهْفٌ بَوَارِي سَوَاءٌ أَخِيهِ » ، « وَإِنْ بُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادٌّ لَكَ عَلَيْهِ » ، يَا أَرْضُ ابْنَيْي مَعَكَ وَبَا سَقَمَهُ أَفْلَحِيهِ وَغِيصَ التَّاءُ وَفُغِيصَ الْأَمْرُ .

وإذا ما غنى غير عجز : « أَفِي غُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ لَمْ تَأْتُوا أَمْ بَحَاثُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » .

وإذا راجع أوجز وأجرل : « تَأَلَّ إِلَى جَائِعَتِكَ لِلنَّاسِ إِيمَانًا ، مَالٌ وَوَبْنٌ دُرْبَتِي » ، فَكَلَّ لَا يَكِلُكَ عَهْدِي الظَّالِمِينَ .

وإذا وصف الله أو دلل عليه في إجلال وإعظام : « سَمِعَ أُنْثَى رَمَتْ الْأُمْلَى الَّذِي خَافَ فَسَوَّى وَالَّذِي فَدَّرَ مَهْدَى » ، « أَلَى الْأَهْمُ مَالِكُ الْمَلِكِ تَوَّي الْمَلِكُ مِنْ تَشَاءَ وَتَنْزِعُ الْمَلِكِ يَمَنْ تَشَاءَ وَتُدِرُّ مِنْ تَشَاءَ وَتُنْزِلُ مَنْ تَشَاءَ سَيِّدِكَ الْغَوِيُّ بِأَنَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » ، نَوَلِجُ الْفَيْلِ فِي النَّهَارِ وَتَوَلِجُ النَّهَارِ فِي الْفَيْلِ ، وَتُخْرِجُ الْغَيَّ مِنَ النَّيَّسِ ، وَتُخْرِجُ التَّمِيَّتَ مِنَ الْغَيِّ ، وَتَنْزُقُ مَنْ تَشَاءَ يَنْتَقِرُ حِسَابٍ » ، « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ وَالَّذِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَتَا يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ دُونِهِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْتَبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَمَتَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَافِقٍ وَتَغْرِيفٍ الرِّيحِ وَالشَّعَابِ الْمُسْتَخَرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَأْتِ لِقَوْمٍ يَسْتَقِيلُونَ » .

وعلى الجملة فالكلمات مختارة حروفاً، والجملة مفسجة كتابها، والقرع مؤنقة جملها وشرح ذلك يطول .

والنثر المعنى في العصر الأموي لم يرق كثيرا لحاجته إلى الإمعان والغور.
بالكتابة ، ومع هذا فقد حُلف لنا هذا العصر بعض كتب دعا إليها تنظيم
الحكومة والدواوين ووضع نظم للدولة ، ككتاب عمر إلى أبي موسى الأشعري
في القضاء ، وكتاب علي إلى الأشتر المنصفي في نظام الدولة (وهو مذكور في
كتاب هج البلاغة) ، وبظهر أن له أصلا صحيحا وإن تزيده بعد ؛ فلما
استخدم العرب اللواتي في كتابة الدواوين ، مد أن عربوها ظهر موال مشفون
ثقافة فارسية أو يونانية وثقافة عربية ، أمثال سالم مولى هشام بن عبد الملك ،
ونليذه عبد الحيد الكاتب كاتب مروان بن محمد ؛ فسالم كان يعرف اليونانية
وعبد الحيد يعرف الفارسية ، فحذا صناعة الكتابة اليونانية ، وخاصة عبد الحيد
اتكاتب فقد ابتكر في العربية الرسائل بالطولة ، لفصلة الموضوع ، المرتبة الأجزاء ،
فكتب الرسائل الرسمية كرسائله إلى ولي عهد مروان بن محمد على لسانه ،
وفي الرسائل العامة كنصيحته إلى الكاتب ، ونحو ذلك ووضع فارسان العربية
نظاما أخذوا بها بعد ، كصور البد ، والخيام والتحصينات .

وكان بجانب ذلك نوع من المثرى مد نحو العصر الباطلي من كتب وحطب
نقشه حطب الومود ، وحكم نشه أقوال أكثم بن صيفي ، نخدها في كثير مما
روى في هذا العصر ، كأقوال الأحنف بن قيس ، وما روى من أقوال العرب
في كتب الأدب كالقند الفريد ، جل حكيمة موجزة نشه الأمثال ، منفصلة كل
جولة عن الأخرى ، يستمدق وبطها على الذهن وحده ؛ وأحق أن العرب أهدوا
في هذا النوع إبدانا عظيما ، فجرت ألسنتهم بالحكم الدالة على حسن نظر
ونجربة ، والركزة في جل قصيرة منتزة .

وإلى هذين نوع ثالث من الحكم والنواظ الدينية متأثرة بتنظيم القرآن

وأحاديث الرسول ، تدور حول قيمة العمل الصالح والزهادة في الدنيا والتخوف من عذاب الآخرة ، وأحسن مثل لهذا ما روى عن الحسن البصري . وكل هذا في جل قصيرة متلاحقة ليس فيها تفصيل ولا ربط فعلي ، ولهذا عد العرب ما جاء به عبد الحميد الكاتب من تفصيل وبسط و ربط فثا مبتكرا .

ومن ضروب الفن الأدبي الخطابة ، وقد جادت في العصر الأموي لكثرة الثمن والثورات وتعدد الأحزاب السياسية ، وكان العرب فيها مهرة لا تعادها على الصراحة الإنسانية لا الكتابة ؛ وقد كان الولاة الذين يتولون الخطابة عربا يعرفون مناهج القول في الجاهلية وفي الومود على كسرى ، وفي الإسلام في الوفود على رسول الله وفي سقفة بني ساعدة ومحو ذلك ، وكانوا عارفين بنفسية العرب والظروف الاجتماعية والنفسية التي تعيقهم ، و يعرفون الألفاظ للثقافة التي تتلاقى مع هذه الظروف ، فمروا في ذلك ونجحوا في خطبهم ، وحدهموا بذلك خلفاء الدولة الأموية خدمة لا تقل عن السيف ؛ واشتهر من هؤلاء زياد بن أبيه في أول الدولة ، والعتاج في وسطها ، وخالد بن عبد الله الفسري في آخرها ، وكانوا في خطبهم يحافظون على التقاليد العربية من تزييم بالزى العربي ، وامتنادهم على القوس وقائم السبف — ومن برعوا في هذه الخطب الخوارج كقطري بن العجاء ، وعمران بن حطان ، وأبي حرة الإبانى ، ضد عرف عن الخوارج شجاعتهم للثناوية ، وعشنتهم البدوية ، ونهمهم الشدبد لذهبهم وصفاء عربيتهم ، فكان ذلك كله داعيا لإجلالهم .

أما للتأليف فلا يهمننا هنا إلا ما كان متصلا بالأدب كالتاريخ ، فقد ولد التأليف فيه في العصر الأموي ، ضد بدأ الولة يروون أحوال العرب في جاهليتهم وأخبار الأم الممغنية ، إذ كان بعض الخلفاء الأمويين مولما بسماع أخبارها ، وقد

روى كل ذلك في شكل مدافى ملغوا بالأساطير ، مستعار مما يرويه الأخباريون عن المرس ، والكشپ غير الموثوق بها في اليهودية والنصرانية ، كما عُنُوا بشئ . أقرب إلى السجدة وأدعى إلى الوثوق به وهوتدوين السيرة النبوية وأحداث المتنوح ، ولكن أكثر ما كتب أو ألفت في هذه الموضوعات لم يصل إلينا ، وإن دخل معظمه في ثنايا ما ألفت في العصر العباسي ، مثال ذلك ما روى من أن عبيد بن شربة ألف كتاب الملوك وأخبار الماضين لمعاوية بن أبي سفيان ، وما ألقه عروة بن الزبير في المغازي ، وما روى عن وهب بن منبه اليهودي الأصل .

• • •

فلما جاء العصر العباسي رأينا أن عبد الحميد الكاتب أثر في السكينة أثرًا كبيراً لما ابتدعه من طريقتيه ، التي من خصائصها إطالة الرسائل ، وترتيب للمآلى ، وربط بعضها ببعض ، ولأيل إلى التزاوجة ، وأغنى بها الفقر التوازنة من غير الترام للسجع ، وكثرة المزايدات ، وتغيير الألفاظ ، كقوليه بنصيح الكتاب : « وإن لنا الزمان برجل متكفأ ، علموا عليه ، وواسوه حتى يرجع إليه حاله ، ويثوب إليه أمره ، وإن أقعد أحدكم الكثير من مكسبه وفناء إخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه ، واستظفروا بهصل نجر به ، وقدم معرفته » .

وقوله :

« ولا يجاوزن الرجل متكم — في هيئة مجلسه وملبسه ، وسركه وعلمه ومشره ، وبنائه وخدمه ، وغير ذلك من فنون أمره — قدر حقه ، فإنكم — مع ما فضلكم الله — من شرف صنتكم — خدمة لا تحملون في خدمتكم على التفسير ، وحفظه لا تحتمل منكم أعمال التصنيع والنبذير ؛ واستعبوا على عبادكم بالفسد في كل ما ذكرناه لكم ، وفحصته عليكم ، واحذروا مخالف السرف

وسوء عافية الترف ، فإيهما يقبلان الفقر ، وبذلان الرقاب . . . ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوصيها محبة ، وأصدفها حجة ، وأجدها عاقبة .

وفد تأثر في ذلك بأصله الفارسي كما ذكر أبو هلال العسكري ، وجاء صديقه الفارسي أهماً عبد الله بن التميمي في الدولة العباسية فكان رابع لواء النثر العربي . وهو رعا فاني عبد الحيد الكاتب في سعة ثقافته وكثرة إنتاجه ، ونعريه لضرب اللؤلؤ الأعلى لكثير من الشؤون الاجتماعية ، كالسلطان والفضاء والصداف ، كما يمتاز بأنه رسم لمن بعده أحسن مثل في الترجمة إلى العربية عن الكتب المكتوبة باللغات الأخرى بترجمته كلبية ودمته ؛ ورعا كان في أسلوبه أميل إلى الإيجاز من صديقه عبد الحميد ، وأقرب إلى القصص والسجع والبدع ، ورعا أداه ذلك إلى الفسوس أحياناً ، وهو لسعة ثقافته يعلل أفعاله بالحكم للأثوية والأمثال السائرة ، وهو أكثر ميلاً إلى التفسير السطحي في التعبير ، فالموضوع واحد مرادفة أجزائه كعقودات السلسلة ، وكل فقرة مقسمة إلى حلل مترابطة ، وهكذا .

وحسبنا أن نحيل القاري على الأدب الصغير والكبير ، ورسالة الصعامة وكليمة ودمته ، ليظهر له صدق ما ذكرنا .

وجرى على أثرهما تلايماهما من الكتاب ، أمثال سهل بن هارون ، والسنن ابن سهل ، وعمر بن مستعدة .

حتى أتى إمام النثر بن الجاحظ ، ووضع قواعد النثر العربي عدداً ، وعلنه عملاً ؛ فقد وضع في كتابه البيان والنبين قواعد البلاغة في اختيار اللفظ والتسليم مع المعنى ، وفي الخطابة ونحو ذلك ؛ ثم ألزم ذلك بما كتب وألف . كان متفهماً ثقافة واسعة ، ثقافة دينية في مروجها المختلطة ، وثقافة كلامية ، فقد كان أحد أساطين المنزلة ، والمهترة في ذلك العصر كانوا قادة الفكر ، مزودين

بالمعارف الواسعة في الفلسفة والدين ، وكانوا حاصل لتمام التمسك بغير الحار حسبا
يؤدي إليه النظر والمنطق ، في حدود الدين ؛ وكان متفقا متفاهة فلسفية ، إذ قرأ
ما نقل إلى العربية من « الفلسفة اليونانية في مروجها المختلطة » ؛ وكان متفقا ثنائيا
أدبية ، إذ قرأ الأدب على شيوخه ، وحصل منه أقصى ما يمكن أن يحصله إنسان .
ومرج كل ذلك وعصمه ، ثم أخرجه للناس نالفاً ممزوجة بشخصيته ، وكاد
يتألمه ، السكتيرة أن يس كل موضوع في عصره من سياسة واجتماع واقتصاد ،
وحيون ، ونبات ، وشموب ، وبحر ذلك ، معروضا عرساً أدبية الفسحة
الحلوة ، والاستطارة المربح . وحير كتاب له يمثل هذه الانهاضات كلها ، كتاب
الحيوان « في سبعة أجزاء ، لبس الكلام فيه على الحيوان أكثر الكلام .

وله العمل الكبير على الأدب العربي في أنه جعل الأدب موضوعاً يبنى
فيه بالمعاني والمعلومات الواسعة ، وفي أسلوبه الواسع الغضاض المتدفق .

وأسلوبه إذا كتب كتابة أدبية أقرب إلى المزاوجة من غير النظم للجمع
الدينين ، كقوله : « والكتاب وعاء ملي علماً ، وظرف حشى ظرفاً ، وإناء شعن
مزاحاً ، إن شئت كان أعيا من باقل ، وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل ،
وإن شئت سرتك نوادر ، وشجنتك مواظله ، ومن لك بواظله ملو ، وبناسك
عائلك ، وناطق أخرس ، ومن لك بشئ بجميع الأول والآخر ، والناقص والوافر ،
والشاهد والناقص ، والرفيع والوضيع ، والثقل والسهل ؟ وبعد فما رأيت بسنانا
يحمل في رذن ، وروضة تنقل في حبر ، ينطق عن الموتى ، ويقدم عن الأحياء ،
ومن لك بمؤنس لا ينم إلا بنومك ، ولا ينطق إلا بما تهوى ، آمن من الأرض ،
وأكنم للسر من صاحب السر ، وأحفظ للوديع من أرباب الوديع » الخ .

وفد أثر الجاحظ فيمن أتى بعده من الكتابات أثرأ بليفاً من حيث موضوعاته

وأسلوبه ، فإذا نحن قرأنا لسيد العزير الجرجاني في كتابه الوصايلة بين المثالي
وخصومه ، أو لسيد القاهر الجرجاني في كتابيه « دلائل الإيجاز » و « أسرار
البلاغة » ، أو بعد ذلك لأبي حيان التوحيدي في كتابه « الإمتاع والمؤانسة » ،
أو « الصداقة والصديق » ، أو « المقابسات » ، رأينا أثر الملاحظ في كل ذلك
واضحاً جلياً حتى لقب أبو حيان بالملاحظ الثاني .

وجاءت بعد ذلك طبعة تبتمد قليلاً قليلاً عن الزاوجة . وتقرت قليلاً قليلاً
من التزام السجع الكامل ، ونرى مصداق هذا التحول في كتابات التعالي في
مثل كتابه « ينمية الدرر » ؛ فلما تم هذا التحول نرى السجع غالباً في مدرسة علي
وأصحابه ابن العميد ، ومن وجالها أبو إسحاق الصافي ، وأبو بكر الخوارزمي ، وبدع
الزمان المحدثي ، والحريري .

وهؤلاء لم يكتفوا بالسجع اللطيف ، بل غرقوا بكثير من أنواع البدع ، كقولهم :
« من ألبس الليل ثوب ظلماته » ، زعمه عنه النهار بضباته » ، وكقولهم : « فاسم
الأصلاص ، وفاسم الأصلاص » ، وكقولهم : « يتردد بين الرضاء والبأس » ، والرجاء
والبأس » ، وكقولهم : « إذا حالف فأحسبه قد خالف » ، وإذا أعار فأحسبه
قد أعار » .

وتفننوا في ذلك وأكثروا حتى قد يؤثرون الكتاب كله مسجوعاً ، كما فعل
العيني في كتابه « الميضي » ؛ « وقلائد المقيان » لفتح بن خاقان ، وثلاثون الأدب
كله بهذا اللون السجعي ، ونسى للترسل والازدواج ، وانبغ ذلك في الكتب
الرسمية والإخوانيات ، وغير ذلك إلا في القليل النادر

وقد نقد أبو حيان التوحيدي صاحب بن عباد في ولعه بالسجع فقال :
« كان يبلغ به حب السجع أنه لو رأى سجة تدحل بموضعها عمرو الملك ،

وبصطرب بها جبل الدولة ، ويحتاج من أجلها إلى عـزـة ثـقـيل ، وكلفة صـمـية ...
لما كان يجب عليه أن يجعلها ، بل يأتي بها وبصصاها .

وقد وصف هذه الحال ابن خلدون أجـلـ وصف ، وغـذـة أشـد بـغـد ، مـثـل :
« وقد استعمل للتأخرون أساليب الشعر ، وموازينه في التثـنـور من كثرة
الأسجاع والقرام للتنمية ، وتقديم القسب بين يدي الأغراض ، وصار هذا للتثـنـور
إذا تأملت من باب الشعر وقته ، ثم بعثنا إلا في الوزن ، واستمر للتأخرون من
الكتاب على هذه الطريقة ، واستعملوه في الخطابات السلطانية ، وفصروا
الاستعمال في التثـنـور كله على هذا الفن نقدي ارسوه ، وسلطوا الأساليب فيه ،
وهجروا المرسل . وناسوه وحصولاً أهل المشرق » .

وبعلل ذلك بنظر الكتّاب في المادى وغلبة العجمة على الألسنة فيقول :
« وما حملهم على ذلك إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم ، وفصورهم لذلك عن إعطاء
الكلام حقه في مطابقتها لفننقى الخال ، فجزوا من الكلام المرسل بعد أمده
في البلاغة ، وانفساح خطوبه ، ولما بهذا السجع يلفقون ما صنعهم من
نظمين الكلام على المقصود ، ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع
والألقاب الدبعية ، ويفلقون عما سوى ذلك »

وإلى جانب السجع نثـنـوا في ضروب من الأفاعين ككتاب يقرأ من آخره
إلى أوله ، وكتاب إذا قرئ من أوله إلى آخره كان كتابا ، وإذا عكست سطره
مخالفة كان جوابا ، وكتاب ليس فيه حرف متصل كرا ، متصلة أو دال متصلة ،
أو كتاب أول سطره كلها ميم ، أو كتاب إذا صر على وجهه كان مدحا ،
وإذا صر على وجه آخر كان ذما ، أو كتاب كله حروف موحدة أو كله
حروف مبهمة الخ .

النثر القصصى

كان من أثر الفتح الإسلامى، ودخول كثير من الأمم الختلفة فى الإسلام أن حلت كل أمة أسلمت أو خضعت للإسلام فصعيا، مسكان بين يدي المسلمين فقصص هندية ودرسية ورومانية ومصرية، وكل هذه كانت تقص فى المملكة الإسلامية باللغة العربية بعد أن دخل أهلها فى الإسلام؛ فبدأت عند الكتاب مكرمة تدوينها وجمعها، فترجم ابن القفج كليلة ودمنة عن اللغة الفارسية للترجمة عن الهندية.

وبمكننا القول أن هذا القصص المحدث شكلياً: شكل قصص شعبي محكي بلسان العامة أو بلغة عربية قريبة من اللغة الشعبية؛ وقد مر فى سفرنا إلى بقرته أو يؤلف لغة أدبية راقية.

مسكان من القصص الشعبي ألف ليلة وليلة، وكانت فى عهدها الأول نحو مائتى حكاية موزعة على ألف ليلة، ثم ظلت تنمو مع الزمن؛ ونصه السندباد البحري ولم تكن ملحفة بألف ليلة. ويرى لنا أن الجيهشيارى ألف كتابا على نسق ألف ليلة وليلة اختار فيه أسماراً من أسمار الأمم، ومات قبل أن يمه وهو لم يصل إلينا؛ ووجدت فقص أخرى كثيرة صاع أكثرها، حكى لنا أسماء ابن الفرج فى كتابه «المهرست»؛ وحكى حرة الأصمهاى النوفى سنة ١٠٣٠ هـ أنه كان فى عصره من كتب السر التى تتداولها الأهدى ما يقرب من سبعين كتابا. أما القصص الأرسنفراطى المكتوب بلغة الأدب فكانت كليلة ودمنة للترجم، ثم أخذ الأدباء يمتنون بالتأليف الأدبي القصصى، ومن أشهر هذا العرب فى العصر العباسى القلعات، مقامات بدیع الزمان الحمذاني ومقامات الحربرى. والقلعات جمع مقامة، وهى الخلق أو الجماعة من الناس، سميت بذلك لأن

الثان فيها أن كل مقامه تقص في مجلس واحد يجتمع لسماعها جماعة ، وكل مقامه حكاية قصيرة تدور حول حيلة يحنك رجل لكسب شيء من المال عن طريق النكدى ، صفت في أسلوب أدبي ؛ وكل مقامات مؤلف تجعل بطلها رجلاً واحداً ؛ بل دور الخيال تقص المال في كل مقامه ، وهو أوالفتح الإسكندري في مقامات البديع ، وأبو زيد السروجي في مقامات الحريري .

هذا في الأصل ، وإن وضعت مقامات بعد في غير الكذب كقصاصات الزبحري في الوعد ، ونحو ذلك .

وأسلوب البديع في مقاماته أسهل وأقل تنقيداً للجمع والمزاوجة ، وهو أخف روحاً وألطف نغماً وأكثر دعابة ؛ وأسلوب الحريري أكثر مادة لغوية ، وأجود شعراً ، وأكثر التزاماً للجمع وأنواع البديع ، وأكثر تنقيداً في احتياله بطلها . وكلاهما إذا فستاه بمقاييس أصول الرواية من حيث التصريح والشخص والحوار ، وقد الحياة وشرف الموضوع لم يبلغ في الفن القصصى منزلة رابعة ، ولكن إذا نظرنا إليه من حيث مادته اللغوية وأصاليبه الفنية والمهارة اللغوية كان — من غير شك — موضع الإعجاب .

وربما كانت رسالة النمران التي ألها أبو العلاء المعري ، والتي ألفت في عس الوقت الذي ألفت فيه مقامات الحريري تقريباً — أمن في باب الخيال وأدخل في باب القصة ، وإن كانت كذلك مليئة بالاستطراد الأدبي والاسرى مما أبدها عما نستجده في باب الرواية ، وهي موع من الكوه يدها الإلمية ؛ وكثيراً ما يقرن اسمها بالكوميديا الإلمية لدانتى . وأبو العلاء سبق منه . وقد عرض فيها أبو العلاء للشعراء والزنادقة ، ومن غير الله لم ومن لم بغفر ومكاسهم

في الجنة أو النار ، كما عرض للآراء الدينية والمعتقدات الشائعة في أسلوب ملفوف ساخر .

ولعل من الواجب أن نذكر هنا قصة محممة حقاً ، قصة فلسفية مبهوكة ، بها الفن الفصفي أكثر إقناعاً وأمتن سبكاً ، وهي قصة « حي بن يقظان » ومؤلفها هو ابن طفيل الأندلسي المتوفى (سنة ٥٨١ هـ) ، ويطلق القصة « حي » ولد في جزيرة من جزر الهند تحت خط الاستواء ، وقد نشأ في هذه الجزيرة وحيداً لا يرى بها أحداً من بني آدم فأرسمته طبيعة ، ونشأ نشأة الظباء بما كي صوتها و الاستعداد والاستقلال ، ونظم الشيء واستطاع بالملاحظة والتجربة والتفكير والتأمل أن يحصل غناءه ؛ وما زال عقله ينمو ونهاره ينكسر ، وتأمله ينضج حتى حصل من المعارف بما حوله من الطبيعة قدراً كبيراً ، ثم أكثر من التفكير في نفسه فجمع بين الملاحظة الخارجية والملاحظة الداخلية ؛ ولما قارن بين نفسه وبين الحيوانات التي ^{حوله} وجدها مسنورة وهو عار ، ومساحة وهو أعزل ، فأخذ يفكر يستقره فستر جسمه ، وأخذ من الأدوات الطبيعية سلاحاً ينفذ به على الحيوان ، وكلما نازل تفكيره في الأمور المعنوية . فلما ساءت أمه الظبية أخذ يفكر فيما عرض لها وبشرح جسمها ليعرف سر موتها ، واعتدى بتفكيره إلى أن القلب مصدر الحياة وبه الروح الحيواني ؛ وقارن بين الأعضاء في الحيوانات المنخفضة وبين الثبات والحيوان ، واعتدى بالتأمل إلى أن جميع الأشياء في الحقيقة تواف وحدة ، وأن الأجسام من جادات وأحيا . إنما هي مركبة من الجسمية ومن شيء وراء الجسمية ، واعتدى بذلك إلى العالم الروحاني ، وآمن بقانون السببية وطبقه على جميع ما يحدث حوله ؛ وأخيراً اعتدى إلى الله بتفكيره ، وما زال يرفي حتى وصل إلى أرق أنواع النسوف من الاستغراق والغناء في الله وأن

لا شيء في الوجود غير الحق .

وأخيراً وصل إلى الجربة رحل صالح اسمه « آسال » رحل إلى هذه الجربة طلباً للعزلة في عيادة الله ، فعرف يحيى بن يقطين وعلمه الكلام ، وكان آسال متديناً أخذ تعالجه عن رجال الدين الذين تلفوا عليهم خلفاً عن سلف عن الأنبياء ؛ معرض كل من حي وآسال تعالجه على الآخر ، عرض « حي » ما وصل إليه ، طربى التفكير الخفى ، وعرض آسال ما وصل إليه عن طريق الأنبياء ، موحداً أن الأساس في نهالهما واحد ، غاية الأمر أن « حياً » فيلسوف كل ما دونه تناسب الفلاسفة ، أما تعاليم الأنبياء ، فمروحة بأشياء أفي بها لتناسب العامة والشعب .

وفد حجب حي لما حكى له آسال معيشة الناس في الجرب الأخرى واعتقاداتهم المشوّهة بأشياء لا ترضى عنها الفلاسفة ، وأراد أن يفظ الناس ابنهم رواه من الدابات على البداوى الفلسفية ، مرحل ودعظ ، ولكنّه مثل فترك الناس ومعتقداتهم ، ورجع مع صاحبه آسال إلى حز برنه بتأمل وبراض وبتدويف وبتفلسف إلى أن مات .

والقصة طليقة لذيذة طريفة الأسلوب عميقة الفكرة ، وبها مظاهرات ذبقة

في كل ما عرض له

وفد تأثر هذه القصة الروائي الإنجليزى دانيال دى مو^(١) في رواية رومانس كروزو ، وصور رجلاً عاش وحيداً ، واستطاع أن يعيش مدة خماسية وعشرين عاماً في جزيرة خالية ، وتوصل بفعله إلى أن تكتشف كثيراً من الأمور العلمية والصناعية ثم يهتدى إلى الله .

والفرق بينهما أن « حياً » فيلسوف ينظر إلى الحياة بعينه العلمية ورومانس

رجل على يستخدم عقله في شؤون الحياة وتصريفها . وإن هتدى أخيراً إلى الله وتصريفه للسكون .

التاريخ :

وبدأ أن عى المسلمون بتاريخ السيرة الأولى في آخر العهد الأموي — كما أسلفنا — اتجهوا إلى تدوين تاريخ الفتح . وكان من أشهر من عى بذلك أبو جعفر أحمد بن يحيى البلاذري (٢٧٨) ، وألف كتابه فتوح البلدان ، ذكر فيه أخبار الفتح الإسلامية من أول الفتح الإسلامي إلى آخره ، يذكر فيه الفتح وأحواله طعناً فطراً بل وبدأ بلداً ، مع حسن التعبير وصحة القول ، ثم هو يعرض أخطاء كتابته في الفتح لمعلومات اجتماعية ومالية ؛ ومن أئمة المؤرخين الإسلاميين ابن واضح البغلي (٢٧٨) ، رحل إلى الهند وصر وبلاد الغرب ، وألف كتاباً في مجلدين : الأول في التاريخ القديم من آدم إلى ظهور الإسلام ، وبدخل فيه أخبار الإسرائيليين والسريانيين والهنود واليونان والرومان والفرس والسوف والفرس في الجاهلية ، يدون فيه معارف عصره التاريخية بأساطيرها وحرفاتها ، والثاني في تاريخ الإسلام إلى زمن المنع على الله سنة ٣٥٩ م حسب الخلفاء ؛ وكان اليعقوبي شديداً فلولاً تاريخية فالتون الشيعة من المعطف عليهم ، والفرد الهادي لبعض أعمال الساسانيين .

ثم جاء ابن جرير الطبري (المتوفى سنة ٢٥٠ م) وألف أعظم كتاب في التاريخ الإسلامي واسمه « تاريخ الرسل والملوك » ، وبدأه بتاريخ الأنبياء والملوك في الأمم القديمة ، ثم تاريخ الفرس في عهد الساسانيين ، ثم السيرة النبوية والخلفاء الراشدين ، وهكذا إلى سنة ٣٠٤ هـ . وقد جرى من بعده تاريخه للمسلمين على

حسب ترتيب السنين ، فذا حدث من الأحداث في السنة الأولى الهجرية ثم الثانية ، وهكذا .

وقد اعتمد الطبري فيه على ما ألف فيه من الكتب ، وعلى جماعة من رواة الأخبار ، وساعده على ذلك رحلاته الكثيرة إلى الأنظار والأخذ عن شيوخه : فهو من طبرستان ، ورحل إلى بغداد ، ثم شخص إلى مصر والشام ، ثم عاد إلى العراق ، وفي كل ذلك تلقى العلماء ، وبأخذ عنهم في التفسير والحديث والفقه والتاريخ . وسلك في التاريخ مسلك المحدثين ، فهو يروي الحادثة التاريخية بالسند عن ملان عن فلان ، وإذا رويت في الحادثة جملة وإيات فعنها بأسانيدها ، ولذلك عدّ عدة المؤرخين ، كما عدّ كتابه في التفسير عدة المفسرين .

وهو إلى جانب مبعته التاريخية ذو قية كبيرة أدبية ، فهو يروي ما يروى بأسلوب جميل ضخم ، وفي خلال قصته يروي ما تثير الفول وما تثير الشعر ، وما أثر من حطاب وجوائز ومساجلات ، ونحو ذلك مما يمد دجيرة أدبية كبيرة . وكل من أتب في التاريخ الإسلامي يمدد كان عالماً عليه .

يحيى المسعودي (المتوفى سنة ٣٤٦) منج في تأليفه مسجلاً آخر ، فلم يقتصر على الفتح كما فعل البلاذري ، ولا على ذكر الأحداث حسب السنين كما فعل الطبري ، ولا بوجه كل عنايته لتاريخ الأنبياء والملوك ، بل وسع مداره من ناحية خاصة وهي ناحية الشعوب وجغرافيتها وأديانها وعوائدها وحالاتها الاجتماعية والسياسية ، واستعاد في ذلك كله من رحلاته العديدة البعيدة ، فقد رحل إلى الهند وسار إلى « ملتان » ، ثم قصد « سيلان » ، ومن هناك ركب البحر إلى الصين ، وطاف في البحر الهندي إلى مدغشقر ، ومنها إلى عمان ، ورحل رحلة أخرى إلى أفريجيان وجرجان ، ثم إلى الشام وفلسطين ،

ثم استقر عصر وزل التسطاط وتوفى بها .

وقد ألف كسفا كثيرة لم يصل إلينا — مع الأسف — إلا أقلها ، وأهم ما وصل إلينا كتاب « مروج الذهب » ، ذكر فيه الأمم القديمة أيضا وأديانهم وعاداتهم ، ثم تاريخ الأمة الإسلامية : وبتجلى فيها كتب ثقافته الواسعة ونجاؤه الكثيرة التي أشرنا إليها ، معها نظرات اجتماعية وسياسية وموائد كثيرة من هذه النواحي لا نعددها في غيره .

ورعنا وحب أن نقف على مؤلف آخر في التاريخ له مسحة خاصة ، هو كتاب « مخارب الأمم » لمسكويه ، أو كما هو المشهور ابن مسكويه (٤٢١) ؛ فقد كان في ظل الدولة البويهية ، وكان مثقفا ثقافة فلسفية ، وكان مجوسيا وأسلم ؛ وقد ألف هذا الكتاب في تاريخ الأمم ، ويمتاز بأنه لم يجمع الحوادث كما جمع غيره ، وإنما عى بتخير أهمها والتطبيق عليها والوقوف على موضع العبرة منها ؛ وإن كان الطبرى عالم دين يتأثر تاريخه بثافته الدينية ، وكان المسمودي رحالة حزاما أخباريا ، فسكويه فيلسوف أحلاف يجتلي مكانته في السياسة الواقعية ، وتتأثر كتابته التاريخية بذلك كله ، يسعى بالحكم على أخلاق الأشخاص وموضع المدح والذم منه ، ويعرف كيفه تدثر المؤامرات والفساس ، ولا يؤمن بالأحلام والتنجيم والشعوذات والولايات ، وإنما يؤمن بمنطق الواقع ، ورعا دل اسم كتابه « مخارب الأمم » على معرزه في كتابة التاريخ ؛ وأسلوبه في كتابة التاريخ أسلوب العالم لا الأديب .

وعندك كتب في التاريخ غلبت عليها الصبغة الأدبية كالناريخ المعروف باليهن ، الذي ألفه أبو النصر المتني في سيرة محمود بن سُبُكْتِكِين ، وقد وضعه كله سجما ، ونلاء عماد الدين الأصبهاني في كتابه « الفتح القدسي في الفتح القدسي » ،

وصف به فتح صلاح الدين لبيت المقدس .

وتنوعت كتب التاريخ عند العرب من تاريخ عام إلى تاريخ خاص ، بلده ، إلى ترجمة رجال ، إلى تاريخ علماء بلده ، إلى تاريخ علماء مذهب أو فرقة دينية أو لاسمة أو أطباء ، إلى غير ذلك مما قل نظيره في الكثرة والوفرة عند أمة أخرى ، وإن كان يؤخذ على أكثره عدم العناية ، وعدم التوسع في شرح الحوادث الاجتماعية للأمم المؤرخة ، وقلة النقد للمصادر والروايات ، وقلة التحليل الواو الشارح إلى القبل البادر ، كما يؤخذ عليه الإجابة عند النظر الجزئي في الحادثة ، والتفسير في النظر الكلي الشامل ، ووربط الحوادث بعضها ببعض .

الفصل :١

عندما جاءت السولة العباسية وجعلت سلطانها كانت الفلسفة اليونانية قد انتقلت من اليونان إلى العراق بالهنة السريانية ؛ مسرحي الرستمي^(١) الطيب العراقي كان قد ترجم إلى السريانية كثيراً من الكتب اليونانية الإلهية والأخلاقية والنصورية والطبية والطبيعية ، وكان على علم وافر بفنجان مدرسة الإسكندرية ؛ وجاء بعده بصفوت الزهاوي وغيره ، فاستمروا في النقل ، وصنفوا العاصدة اليونانية صبغة مسيحية ، واستعاروا بمنطق أرسطو الذي ترجموه على المجادلات الدينية ؛ تجاه الخلفاء العباسيون وشجعوا نقل هذه الفلسفة من اللغة السريانية إلى العربية . واقدن بدأوا بهذا النقل في أول الأمر كانوا هم السريان أنفسهم ، ونقل في عهد أبي جعفر المصور كتب في الطبيعة والطب والمعلق ، ثم تنامت الترجمة في سائر مروع الفلسفة . وكان أشهر المترجمين حنين بن إسحاق

(١) نسبة إلى رأس السن .

(٢٦٠ هـ) ، ومدرسته التي كان منها انه إسحاق بن حبيب ، وإن أخته حُبَيْش من الحسن ؛ وجاء بعدهم في القرن الرابع مئتي من موسى ، ويحيى بن عدي اللطاعي وغيرهما ، فأكملوا ما بدأ السافون .

وكان طبعها أن الفلسفة اليونانية يدها عند فتحها إلى العرب ، من الخلط ، فينسب إلى أرسطو ما ليس له ، ولأفلاطون ما هو لأفلاطون وهكذا ؛ وقد أثر هذا الخلط بعض الأثر في فهم المسلمين للذهب اليونانية ، وبدأ المسلمون بعد هذه الترجمة إلى العربية بدرسون الفلسفة وبفهمونها ، وبمعرفة بيننا وبين تعاليم الإسلام ، وبمعلّمون على بعض فلاسفة اليونان بعض صور المسلمين كما فعل المصاري من قبل .

ومر أثر الفلسفة اليونانية في المسلمين في دورين : « دور علم الكلام » ، ثم « دور الفلسفة الصرفة » .

في دور علم الكلام أخذ المسلمون بقبول الدين على أساس من الفلسفة والمنطق ، وبمجاهدون غيرهم من أرباب الديانات الأخرى ؛ وغام بهذه الحركة أول الأمر المنزلة ، فمروا نفائهم حتى شملت الفلسفة اليونانية ، وخصوصاً أيا المذهب العلاني والنظام والباطني ، وبشعروا في بعضهم كثيراً من الإلهيات والطبيعيات والعلاقة بين الله والإنسان ، والعلاقة بين الإنسان والطبيعة ، كل ذلك على أساس الدين ، فسبحوا في الجبر والاحتيار وأفعال العباد وعلم الله ، ونحوها في الشر وعقله ، وفي قدرة الإنسان على خلق أماله ، وسلطة العقل ومقدرته على المعرفة ونحو ذلك ؛ وجاء الجاهل موسع دائرة البحث في الطبيعة والحيوان على أنها من دلائل قدرة الله وعظمته ؛ وعن المنزلة أخذ غيرهم من المتكلمين منهمجهم وإن خالفهم في بعض مستقدماتهم كما فعل أبو الحسن الأشعري .

ثم جاء دور الفلاسفة العربفة نعتى بالفلسفة اليونانية وبهمها وشرحها والتعلل بقى عليها ، ونقلوها لكون الإسلام لوداً حقيقياً ، وكان من أول الشرائين على هذا النمط أبو بقوق السكندرى ، وكان مرحة الاقتال بين الكلام والفلسفة ، وكان عربى الأصل من كمدة مسمى « يلسوف العرب » . وقدروا عنه أنه كان يعرف اليونانية وبرزم منها إلى العربية بنسخه . وأمعن فى دراسة الرياضيات والعلميات ، ونحز فى دراسة القضاورية الحديثة والأفلاطونية الحديثة ونأثر بهما فى مذهبه ، كانأثر مكتب أرسطو كماقتله وكماصلحها هو ، وألف فى ذلك كتباً كثيرة وصل إلينا بعضها ، وقد أفاض بها فى بحث العقل ونظرة لمعرفة .

ثم جاء بعده الفارابى ، فكان أعمق تفكيراً ، وأوسع اطلاعاً ، وأتميع رأياً ، وحيانه أكثر انطباقاً على حياة القلاسة من صدوف عن الدنيا ، واغطاع للنظر والتأمل ، وقد اتخذ أرسطو إمامه ؛ وصمته السلدون « العلم الثانى » إذ كان أرسطو هو المعلم الأول ، فهو الذى عنى بفلسفة أرسطو وتربها إلى أذهان فلاسفة المسلمين ؛ وقد ألف كتبها كثيرة فى المسطق وفى الإلهيات ، بحث فيها فى الله ، وفى العالم السفلى ، وفى العالم العلوى ، وفى النفس الإنسانية ، وفى العقل وفى الأخلاق ، وفى السياسة .

وقد كانت كتب الفارابى أستاذاً لفيلسوف المشهور ابن سينا ، وهو أكثر فلاسفة المسلمين تأليفاً فى الفلسفة وشرحها ، يكتب الموسوعات السكبرة ، والخصصرات القصيرة ، والطبقة والموحزة ، وفى بعضها حلاوة الخيال والشمز على أسلوب أفلاطون وفى بعضها العمق والصوض والواقعة على تنط أرسطو ، وهو بمرج الفلسفة اليونانية بالحكمة للشرفية ، وينظر إلى العالم كوحدة بوجه إليها نظرائه أحبائنا جزئية ، وأحياناً كلية ، نقل أن نجد شيئاً فى العالم لم تعرض له

بالبحث في تأليف من تأليفه ، مقلداً في ذلك أرسطو

وتأملت في البصرة في القرن الرابع الهجري جماعة نسّوا « إخوان الصفاء »
وضموا رسائل فلسفية تشمل ما عرف من الفلسفة في عصرهم مزوجة بالدين ،
وملونة بالتشيع ، وتتكون من إحدى وعشرين رسالة في الرياضيات والطق
والطبيعات والإلهيات ؛ ومن حين لآخر ينتشون في كتاباتهم آراءهم السياسية
وسخطهم على النظام القائم في زمنهم والظوف من اضطهادهم ، والأول في قلب
هذا النظام ، وحلول آخر حير منه محله ، ولعل الذي كانوا يأملونه هو نظام
الدولة الشيعية من إمام معصوم يملأ الأرض عدلاً ؛ وهم في رسائلهم متسامحون
مع الديانات الأخرى ، معطلون الأنبياء والفلاسفة ودعاة الدين من كل ملة .

ومن أنواع هذه الرسائل رسالة الخبوان والإنسان ، فيها استنطاعوا أن
أن يفسدوا انتقادهم للحياة الاجتماعية نقداً لادعاً على طريقتهن الرمزية .

وكذلك أبنت الفلسفة الإسلامية في الغرب متأثرة بأسلوب المشرق ، فنبغ
ابن باجه وابن الطغريل ، ثم الفيلسوف الكبير ابن رشد القرطبي ، وكان أكثر
الفلاسفة كلاً بالفلسفة أرسطو وإخلاصاً لها ، شرحها وقرّبها إلى الأدعان

وجاء القرطبي فنسّج بالفلسفة ثمهاجها بإصلاحها ، فأعلن الحرب عليها في كتابه
« نهايت الفلاسفة » ، يريد إفساد مذاهبها وفصول أدلتها ، وبقصد مروراً .
الدعوة إلى إحلال الدين والتصوف محل الفلسفة ، والقلب والذوق محل العقل ؛
ولقد نجح في دعوته هذه عند الجماهرة المعامى من المسلمين بما كان له من قوة
خطابية فائقة ، وأسلوب واضح قوى ، رغم ردود الفلاسفة عليه أمثال ابن رشد
في تأليفه في الرد عليه « نهايت التهافت » .

وكان لابن سينا وابن رشد والقرطبي أثر كبير في الآووين في العصور

الوسطى ، فأول ما اشتغلوا بالفلسفة نهلوا من ملامحة العرب ، وتعلموا عليهم ، إما مباشرة أو بواسطة اليهود الذين تعلموا في الأندلس على ابن رشد وتلاميذه ؛ واستعاد المسيحيون من دفاع الفرائى عن الدين ، وافهموا كثيراً من أقواله في إثبات الخلق من العدم ، وشعول علم الله للجزئيات ، واليتم بعد الثبات ونحو ذلك وظلت الفلسفة الإسلامية ، وكتبها العربية هي النبع الذى يستقى منه فلاسفة الغرب ، إلى أن وصعوا بدم على المنابع الأصلية من كتب الفلاسفة اليونانية



وبعد ، فما منزلة الأدب العربى بين الآداب التى استعرضناها ، وخاصة الأدب اليونانى والرومانى وآداب أوروبا فى القرون الوسطى ؟ ما حوافر القوة به ، وما حوافر الضعف ؟ هل هو مع الآداب الأخرى ينف على سلم واحد من درجات كل أدب ينف على درجة مرتفعة أو منخفضة ؟ أو هناك سلالم مختلفة ، ينف الأدب العربى منها على سلم خاص ؟ هل الأدب فى جميع الأمم وفى كل العصور متكرر من عناصر ثابتة ، وإنما تختلف هذه العناصر فقط رقباً واحكاماً ، أو أن العناصر تختلف ، وفى الأدب العربى عناصر تختلف الآداب الغربى والعكس ؟ هذه أسئلة من العسير جداً الإجابة عنها ، وخاصة فى مثل هذا المكتب الذى يحاول أن يقدم صورة عامة لسلك أدب

لا شك أن الأدب العربى فى الجاهلية كان أدب أمة واحدة هي الأمة العربية فى جزيرة العرب ، مكاناً متائراً فى الأعرى الأغلب بهذه البيئة الطبيعية والاجتماعية ، وإذا كانت هذه البيئة العربية تخالف البيئات الأخرى — كالمدينة اليونانية والرومانية — كان طبيعياً أن يختلف عنها روح البيئة ، فالجمل وسكاه الدمن والأطلال وعادات التقاتل وتاريخها ونحو ذلك نثر فى الآونة العربية تأييداً لم تخضع له الآداب الأخرى على هذا الوضع

في كل أدب عناصر إنسانية اشتركت فيها الآداب عامة في كل العصور ، كالحب وما يستتبع من هزل ، وأخلاق الناس وما فيها من رمة أحياناً ، وضعة أحياناً ، ووجود طامعين حساسين ، ومحامتهم أخيار كرماء عادلون ونحو ذلك ؛ كل هذا ملازم للإنسان من حيث هو إنسان ، وكل هذا عابثه الآداب المختلفة ، واختلاف بينها في طرق الترميض .

ومجانب ذلك أشياء خاصة هي نتيجة البيئة الخاصة ، كأنواع التشبيهات المشتقة من البيئة الصحراوية البدوية ، فإنها تخالف تلك المشتقة من البيئة البحرية أو الحضرية ، وتروع الأساطير الدينية ، ونحو ذلك . ومفاس القدرة الأمة الأدبية — إذن — ليس في روع ما عرضوا ، ولكن بمقدار استخدامهم لبيئتهم في أدبهم ، والحق أن الأمة العربية الجاهلية استخدمت بيئتها في أدبها استخداماً يدعو إلى الإعجاب ، فلم تترك صغيرة ولا كبيرة إلا أولتها حساباً ، وأفاضت عليها الطبعة من فصاحة القول وقوة اللفظ ما يصح أن تحف به أعلام الأمم الأخرى مياهة .

فلما جاء الإسلام وأمندت خروجه ، وتحولت السنة الداخلين فيه إلى اللسان العربي ، وأخذوا يساهمون في النتاج الأدبي ، أصبح الأدب العربي أدب أم لا أدب أمة واحدة ، وأدب بيئات مختلفة لا بيئة واحدة ؛ أصبح يشارك في إنتاجه الفارسي ، والهندي ، والشامي ، والمصري ، والمغربي ، وأصبح كل عنصر يدخل في الأدب شيئاً من خصائصه في الأختلة والتشبيهات وفي العقليّة والصياغة الفنية ؛ وكان هناك عاملان فعالان : القالب الجاهلي القديم — بأصاليه وموضوعاته — والعقليّة والصياغة والأختلة والموضوعات التي للأمة المفتوحة ، وهذان العاملان تنازعا كتنازع المحافظين والأحرار ، وكان من مظاهر هذا النزاع حركة الشعبية ،

وأنصار القديم وأنصار الجديد من العلماء ، ثم كانت الفئجة للصالحه ، أعني أن ينزل كلٌّ عن بعض دعاويه ، وهاز القديم بالتقالب والوضوعات ، وماز الجديد ببعض الصباغة وبعض الموضوعات ، ورعا كان حظ دعاء القديم في الشر أكثر ، وحظ دعاء الجديد في النثر أوفر .

وعلى الحلة كان الأدب العربي للتكون من هذه العوامل طابع خاص وملامح مميزة .

فالنوع الذي يتدفق الأدب اليوناني والروماني قد لا يتدفق الأدب العربي إلا بجهود وطول عارسة ، والعكس ، ولكن هذا لا يقدح في الأدبين كذوق الأمة في نوع عمارتها وعندسة أبنيتها ، ورع أصمتها وأشربتها ؛ لقد يخالف ذوق الأمة الأخرى وقد يكون ذلك الاختلاف نتيجة للبيئة الطبيعية والاجتماعية ، وقد يكون النواقل مما مع اختلافهما — رافعين — ومن العسير وجود حكم محايد في هذا لا يكون متأثراً بتذوق أحد الأدبين بحكم نشأته أو طبيعته أو تربيته ؛ فإن نحن فارقنا وجدنا أن الأدبين اليوناني والروماني وما نفع عنهما ربما كانت أوفر موضوعاً وأكثر تنوعاً وأكثر ثغناً في نقد الحياة في أشكالها المختلفة الخاصة منها والعامة — أدب الملاحم وشع حيالهم ، وأدب التنبل وشع تقدم في السياسة العامة للحكومات والقادة والزعماء ، والحياة العامة والحياة الأفراد الشعبية ، والأدب العربي لم يتجه هذا الاتجاه في وفرة وكثرة ، وإن وجد منه بعض أمثلة ؛ أما الأدب العربي ففنى غنى تاماً في بعض النواحي ، من أهمها ناحية الأدب الذي سميناه أدباً غنائياً ، أعني وصف الأدب مشاعره من نغم وحاسة وغزل وهجاء ورناء ومدح ، وخاصة الحب فقد برع الأدب العربي فيه ، ونوعه من حبه عذري إلى حبه شهواني ، ومن حبه مادي إلى حبه فلفي ،

ومن وصف للجمال الحسى إلى وصف للجمال المعنوى ، هذه النواحي قد توفى
 فيها الأدب العربى تنوعاً كبيراً ، واهتمت عواطف الأديب بها إلى درجة كبيرة ،
 وتفنن ما شاء له الفن فى عرض الصور حتى كاد يستوفىها مع قوة وروح
 وحرارة ؛ حتى أن هذا النوع من الأدب لما ظهر فى الأدب الأوروبى فى القرون
 الوسطى اتهمه كثير من النقاد الأوربيين ببحثون عن مصدره فى الأدب العربى ،
 وكفى أخذ عنه ، ومن أحسنه شعوراً منهم بأن منبع هذا النوع من الأدب
 هو الأدب العربى ؛ وكذلك كان الشأن لما ظهرت فى أوروبا حركة الأدب
 الرومانسى Romantic فقد رأى كثيرون أن لها بالشعر العربى علاقة وثيقة .

ثم الأدب العربى غنى فى أسلوبه حتى من قرأ الأديبين اليونانى والعربى
 وحذفهما أفرى بنقى الأدب العربى فى ذلك ، هو متنوع الحال ، فيه ما يتجلى بحال
 البساطة ، ومه ما يزين بالحال المركب ، ولذلك قل " أن ينمى للترجم القدير
 بالأسلوب ، هو بعد الأسلوب العربى مطواها رحماً متنوعاً ، وإنما ينمى أكثر
 ما يكون بالألفاظ الحديثة ، والمصطلحات الجديدة ، وليس ذلك عيب الفنة
 والأدب وإنما هو عيب الفنائين عليها .

والأدب العربى غنى فى بعض النواحي ضير فى بعض النواحي ، وسبب
 هذا القى أن الموضوع القى عنوا فيه كان هو للوضوح الذى وافى عوسهم
 وضع من بيتهم منذ جاهليتهم ، فتقدمت فيه الأمة العربىة بتقدم الزمان
 وتقدم الحضارة ونتائج برايع الأدباء * وسبب هذا العفر ما انفقروا فيه أسهم فى
 أيام حصارنهم العباسية لم يرسوا صدرهم للأدب اليونانى والرومانى فبرزوا
 وبنذونوه وبنفثوا عنه ، وبنفثوا ما يصلح منه فنونهم ومحاكوه ، وبنفثوا
 عليه شخصيتهم كما ملوا ذلك فى العلوم والفلسفة ، ضد أسجوا لها صدرهم

ونقلوها إلى لغتهم واستفادوا منها ، ولم يفعلوا ذلك في الأدب لأسباب يطول شرحها ، من أهمها : أن الأدب اليوناني والروماني وليد بيئات تخالف البيئة العربية فلو نقل لم يتدوَّق ، وإنما استسيخت العلوم والفلسفة لأنهما قدر مشترك بين العقول ، والمقول تنفام بأسرع مما يتجاوب الذوق ، فشان الأدب اليوناني والروماني للذوق العربي كشأن الموسيقى الغربية للأذن الشرقية ، لا تستساغ إلا بعد طول صرمان ، ومراحل انتقال ، ولم توفق الأمة العربية لمن يفهم لها بهذا العبء ، في عصر الترجمة والنقل ؛ ثم القارئون للأدب اليوناني والروماني في ذلك العصر رأوه مملوءاً بالأساطير التي عرضنا بعضها فيما تقدم ، وهذه الأساطير مملوءة بالآلهة الخرافية وبالأخيلة التي إذا أخذت على ظاهرها لا يرتصها العقل إذا نضج ، فكانت الالافادة من الأدب اليوناني تحتاج إلى مررة في اللسانين يقومون بمهمة الانتخاب من الأدب اليوناني والروماني ، وأمامهم في ذلك مجال فسيح في الروايات النقدية للحياة الاجتماعية ، ونحو ذلك ، ثم تقرب بعض التماذج الأدبية إلى الذوق العربي بشق البسائل ، ولكن لم يوجد هذا الصنف أيضاً ، فظن الأدب العربي محتفظاً بحجراه لم تصب فيه روائد أجنبية كثيرة ، كتلك الروائد العلمية والفلسفية التي كانت تعصب في مجرى العقليات ، إلى أن أتت حركة الترجمة في النهضة الحديثة ، ولها موضع آخر من هذا الكتاب إن شاء الله .

الفصل السادس

الأدب الفارسي الإسلامي

في العصور الوسطى

الأدب الفارسي الإسلامي ، أو الأدب الفارسي الحديث ، هو أدب الأمة الفارسية للسلطنة ، نشأ في القرن الثالث الهجري ، واستمر متصل السقي ، مسلسل التاريخ إلى عصرنا هذا ؛ ممره زهاء ألف سنة

وموطنه موطن الأمة الفارسية في العصور الإسلامية ، وهو نجد إيران من وادي دجلة في الغرب إلى بلاد الأمان في الشرق ، ومن خليج البصرة و بحر الهند في الجنوب ، إلى بحر الخزر ونهر جيحون في الشمال .

ونتعلل به الآداب التي أنشئت بالأمة الفارسية في غير بلاد الفرس — الآداب التي أنشئت في بلاد الهند والأمان والترك — وهي آداب واسعة حديرة بالمعناية والدرس ، ولما كنا لا نعرض لها في هذا البحث الجليل ، اكتفاء بوصف الأدب الفارسي في موطنه الأصيل ، هو للناس الذي احتذى عليه اللغشون في المواطن الأخرى .

ولا ريب أن الأدب الفارسي له مكانة في البلاد المجاورة لإيران ، وله أثر بين فيما أنشأت هذه البلاد من آداب ، كالآداب التركي والآداب الأردي ؛ وكان واسطة لتأثير الأدب العربي في آداب تلك البلاد أيضاً ؛ فالأدب الفارسي هو الأدب الثاني ذيوفاً وتأثيراً في الأمم الإسلامية بعد الأدب العربي .

ولمبحث في العصور الآتية يتناول الأدب الفارسي في إيران وحدها ،

اللفظ :

القهلوية هي اللغة الوسطى من لغات إيران ؛ هي بين الفارسية القديمة التي عرفت في آثار الدولة الفارسية الأولى ، دولة الأكبيين التي أزالها الإسكندر المقدوني ، واللغات المعاصرة لها كلغة الآوستا (كتاب زرادشت) وبين الفارسية الحديثة التي نشأت في القرن الثالث الهجري .

نشأت القهلوية في السقرة التي نلت غارات الإسكندر إلى قيام الدولة الساسانية في القرن الثالث للهجري ، مبلت أوجها في عصر هذه الدولة ، إذ صارت لغة الدولة ولغة الأدب والعلم في إيران ؛ ووقعت بالفتح الإسلامي ، فحلت العربية محلها واستأثرت بالعلوم والآداب في تلك البلاد ، إلى أن نشأت الفارسية الحديثة فذهبت ثم ساربتها ثم سبقها على مرر المصور .

ومعظم الفروق بين القهلوية والفارسية الحديثة تنجلي في هذه الأمور :

- ١ — اعتماد الفارسية الحديثة على الثقافة الإسلامية العربية
- ٢ — اشتغالها على ألفاظ عربية كثيرة ، وتأثرها بالمفردات والحل العربية في صياغة بعض مفرداتها وجملها .

٣ — اتخاذ الأوزان والقوافي العربية والسجع والمحسنات الأخرى .

٤ — كتابتها بالخط العربي بدل الخط القهلوي .

الثقافة العربية :

دخل الفرس في أخوة الإسلام ، واشتعلت عليهم الجماعة الإسلامية العظيمة التي يسطر عليها الإسلام . ويقوم عليها العرب ؛ فاستأثرت العربية بالعلم والأدب زهاء قرنين ؛ ثم ظهرت الفارسية في رعاية العربية فاستمدت الإسلام .

— عقائده وكتابه وفنه — واستمدت التاريخ العربى ، وزادت عليه ما أورثه الزمان المديد والحضارة القديمة من تاريخ وأساطير وآداب وأعمال وأخيلة ؛ فكان الأدب الفارسى متغافاً بثقافة إسلامية واسعة شاملة تجمع بين ثقافة العرب والعجم . وكانت ثقافة العرب أو ثقافة اللغة العربية واعية خلاصة ما أدركه البشر إلى تلك العصور . وقد بقيت بلاد إيران موطناً للأدب العربى منذ اقتصر العرب فى إيران ، ودخل الفرس فى أخوة الإسلام إلى غارات التتار . وفى الأدب العربى أدباً لشعرائها وكتابتها وأدائها حتى عصرنا هذا . وحسب الباحث أن ينبع تاريخ أدباء العرب الخلفاء والمستعربين الذين عاشوا فى إيران ، وحسب أن يبرز كتابا مثل بقية الدهر ، يعرف نصيب إيران من أدباء العربية ، وحسب أن يتعرف نصيب أدباء إيران المعاصرين من الأدب العربى . وهذه جملة من كتاب المقالات الأربع (جواهر مغال) لنظامى الروسى ،

من مقالة الكتانة ، نبين منهاج أدباء الفرس فى دروس الأدب :

« وكلام الكتائب لا يبلغ درجة عالية حتى يأخذ من كل علم نصيباً ، ومن كل أستاذ مكتبة ، ويسمع من كل حكيم لطيفة ، ويفتس من كل أدب حُرْفَةً ، يمينى أن يمتد قراءة كلام رب العزة ، وأخبار الأصطفى ، وآثار الصحابة ، وأمثال العرب ، وكلبات العجم ، ومطالعة كتب السلف ، والنظر فى صحف الخلفاء ، سئل ترسل الصحاب والصائى وقابرس ؛ وأنداط الحادى والإمامى وفدامة بن جعفر ومقامات البديع والحريرى وحيد وثوبمان البامسى وأحمد بن الحسن (الهمندى) ، وأبى نصر الكندرى ، ورسائل محمد عبده وعبد الحميد وسيد الرؤساء ، ومجالس محمد منصور ، وابن هادى ، وابن النسابة العلوى .

ومن دواوين العرب ديوان المتنبي ، والأبيوردى ، والعرى ؛ ومن شعر
الهمم شعر الأروى ، ومتنوى الفردوسى ، ومذائع المنصرى الخ .

الملاحظات :

دخلت في اللغة الفارسية ألفاظ عربية كثيرة ، في لغة الخطاب ولغة الأدب
والعلم . ونترك لغة الخطاب هنا لأنها لا تهم القارئ في موضوعنا هذا ولأنها
تختلف باختلاف البقاع

ولغة العلم أكثر أماناً عربية من لغة الأدب ، والنثر أكثر من الشعر
نصيها من هذه الألفاظ ؛ والنثر الملى نكثر فيه الاصطلاحات العربية حتى
لا يبقى أحباثا من الفارسية إلا العمل وروابط الجملة وحروف الجر ؛ والنثر الأدبي
بين هذا وبين الشعر . والشعر قد يخلو فيه بيت أو بيتان متتابعان أو ثلاثة من
لفظ عربي ؛ ولكن يندر أن نجد أكثر من ثلاثة أبيات خالصة من لفظ عربي .
ولا يحسن القارئ أن الألفاظ العربية كثرت في الفارسية حين نشوئها ،
ثم قلت على مر الزمان ، لعل الأمر على عكس هذا ؛ ربما نجد شعراً قديماً أقل
ألفاظاً عربية مما هو أحدث منه ، وكذلك الشعر .

الصباغة الفنية :

وكان نشوء الأدب الفارسي واردها في حضارة الأدب العربي وسبغته ،
جميع الأدب الناشئ* الأدب القديم في الصباغة الفنية التي أولع بها بعض شعراء
العرب منذ القرن الثالث الهجري ، ثم زادت صنوعها وشاعت وعمت حتى صيرت
الشعر صناعة تقطعية في القرون الأخيرة . فسيقت المجازات والاستعارات الفارسية
على غرار ما أتت في الأدب العربي . وكان في فارس من ينظم باللغتين العربية

والفارسية ، فلا جرم تقتر بت اللغتان في بيانهما . وكثير من الشعراء نظموا شعرًا
مفتًا فيه بت عربي وآخر فارسي ، أو شعر وشعر ، وهو كثير في الشعر الفارسي .
ومن أمثله :

يضرِبُ سيفك فَنَلِي ، حَيَاتُنَا أَمْدًا مَن رَوْحِي قَدْ طَلَبَ أَنْ يَكُونَ بِدَاكِ
وَقَوْلُهُ :

در حلقهٔ کل وصل خوش حواند دوش بلیل

هَانُوا الصَّبَاحَ حُبُّوًا بِأَيِّهَا السَّيْـكَارِي

وطبّق على النظم والشعر في اللغة الفارسية قواعد البلاغة العربية حينما صارت
البلاغة قواعد ؛ فكانت كسب البلاغة الفارسية في قواعدهما واصطلاحاتها
لا تختلف كثيرًا عن نظيراتها في اللغة العربية ، بل طوّفت هذه الكتب
قواعدها على الكلام العربي والفارسي على السواء ، مثل كتاب حدائق السحر في
دقائق الشعر لرشيد الدين الوطواط المعري الكاتب . وهو أحد باعاء اللسانيين ،
وفد جمع بين أصله العربي وموطنه الإيراني . ولست في حاجة إلى التمثيل ولا
أراه يجدي كثيرًا على الفارسي العربي في هذا الفصل الجميل .

الموزون والنزاهي ؟

اللغة الفارسية ليست مقترنة ، وليس فيها علامات للتأنيث ولا أداة للشعر بف ،
معنى في جعلها أنصر أفعالًا وأقل حركات من اللغة العربية ، وقد يجمع في كلماتها
ساكنان أو ثلاثة ، ويهضم اللد في أواخرها مقام الحركة . وقد أدرك الملاحظ هذا
من قبل إذ قال :

الحرب تقطع الألفان اللوزونة على الأشجار الموزونة ، والمعجم نعطط الألفاظ

منه. ونسب حتى تدخل في وزن الشعر منضوع موزوناً على غير موزون^(١).
ومن أجل هذا كان البيت من الشعر الفارسي في الغالب أكثر ألقاظاً
من مثله في الشعر العربي. وكان لا بد أن تختلف الأوزان في الفئتين بعض
الاختلاف، وأن يجري من الزخاف والعلل في أحدهما ما لا يجري في الأخرى،
ويحسن من الوزن وأحزانه في الفارسية ما لا يحسن في العربية. وهذا ما يجد
ببانه بجملاً ما يأتي :

لا مرأ أن الشعر الفارسي الحديث نظم على أوزان الشعر العربي، ولكن
بعض أوزان العرب كانت أقرب إلى طباع الفرس ولقته من بعض، وكذلك
أفصح مزاج الفرس وطبيعة لحنهم من التعبير والزبادة والمقص في الأوزان التي
أخذوها عن العرب ما لا نجد في الأوزان العربية.

ولهذا كان العروض الفارسي في أصوله واصطلاحاته، ودوائره ومجوره
وتفصيلاته هو العروض العربي، وكان في بعض الأنشرب والزخافات والعلل
مخالفاته. ولما أراد صاحب «كتاب المعجم» أن يصح كتاباً في العروض، وصفه في
العروضين معا، وكشفه بالعربية وجعل شواهده بالعربية والفارسية. فأذكر حابه
هذا الصنع جماعة من أدباء الفرس، نظم كتابه قسمين : العرب في مدايير أشعار
العرب، والماءج في مدايير أشعار المعجم. وهذا مصداق ما قلت من اتفاق العروضين
في الأصل اتفاقاً دعا المؤلف إلى أن يصح كتاباً واحداً لأوزان العرب والفرس،
واحتلامهما احتلاماً أدى إلى الإنكار عليه، وإلى أن يفصل هو العروضين أحدهما
عن الثاني. — ولكنه حين تكلم على العروض الفارسي لم يجد بداً من شرح
العروض العربي، فجاء كتاب مدايير أشعار المعجم مشتملاً على مدايير أشعار العرب

يقول صاحب المعجم في أول الباب الرابع في المحور القديمة والحديثة :
« صناعة الشعر في بدو الأمر مخترعٌ طبع العرب ، ومبتدع حاطمهم ،
والمعجم في كل الأبواب تابعون لا واضعون ، وفي فسمبة الأجزاء والأركان
وتقدير البحور والأوزان ، وتقرير الجائز وغير الجائز فيها ناقلون لا مستغلون ؛
فلزم أن تقدم في الكلام على البحور والدوائر أجناس شعرهم ، ونعبد أوزانهم ،
كما بدأنا بشرح أوضاعهم واصطلاحاتهم ليتبين الصواب والخطأ ، والحسن
والقبح ، فيما زاد المعجم ونفسوا في أشعارهم » .

وخلاصة ما عمل الفرس بالأوزان العربية :

١ — أنهم زادوا انحراً على الأبحر الستة عشر المعروفة في العروض العربي ؛
وهي القريب والقريب ولأشاكل .

٢ — وأنهم زادوا في أجزاء الأوزان ما جازوا أن يكون الرمل — مثلاً —
ثمانيّاً ، وهو في العروض العربي لا يزيد على ستة أجزاء ؛ وكذلك المخرج وهو في
العربية سداسي في الأصل ، ورباعي في الاستعمال .

ولهذا يشعر الفارسي العربي ، وهو يشهد المخرج الثماني في الشعر العامري أن
كل شطر بيت كامل ومن أمثلة هذا قول حافظ الشيرازي في أول الديوان :
ألا بأبها الســــــــــــــــافي أدر كاساً وماؤها

كـه عشق آسان نحو أول وفي أمتاد مشكلها
حصوري كرمي حوامي أزرو عائب مشوحافظ

مضى ما تلقى من تهوى يدع الدبيبــــــــــــــــاً وأهملها
فالشطر الأول من البيت الأول ، والثاني من البيت الثاني بيتان كاملان
من المخرج في العروض العربي ، وهما شطران في هذه القصيدة .

٣ — وأسمهم تصديروا في الزجافات والعلل حتى أخرجوا من الأوزان العربية تسرياً بعد في معانيها مستقلة عن الأوزان العربية ، ولا يسطع بها إلا تخرج المروضين ؛ كما أخرجوا الرماحى ذا الأضرب الكثيرة من بحر المخرج .

٤ — وأن طباعهم عدلت بهم عن الأوزان الكثيرة الدوران في الشعر العربى مخرجوها هراً تاماً ، فلم ينظموا في الطبع بل والمدبذ والبسط إلا لإظهار الفذرة على نظم فيها ؛ وكما عدلوا عن هذه الأوزان أولعوا بالأوزان التى قل فيها شعر العرب ، مثل المحدث والمضارع والفتضب ، ووافوا العرب في أوزان أكثرها النظم في المثنى ، مثل المخرج والرميل والخفيف والمفتارب . وفى المفتارب نظم المردوى الشاعنة ، والشيخ سمدى البستان ، ونظامى إسكندر نامة . وفى الرمل نظم فرهد الدين المظار منطق الطير ، وحلال الدين الروسى اللنوى . وفى المخرج نظم نظامى السكنجوى خسرو وشيرين ، ونظم فى الخفيف بهرام نامة . وهذا دليل على ما بين طباع الأمتين وأذواقهما من التقارب والتفاوت . فلا ريب أن إحداث البحر جديدة وهجر البحر قديمة كان مغضى الطبع واللغة . ويمكن أن يفسر هذا كله بأن طباع العرس أميل إلى العربى والثقافة ، والحركات الطليئة في الأوزان لانلائهم طباعهم . وهذه الأبحر لانئوال فيها الحركات نوالها في الأبحر الأخرى لسكثرة الأوتاد بها .

وأما القافية ، فقد ساروا بها على السنن العربية ، وأخذوا اصطلاحاً بها كلها ؛ واسكهم أولعوا بالقافية الزدوجة وسموها للثنوى ، نسبة إلى كلمة « مثنى » ؛ وكذلك أكثرها من الموبت أو الرباعى ، وذهبوا في الموشحات مذهباً غير مذاهب العرب وسموها بندا ، وسموه قسمين : ترجيع بند ، وتركيب بند ؛ ونظموا المسطر رباع وخماس إلى عشر .

وأخيراً ما في أنواع القوافي بالردف ، وهو كلمة أو أكثر تكرر في آخر الأبيات وتلتقي في التقية ، وتلتزم قافية قبلها .

وقد انتهى العرف بين أدياء الفرس إلى تقسيم المنظومات هذه الأقسام :

١ — القصيدة ، وهي منظومة على روى واحد كثيرة الأبيات لا تقل عن ثلاثين غالباً ، ويقلب على موضوعها للدخ والوصف مثل قصائد الأوزى والحافظي .

٢ — والفزل ، وهو منظومة ذات روى واحد ، قصيرة لا تقل أبياتها عن مائة ولا تزيد على خمسة عشر غالباً . وأصل موضوعها الفزل ، وأحياناً تتداول موضوعاً آخر . ويلتزم الشاعر ذكر لقبه الشري (النخل) في البيت الأخير مثل غزليات سعدى وحافظ الشيرازي .

٣ — ولثنوى ، وهو منظومة في القافية للرديفة ، يتهى كل شعريين بها في الروى . وقد اتسع لم مجال النظم في هذه القافية ، فنظموا بها للمنظومات المطولة التي تتجاوز عشرات الآلاف من الأبيات أحياناً ، مثل الشاهنامة ولثنوى ، وخمسة نظامي .

٤ — والرابعى ، وهو أربع أشطر فقط يتفق فيها الأول والثاني والرابع في الروى وبفرد الثالث غالباً . وهو ضرب شائع في الأدب الفارسي ، وقد انتقل إلى العربية باسم الدوبت . وقد حترجه العروضيون من بحر المرح ، ولكنه بها أعلن اختراع العرس . و يقول شمس الدين الرارزي :

« ولأن الزحاف المستعمل في هذا الوزن لم يعرف في الشعر العربي القديم لم ينظم شعر عربي في هذا الوزن ؛ ثم أنبل عليه الآن المحدثون للعبودون ، مشامت الزابعيات العربية في بلاد العرب كلها ، ونداولها الآن^(١) » .

٥ — والسمط ، ونظامه أن تنوالى ثلاثة أشرطة أو أكثر متعفة في الروى ، ثم بفرد شطر روى ، فنشركه به مظهره في المنظومة كلها ، كالمرج والحصى المعروفين في النظم العربى .

٦ — السند ، وهو قسمان تركيب بند ، وترجييع بند . وهو منظومة مفسدة إلى أناسم (القصم يسمى خاته) ، وكل قسم فيه أبيات متعفة في الروى ، بهيها يت مسئل . وهذا البيت المستقل يكرر بعد كل قسم كما هو ، يسمى النظم ترجيعاً ، أو يكرر رويته فقط ، يسمى النظم تركيباً . وهو بشبه الموشح العربى

الشعر الفارسى

١ — أوليه :

لا صرف شبتا من آثار القرس القدماء في الشعر ؛ وليس بين أيدينا آثاره من الشعر في اللغة الدهلوية أو اللغة الفارسية القديمة أو لغة الآريستاء . وبعبء ألا ننظم الشعر أمة ذات حضارة وأدب كالأمة الفارسية ، فلا مناص من أن نفكر أنهم نظموا الشعر ، ولم يبق منه شئ . على مر الأيام ، وربما كانت للنظومات القصيرة ، التي تصعى الدهليوات والتي تنظم باللغة العامية ، مثلاً عن الشعر الفارسى القديم . وربما فكون بعض أصرب العروض التي لا نظهر لها في الأوزان العربية بقايا من النظم القديم ، وإن وصلها العروضيون بالأوزان العربية .

وفد أدى ضد آثار الشعر القديم إلى أن شاع بين مؤرخى الأدب ، من العرب والعرب في المصور الإسلامية ، أن القرس القدماء لم ينطوا الشعر بقول ابن خنينة :

« ولعرب شعر لا يشركها أحد من الأمم الأعاجم فيه على الأوزان والأعارض والقوافي ، والتشبيه ، ووصف الديار والآثار والجبال والرجال والغلات ، وسمى القليل ، والنجوم .

وإما كانت أشعار العجم وأعاجيبهم في مطلق من القول ، ثم جمع مدح غرض منهم أشعار العرب ، ونهضوا الوزن والعروض فتكفؤوا مثل ذلك في العارسية وشبهوه بالعربية » .

وحلاصة ما ذكره محمد عوف في سلب الألباب — وهو أول كتاب في تاريخ الأدب الفارسي — أن بهرام حور أول من أنشأ شعراً بالفارسية ، وأنه معلم الأشعر من العرب ، إذ نشأ بينهم ووقف على دقائق لغتهم ، وأن له شعراً عربياً نابغاً ، وأن هذا المؤلف رأى ديوانه في خزينة كسب في بخارى^(١) وعاطفه وكسب أشعاراً منه وحفظ . ومنها أبيات نظمها حينما رجع إلى فارس واستقر على سرير الملك بنصرة العرب ، وعرض عليه حواصة أن ينروح ، ومن شعره أيضاً :

فكف لك لما طرقت حنوده كأنك لم نسمع بصولات بهرام
باني لحامي ملك فارس كله وما خير ملك لا يكون له حامى ؟

ثم يذكر عوف ديواناً فارسياً ارتجله بهرام في وقت طرده ويقول :

« مكمل أول من نظم الكلام الفارسي . وأما الأعرابي الخسروانية التي وصفها باربد في الأصوات أيام مرويز فكثيرة ، ولكنها بعيدة من الوزن والتضمية وأشياهما ، فهذا لا تعرض لها هنا . حتى جاءت ثورة آخر الزمان وسطعت شمس خلافة الحنفية والدين الحمدي على ديار العجم ، وحاور لطاف الطابع من العرس

(١) وبعد ذلك كتاب جامع مراد لمراد خا نيران أو مبدع است . ودر مطالعة آورده است وآنرا شعر سوزنده ويدرگرفته . از آن جهت این است این کتاب الألباب ج ١ ص ١٩ ط برارون .

مسلماً العرب ، واقتبسوا من أنوار مضائلهم ، واطلموا على أساليب لغة العرب ،
وحفظوا الأسماء الطموعة الزائفة ونمقوا في معانيها ، واطلموا على دقائق البحور
والمواثر ، وتمقوا الوزن والقافية ، والروي ، والردم والإيحاء والأستد ، والأركان
والقواصل ، وشرعوا ينسجون على هذا للنوال لطائف من نتاج طباعهم . . .
وحبها عات راية دولة الآمون رضى الله عنه في آخر سنة ثلاث وتسعين ومائة
— وكان ممتازاً في نبي العباس بالحلم والحياء ، والجلود والسخاء ، والوقار والوفاء —
كان في سرو واحد من أبناء الكبراء اسمه عباس منقطع النفاذ في الفضل ، وله
مهاذرة كاملة في علم الشعر ، وبصر شامل في دقائق الفنين ، فمظم بالفارسية
فصيدة مطلقاً :

أي رساليدہ بدولت فرق خودتا فرقدین

کسترائیدہ بحدود ومصل در عالم یدہن

« يا من . ما فرقه بالسعادة إلى الفرقدین ، وبسط في الصدام بالجلود
والفصل الیدہن » .

وبقول في اثنتان :

کس برین منوال پیش از من چنین شعرى نکفت

سزدان پارسی را هشت تا ابن حوج بین

لیک زان کعثم من این مدحت ثراتا این لغت

کیرد از مدح وثناء حضرت نو زب و دین

وترجمته هذا :

« ما قال أحد قبلى شعراً كهذا قط ، وما كان لسان العارضى بهذا عهد » .

ولكنني نظمت هذه اللدحة الزردان هذه اللفظة بمدحك والثناء عليك »
ولما رويت هذه القصيدة في حضرة الخليفة أحسن إليه ووصله بألف دينار
عين ، وخشعه بمزيد العناية والعطف .
ولما رأى الفضلاء هذا صرف كل طبعه إليه ، ونشئ بلم الببان فضلا على
صفحة الزمان .

ولم يقل أحد بعده شعراً فارسياً ، حتى كانت سبعة آل طاهر وآل الثبت ،
فمنع شعراء قائلون ؛ فلما كان عهد آل ساسان علت راية الكلام ، وظهر كبار
الشعراء ، وهدلوا بساط الفضائل ، ووضعوا العالم النظم نظاماً ، واتخذوا الشعر شعاراً^(١)
وكذلك يذكركم من الدين محمد بن فليس الرازي في كتابه « المعجم في معاني
أشعار المعجم » تربية بهرام جور في الحيرة وتأذبه بأدب العرب ، ويقول : إن
حداد بن أبي لؤلؤ (حداد الراوية) روى عن أهل الحيرة قطعاً من الشعر العربي
لبهرام ، ثم يروي بيت بهرام الذي يزعم القرمس أنه أول شعر فارسي ويقول :
« ورأيت في بعض كتب القرمس أن عطاء مصر بهرام لم ينسكروا شيئاً
من أحلانه وأحواله إلا قول الشعر ؛ فلما بلغت إليه سورة الملك ، واستقر له الأمر
تقدم إليه الحكيم أكثر باد بن زرادستان ونصحه قائلاً : « أيها الملك ؛ اهدأ أن قول
الشعر من كبار معاصي اللوك ، ودنى عاداتهم ، لأن أساسه على الكذب
والزور ، وبناءه على اللبائنة الفاحشة ، والفنوع الغرط ؛ ولهذا أعرض عنه عطاء
« لادعة الأديان وذمونه ، وعدوا مهاجرة الشعراء من أسباب « ملك المالك السالفة ،
والأهم الماضية . . . »^(٢)

(١) قبل سبب من السبب إلى قومنا الفارسي يكرهون الشعر ، فقال ؛ استكروا استكروا
أجرباً . فهل يدل قول سبب على أنه قد عُرِف عن القدم إذ ذاك كراهة الشعر ؟

مارعوى بهرام وأبلى شعراً جديلاً وصحبه ، وصحبه عنه أولاده وأقاربه ،
ومن أجل هذا وضع بهرام الجهرى — وهو أستاذ المودين — فى الشعر لحنه
وأغانيه فى مجلس روبر ؛ وهى التى تسمى «حسروانية» مع أنها كلها فى مدح
حمورو ، ولم يستعمل قط فيها منظوماً .

ويقول بعض الناس إن أول شعر فارسى قاله أبو حمص حكيم بن الأحوص
الشلمى ، وهو من سجد سمرقند ، وكان له فى صناعة الموسيقى مهارة نامية . وقد
ذكره أبو نصر الفارابى فى كتابه ، وصوّر الآلة التى آدى بهرود التى لم ينطق
أحد أن يسميها بعد أبى حمص ، وقال إنه كان حباً سنة ثلاثمائة من الهجرة .
والشعر الذى ينسب إليه هو :

« أهوى كوى در دشت جكوه دوذا ؟ بارندارد بى بار حكوه رودا .
« كنه بصر القلبي الجبلى فى الصحراء ! لا أنبى له ، فكيف يسير
بغير أنبى » اهـ

ذلكم ما بقوله محمد عوفى ، وهو أقدم من كتب فى تاريخ الأدب الفارسى ،
وما بقوله شمس الدين الزازى ، وهو معاصر له ، وهو القول الرّد فى كتب الفرس .
ومهما يكن فالنارنج بهى أخباراً وأتاراً لشعراء نظموا نكافة الفارسية فى
القرن الثالث الهجرى ، على فقه الأئمة من أخبارهم وأشعارهم . وقد ذكر محمد عوفى
واحداً فقط من الشعراء أيام آل طاهر هو حنظلة الباذغيسى ، وانتهى من
الشعراء فى عهد آل الذهب ، مما فيروز الشرفى وأبو سليلك الجرجانى . وإمارة
بهى طاهر فى خراسان استمرت من سنة ٢٠٥ إلى سنة ٢٥٩ هـ . وبعو الذهب أو
العماريون كانت لهم دولة بين سنة ٢٥٤ و ٢٩٦ .

والفاطر فى تاريخ الأدب الفارسى براه بنشأ وبقعرع فى خراسان

والأطراب النابتة من إيران ، في رعاية الإمارات الفارسية ، ثم يند على سر الزمان إلى الأصناف الأخرى ، وبمّ حتى يصير أدب الأقاليم الإيرانية رعاة الدول الفارسية وغير الفارسية ؛ بل يرى الفردوسي يقدم الشاهنامة للسلطان محمود الغزنوي التركي ، والشاهنامة في صميم أصولها الحسابة حذف حروب إيران ووزيران ، وفتحهم للفرس ، ونظم الطورانيين وم التوك

بأننا بطرنا إلى الدول التي سيطرت على إيران منذ القرن الثالث وهو العصر الذي نشأ به الأدب الفارسي الحديث وجدنا مصداق هذا :

لم يكن بنو طاهر دوى عناية بالأدب الفارسي ، ولا كان لهم من السلطان وطول للذة ما يجعل لهم أثرًا في هذا الأدب ، ولا عرفنا أن أحدهم مدح بشعر فارسي .

وبقول عوفي : « كان آل طاهر ذوى كرم طاهر ، وجود وافر ، وكان حبس اضاهم وإنعامهم عاتقًا ، ولكن لم يكن لهم اعتقاد في اللغة الفارسية وإثانة القدرية » . وقد روى أن عبد الله بن طاهر ألقى بقصة فرسية قديمة فأمر بإحراقها .

والصفاريون تنصل أخبارهم بتاريخ الأدب الفارسي قذبلًا ، ويقال إن أول شطر من الشعر الفارسي ترم به طغرل ليعقوب بن ألبت (٢٥٤ — ٢٦٥) ؛ وقد مدح بهشوب بشعر فارسي ، ولكن أثير الصفاريين في أدب الفرس ليس بفيما . وأما الساسانيون الذين ينسبون إلى الملك الساساني بهرام جور (٢٦١ —

٥٣٨٩) فكان لهم من سلطاهم وطول عهدهم ، وقيام دولتهم في الأصناف النابتة عن مراكز الحضارة الإسلامية والأدب العربي ، وانفساهم إلى العرس التقدم ما حباهم من حماء الأئمة الفارسي الناشئ ، وصحابة مآثرهم في تاريخه .

قد رعاوا الأدب الفارسي وسمعوا اللغات الفارسية ، ونظم بعض أمراءهم

الشعر الفارسي ، وسبق في أيامهم زهاء ثلاثين شاعراً . وألف لهم الملاء في الفارسية ، وترجموا إليها من العربية ؛ ألف كتب أبي منصور المروى في الطب^(١) ، وألف كتاب في التفسير ، وترجم تاريخ الطبري ونسبه ؛ هذه كتب أربعة هي أقدم ما وضع تاريخ الأدب الفارسي الحديث من شعر ؛ وذلك صارت الفارسية لغة علم وأدب ، وشرعت تشارك العربية في المشاركة بما استغلت به العربية منذ الفتح الإسلامي .

أما أبو بويه (٣٢٠ — ٤٤٧ هـ) فقد قامت دولتهم على مقربة من العراق العربي ثم سيطرت عليه ، فكان أدبياً عربياً خالصاً ؛ نظم كثير من أشعارهم شعراً عربياً ، ومدحهم شعراء العربية . وحسبنا قصائد المتنبي في عهد الدولة . وكان وزيراً لهم من حدة الأدب العربي وقادته . كان العميد والساحب ابن عباد ، ولم يعرف أن أحداً من ملوك بني بويه ووزرائهم مدح بشعر فارسي إلا صاحب المدح شاعران من شعراء الفارسية ، هما الخسروي والطنطقي . فإذا نسبنا عن مدح صاحب من شعراء العربية نبهت المروى بين الأدبين في تلك البقاع .

وكان ملوك الدولة الزيدية في طبرستان (٣١٦ — ٤٧٠ هـ) يتقربون إلى ملوك الفرس القدماء إلى الملك نيزاد (٤٨٨ — ٥٣١ م) وقد أحجروا قابلاً من مجرى الحوادث والمصاهرة ، بمكانهم في هذا الإقليم الساحلي الذي نفضته من إيران تلك الجبال الشاهقة ، حبال البرز وما يتصل بها . وقد نسبوا أسماء فارسية مثل قابوس وموسوهر وكيككوس ، وعتوا بالأدب الفارسي ، ونصدم ببعض شعراء الفرس ؛ مدح قابوس بن وشمكير الشاعران الخسروي والقمري الخرجاني ، ومدح ابنة متوجهر الشاعر الذي سمى نفسه متوجهرى نسباً إلى هذا الأمير . وقد

(١) منه نسخة مخطوطة في فيينا ، وهي أقدم مخطوط فارسي . كتب سنة ٤٤٧ .

ألف كيكساروس حميد فابوس كتابا فارسيا في الأخلاق سماه فابوس نامه .
ولكن شيخ هذه الدولة فابوس كان كاتباً في العربية ، ولا تزال رسالته
للإمام كمال البلاغنة في أيدينا .

وأما الدولة الفرتوية (٣٥٦ — ٥٧٩ هـ) فقد امتد سلطانها على شرق
إيران وقسم من خراسان ؛ وكان فيها بعد أن ازدهر الشعر الفارسي بعد
ملوكها — ولم ترك لا ينصبون للفارسية — كثير من شعراء الفرس ، وألفت
لهم كتب كثيرة بالفارسية . وأثر عن السلطان محمود وابنه محمد شعر فارسي .
وكانت غزوة في عهد محمود وابنه حافظ بكبار الشعراء من الفرس ، أمثال
العنصرى والأسدى والمجذى والمرتضى .

وحسبنا أن الشاهنامه — وهي الحفصة الفارسية الكبرى — تم نظماً
في عهد محمود وقد مدت إليه ^(١) ؛ وسنفضل الكلام عنها في فصل الفصص الآتي ،
وألفت لمحمود كتب بالفارسية ؛ كتب التبيين أحد شعرائه نازكاً بهذه
اللغة ، وكتب التبريزي كتاب التهم في النجوم الفارسية والعربية . . .
وقد عد صاحب السبب الألباب ثمانية وعشرين من الشعراء الذين سبوا في
عهد الفرتويين أيام سيطرتهم على خراسان وما وراء النهر .

وفي عصر السلاجقة — هؤلاء الترك الذين سيطروا على آسيا الغربية — من
الهند والبحر الأبيض مدة طويلة على اختلاف الأحوال — نبغ شعراء كثيرون
عند منهم عوفي في لباب الألباب أكثر من مائة شاعر ، فهم كثير من أكابر
شعراء الفرس ، مثل الأنورى والحافظى والغيام ونظامى .

(١) يرجع في بعض هذا إلى نسخة الترجمة العربية للشاهنامه .

أول شاعر فارسي عظيم :

اتفق مؤرخو الأدب الفارسي على أن أول شاعر كبير ، سُجِّلَ شعره في ديوان ، هو أبو جعفر الرودكي ؛ لم يكن أول من نظم الفارسية ، فقد سبقه جماعة إلى الانظم . وقد جمعه صاحب اللباب السابغ في ترتيب الشعراء ، ولكنه كان أول من أفاض في الشعر فأثر له ديوان .

وكان لقدمه ومكانته أن أتى عليه الشعراء من بعد ، وحملوه معرب للثل في الشعر والمخطوطة عند الملوك ونبل صلاتهم . وقد أثر الثناء عليه والإعجاب به عن شعراء عظام ، مثل الديلمي والمنصري . وقد سماه معروف الباهلي سلطان الشعراء .

ولد في قرية من قرى سمرقند ، اسمها رودك ، وحفظ القرآن وهو ابن ثمان سنين ، وتعلم الفراءات ، ثم فرض الشعر ونسخ فيه وفي اللوسيفي ، وكان حسن الصوت جداً . وحظي برعاية ملوك بني سامان ، ولاسيما نصر بن أحمد الساماني (٣٠١ — ٣٣١) ومدحهم كثيراً ، وقال بعض الشعراء :

لولا جهود الجلود أنكر سامع ما قاله حسان في غسان
وترى ثناء الرودكي غشقا من كل ما جمعت بنو سامان

ونال من الثروة منالا ، حتى قيل إنه كان يركب في مائة عبد ، ويعمل تقفه على مائة رجل . وقد قال الشاعر المنصري :

جهل لزاردم رودكي زهتر حویش عطا كرفت ز نظم آوری بكشور حویش
« نال الرودكي بالشعر وهو في موطنه أر بهین ألف كرم من مدوحه » .

وقد بالغت الروايات في تقدير شعره ، فقيل إنه دون في مائة دمت ، وقال

الرشيدى الشاعر : إنه عد أشعاره فإذا هي ألف ألف وثلاثمائة ألف^(١) .

ومن القصص الشائعة التى لم ينفها كتاب من كتب التراجم التى ذكرت
الرودى ، قصته مع الأمير نصر بن أحمد . وخلاصة ما رواه المروصى صاحب كتاب
جهار مغاله :

أن الأمير نصر بن أحمد السامانى كان يشترى بمصر قند و بصيف ببغارى ،
ولكنه توجه سنة إبان الربيع إلى باذغيس من نواحي هراة ، فأجبهته مياهها
ومراعيها ، ثم رحل منها إلى هراة رأى من طيب هوائها وكثرة فاكهتها وأزهارها
ما حثب إليه القام ، وما زال يرجو الرحيل من فصل إلى فصل حتى أمضى
أربع سنين .

واشفاق الجند إلى أوطانهم ، ولم يستطع أحد من الكبراء أن يكلم الأمير
فى الرحيل لما رأوا من إجماعه بهراة وإطناة فى وصفا ، فذهب رؤساء الجند إلى
أبي عبد الله الرودى ، ولم يكن بين ندما الأمير أعظم منه مغاما ، وألفذ منه عند
الأمير فولا ، ووعدوه أربعة آلاف دينار إذا صنع لنا يترك الأمير من هذه
الأرض إلى بخارى ليروا أولادهم وبلادهم ، فقبل الرودى وكان قد عرف مزاج
الأمير ، فنظم قصيدة ودخل على الأمير حين السبوح ، وأخذ مكانه من المجلس .
فلما بدأ المطربون أخذ هو الرباب وشرع ينشد هذه القصيدة فى نغمة الشواق :

جوى جوى مولبان آبد هـى جوى يار موربان آبد هـى

(١) كرى سرى باههالم كسى شكو شامى روى دابى سرآند شاهراى زبى سرى

شرواوا من قهر دم سيز دمره صدهزار م مزون آبد آكر جوان كه بابى بشرى

« إذا آل الرئاسة أحد بحودة الشر فالرودى جعفر برئاسة الشراء .

« عدوت شره فإذا هو مائة ألف ثلاث عشرة مرة ؟ بل يزيد إذا عد كما يبنى » .

ثم يقترب وينشد .

ديك آموى ودرشقى راه أو زیر پایم پریشان آید همی
آب جیوهون از نشاط روی دوست خنک مارانا مہان آید همی
أی بخارا شاد ماش و دیر زی میرزی تو شادمان آید همی
میر ماضیت و بخارا آسمان ماه سوی آسمان آید همی
میر سرواست و بخارا بوستان سرو سوی بوستان آید همی^(١)
فلما بلغ الرودكى هذا البيت بلغ من قاتر الأمير أن نزل من النخلة وركب
مرس المومة غير متعل ، وتوجه إلى بخارا فعمل الخدم العمل وانبعوه مرسخين
حتى أمسها ، ولم يلو على شيء حتى بلغ بخارا .

فصاعق الجند للرودكى خسة الآلاف التي وعدوه بها .

وقد أثبتت هذه الأبيات في أصلها ليري القارئ — وإن لم يعرف العارضة —
نموذجاً من الوزن والقافية في شعر الرودكى حليلة الشعراء العظيم . والقصيدة
من الرمل ، وهو وزن عربي أولع به الفرس ، والقافية مردومة ؛ والهدف أن تكرر
كلمة أو أكثر في آخر الأبيات ، ثم تنفي القصيدة ونفي على روى قبل اللفظ
السكر . وهي صنعة محبة إلى شعراء الفرس جداً ، وابست مألوفاً في الشعر
العربي . وهي مسألة حذرة بالاهتمام في تاريخ نشوء الأدب الفارسي .

(١) نزهة الأبيات :

« چه نام جیوهون دوما و بآق شسفا الأحياء دوما
رمل جیوهون و حروقة طریفه تنس لدى من الحرير دوما
ماه جیوهون من السرور بوجه الحب بشی إلى حایز حادانا دوما
الفرس بخارا واشغلی فان الأمير إليك يؤوبه دوما
لأن الأمير فر و حازا صماء والفرس یسرى في السباء دوما
ولأن الأمير سرو و محاروا منک والسرور یحتال في البستان دوما

وليس يصحنا هنا تجميع أخبار الرودكى وقد الروايات التي تضمنت أخباره وشعره ، غلبنا أن نقول إن الأخبار متفقة على أنه طليعة الشعراء الكبار في الفارسية الحديثة ، ومن أجل هذا ينبغي أن نقف عنده ونفقه لنعرف ضروب شعره وأنواع قوافيه وأوزانه ، ونقبها بشعر اللاحقين والمعاصرين ، فلتبين خصائص الشعر الفارسي منذ نشأه ونعرف كيف تطور من بعد .

شعر الرودكى الذي عدّ بمئات الألوف لم يبق منه إلا قطع متفرقة في كتب اللغة والأدب . وقد جمع الدكتور إيتى منه ٥٢ قطعة منها ٢٤٢ بيتاً ؛ ومن هذه البقية الصالحة نستطيع أن نقبين بعض موضوعات شعره وضروب قوافيه وأوزانه ، وهي لا تختلف عن معاصريه ومن جاء بعده .

ويمكن أن يستخلص من أخبار الرودكى وشعره النتائج الآتية :

- ١ — الإكثار من النظم والإسهاب . وهي سنة شعراء الفرس كلهم .
- ٢ — نظم الرباعيات ، والوزن والتقفية هما يشهران أن يكونا فارسيين وإن حرهما علماء المروض من بحر المزدج . ولعله ضرب من النظم عرفه الفرس قبل هذا العصر ، ولم يؤثر إلا حياء نبغ شعراء الفارسية متأثرين بهم .
- ٣ — النظم على الأوزان والقوافي المربعة مع التوسع في الزخافات والعلل وإدخال اللفظ في القافية ؛ وهذا يدل على صنعة قد بدت في القافية قبل الرودكى ؛ ولكن لا يبعد أن تكون من اختراعه .
- ٤ — الاهتمام بالقصص ، فقد نظم الرودكى كتاباً كليله ودمته في القافية للزوجة التي يسميها الفرس للشوى . وقد سبق إلى نظم هذا الكتاب في اللغة العربية ؛ ولكن نظم الرودكى يعدّ إيذاناً بما في طباع الفرس وما دل عليه تاريخ أدبهم من الولوج بالقصص والإطالة فيه .

٥ — استمداد التاريخ الفارسي والتاريخ العربي في الموضوع والتصوير .
وهذه سنن سار عليها شعراء الفرس منذ عصر الزودي إلى هذا العصر .
وبرى مؤرخو الأدب الفارسي أن التطور في المعاني وأصاليه وموضوعاته غلب ،
شعر الزودي بنشد اليوم فلا يمتاز في لفظه ووزنه وقائمه وموضوعه كثيراً عما
نظم في العصور التالية إلى يومنا هذا .
في شعر الزودي أكثر خصائص الأدب الفارسي الحديث .

الشعر الفارسي

موضوعاته وخصائصه

١ —

كنت أسير في استانبول مع أديب تركي عالم نتحدث في الأدب ،
سألني ماذا ترى في الشعر العربي والفارسي ؛ أيهما أبلغ وأجمل ؟ قلت : أرى
أن الشعر العربي أبلغ وأجمل في حقائق الحياة وعُددها : من الأخلاق
والسجيا والمكارم والآثر ؛ والحرب والسلام ، والنفي والغفر ، وغير المدهر وحادثات
الأمم ، والشجاعة والإندام ، والصبر ، والكبرياء والإباء ، والسجاء ، والوفاء ،
والإيثار ، وحماة الجار والضعيف ، والغفور من الحيوان ، والثورة على الظلم ،
كل هذه الأخلاق أشيع في الأدب العربي وأجمل ، ففاض بها الشعر العربي
منذ عصور الجاهلية وغنى بها في كل عصوره .

نعم قلت ؛ وأرى الشعر الفارسي أبلغ وأجمل في الدقائق العسية ، والمواضع

الخلفية ؛ ومن أجل هذا يبع شعراء القرس في الشعر الموفى . وكذلك يعوق الشعر الفارسي في القصص .

كان هذا الجواب عموماً للدينية ؛ ولكن لا ينفقه التعكير من بعد . وقد اعلمت في كتاب أردني اسمه « شعر الهند » أنه الأستاذ عبد السلام الندوي على هذه المفردات :

« الشعر الأردني ظل الشعر الفارسي في أكثر موضوعاته ، عقبه من المبوب ما يرى في الشعر الفارسي إذا فُهِس بالشعر العربي » :

١ — يذهب الشعر العربي بموضوعات البطولة ، والشجاعة ، والإنذار ، والمخاطرة ، والعزة ، والغيرة ، والحزم ، والحربة ، والسجدة ، والإبصار ، وفري الصب ، وما إلى ذلك ؛ وهي موضوعات غلبت في الشعر الفارسي والشعر الأردني .

٢ — يفتقر الشعر العربي تصويراً يبين أحوال المصاردة والاحتجاج ، وأحوال الأمراء ، وأساليب العبث والأزهار ؛ وهذه أمور لا تثار في الشعر العربي والفارسي والأردني .

٣ — أغرم العرب بالمرأة ، وأنابوا في التغزل بها عن المواعف الإنسانية السامية ؛ والشاعرون الفارسيون والأردنيون يتخيل معشوقاً يتحدث عنه في جوانب كثيرة غير مستحسنة . يهبط الماشق والمشوق من الدرجة الأخلاقية .

وكذلك يرى في الشعر الأردني من ألبا الشعر الفارسي التي يجر بها الشعر العربي ؛

١ — للتوبيات كثيرة في الشعر الفارسي والأردني ، ولا توجد في العربية (بقصد المنظومات الطويلة في القافية المزدوجة وأكثرها قصص)

٢ — مشاعر اليبع والأمطار التي صورها شعراء الفارسية والأردنية تصويراً

دقيقاً لا يستطيع شعراء العرب تصويره ، لأنهم لم يروه^(١) .

٣ — القرس بموطن العرب في خيالات الحب والعرام . وقد أبدع الشعر الأردى في بيان لطائف المثلث ودقائقه بحكاية للشعر الفارسي .

٤ — العليسة والنموف في الشعر الفارسي والأردى لا نظير لها في الشعر العربي^(٢) .

والخلاصة أنني وجدت في هذه التفردات تصديق ما قلته وإن اختلف رأيي ورأي المؤلف المحدثي في التفصيل .

— ٢ —

الآداب الواسعة السكينة تتناول كل عواطف الأمة وآمالها وآلامها ، وكل المشاعر والحوادث والمزاجات ؛ فلا نجد أدباً كاملاً من آداب الأمم يملو من موضوع تناوله أدب آخر ، ولكن يختلف ميل الأمم إلى الموضوعات ، وتصوير الآداب إليها ؛ بمعنى الموضوعات نوع به أمة وتعبير فيه ، وتفنن في تصويره حتى يكون ديدن أدبائها ، وصورة واضحة في أدبها ، ومزجة من مزاجها ؛ بهذا تتناولها الأمم الأخرى فلا تجد تصويره ، أو تقل معالجتها إياه ، أو يأتى في أدبها عرضاً أو إشارة .

وبالموضوعات التالية على الأدب ، والصور الثلاثة فيه التي تكشف

(١) وصف الطير والرياح كثير في الشعر العربي ، فلا نجد تقديراً دعواً إلا أن يرد منظار أقطار الهند وعاجها ، أو يريد أن يشراء القترسة والأودية أمثالاً لها أكثر من شعراء العربية .

(٢) أما التصوف فلا نتناول فيه ، وإنما الملاحظة ؟ ولا سيما الحكمة فلا مثل فيها هذه المعنى .

الصور الأخرى ، تتميز الآداب وتعرف . حسب الكتائب في هذا الفصل المحمل أن دين الموضوعات التي تطلب في الأدب الفارسي حتى تعد من معالها ، وتسمى حتى تحسب من معافره ؛ وإنما يحى الحديث عن الموضوعات الأخرى نوبة للبحث وتكبيلا للموضوع .

(١) الفصل في الشعر الفارسي

رأبنا في شعر الرودي — أول شعراء الفرس العظام — كثيراً من موضوعات الشعر الفارسي الحديث ولخصائصه ، وقلنا إن نظمه كتاب كليل ودمنة كاث إذا ما عرف في الأدب الفارسي بعد من الكاث مائة والإطالة فيها . ونقول هنا إن ميل الشعراء إلى القصص لم يلبث أن امتد في شعر أبي المؤيد الباهلي ، الذي نظم قصة يوسف وزليخا ، وهو من شعراء الدولة السامانية . وقد ذكره الفردوسي في مقدمة منظومته « يوسف وزليخا » .

ثم جاء أبو منصور الدينقي من شعراء القرن الرابع ، ومن الذين مدحوا الصاغانيين ثم السامانيين ، وتوفي حوالي سنة ٣٧٠ هـ . وهو أول من شرع ينظم أساطير الفرس القدماء وتاريخهم ؛ أمره هذا الأمير روح بن منصور الساماني (٣٦٥ — ٣٨٧) اختار عمر المتعارب ونظم ألف بيت في سيرة الملك كشتاسب وانتصاره لزادشت واهتمامه بنشر دينه . ثم قُتل وهو شاب ، بقي هذا العمل المرقق ينتظر شاعراً مقلداً صبوراً يضطلع به ، حتى جاء أبو الفاسر الفردوسي الشاعر الطموح الصبور ، سكف على نظم الكتاب رهاء ثلاثين سنة حتى فرغ منه . وهو يقول في مقدمة الكتاب : « فلما قرئت هذه القصص على الناس أعارتها الدنيا سمها وقلها ، وأواع بها العقلاء والحسكاه حتى ظهر نبي صريح اللسان ،

حسن البيان ، ذكى القواد ، فقال ما نظم هذا الكتاب ، عرج الناس به لى
فرح . . ثم القاب به جده قتله أحد عبيده ؛ نظم ألف بيت عن كشتاسب
وأرجاسب . ثم انحنى عمره فذهب والكتاب لم ينظم الخ .

ثم يقول الفردوسى فى مقدمة سلسل كشتاسب إنه رأى الدقيقى فى المنام
فسأله ألا يعمل عليه يائبات ألف البيت التى نظمها فى كتابه فائتبعها . وقد
نقدها الفردوسى وناسها بشعره ، وبين قصور نظم الدقيقى عن نظمه .

المشاهدة :

فى هذه المنظومة الحائلة رهاه خمسة وخمسين ألف بيت من البحر المنفارب
والقافية المردوجة (التنىوى) ، وهذا الوزن يلائم الحاسة ، ويفتح الإنشاد .

ولهذا الكتاب عند القرس مكانة عظيمة ؛ هو سجل تاريخهم وأساطيرهم ،
وأناشيد مجدهم ، وديوان لغتهم ، وموضع سرهم وطوهم ، ينشدونه فى المحافل ،
ويصغى به العالم والجاهل . يقول شبكيس : « وقد استمعت إلى أبيات منها يشدها
يدوى غاضب لا يبرأ ولا يكتب ، فرمت كفى يبذل الفارسى روحه فى مثل
هذا الموقف » .

ويقول نطيرگه ما خلاصه (١) :

« إن الفردوسى شاعر مطبوع يستولى على مكر الفارسى ، ويهوى الفصة
القائمة بإتقان المثلين ، مل كثيراً ما تخفى الأوصال فى حلال الأفعال ؛ وهو
يفضل الحوادث المجل تصبلا حسنا ، ويخلق حادثات صغيرة أحببانا ليكمل الوصف ؛
وهو صبر بإحياء الأطفال وأحيانا بخلفهم على غير ما صورتهم الأساطير . وما

أودره على بيان ما وراء أمثال الأبطال من أسباب وأفكار ؛ ووصفه النفساني رائع ، وثقمة البطولة مسموعة في الكتاب كله . وعظمة الماضي وأبيته ، وفرحه وفرحه ، وجهاده وجلاده مصورة في أسلوب عجيب ، حتى نسمع القاري صاهل السهوف ، وصوصاء الحافل . هو لا يبلغ في التفصيل مبلغ هوميروس ، ولا يستطيع أن يجلد واقعة في كلمات قليلة مثله ؛ ولكنه مع هذا ، يمشی فذماً إلى غايته حين يصف الزفائع ، وإن يكن في المطلب والرسائل ثرثاراً كسكل فارسي .

مشاهد الحرب تأتي القاري في كل فصل ؛ ولكن هناك مهادين للحب ، والمواطن الطيبة أبصاراً هناك فصص غرامية رائحة كقصص زال وروزابه وفصصة بجرن وبهره . وهي أجمل أصول الكتاب .

والشاعر في هذا — بل في الكتاب كله — يملك القاري بسهولة الوصف . وعاطفة الأمومة والأبوة والقرابة بينة في الكتاب كله ؛ ولكن بصحبها الغلابة إلى الدماء ثاراً للأقارب ، قصة الانتقام لدمياوش — مثلاً — نشغل صفحات كثيرة جداً . وهذا الغلابة إلى الدم يتجلى حتى نحد الرجل الوفور جوذور يشرب دم يبران أطوب أعدائه نفساً .

هذا الوصف المذهب الذي يصعب « تلكه » لا ينقص ما يرى في الشاهدانة من عيوب ، كتنكرار صور غلبلة من التشبيهات في مواضع كثيرة ، وكالإطالة الملهة في وصف عبثة الجيوش وقتالها ، وتكرار هذا في وقائع متعاقبة ، كما يصف السارزة بين عشرة من فواد الإيرانيين وعشرة من قوم التورانيين ، ويسمى كل فريقين ووصف مبارزتهما ولا^(١) .

وأغفل هنا الزافنة التي أشار إليها تلكه في آخر الفقرة التي رزحتها عنه ،

تكون نموذجاً من نفس الشهامة على اختلاف ما بين العظم والشعر ، والتضميل والإحمال ^(١) !

مبارزة جوهرز ويران وفل جوهرز له

« زحف البهوان أحدهما إلى صاحبه ، وتقاتل رماها طويلاً ، ثارة بالسيف ، وأخرى بالرمح ، ومرنة بالخناجر ، وأخرى بالسند ، حتى كل كل منهما مل . فزانيا فأصاب جوهرز فرس ييران بشابهة حرفت التصاف ، ومرنت فيه ، فانقلب على ييران فانكسرت يمين يديه ! فضلب في القراب ، ثم وثب وعذاً هاربا نحو جبل هناك ، فارتقى فيه وهو يرجو ألا يلقمه جوهرز . فنظر إليه جوهرز فأدرك دمه واستشر انثنية من نصاريف الأيام ، علماً منه بأن الدنيا عذارة ، وأنها الجلاء ، وعادتها الغدر وظلة الوقاء .

صاح به وقال :

أيها البهوان المذكور املك نفراً بين يدي راجلاً ؟ أما زعت أمك لا ترى لنفسك مساحلاً ؟ أين ذلك المبقى الجرار ؟ ما جاك لا يمينك منهم أحد ؟ أين عدتك وشوكتك ، وأين بطشك ونفوتك ؟ لقد أدبرت السادة عنك ، وانكسفت شمس أمواسياب عما حدث بك . وإذا بلغ بك الحال إلى هذا مبهني لك أن تسأل الأمان حتى أحملك حياً إلى لك كبخسرو ، فألك شبيب مثل أشيب الزأس ، وفد رق غلب عليك ولست أربد خلتك .

يران — « حاشى من هذا ، ومن أن أذل لأحد من الأيام . إلى لم أولد إلا للجهام ، ملا أحب أن أموت إلا ميتة السكرام .

فترحل جوهرز ، ورجع القوس فوق رأسه ، وصعد إليه مرماة ييران

(١) المرحمة العربية ج ١ ص ٢٦٣ .

يمرراق كان معه فأصاب صد جوهرز ، وهرق منه . فاستشاط حودرز عند ذلك ورماء بمزراق في ظهره فنفذ من كبده ، ففار الدم إلى فيه ، ووقع إلى الأرض يشترغر بحشائشه حتى فعى نحيه . صعد إليه جوهرز ، وغرف من دمه عرفة وثمرها تشعيا لمباوخش وأولاده (أولاد جوهرز) السبين . وهم بأن يحتر رأسه فأدركه رقة منعتة من ذلك ، فزكه وغرز عقه عند رأسه ليحمي وجهه من حر الشمس . وركب وعاد إلى عسكره والدم يفيض من صدده مبهشا . فانظر إلى التمسجل فيما وقع بين اللتبارزين ، وهي مبارزة الفائدين بعد مبارزة عشرين من الأبطال . ثم انظر ما أطلق به الفردوسي جوهرز حين رأى فرقه قد أصيب فرسه وانكسرت يمينه ، ففد عمله يعتبر وبهذ كر غير الدهر وتقلبه . وهذا ديدن الفردوسي في كل الوقائع . ثم تراه لم بهارل تحذير عدو الإيرانيين ييران لجمعه يؤثر اللوت على الأسر ، وجعل جوهرز يقلبه رمية سهم أصابت فرسه بعد أن أجهزه أن يقلبه بالسيف والرمح والخنجر والموود . ثم جعله يشرب من دمه انتقاما ، ثم برق له فلا يقطع رأسه ، ويحمي رأسه من الشمس بعقه .

هذا مثال منشور محل من قصص هذا الكتاب . وفيما يلي مثال ترجمته نظما ، وهو بصف ما فعلته أم سهراب حينما جاء الخبر بأن ابنها قتل بيد أبيه وسهم :
 وتوزان دوت بهذا الخبر بصرع سهرابها المنتظر
 لذلك سجنجان^(١) جاموا سراعا فخذ عليه الثياب النباعا
 وأخبرت الأثم أن البطل بسيف أبيه أناه الأجل
 فزقت الدرع أطلساؤها وشقت من الحزن أسنارها

نَنْ وَتَهَارُ هُمْدُ الْحَزِينِ وَيَنْتَابِهَا لَوْتُ فِي كُلِّ حِينِ
تَلَفْتُ أَصَابِعَهَا بِالشَّوْشَرِ مَنَجَزَتْ مِنْ أَصْلَانِ الطُّرُورِ
وَتَذُرَى عَلَى الْخَلْدِ دَمْعُ الدَّمِ وَتَكْجُو وَنَهَضَ فِي اللَّائِمِ
نَعَضْتُ عَلَى السَّكْفِ فِي يَأْسِهَا وَتَذُرُوا الْغَرَابَ عَلَى رَأْسِهَا
نَقُولُ : بِنَى وَدُرُوحِي ! تَرَى بَأْيَةَ أَرْضِ طَلُوكِ الْبَرَى ؟
مَنْجَعْتُ الطَّرِيقَ ضَلَالِ الْبَصَرِ عَنْ ابْنِي وَرَسْمِ أَبِي الْخَطَرِ
حَسْبُكَ جَاوَزْتَ مَهْلًا وَصَعْبًا وَطَلُوتَ فِي الْأَرْضِ شَرْقًا وَغَرْبًا
وَجِئْتُ أَهْلَكَ وَحُمُ الْأُتْقَى فَأَنْبَلْتُ نَحْوِي تَحْتَ الْخَطَى
وَمَا خَلْتُ أَنْتَ الْأَدَبَ لِلْعَمْرَا يَحْطُمُ فِي صَدْرِكَ الْحَنِيجْرَا
أَلَمْ يَرْحَمْ الْغَامَةَ الْمَسَالِكَةَ وَوَجْهَكَ وَالْوَفْرَةَ السَّائِلَةَ
وَذَلِكَ الشَّطَاطُ — أَمَا يَرْحَمْ — بِجَزْفِهِ بِالْخَطَى رَسْمًا !
إِلَى أَنْ يَقُولَ :

وَجَاءَتْ إِلَى تَاجِهِ تَلْسُدُم دَمِ الْقَلْبِ فِي دَمْعِهَا بِنَدَمِ
وَجَاءَتْ إِلَى مِرْوَةِ الْعَظَائِرِ إِلَى زِينَةِ الزَّمَنِ النَّاسِرِ
فَلَزَّتْ إِلَى رَأْسِهِ صَدْرَهَا يَرَى الذَّاسَ فِي حَبِّ أُمْرِهَا
تَقْبِلُ حَبْلَهُ جَهْدَهَا وَتُدَى حَلَاثَتَهُ حُدَهَا
وَجَاءَتْ لِحْظَتِهِ فِي كَدِّ نَامَتَهَا كَانَهَا الْفَتَقَدِ
وَجَاءَتْ إِلَى السَّيْفِ وَالْيَقْمَةِ^(١) حَالِقِيهِ فِي حَوْمَةِ الْأَمَمِ
وَجَاءَتْ إِلَى دَرَعِهِ وَالشَّلِيلِ إِلَى الْقَتُوسِ وَالسَّهْرِ الْعُلُوبِ
وَبِالْفَرَسِ جَاءَتْ وَلَجَّتْ الْذَهَبَ نَعَكَ بِهَا رَأْسُهَا الْمَسْتَبَ

(١) التَّمْعَةُ : قَنْبَرٌ مِنْ حَدِيدٍ بِصَرْبٍ بِهِ وَهِيَ السُّودُ وَالْجُوسُ وَالْمُرُورُ (نَبَرُ كَرَز)

ووهي ثمانين في الأذرع تنقل بها جيسها لا نفي
 ونالود جامت وبالجوشن شبيب بليت الوعى العطش
 وثارت تجرد من — سبعة تحرق السببية من طرده الخ
 ونهين فذرة الشاعر وجلده في القصص الطويلة كقصه مهراب ورسمه ،
 وهي سنانة وثمانون بيتاً ، وقصة رسمه واسفندبار وهي تسعون وسنانة وألف بيت
 كما ندين مهارة الشاعر وحسن احتشاله في الوقوف المرحضة ، فهو يحتال انذاك
 رسمه وابنه مهراب الذي خرج من بلد أمه ليأتي أباها ، وهو يعمل على عصده
 خرزة أعطاها رسمه أمه لتعانفها على عصده مجرمه بها ، ثم يلتقي الابن والأب
 في معارك عدة ، ونتمت الخواص ولا يعرف الأب ابنه إلا بعد أن يصرعه
 ويفسره بمنجيره صريرة قاتلة ، والشاعر في هذا كله يحتال ويتعاطف ليجعل
 القصة ممكنة عقلاً .

وأخرج من هذا موقف الشاعر في حرب رسمه واسفندبار ، رسمه بطل
 إيران الذي كفل لها النصر على أعدائها ، وأنقذها من كل كارثة أكثر من
 ثلاثمائة سنة . واسفندبار ابن الملك كشتاسب البطل الناشئ ، بطل دين
 زرادشت الذي أشبه رسمه في وقائع كثيرة . ونهني الخواص بالنقاء الطلوع في
 الحرب ، ولا تريد القصة أن تجرد تاريخ الطلل القديم للترويج بمآثر العصور
 الأطلولة ، ولا أن يغض من بطولة اسفندبار ابن الملك ، و بطل الدين الجديد .
 وهذه خلاصة محملة جدا :

كشتاسب وعد ابنه اسفندبار أن يهوض إليه الملك إذا انتصر في بعض
 الحروب ، ففعل واسفندبار أباه الوعد . ويريد كشتاسب أن يجرمه على حرب
 رسمه البطل القديم لأنه اغتر بنفسه وأقام في وطنه ، ولم يدال الملك كشتاسب ،

وبعظم اسفنديار رستم ويثني عليه ، فيأى أبوه إلا أن يسفره إليه ؛ فيخرج البطل كارهاً حرب البطل ؛ بهذا أول تخيل في القصة .

وسار اسفنديار إلى زابلستان موطن رستم ، وأرسل ابنه مهن بدعو رستم إلى طاعة الملك ، وبخبره أن الملك أقسم في غضبه أن يأنه رستم مقتبدا . فمجبب رستم ذاكرًا مآثره وماضيه في خدمة الملوك ، وبدعو اسفنديار إلى صباهته واعدًا بأن يسفره إلى الملك .

وبتلاني البطلان على الود والنصاف ، يستضيف رستم اسفنديار ، فيعتر رستم الملك لم بأذن له في المقام ، و بدعوه إلى أن يبر بين الملك .

وانتهى الأمر إلى أن احترب السلطان ، وكانت سهام اسفنديار المسكية نعال رستم ، ولا فصل سهام رستم إلى اسفنديار ، فخرج رستم وورثه (فرسه) .

فاستعان زال أبو رستم بالعنفاء — وهي التي رثت زالارصومًا — فأرأت رستم والرخش من الجراح ، وأعطته فصًا من الطراء بتخذه سهام برى به اسفنديار .

ثم بذهب رستم إلى اسفنديار وبصرع إليه لبكف عن حر به فبأى ، فبزميه بالسهم فبصبت حذفته .

وبنوجع رستم لما أصاب اسفنديار ، وبغزف اسفنديار أن الذي أنله هو أبوه الملك كشتاب الذي ألقاه إلى حرب رستم . ثم بومى إلى رستم بولده مهن ابرتيه ، وبصاهدان على هذا .

وهكذا تنهى القصة ، والقارى لا بدرى من الغالب ومن الغلوب ، وإذا البطلان بر بثنان من جنابة هذا القتال ، كلاهما مكره عليه ، وكلاهما لم يجد منه

بدأ^(١) . وقد قتل رسم اسفنديار وهو يحبه كما فعل بروتس قيصر .

الشاهنامة والقصص الأخرى :

الشاهنامة سجل ما وعنه الروايات الفارسية من تاريخ وأساطير . قد تقدم العصور إلى المنح الإسلامي . وقد جمعت ونظمت لتكون تاريخاً لأفوم . وهي مرئية ترتيب التاريخ ، تتناول أربعة دول ، تتدرج من الخرافات إلى التاريخ حتى تنهى بالدولة الساسانية والفتح الإسلامي . ويستر القمص به ٣٨٧٢ سنة . وهي ليست قصة واحدة كالأليانة والأوديسة والمهاشيتا والرامايتا والإلياذة وغيرها . ولكنها تحتوي على قصص حاسبة أو غرامية ، كل واحدة منها تشبه هذه الملحم . يمكن فصلها من الشاهنامة ؛ مثل : حرب بنى أفريدون أو حرب كيكالوس والبنى ماريدران ، أو قصة سهراب ورستم . من القصص الخمسة . مثل : قصة زال وروذابة ، ويزن ومنيرة من قصص الحب .

وكذلك يظهر القاص — وهو الشاعر — في أثناء القبول ، واعتقاً أو شاكياً ، لأنه يجد مرُجاً بين القصص فخير فيها ، لا كالمقصص الأخرى التي يحنق فيها القاص في القصص كله .

وهذا مثل من تحدث الفردوسي عن نمشة أثناء التنظيم :

شكوى الفردوسي من الدهر

أيا هلكا دائراً غالباً غدت على كبرى زاربا
حدبت على وعري قشب وأنحيت النار حين الشب
وبذوى على الدهر كل نصير وكالشوك بديح من الخرب

حتى الدهر سرو الرياض السوي
وفد صكت كالأم لي مكرما
وما لئن وفيت ولم تعلم
طبتك لم ترعى ناشئا
وأحقاً ذلك المراج البهي
وعاندا منك أبكى دما
مويلاه من صررك الظلم
وليتك لم تنقلب شائئا
أبت شكافي لرب الأنام
برأسي مما جنت التراب
سأشكو إلى الله هذا المذاب
رأى الدهر ضعت حين الكبر
فأضف لي إنمسه واكهر



مرّة الجواب إلى التمسك
لمسدا زرد إلى الأمور
ومن لي بأوج نبوءة أنه
طمس يوم وعيش رغد
ومالي بدات بهذا الخطر
مسل عن سبيلك وبّ السبل
أحل واحد ظاهراً لا ينم
وإني في الخلق بعض السبل
وما إن أظمت سوى حشه
إلى الله يسر وعليه اتكل
فما غيره فد أدلو الفلك
كفى أبها الشيخ ما أجهلك
أعذى الشكاة شكاة البصر
لك الفضل بالعلم رؤيته
وحكمتك بين الهدى والضد
ولا الشمس ندرى بذو القمر
ووبّ الدجى والصبح والأصيل
ولا بدء في ماله أو ختام
أوجّه وجهي حيث يريد
ولا أصرف الوجه عن حكمه
وسل واضياً خير من قد سئل
وأذكر مصايحه في الخلق

الفصل الخامس في السانما :

كلب الناس بالسانما ، وأنشدوها في محافلهم ، وعاشروا أبطالها وأعجبوا

هم ؛ فانجه كثير من الشعراء إلى نظم القصص القديمة التي أغفلها الفردوسي
أو لم يصرها ، منظمو قصصاً معظماً يدور حول أبطال الشاهنامة أو ذوى قرابتهم
ولا سيما أسرة رستم التي لها السكينة الأولى في بطول الشاهنامة^(١) .

الفصل الفرعية :

ونظم الفردوسي سد الشاهنامة قصة بوسف وزليخا ، وهي قصة قرآنية أراد
الشاعر أن يكثر بنظمها عن نظمه أساطير القدماء في الشاهنامة ؛ بل أن هو هذا
في مقدمة القصة . وبقول الفردوسي إنه قد سبقه إلى نظمها شاعران : أبو لؤيد
البلخي والبشتياري .

كان نظم هذه القصة بدء سلسلة أخرى من القصص الفارسية ، هي قصص
لبست حماسية ، ولسكها غرامية أو تاريخية أو علمية وأخلاقية ، بخالها نزعات
من الزهد والنصوف ، وتغلب عليها هذه النزعات أحياناً فتدخلها في النصوص
التي يأتي حديثه من بعد .

نظم الشاعر عمق البخاري — من شعراء القرن الخامس — قصة بوسف
وزليخا أيضاً . ثم نظمها عبد الرحمن الجاني المروفي العظيم — من شعراء القرن
التاسع — ونظمها آخرون من بعد .

وقد نظم الشاعر المنصري — المتوفى سنة ٤٣٦ هـ ، وهو معاصر للفردوسي ،
وأحد كبار الشعراء الذين عاشوا في حاشية السلطان محمود الغزنوي — قصة وادق
وعذراء ، وهي قصة قديمة كتبها سهل بن هارون بالمرية . ويرى أنها نظمت
بالفارسية في عهد بني طاهر أي في القرن الثالث الهجري . ثم نظمها من بعد
فصيحى الجرجاني — من شعراء القرن الخامس — وكثير من الشعراء للتأخرين

(١) انظر للدخل إلى الترجمة العربية للشاهنامة ص ٩٢ .

في عهد السفوحين والقاجارين .

ونفسه أخرى من قسم الترام الفارسية القديمة نالها غر الدين الجرجاني — شاعر السلطان طغرل بك — في القرن الخامس ، وهي قصة و بس ورامين .
ومن القصص التي أولع بها الشعراء فتلطفوها مرات ، قصة خسرو وشيرين (كسرى برويز وحطبه شيرين) ، نالها الشاعر العظيم نظامي ونسبه شعراء .
ثم القصة العربية الخالصة ، قصة ليلى والمجنون ، نالها نظامي ، ثم الأمير خسرو الدهلوي — المتوفى سنة ٨٢٥ — أحد شعراء الفارسية في الهند ، ثم عبد الرحمن الجاني ، ثم مكشئ الشيرازي — المتوفى سنة ٨٩٥ — ، ونامي من شعراء القرن الثاني عشر .

وقد انتهت الصنعة والإحكام والدقة في هذا الضرب من القصص إلى نظامي السكندري — المتوفى في حدود سنة ٩٠٠ — ، وقد نظم منظومات خيماً ، منها أربع قصصية ، هي خسرو وشيرين ، وليلى والمجنون ، وقصة بهرام ، وقصة إسكندر . وقد كلف بعض الشعراء من بعده بأن يكونوا أصحاب « قصة » ألقاباً . ولا ينسج الخيال هنا لترجمة نماذج من هذه القصص فأكتفى بهذا الإجمال .

(ب) شعره الصوفي:

١ — التصوف ليس فلسفة محدودة المسائل ، ولا مذهباً بين العالم ، بل بمنهج المذاهبون فيه على رأي واحد في الفكر ، وجملة واحدة في العمل ، بل الصوفيون يكرهون الحدود ، وينعرون من القيود ، وقد قالوا : إن الطريق إلى الله كعدد أعس بني آدم ، يمشون أن لكل نفس طريقاً إلى الله ! ولكن مع هذا قد اجتمعت من أقوال الصوفية وأعمالهم على مر الزمان آراء وأعمال تمتد من نواعد

مدهم وبسمى الناس من روى هذه الآراء : أو يفعل هذه الأفعال « صوباً » .
وقد كثرت تعريفات التصوف والصوفي ، لأن المرفعين لم يحاولوا أخذ
المنطق الجامع ، ولكن نظر كل واحد إلى وصف مستحسن صرف التصوف به ،
أو غلب عليه حال من أحوالهم مآؤه على غيره . وقد جاء في رسالة القشيري
تعريفات منها :

قال الجنيد : التصوف هو أن يمتك الحنى عندك وبهيك به .
وقال عمرو بن عثمان للسكي : أن يكون الصمد في كل وقت عما هو أول
به في الوقت .

وقال رويم : استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد .
وقال معروف السكري : الأخذ بالخلق واليأس مما في أيدي الخلاق .
وقال الثبلي : الجلوس مع الله بلا هم .
ومن التعريفات ما ينتظر به إلى جانب العمل ، كقول أبي محمد البجلي
وقد سئل عن التصوف :

الدخول في كل خلق سقي ، والخروج من كل خلق دني .
وتقول رويم : التصوف يبقى على ثلاث حصال : التمسك بالفقر والاعتقار ،
والنطق بالذل والإبثار ، وترك التعرض والاختيار الخ .
وقال ممنون : هو ألا تغلب شيئاً ، ولا يملكك شيء .
وأرى أن العارف بتاريخ القوم وأحوال أئمتهم لا يبعد أن يعرف التصوف
تربواً بمحلا يانه فسكر وذكر وعمل يراد بها الفناء في الله تعالى .

الأولى التعبد والزهد والخوف الشديد من الجلاء ، وهذا نجد في سيرة الحسن البصري وسفيان الثوري ، وأمثالهما .

والمرحلة الثانية ذكرت فيها المعرفة والخلة ، كما نجد في أقوال معروف السكري ، وبشر الخافي ، والبري السفطلي وأمثالهم . قال الجنيد سألتني السري يوماً عن الخلة : قلت ، قال قوم الوافقة ، وقال قوم الإيثار . وقال قوم كذا وكذا . فأخذ السري جارية ذراعه ومدّها لمحمد . ثم قال : وعرفتني تعالى لو قالت إن هذه الجارية بيست على هذا المعظم من محبته لصدفت .
ومن أكثر الكلام في العروة ذو النون المصري .

والمرحلة الثالثة مرحلة الفناء التي أدت إلى القول بوحدة الوجود . ومن أوائل المتكلمين في الفناء الجنيد ، والشبلي . ومن المقلّين بها الغلوّيين على أقوالهم أبو يزيد البسطامي . وفي كتاب أقمع لأبي نصر السمرجاء صورة مما لقبه الحبيد من الفناء في تأويل أقوال أبي يزيد .

وقد اضطلعت هذه النزعات على صرائفها ، وشرحت ووصفت فيها المؤامرات ، واختلطت فيها للتأرجح والأقوال .

واقسم الناس منذ القرن الثالث إلى أهل المحو والمحافظة على أقوالهم وأصنافهم ، وأهل الشكّر الذين يقلّمون الوجود على أنفسهم .

وليس يتسع المجال لإجمال الكلام في هذا الموضوع بله تفصيله .

٣ — وإنما أردت أن أقدم هذه المقدمة قبل الكلام على شعراء الصوفية في اللغة العامية . وفي شعري تتجلى هذه المراحل الثلاث ؛ ولكن أهملتهم في الزهد والتعبد قليل ، وحديث العروة والمشق والوجد والفناء يغيب به شعري

في صُور لا تعدُّ ، بين الحقيقة والحاز ، والتصريح والكتابة ، والوصوح والحقاء . وقد كثر حديثهم عن الحبيب والوجه والطرة والعين ، والحر والكأس والساق ، ونحو هذا حتى صار لهم لغة خاصة يبرنونهم ما يبردون بها . وقد فسر كثيراً منها محمود الشاذلي في كتابه كلشن راز (حديقة السر) .

ومع هذه العاني ألوف من اللاماني النفسية والآفاقية ، هي أسمى ما أحسه الإنسان في نفسه أو أدركه في العالم مشاهدة أو مياها ، مما يتصل بمقاصد الإنسان وما يباها في سبيله إلى هذه المقاصد . والملاحة أن النفس الإنسانية مصورة في حالها وقبحها ، وميوها وإسفافها ، وحبها وبغضها ، وسعادتها وشغلها ، وفي نزعاتها العليا إلى عالمها وإلى الله مبدئها ومنتهىها .

والقصص والتشليل له من اهتمامهم بصيب كبير ، فالقصص الطويلة والقصص الصينية المستقلة ، أو التي تأتي في ثلثها القصص الكبيرة ، والتشليل والإشارة إلى القصص والحوادث ، أظهر ما يراه قارئ الشعر الصوفي .

٤ - — وبحسن — على ضيق الحال — أن أبين تصور الصوفية لوحدة الوجود ، فهي النخبة الشائعة في أناشيدهم ، والفكرة المشككة وراءها أبلغ أشعارهم .

وحدة الوجود مع بغض ما يخرج الشجر الخنافس ، والزهر المتعدد ، والعشب الثلث ؛ صور متعددة مختلفة الأشكال والألوان ووراءها هذه العكرة :

وخلاصة ما تتم عنه أشعارهم فيها أنه أبس في العالم كله إلا وجود واحد ، هو الوجود الحق المطلق ، وهو الحير الخفض والحال الخفض . وقد نحل هذا الوجود المطلق فصدر عنه العالم ؛ أراد هذا الحال أن يُعرف ، وأول صفات الحال التجلي أو كما قال الفولطين : « السكّال يقتضى الظهور » . وفي ذلك يرى

الصوفية هذا الحديث القدوس : « كنت كنزاً مخبئاً فأردت أن أعرف خلقت الخلق بهي محرموني » ، وما أكثر ما يشير شعراء الصوفية إلى هذا الحديث . وهذا العالم ليس وجوداً ، بل هو عدم ظهر كالتلويح في المرآة أو أشعة الشمس في الماء .

وي هذا يروى الصوفية أثرًا آخر : « كان الله ولا شيء معه . وهو الآن على ما عليه كان »

وقد نزل الفيض عن الله في سرائر حتى بلغ عالم المادة ، ثم ترفت المادة وصارت نباتاً ، ثم حيواناً ، ثم إنساناً كاملاً ، وهو الحلقة التي تصل العالم بالوجود المطابق سره أخرى .

الإنسان خلاصة العالم ، هو العالم الأصغر الذي انطوى فيه العالم الأكبر : وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر وهو وجدان العالم الشاهر بنفسه والله ، وهو صلة المادة أو العدم بالوجود المطلق ، فهو مركب من وجود وعدم ، من روح ومادة .

والروح من عالم الغيب ، وهي في حنين دائم إلى عالمها . وغاية الصوف في هذه الحياة أن ييسر للروح النجاة ، وأن يحاسبها من هذا النقص ، ويمررها من كل علاقة حتى تنصل بالله . والطريق إلى النجاة هذه هي الرياضات والمجاهدات التي تحرر الروح من الأهواء والشهوات ، وتطهرها من القيود ، وترجمها وجوداً مطلقاً غير محدود زمان أو مكان أو ميل أو هوى .

ولهم في هذا الطريق مراحل وأودية يتطعمها اسلاك بهدابة الرشيد حتى يبلغ غايته . فبغنى ثم يوجد في القضاء . وذلك حال وراء المعرفة والمثل يتحد فيها العاشق والمثوق .

والعشق هو النار التي تنني كل خَبْث ، وتظهر من كل دَس ، وهو أحرأ
من العقل وأقدر منه على مباشرة الأهوال والفتناتها .

يقول الطاهر : « العاشق من يضي كالنار مضطرباً سريراً ، يهرق
مئات العالم ولا يبالي طرفة عين . . . العشق نار ، والعقل دخان ، فإذا جاء
العشق ولي العقل هربا » .

وبقول جلال الدين : « العشق أن تنظر إلى السهوات ، وتمزق كل لحظة
مائة حجاب ، وأول خطواته أن نهجر الحياة » .

وبقول حافظ : « كم في الطريق إلى منزل ليس من أهوال وأخطار ،
شرط أول خطوة أن نكون المحنون »

ويقول الجاني : « العشق ينم أحياناً من وراء حجاب . فأب العاشق
لبس ، إن له في كل نفس ضمة جديدة ، وفي كل آن لحناً عجيباً . كل العالم
أصداء نغاته ، فمن ذا الذي استمع لهذا الصدى القهقري ؟ تلك أسرار بفسها العالم ،
وكيف تحفظ الأصداة أسراراً ! إن سره على لسان كل ذرة ، فاستمع أنت فما
أنا إنهم »

وبنصل بصفيتهم في الوحدة إعظامهم الخفيفة العايا التي تجاهد النفس
لمرقتها ، واحتفازهم الأشكال والصور التي يختلف بها الناس :

« لبست وحوه الأمنين وسبعين ملة إلا إلى هذه السدة ، عالم حائر وليس
فيه ضال » .

« أطلبك تاردا في السكينة ، وتارة في البر ، أعني أعلش عنك في بيت
بعد بيت » .

بل يقول بعضهم :

« إن الإعتان والكفر يُتركان في صف التمتع حين ينعقد الإنسان هذه الحضرة ، كما يمتنع المصلى عليه ، وكما خلق موسى نعليه في الوادي المقدس »

٥ — تطور الشعر الصوفي وكبار شعرائه :

في شعر الفردوسي ، وشعر المعاصرين لجمع من التصوف جاءت أثناء الموضوعات الأخرى ولا سيما القصص الدينية مثل قصة يوسف وزليخا . ولكن أحد معاصري الفردوسي قصر شعره على التصوف فلم ينظم في غيره ، فكان أول شاعر صوفي . وقد اختار هذا الشاعر للإبانة عن أفكاره ضرباً من النظم قصيراً هو الرباعيات ، فكان من أوائل الناطقين فيها ، وكانت كل رباعية تصور فكرة من أفكاره تسيروها سير الأمثال ، فتذيع الفكرة والصورة التي اختبرت لها ، أي التصوف والرباعيات .

أبو سعيد :

ذلكم الشاعر هو أبو سعيد بن أبي الخير من بلدة منها في خراسان (٣٤٧ — ٤٤٠ هـ) ، وكان معاصراً للشيخ الرئيس ابن سينا . وروى أنهما التفتا فلما اختلفا قال أبو سعيد : « هو يعرف ما أرى » ، وقال ابن سينا : « هو يرى ما أعرف » ؛ فإن بحث الرواية أولم تصح فهي إشارة إلى ما بين الصوفية والفلاسفة من فرق . الأولون يحاولون الكشف والمشاهدة ، والآخرون يعتمدون على العقل والتفكير .

وجنير أبو سعيد أول من صاغ لفكر الصوفية في الصور الشعرية التي شاعت في أقوال الصوفية من بعده .

نُعزى إليه هذه الرباعية العربية :

يا من بك حاسق وروحى بيدك عن غبرك أعرست وأقبلت عليك
مالى عمل صالح أستظهر به قد جئتك واحداً ، نوكلت عليك
ومن راعى آله القارصة ما ترجته :

يا من وجهه قر بعمى العالم ، ووصله فى كل قلب نمن دأبم ؛
وبلى إن كفت مع غبرى خبراً منك مى ، وإن كفت مع كل إنسان
مثل موبل بنى آدم

الغازى المظفر بالشهادة يصل ، لا بدرى أن العاشق منه أفضل
كيف يشبه هذا ذلك يوم القيامة ، هذا فتيل المدد وذاك بيد الصديق بفنل

« كل سیر فى طر بك جميل ، وكل نوحه إلى ذراك جميل »
« ووجهك بكل عين نراك جميل ، واسمك بكل لسان بذكرك جميل »

« حسمى ظه ألم ، وعبنى كلها دمع من أحلك ، وإنما بمانس بنهر جـ م
فى عشقك

« لم يبق منى أثر ، فما هذا العشق ؟ صرت كالى مشوفاً من العاشق لك »

« منذ أحسست فى قلبي ناراً ، حسبت النار إلى الجنة عاراً »
« ولورأيت الجنة ولم أرك ، العذوت هذه الجنة ناراً »

الأنصارى :

ثم ظهر في هراء الشبح عبد الله الأنصارى (٣٩٦ — ٤٨١ هـ) وقد كسب
 كتباً منشورة في التصوف ، منها طيفيات الصومية ، وله ديوان ومناجاة منشورة ،
 هي من أجل ما وعى الشعر الفارسي . وهذه مدحها :
 « إلهي آملي حطر ، وليس خلق طربن ، فخذ بيدي ، فإني إلا مضلت
 والتوسن .

إلهي في روضه حمارك ، وفي دونهنا أسرارك ، وعلى ألسنتنا أشعارك ،
 إذا طلبنا فأنما نطلب رسلك ، وإذا قلنا فأنما نرتل حمدك — إلهي كل إنسان
 مفلس مما ليس عنده ، وأنا مفلس مما عندي ، لا حد لفضلك ، ولا لسان
 لشكرك — إلهي ليست الجنة بدونك دار سرور ، وكيف بنهر محبتك الحربة
 والجهنم — إلهي امتنعنا عيلاً لا نرى سواك ، وهبنا قللاً لا يجتاز إلا نفواك —
 إلهي إن سألت ملبس لنا حشفه وإن وزنت ملبس لدينا سلعة ، وإن أحرنت
 لها مينا طاعة ، فمن مفلسون مُمدون ، ومن زينة الطاعة عاقلون ، وإليك أفراء
 محتاجون — إلهي أنت حاضر فإذا أطلب ، وأنت ناظر فإذا أقول ؟ — إلهي
 كل الناس يرجون أن ينظروا إليك ، وعبد الله يرجو أن ينظر إليه — إلهي لك
 الحال ، وفيبع حاسواك ، والزهاد يشغون الجنة بتقواك — إلهي ، ليل العراق
 مظلم رهيب ، ولكن القلب يوفى أن صبح الوصول قريب — إلهي أنت ألفتني
 في جحر آدم در الاصطفاء ، وأنت ثرت على مرق الحبس تراب الشقاء ، فنول
 فأدأ علما الشر لا أست ، والحق أنك الذي فقت — إلهي عندك ناي العراق ،
 فلماذا تنفي في جهنم الإحراق .

سنائي :

ثم جاء على آثار هؤلاء الشاعر الكبير الذي بعد طليعة أئمة الشعراء الصوفية ، وهو عبد الدين سنائي الفزنوي المتوفى سنة ٥٤٥ هـ . وقد خال جلال الدين الرومي ، وكان المعطار وحياً ، وكان سنائي عينية ، وجشاً على أثر سنائي والمعطار ^(١) ، فازال الناس بمجموع الثلاثة في أحاديثهم وكتاباتهم اتول جلال الدين هذا .

ولسنائي أول مستوى مطول في النصوص ، وهو كتاب تعليمي اسمه « حديقة الخفائي » نظمه سنة ٥٢٥ .

وما يختار من آراء سنائي قوله :

« رجعت عن كل ما قلت حين لم أجيد في الألفاظ معاني ، ولا المصاني ألفاظاً » ^(٢) وهو خلاصة ما بقوله الصوفية حين يحسون العجز عن الإبانة عما في أنفسهم من الوجد أو الإدراك الخفي .

ومن عجيب أقواله أبيات أحسنه يرصد أن يبين بها أن الرقي في عالم المادة أو عالم الروح بطيء جداً لا بد له من جهاد طويل وزمن مدبذ ؛ وذلك قوله :

« ألم الذين ألم عجيب ، كلما مرضت فيه كشت كالشمع صحته أن ينقطع عنه » ^(٣) .

كيف يبلغ الإنسان غايته في هذا الطريق بالقول واللسان ؟ لا بد من ألم يذيب الصبر ، ورجل مقدم .

تمضي القرون حتى يصير الطفل بلطف طبيعته عافلاً كاملاً أو فاضلاً مصححاً .

(١) معطار روى دود وسنائي وجمعهم أو ما أرى « معطار وسنائي آتدبر

(٢) باركنم زانك كمن راسك جيت درسخن معي ودر معي معي

(٣) معي أن النعمة إذا قل صوفها قطع رأسها الطول فبيلتها مرفوى مرفوها .

وتعشى السنون ليمير الحجر في حرّ الشمس املا في بدعشان أو عفيفاً
في اليمن^(١) .

وتعشى المشهور لتصير قبضة صوف من شهر شاة حرفة صوفى أو رسناً
طور^(٢) .

وتعشى الأسابع لتخرج قطعة فطن من الماء والطبن فتصير حلة طويل أو كفنأ
لشهيّد .

وتعشى الآباء في انتظار بعد انتظار ليمير الطر في جوف الصدف دوا
في عدن .

ولابد من صدف وإحلاص ، واستقامة ، وطول عمر لتخرج قرن وجلا
قريباً لاحق^(٣) .

لا تمسكن الاستقامة على طريق التوحيد بفيلتين ، «حتر إما رضا الحبيب
وإما هوّى النفس» .

ويظهر أن الشاعر أراد أن يبين أن الكمال ليس بيسراً ، ولكنه يفتضى
جهاداً وزمناً طويلاً . ويبيى ألابالى القارى بذكر الفرون والسنين والشهور
الح ، بأن حسب الشاعر أن يذكر مقادير الزمان كلها أحل بالعكس : من الإخلال .

المطار :

مهد هؤلاء الطريق للشاعر العميق القياض ، شاعر الحب الإلهي ، الذي

(١) بدعشان في زركشان معروفه باسم الأحجار النبوة كالجبل .

(٢) كفة صوفى تأتي أحياناً في كلام شعراء الصوفاة وصفاً للفضة الزاخرة عند المطاهر

معنى ذم لا مدح .

(٣) يشير إلى أوبس الثرف أحد الأولياء .

كانت أنواره تسمى « سوط السالكين » : وهو مرشد الدين السطار البساطورى
للتوفى في أوائل القرن السابع .

نظم هذا الشاعر العظيم زهاء أربع منظومة طويلة وممددة ، « مسير ما
ينداهمه » (كتاب المصاحف) ، و« منطق الطير » .

وأما الأولى منظومة أخلاقية دينية اتخذت قنائب ، وترجمت إلى العربية
والتركية .

« منطق الطير » :

وأما منطق الطير هو للكتاب الذى ضمن له طائر الصيوت والخلود ، « منظومه
فيها زهاء أربعة آلاف وسبعمائة بيت في بحر الرتل والذافية المردوجة (الشوى) ، لها
مقدمة في التمجيد والصلاة على الرسول ومدح الخلفاء الراشدين تستغرق سبعمائة
بيت ، ثم يقضى الشاعر نصته في حبس وأربعين مقالة وخاتمة » وخلاصة هذه
الفصحة الدينية .

أن الطائر احتضمت فاشاكت ما هي فيه من النرق والقوصى ، وأنها ليس
لها رئيس يجمع كلناتها على حين لا تغفل أمة من ملك .

المدهد : خبئت الدهر ، واعتزلت الناس ، وجهدت في طلب الحق ،
وصحمت سليمان ، وطومت في الأرض سهلها وحزبها ، ودانها وقاصها ، وعزمت
أن لنا ملكا ولكى تجزى عن المسير إليه وحدى . فإن تدارنا امتطاء أن
يبلغ مكانه . ملك اسمه السيمرخ ، وراى جيل اسمه ظاف ، هو مثا قريب ،
ونحن مبدون . هو في حرّم جلالة ، لا يحيط البين وصفه ، ودونه آلاف
من الحجب .

وأول المهد به أنه كان طائراً في غلقات الليل في سماء الصبح ، فسقطت

من حياحه ريشة ، فقامت قومة الأمم نعيها من ألوانها المجيبة . ألم نسمعوا
الأثر : اطلبوا العلم ولو في الصين ؟ ولولا أن ظهر نفس هذه الريشة في هذا العالم
ما ظهر طائر مكن .

(لما سمعت الطير مفال المدد حاجها الشوق إلى السبرغ وأزمنت الرحيل
إليه ، ثم ذكرت ما في الطريق من أهوال فأخذ كثير منها يمتذر) .

الطير : أنا إمام العاشقين ، أصمت القلوب وحداً بأغار هدى : مكيف
أطيق فرافى حبيبى المود ؟

البيضاء : حسى ما قاسبت . إن جمال هذا الر بش أخرى الناس إلى حسوى
مقاسبت لهم الطويل والألم للدهس ؟ على أنى لا أستطيع الطير أن تحت جداس
السبرغ .

الطاوس : كنت مع آدم في الجنة طردت منها ، وكل هوى أن أراجع إليها ،
ولست أطيق مصاحبة السبرغ .

البط : ألفت الطهارة ، ولزمت الماء ، ورعدت مياه عذ غبرى ، ولست
أستطيع مفارقة الماء والعش على التيس .

الحجل : وأنا ألفت الجمال ، وسكنت إليها ، مكيف أستطيع أن أرحها ؟
الصعوة : أتى لي أنا المنيرة السعيفة ، أن أسلك هذه السيل إلى ذلك لأفعد ؟
البارى : نعلمون مكانى من أبدى اللوك ، ولا أود أن أترك هذه السكامة .

المدد : لا آلوكن نصحا ، ولست أبهى إلا الخيرة كيف نغدو بما
ألغى وتترك هذا الطلب الخبير ؟ إني العرم والديره ومان كل صعب ،
وينزبان كل بعيد .

الطير : كيف تقطع هذه الطريق الشافة البعيدة ؟ وما الذى يصننا بهذا
اللاك العظيم ؟ (وتكثر الأسئلة) .

المدهد : ما هذا التواقي فى الطلب ، والركون إلى الدعة ، والرجل من لواء
الشذائذ ؟ زودن بكه ، هذا طُلب من ائمة العرب والنجد . وأما صلة الطير
بالسمرغ فقد تحمل كالشمس من وراء الحب فونعت على الأرض آلاف
الطلال ! ما نبت هذه الطلال أنها الطير .

إن العشق إذا صدق استعمل العشق كل صعب فى سبيله ، وانضم كل
عقبه إلى حبيبته .

(وهذا يستطرد الشاعر إلى قصة الشيخ صنعان الذى أحرجه العشق من
دينه ، وصحبه بلامبده فلم يجد النصح ، حتى أدركه ألف الله وهو قصة محبوبة
فى مائتى بيت) .

هاجت الطير شوقاً إلى السمرغ ، وأجمعت على المسير إليه ، وعلى أن يُفزع
بينها لينتول أحدها الإمارة فى الطريق ، فأصابت الفرعة المدهد . موضع التوج
على رأسه وتقدم ، واجتمعت إليه أسراب الطير فأوفى بها على طريق موحشة .
طائرة ما لهذه الطاريق مقبرة موحشة مخيفة ؟

المدهد : إن الناس تجنسوها إشتاقاً وخوفاً . أما سمعتن قصة أبي يزيد
السطاسى حين خرج إلى البرية فى ليلة مظيرة والناس نيام ، فراه جمال الليل
وتهوديه ، وهجم كهف خلعت معه البرية من السالكين . سمع عناداً يمدده .
إن لله لا يأذى لكل أحد أن يسلك طريقه ، وإن عزتنا أسدت السالكين
عن باننا .

وسارت الطير برأت طريقاً ولا غاية ، وألما ولا دواء . هناك نهب ورج

الاستثناء فيه حتى لما ظهر السماء^(١) ، هالك سحراء لا بُدَّأ فيها بطاوس العلك
مكبب طير هذه الدنيا ؟

الطير : أيها المدهد ، إنك طومت في الآفاق ، وعرفت كل شيء . فارتق
الممر ، لتسألك عما حالك في صدورنا ، فلا بد أن تنق الريبة عن قلوبنا .
(وصعد البلبل للنبير وغرغز بمص الطير تغربداً أذهل الطيور . ثم توارت
الأصائل) .

طائر : أخبرني أيها الإمام ، كيف يستقنا جميعاً ، وما هذا التفاضل
بيننا وبينك ؟

المدهد : نعت هذه الدولة . نظرة من الملك ؟ إنها دولة لا تنال بالطاعة ،
مكم أطاع إليس ! است أهون أسر الطاعة مملك بها ، ولا تفتر منها ساعة ،
واسكن لا تقدمنا نحن . أمص عرك في الطاعة حتى نصيبك نظرة من سليمان .
(نعم سئل المدهد عشرين سؤالاً أجاب عنها مسهباً مفصلاً ضارباً الأمثال !
وكان السؤال التاسع عشر والعشرون كما يأتي) .

طائر : ما المديبة اللاعبة بتلك الحضرة التي مفصد إليها ؟
المدهد : لا تحمل مملك شبتاً ، فهناك كل شيء . ليس خيراً لك من
العشنى والطاعة .

طائر : كم فرسخاً مسعة هذه الطريق ، وما الذي تلقاه فيها ؟
المدهد : أماناً مسعة أودية لا تعرف مسافاتها ، بلن أحداً لم يرجع منها
يحدث عن طولها ؛ أماناً أودية العطب ، والعشنى ، والمريه ، والاسنت ،
والقوجد ، والحيرة ، والققر ، والتناء .

(١) بتجلى شعراء الصوفية أن السماء محبة حصوعاً أو ركوعاً ، وينهبون تلك الطاوس

ويصف المدهد هذه الأودية وصفاً هائلاً مهياً حتى يبلغ الوادي السابع ،
فيقول إنه وادي الذهب ، والسم والبكر والذهول . هناك آلاف من الغلال
تجى في ضوء الشمس ؛ إذا ما ج البحر المحيط ، فكيف يبقى الفش على صفة
لله ؛ ولكن كل من ضد به في هذا البحر فهو في فناء وسلام أبداً .
وبعرب المدهد أمثالا منها :

إن الفرائش احتمت ليلة وأجمع على طلب الشمعة ، وانفزع أن يذهب معه
ليراها ويصفها ، فذهبت فراشة إلى قصر يشتت منه نور الشمعة ، فرجعت نصف
الشمعة لأحوايتها . قالت فراشة حيرة : مالك بالشمعة علم . فاستثت فراشة أخرى
حتى أنت موضع الشمعة ، فافتربت ثم افتربت ، حتى آلتها حرق النار ، فرجعت
نصف ما حرمت من أسرار الشمعة . قالت الفراشة المارة أيتها الأخت : ما هذا
إلا الذي سمعنا من قبل . فانطلقت ثالثة سكرى من الشوق رافعة ، صرعة حتى
أثقت نفسها في لحب الشمعة فأحاطت بها النار فاحترت كالهيب ثم رجعت .
فما رآها الخبير في ضوء السار ولومها ، قالت أجل : لقد حرمت هذه الشمعة ،
إعما بذرك الحبب بالقناء فيه .

ولما مرخ المدهد من مقاله جزعت الطير ، وحرمت أنها لا طائفة لها بهذا
السر ، ومات بعضها في مكانه مرقا . ثم سارت الأسراب ، فلبت مالا بوصف
من الهول ، وهلك أكثرها في الطريق ، فنها غارق في البحر ، ومسا ضال في
الغياب ، ومسا هالك صطفاً على قن الجبال ، ومسا محرق في وهج الشمس ،
ومسها ساقط إعياء ، وبعضها شغلته محاسب الطريق بوف ، وبعضها وجد
في هوى مركن إلى الدعة وآثر العافية ، وبعضها أصابته مصيبة أخرى .
- بيان الزاوية من هذه الآلاف للؤلؤة ، إلا ثلاثون طائراً (سي مرغ) .

الناية . وقد أنست على الهلاك فلما وإصبا ؛ فلماذا وجدنا هناك ؛ وجدنا مالا يدركه العقل ، ولا يناله الوصف ؛ رأين رقى الاستثناء بومض فيحرق مئآت العوالم في لحظة ؛ رأين آلاف الشموس والكواكب حائرة كالقذرات . قال بعض الطير لبعض : وأعدا على ما نخلصنا من مشاق السفر ، إن مائة ملك هنا كدثرة من الزراب ، فما وجودنا وما عدمتنا في هذه الحفرة ؟

وبقين في حسرة وحرى حتى حرج حاجب العزة ؛
الحاجب : أيها الحائرات المصنعات ! من أين حشيتن ، ولماذا أنفياكن ؟
وما استمكنن أو ماذا سمعنن ، ومن أخبركن أن فضة من الریش والمطم مثلكن
نقدر على شيء ؟

الطير : حشنا هنا ليكون السبرخ ملكتنا . وقد طال علينا الطربق ؛
كنا آلافا فأننا بنا إلا ثلاثون . حشنا من عبيد ، راجيات أن يؤذن لنا في
هذه الحفرة . حشنا لعل الملك يرضى أعمالنا فتتألف منه نظرة .

الحاجب : أيها الحائرات ! ما أنين ؟ ما وجودكن وعدمكن في حجرة الملك
المطلق الباقى ، إن مئآت العوالم لا تزن شعرة أمام هذا الباب . ألم فارحن أينها
المسكينات .

الطير : إن هواننا على هذا الباب عز ، وسدى هنا نخفى كالكهنة في
النار ، وإن نبأس من رحمة الملك .

تفرج حاجب الرحمة ، وفتح لمن الباب وتقدمن برقع مئآت من الحاجب
كل لحظة ؛ فاست التورق الأرجاء ، وبدأ عالم التجنى ، وأجلمست الطير على أرائك
القرب . ثم أعطى كل طائر ورفة ، فقرأ فيها ما قدم من عمل ، فحشى عليه
خجلا ، ثم محبت الأعمال وأقيمت فلم تذكر الطير شعبا .

ثم أصادت شمس القرب محرقة كل روح راين السيميرغ حينئذ ،
وما أعجب ما راين ! كن إذا نظرن إلى السيميرغ ، راين سى مرغ (ثلاثين طائراً)
وإذا نظرن إلى سى مرغ (الثلاثين طائراً) رأينا السيميرغ . وإذا نظرن إلى
أنفسهن والسيميرغ معاً ؛ راين السيميرغ وحده . فأخذتهن المطيرة ، وسألن ضيل
لمن : إن هذه الخضره سرآة . فمن جاءها لا يرى إلا نفسه ، جنتن سى مرغ
(ثلاثين طائراً) فرأين السيميرغ . كيف نذكرنا الأبصار ، كيف تنال الثربا عين
الجنة ؟ لبس الأسمركا رأين وعظن ، ولا كما فلن أو سمعن ؛ واسكن فد
خرجن من أنفسكن ؛ مهاذا مكانكن . فانهجن وصاع الطل في الشمس .

فلما مضى مائة آلاف من القرون — القرون التي لا رمان لها — أودعت
الطير الداعية إلى أنفسها . فلما رجعت إلى أعينها بغير أنعمها ، رجعت إلى البقاء
بعد العناء .

موتنا مجهول الدين الرومى :

استفجر الشعر الصورى ، وفاضت نظومات سنائى والمعار ومن هذا أخذوها
حتى القرن السابع ، فولد فى أوائله أكبر شعراء التصوف وفلاسفته ومعلميه
وشيوخه ، محمد بن محمد بن الحسين المكرى السلى المعروف باسم مولانا جلال
الدين الرومى .

رحل أبوه بهاء الدين من بلخ وجلال الدين فى الزاوية من عمره ، وانهى
به التطوير فى الأقطار الإسلامية إلى آسيا الصغرى (بلاد الروم) ونبأ
بها جلال الدين وعلم فيها مسمى « الرومى » . وإليه تنسب طائفة
« المولوية » الصوفية .

ولا ينسج القائل للكلام في تاريخ مولانا ، ولا في تفصيل الكلام ، في شعره ومذهبه الصوفي والفلسفي . فحسبنا هذه الكلمة :
ترك حلال الدين أنرين خالدين على الدهر : الثنوى ، والديوان .

(١) المثنوى :

منظومة صومية في بحر الرمل والقافية الزدوجة (المثنوى) ، فيها خمسة وعشرون ألف بيت وسبعائة ، في ستة أجزاء . وقد صُدِّرَ كل جزء بمقدمة مشورة منها ثلاث مقدمات صريحية .

والشاعر فيها مدبّر مختلف الأساليب ، ينقل من نصير آية أو شرح حديث إلى ضرب مثل ، وينسج ويهبط وينتقل بتلازمه من فن إلى فن ، وكل هذا موصول بل ذكر الله والعناء فيه .

والفصص شائع في ثمايا المنظومة ، وموصولاً لا يتفصل بعضها من بعض ، بل يؤدي الاستطراد من فصل إلى فصل ، وربما بدأ القصة ثم يستطرد إلى قصة أخرى ، ثم يرجع إليها الأولى على النسق المعروف في كتاب كابل ودمنة ، وبأخذ القصة القصيرة بنوسل بها إلى مقاصده فيعول بها البيان حتى نصير حوادث القصة ضئيلة حمية في البيان الذي ينفذه .

وهو موى البيان مباحض الخيال ، رائع التصوير ، بوجه المعنى الواحد في صور مختلفة ، ويسوق للمثل إثر المثل ، والمعاني تأتيه أرسالا ، والمعاني توابه اشبالا ، وهر الرمل يحربه رهواً مسترسلا حتى ينظم حول القصة الصغيرة مثلث الأمانيات ، ويصل بها ما يشاء من الآراء والنصائح والتهكم . فقصص الوحوش والأسد والأرنب التي أمسكتها من قصص كابل ودمنة ، نظم فيها زهاء خمسمائة

بيت ، وأخرج منها جدالاً طويلاً بين الأسد والوحوش في الاختبار والجهر .
وقال الشاعر مضمناً المشق الإلهي ، مستغرق به ؛ فكأن بحث بذكر به ،
وكل تذكر يؤدي إليه . فزاد يبدأ القصة التي تحبسها بعيدة كل البعد من المشق
والعناء ، فإذا هو ينضمي إلى هذه العدي ونصوص منها ، وينقله الوجد بين الحنين
والحنين ويرغمي في البحر الذي لا يعرف صاحبه أو غربته صاحباً . تلكم
بطلته أني خرجته ، وعابته حبثاً صار ، ومقصود نصره وكتابه ، وصرى
نعب وإساته :

« أما غريق المشق الذي غرق فيه عشق الأولين والآخرين ، إذا ذكرت
الشقة بأنما أريد شقة البحر (شاطئ البحر) . وإذا قلت لا بأنما مرادى إلا
(بمعنى إذا نبي جاعاً يعني الإثبات كما في لا إله إلا الله) .

هذا البهتان وهذا الفيس ، وهذه الحرفة ، وهذا الوجد ، كل هؤلاء ، نغمر
عن الإثبات عما في اسمه ؛ فبشكو هذا المعجز في الحنين بعد الحنين ، وبفح حائرأ
صانحاً : إن الذي أحسه وراء الحروف والأصوات بل وراء الأسماع والأهوام .
« ما الحرف متعكر فيه ، إنه الشوك على جدار البستان . أني أنحق القول
والحرف والصوت لأماجيك بغير هذه الثلاثة » .

وقد افتتح المتنوى مقدمة في النأي ، وهو رمز الروح التي نحن إلى عالمها
وننوح ، وقد أرمع به اللولية واستأنوا به في أذكرهم ؛
وأول الكتاب :

استبح لئنأي غنى وحكي شقه الوجد وعذراً مشكا ؛
مذ نأي العات ، وكان الوطناء ، ملأ الناس أنبي شجنا
أبن صدر من مرقا مرقا كي أثبت الوجد فيه حرفا

من قُشِرْته البوى من أصله يتنى الرضى لثنى وصله
كل ماد قد رآى مادا كل قوم تحذونى صاحدا
ظن كل أنى غير سمير ليس يدري أنى سرى فى الغدير
إلى سرى فى أنهى قد ظهير غير أن الأذن كالت والعير
إن صوت النساى نار لا هوا كل من لم يثقلها هو هواء
هى نار المشق فى النساى تنور وهى نار المشق فى الحر تنور
حدثت النساى بأهوال الطريق وعن الحنون متبا لا بعيد
أهل هذا الحس من لا حس له أرفع السمع لحدى العصلة
ضلت الأيام فى آلامنا ليس إلا النار فى أيامنا
إلى أن يقول :

ومن المشق ، وأنى يُحمل ؟ روى الطور وحف الجبل
عشق الطور أجل قد عشقا هوى إذ حر موسى صف
لو نسى من يديم فى فم قلت ، كالساي ، حديثاً أكنم
صمت الليل عن الحياه حين غلب الورد عن بستانه الخ
وتدخل الثنوى أحياناً أبيات أو أشتار عربية ، منها هذه الأبيات :
غننى فى يامنى لمن الفتور أبركى يا نلقى ، تم السرور
النسبى يا أرض دهمى قد كفى انترى يا حس ورداً قد صم
حدثت يا عيذى إلبى مرحبا لم ما روجت يا ربح العصب
(ب) الديوان :

وأما الديوان فمدحه : « جوان شمس تبريز » باسم أستاذة فى التصوف وصديقه

شمس الدين التبريزي . ولبس الديوان منظومة متعقدة البحر والقافية كالمتنوى ،
ولكنه فصائد مختلف الأوزان والقوافي متغاربة للوصوع . وهي ميمس من
العشيق والفناء ، وغيرهما من المعاني العالية في نحو سنة وأربعين ألف بيت .
وهو في معانيه وأفعاله وأساليبه أدخل في معاني الشعر وصحته من المتنوى .
جلال الدين في المتنوى أستاذ صوفي حكيم شاعر ، وفي الديوان شاعر صوفي .
(ح) مثال من آراء جلال الدين وأفعاله :

شرح جلال الدين آراءه في المسائل الدينية والصوفية والفلسفية والأخلاقية ،
وصبر عراطه وإلهاماته في المتنوى والديوان ، في أكثر من سبعين ألف بيت ،
مصدر على الباحث أن يفصل مذهبه وفي مسألة واحدة من المسائل الكبرى ،
وحسب المعروف بمذهب جلال الدين وشعره أن يعرض أمثلة محللة ومعرفة .
العالم والله :

أجلنا في أول الكلام عن الشعر الصوفي رأى الصوفية في صفة العالم
بالإنسان والله ، ومن وحدة الوجود والفناء . وجلال الدين يتحدث كثيراً عن
حال نزول فيها الانقياد ، ونهى « أنا » و « أنت » وبذكر إلى جانب هذا
تطور العالم وارتقاء من مادة إلى نبات إلى حيوان إلى إنسان إلى ملك ، إلى
الفناء في الله .

بقول في الجزء الثالث من المتنوى في قصة وكيل صدر محاربي على لسيف
العاشق الذي لا يبالى بالموت ، وهذه ترجمة نكاد نكون لفظية :

صرت ، إذ مت جادا ، آميا مت نفنا صرت حبا ساميا
مت حيوانا إذا بي بشر كيف أخشى الموت ماذا أحذر ؟

تم أغدو ميت بين البشر طائرا في ملك لا أسطر
لبس لي إلا مسير نحوه • كالشيء • هاتك إلا وجهه ^(١)
ثم أمي • والعنا كالأرغنون • مفندي : إيا إليه راجعون
وبقول في الديوان :

قد وضع أملك منذ جئت إلى الوجود سلم للنجاة ؛ كنت جادا نصرت
نبأنا ثم صرت حيوانا فكيف خفي عليك هذا ، ثم صرت إنسانا ذا عقل وعلم
وإيمان ، فانظر كيف أرمي هذا الجسم الترابي . وإذا جاوزت الإنسان صرت
— ولارب — ملكا فنترك هذه الأرض إلى السماء
جاوز المسكة كذلك ، وادخل في ذلك اليوم ، لتعير فطرك بمرأ هو
مائة بحر .

الروح :

ينفق الصوفية على أن الروح من عالم آخر امتحننت بهذا السجن الأرضي ،
وهي في حنين دائم إلى عالمها نسمع كل حين من عالمها مداء « ارجعي » ^(٢) .
بقول جلال الدين في الديوان :

« نسمع الصوت كل حين ، من شمال ويمين ، ها نحن أولاء داهيون إلى
الملك ، لقد كنا من قبل في القلق ، وكنا أصدقاء الملك ، وسنعود فذلك ديارنا .
بل نحن أعلى من الملك ، وأسمى عن الملك . فلو إذا لا نعودها . ألا إن
منزلنا السكبرياء ^(٣) ، أين عالم الغلاب من هذا الجوهري العاظم لا صعود وإن
(١) هذه آية ومنها جلال الدين كما هي في سطر ، يشكك السكاف وكسرهما
لأنه الساكين

(٢) إشارة إلى الآية : « ينها النفس الطامسة ترجعي إلى ربك »

(٣) يعني صاحب السكبرياء أي الغلبة على كماله في التمرقن : « ولها السكبرياء في الدوام والأمر »

مبطنا ، فما هذا لنا بمقام . . . جاء موج « ألت »^(١) عظم سعيبة الغناب
(البدن) وإذا حطمت السعيبة فقد حان الغناء .
الجبر والاختيار :

لبس جلال الدين من دعة الاستسلام والخضوع لأحداث ، والذبح من
معتزلة الحياة ، بل يدعو إلى العمل الدائم ، والجهاد المستمر ، ويعلم الإنسان أنه
حر^٢ وضع على هذه الأرض ليكد^٣ ويكدح .
ومن نماذج كلامه في الجبر والاختيار محورة بين الأسد والوحوش في قصة
أخذها من كتاب كاتبة ودمعة .

الوحوش : أي شيء . خبر من التسليم ؟ كبر من البلاء إلى البلاء ، وكبر هارب
من التعبان إلى التئبين ، وكبر احتال الإنسان فكانت حيلته شرّكة ، وأقلل الآباء
والندوة في الدار . وكذلك كانت حيلة مرعون : قتل آلاف الأعداء ، والقى
بمخشاه في داره . إن أبصارنا كلبلة بنفى أن تقف في بصر الحبيب . يتم العوض من
أبصارنا بصره . إن في بصره كل ماسي . ألا ترى العنبل يحمل على عنق أبيه ،
بإذا اعتد على رجله وكل إلى صه مرفوع في السكيد والعناء . وكذلك كانت
أرواح الخلق فيسل أن تخلق الأيدي والأرجل ، طائرة في صدا . فلما أمرت
بالمبوط لبثت في سجن من الحرص والقم . نحن أطهال رضع وقد قبل : الخلق عيال
أفقه . والذي ينزل المطر من السماء قادر على أن يعطي الخمر والماء .

الأسد : نعم ولستكن رب العباد . صبأ أماننا سدا . فملينا أن يصعد فيه
درجة مد درجة ؟ ما الجربة إلا غفلة . إن لك رجلين فكيف تحمل نفسك زمنا

(١) إشارة إلى الآية : « وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قلنا بلى » يوم ألست عند الصوفية هو يوم « هذا الأول من هذا والآخر »

وإن لك يدين فكيف نجدهما ، إذا أعلی السبد عبده فأما فقد أعلنه ما يريد
بغير قول . ألبست البد كالنأس ؟

فأهم إشارته فإنها عباراته ... إن السعى شكر نصه ، والجبرية كفرها ،
الجبرية روم في الطريق ، نوم بين تضاع الطرق . كيف يأمن الطائر إذا عطل
جناحيه ؟ إن أردت التوكل فاعمل . ازرع ثم اكمل على الخلاق ... الخ .
وبتوى الحوار مما يريد جلال الدين من فلتج المحتج للاختيار ، ودحض
حجة الداعين إلى التسليم .

والحياة في رأى جلال الدين حماد دائم ؛ يقول في المتنوى ، في قصة الفاجر
والبهلاء من الجزء الأول :

« الطريق بمنهد ، ويرى بده إلى كل عتبة يبنى النجاة ؛ والحبيب (الله)
يحب هذا الاضطراب ، وإن الاجتهاد سدى خير من النوم . الملك نفسه ليس
فارعا من المل ؛ ألم بقل الرحمن ، كل يوم هو في شان ؟ » .

ويقضى ألا يفسد الإنسان عن السعى ما يلقى من آلام وأحزان ؛ فالألم
وسيلة الفذة ، بل الألم واللذة كلاهما محبوب .

« كيف يصحك للرج إن لم يبك للعر ؟ وهل ينال العادل الابن بغير
بكاء ؟ » .

العناء أجدى والسكد أنفع ، ورجل الطريق أو رجل الله يلقى الخير والشر
واللذة والألم راضيا مُفديا ، موقنا أنه بكل الآلام حتى يبلغ غايته . يقول
في المتنوى :

« إن مكروهه محبوب في نفسى ، وروحى هدى الحبيب للذّب فلى ؛ أنا
أعشق نصى وألئى في رضاء ... إن الدموع لئى تملأها العين درو بحسبها

الناس ماء... إني عاشقُ نهره ولطفه ، فأعجب لعاشقِ الصديقين ! أقسم أني جاوزت هذا الشوك إلى البستان لأنوحن نواح البلبل ؛ فأعجب لبلبل بنغمه لهباً لكل الشوك والورد معا ! أي بلبل هو ! إنه شين ناري يحبب العشق إليه كل مكروه .

بل يرى جلال الدين أن أنين الأرواح المجاهدة مناجاة دائمة ورفق مستمر ؛ « منه كل حين مائة صرخة ، ومن الله مائة رسالة . منه يارب مرء ، ومن الله سبعون لبيبك . وله كل لغة معراج ، ولرأسه مائة نازح ؛ صورته على الأرض وروحه في لا مكان » .

تلك قطرة من بحر جلال الدين ، وشرارة من باره ، وشعاع من نوره . وما زال الأرواح الكبيرة تفتضى بحكمة جلال الدين ، وتقبس من ناره في البلاد التي عثبت بحرفة مذهبه وقراءة شعره .

ضروب الشعر العربي

نظم القوس في الموضوعات المعروفة في الأدب العربي : المدح والمجاء والفزل والزنا والوصف ، ولا سيما وصف الرياض والمياه ، وفي الأخلاق والحكم وليس أجد حاجة إلى الكلام في هذه الأنسب ، ووصف سبهم بها معنى في جعلها صوراً مما في الشعر العربي — لا سيما الشعر العربي الفصيح للشعر العباسي ، شعر القرن الرابع وما بعده — مع حساب ما في شعراء القوس من نزوع إلى الإكثار والتلفؤ .

ولسكن الشعر الأخلاقى جذير أن يخصص بكلمة بعد هذا الإجمال : شعر الأخلاق والحكم يأتي كثيراً في ثنايا فصائد المدح والزنا كما نهد في

الشعر العربي . ويتخلل المنظومات المطولة في الفارسية ، مثل منظومات نظامي والجامي ، ولاسيما منظومات التصوف كحديثه « الحقائق » ، ومثنوي جلال الدين ومنظومات ناصر خسرو ؛ ولكن شاعراً فارسياً عظيماً يستحق أن يذكر وحده في هذا الضرب من الشعر ، شعر الأخلاق والتهديب ، وهو :

الشيخ سعدى الشيرازي المتوفى سنة ٩٩١ .

سلك سعدى في الأدب طرائق مختلفة حتى المزل ؛ فقد نظم فيه ، على تنويع دورعه ، وله فيه قطع سماها « الغبيطات » . وله « غزليات » سماها الطيبات ، بز فيها كبار الشعراء حتى عدّ من أجلها أحد أنبياء الشعر الثلاثة ، في أبيات مأثورة بين الأدباء ؛ ومم البردوسي في النقص ، والأخوي في التصائد ، والسعدى في الغزل .

ثم امتاز سعدى بالتصليم الأخلاقي ، بتجلى في شعره الدعوة إلى الرحمة والبر والعدل ، والانعاط بغير الزمان ، وغيرة الدهر .

ملوف الشيخ في الأمطار زهاء ثلاثين سنة . ذهب إلى بلاد الهند والأفغان والفرج ، وإلى الحجاز والشام ، وآسيا الصغرى ، ويقال إنه ذهب إلى إفريقيا الشمالية : مصر وغيرها .

وكان يسافر في زى الدراويش ، ويخالط الناس جميعاً قراءهم وأغنياءهم ، وعفاهم وجهالهم ، وخيارهم وأشرارهم . نراه في قصص السكستان والبستان تارة حاجباً يتبع إحدى القوافل ماشياً ، وتارة مطلقاً في كشفر ، وتارة أسيراً في أيدي الفرنج في الشام ، وأخرى في مصيد من معابد الهند ، وحيناً معتكفاً في جامع بني أمية ، وحيناً واعظاً في مسجد بعلبك .

وقد شهد الكوارث الكبرى التي أصابت البلاد الإسلامية على أيدي التتار

ورنى بئدد . ثم اوى إلى بلد شيراز ، وقد بقيت في معزل من طوفان الحوادث
بالصح بين أسرائها والنتار . وهناك خلا بنفسه وبتجارب الأقطار الشامة ،
والسنين الكثيرة ، ووضع زبدة معارفه وتجارب وصوره أحلافه وعواطفه ،
في كتابيه البستان والسكسنان .

والأول مضموم كله في البحر للتقارب والغاية للزوجة (الثنوى) ، وبه
زهاء ألقى بيت نظمها سنة ٦٥٥ وضمنها عشرة أبواب :

العدل والإنصاف واللك — الإحسان — الصنق — التواضع —
الرضا — القناعة — القرية — الشكر على العانية — العوة — المناجاة .

والكتاب الثاني منشور تتخلله أبيات ونطلع في ثمانية أبواب
والبستان كله دعوة سالصة للحاق الجبل ، ولا سيما الرحمة والإحسان
والإيثار ، وهو في هذا إنساني يشفق على الناس جميعا لا يخص قبلا دون فبيل .
وكان أبياته هذه كانت شعاره في كلامه كله :

بنو آدم حسد واحد إلى عنصر واحد عائد^(١)
إذا من هضوا أليم المقام سائر أعضائه لا تنام
إذا أنت للناس لم نألم فكيف تسيت بالآوى ؟
وهذه أمثلة من حكايات البستان القيصرية :

- ٩ -

سمع أحد كبراء المراق مسكينا تحت قصره يقول : أسف القاكين على

(١) هذه ترجمة أبياته السائرة :

بن آدم أعضاء يكبد بكبد
چو عضوی ببرد آورد ووزکار
که در کزین نیک گوهرند
دگر مضوعلوا نعا ند قرار
نوکری عمت دیکران بی می
نناید که نامت نهی آدمی

الأبواب ، فإنك مثلهم قائم على باب ، حنص هذه القلوب من أوجاعها بخلص قلبك من أوجاعه . إن اضطراب قلوب المتظلمين يشل عروش السالكين . أنت تَقِيلُ في حرمك سعيداً ، والغريب يذوب في المهجر وحيداً ، من لم يستطع أن ينال من الملك عدله ، فقد كفل الله أن يأخذ له حقه .

— ٢ —

سمعت أن جشيد السعيد ، كتب بحجر على رأس بذوخ : كم مره أشتاقنا على هذه العين ، ثم دهوا في لحه عين . قد ملكنا العالم بالشجاعة اغتصابها ، ولكن لم تأخذه معنا إلى القبر . إن ظفرت بدوك فلا تنظم منه ! حسب ما نزل به ، لأن بعيش عدوك أمانك صعيماً ، حيرك من أن نبوء بدمه فخيلاً .

— ٣ —

شَبَّتُ النار ليلته من آهات الخلق ، فأحرقت صف سدود ، فقال أحد الناس ، في هذا الدخان والتهب : الحمد لله لم يصب دكاننا شر . قال شيخ محرب : أنت لا نبالي بنور نفسك أبداً الأحمق ، ولا يهملك أن تحترق مذبذبة إذا لم يحترق بيتك . لا بشبع — وقد ربط الجاهلون على بطونهم الأحجار — إلا من استجبر قلبه . كيف بهنا النقى بلقمة وهو يرى القفر يقتات دموعه ؟ وكيف يصح من يرى مريضاً يتلوى من الآلام ؟ إن ذا القلب الرحيم لا ينام إذا بلغ المنزل حق بلحنه بل للثقلون في الطريق ، وإن قلوب الملوك ليهبطها ألم حين ترى حماراً سقط بحمله في الطريق . حسب أهل السادة كلمة واحدة من مفاصل سعدى . وحسبك أن تعرف أنك إذا زرعت الشوك لا تحصى الياحين .

حاكي كثير من الشعراء بيتان مسعدي : كنب نزارى القومى (للنوفى سنة ٧٢٠) دستورنامه ، وكتب كاتبي (للنوفى ٨٣٨) ده باب (عشرة أبواب) وكتب هراتى (للنوفى سنة ٩٦١) كلزار .

النثر

لا يَرْمِجُ القارىء أن يجد وراء هذا العنوان مصلا في النثر الفارسي مطولا كالقفل الذى تناول الشعر ؛ فليس في النثر الفارسي ما يستحق الإحالة والتعميل في مثل هذا الفصل الذى عقدناه للأدب الفارسي كله .

سمعت شاعراً تركياً كبيراً يجيد اللغة الفارسية يقول لبس لفارس أثر . فعجبت من قوله ، وما زلت أفكر به كلما صنعت الفرصة . وقد سألت به العلامة محمد بن عبد الوهاب القزويني في باريس سنة ١٣٥٦ هـ (١٩٣٨ م) ، فذكر فأبلى ثم قال : ما فكرت في هذا الأمر . أو قال قريباً من هذا .

ولا ريب أن لفارس ثراً كثيراً جداً ، ولكن شر الفرس لا يقاس من حيث مكانته في تاريخ الأدب ، ونصيره حضارة الأمة ، والإبانة عن آراء الكبار من أديانها ومفكراتها — لا يقاس في شيء من هذا بالشعر الفارسي ، فقد كانت الأمة أقرب بمراحلها وخيالاتها إلى الشعر ، فأطاعت فيه وتعنتت حتى غيّبت به عن النثر أو كادت ، فبناها تاريخ منظوم ، وفنص منظوم ، ومنظومات طويلة في موضوعات شتى .

ثم النثر الفارسي لا يقاس بالنثر العربي صورة أو معنى ، وإن حاكاه في كثير من الموضوعات والأساليب .

في النثر الفارسي تاريخ ورسائل ومقامات . ومن التاريخ الرحلات والزيارات :

١ — أما التاريخ فأوسع جوانب النثر الفارسي ؛ حوت الفارسية — منذ

ترجم تاريخ الطبرى من العربية أيام الدولة السامانية إلى هذا العصر — كتباً كثيرة في التاريخ العام والتاريخ الخاص . وأعظمها ما كتب في عهد الناصر

الأبغثانيين الذين تسطوا على إيران بين سنة ٦٥٤ و ٧٤٤ وهي :

١ — تاريخ جم. سكشاه (أى تاريخ فاتح العالم وهو حنكيزخان) أتمه
علاء ملك الجوزى سنة ٦٥٨ هـ

٢ — وجامع التواريخ (رشيد الدين المتوفى سنة ٧١٨ هـ ، وهو فسيح : فى
تأليفه القول ، والتاريخ العام . وهو من أجمع الكتب وأسمها . استعان مؤلفه
بجماعة من أمم مختلفة ليأخذ الأخبار من مصادرها ، وأكمله فى أوائل القرن
الثامن الهجرى . وله نسخة عربية معروفة .

٣ — تاريخ وصاف لمد الله الشيرازى الملقب « وصاف الحضرة » وهو
نكته التاريخ حاككشا ، مرغ من تأليفه سنة ٧١١ هـ . وقدمه للسلطان ألباينور
(٧٠٣ — ٧١٦) . وهو تاريخ عنى فيه المؤلف كل المتألف بالصناعة اللغوية ،
مسلان بدعة سبقة فى أسلوب التاريخ من بعد . وقد صمما : « تحفة الأعيان »
وزخبة الأعصار » ، وهذه التسمية مثال من صناعته اللغوية .

٤ — تاريخ كزنده ، أى التاريخ المختار لمد الله القزوينى المعروف
بالمسنوف ، أتمه سنة ٧٣٠ هـ ، وقدمه للوزر غياث الدين بن رشيد الدين . وألف
جامع التواريخ

وقد كتب فى التاريخ من بعد كتب كثيرة من أعظمها :

روضة الصفا فى سيرة الأنبياء واللوكة والخلفاء المير حواند ، المتوفى سنة ٩٠٣ هـ ،
كتبه لإشارة الأمير الشاعر الصالح مير عليشير جوفى ، وهو تاريخ عام لمصور
الجاهلية والإسلام إلى عصر المؤلف .

وكتاب حبيب السيرة فى أخبار أفراد البشر ، لفيث الدين ابن مؤلف

الكتاب السابق ، تلخه من كتاب أبيه في عهد الشاه اسماعيل الصفوى ،
وأتمه سنة ٩٢٧ .

ونكته كذلك توارىح الأعالي ، مثل تاريح طرستان ، واصمهان وشيراز
وغم ، وبزد ، ونشتر الخ .

٢ — ومن كتب التراجم تذكرة الأولياء للشاعر الصفوى مرید الدین
الطراز من شعراء القرن السابع ، وتضمنت الأنس للشيخ عبد الرحمن الجلمى من
شعراء القرن التاسع . وهما فى تراجم الصفوية . ومن تراجم الشعراء لباب الألباب
لمحمد عوفى الذى ذكرناه فى مقدمة الفصل ، وهو أقدم كتاب فارسى فى تراجم
الشعراء . وهدى العلماء والأدباء من بعد بكتابه تراجم أو « نذاکر » كما يسميها
مؤلفو الفرس ، فأخرجوا تراجم لطيفات مختلفة مثل تذكرة الشعراء لهدوات شاه
أتمه سنة ٨٩٢ هـ وأشكده الطيف على ، وتذكرة الشعراء لسام ميرزا ابن الشاه
إسماعيل الصفوى ومن أحدثها غزن الثرائب المؤلف فى القرن الثالث عشر الهجرى ،
وهو يحتوى على نحو ثلاثة آلاف ترجمة ، ومعجم الفصحاء ، ورياض العارفين
لرضا قلى خان مؤدب مظفر الدین شاه أحد الملوك القاجاريين .

٣ — وأذيعُ المقامات عند الفرس مقامات القاضى حيد الدین اللغوى سنة
٥٥٩ هـ ، وهى ثلاث وعشرون مقالة حاكى فيها مقامات الحريري .

٤ — ومن القصص النثور ترجمة كلية ودمتة لتعمر الله من د. الحلي فى
القرن الخامس ، وترجمه حسين بن على التواضع الكاشفى التى سماها « أحوار
سبلى » فى القرن التاسع .

ومن القصص الصغيرة التى يُعنى فيها بالبلاغة وللوعظة أكثر من القصص
كتاب كلستان للشيخ سدى ، وبهارستان للجلمى

ولا ننس هذه الحكايات القصيرة في الموضوعات المختلفة التي فاض بها
الأدب الفارسي .

وقد جمعت في كتب منها « جامع الحكايات ولامع الروايات » ، لجمال الدين
الموفي . وقد ترجمه ابن عربشاه إلى التركية بأمر السلطان مراد الثاني العثماني .



هذه نظرة عاجلة جامعة في الأدب الفارسي أرجو أن نكون معرفة بهذا
الأدب بعض التعريف ، كما أرجو أن يتلوه أبحاث واسعة في هذا الأدب الواسع
إن شاء الله .

تم الجزء الأول من قصة الأدب في العالم
ويتلوه الجزء الثاني في عصر النهضة